تاريخ العربية السعودية

بين القديم والحديث

الطبعة الثانية

صدر للمؤلفة عن دار الساقي

السياسة في واحة عربية

مضاوي الرشيد

ترجمة

عبد الإله النعيمي

دار الساقي

في ذكرى عبطا وابنتيها جواهر ووطفاء

كرونولوجيا

١٥١٧	إقامة السلطة العثمانية في الحجاز
١٥٥٠	إقامة السلطة العثمانية في الأحساء
١٦٧٠	بنو خالد يثورون ضد العثمانيين في الأحساء
١٧٤٤	محمد بن عبد الوهاب يصل إلى الدرعية
١٧٩٢	الإمارة السعودية ـ الوهابية تتوسع في جنوب نجد
١٧٨٠	الإمارة السعودية ـ الوهابية تتوسع في القصيم
١٧٩٧	قطر والبحرين تعترفان بالسلطة السعودية
١٨٠١	القوات السعودية ـ الوهابية تغير على كربلاء في العراق
١٨٠٢	الإمارة السعودية ـ الوهابية تتوسع في الحجاز
١٨٠٣	المدينة تعترف بالسلطة السعودية
١٨١١	إنزال القوات المصرية في ينبع
١٨١٨	القوات المصرية تنهب الدرعية
١٨٢٤	تركي بن عبد الله يعيد بسط السيطرة السعودية في الرياض
١٨٣٠	الحكم السعودي يتوسع في الأحساء
١٨٣٤	اغتيال تركي بن عبد الله على يد ابن عمه مشاري فيصل نجل تركي يصبح أميراً في الرياض

١٨٣٦	آل رشيد يقيمون حكمهم في حائل
١٨٣٨	القوات المصرية تأسر الحاكم السعودي فيصل وترسله إلى القاهرة عودة فيصل إلى الرياض
١٨٦٥	وفاة فيصل عبد الله نجل فيصل يحكم في الرياض
١٨٧١	العثمانيون يحتلون الأحساء العثمانيون يحتلون عسير
١٨٩١	آل رشيد ينهون الحكم السعودي في الرياض
١٨٩٢	السعوديون يلجأون إلى الكويت
١٩٠٢	ابن سعود يستولي على الرياض علماء الرياض يبايعون ابن سعود
١٩٠٣	ابن سعود يخلع على نفسه لقب «سلطان نجد»
١٩٠٤	أبها في عسير تقع تحت سلطة ابن سعود
١٩٠٥	ابن سعود يقهر القصيم
١٩٠٨	ابن سعود يواجه تحدي أقربائه العرائف العثمانيون يعينون حسين بن علي شريف مكة
١٩١٢	ابن سعود يقيم أول مستوطنة لـ «الأخوان»، هي مستوطنة أرطاوية لقبيلر مطير
١٩١٣	ابن سعود يقيم مستوطنة الغطغط لقبيلة عتيبة

	ابن سعود يقهر الأحساء
١٩١٥	بريطانيا تعترف بابن سعود حاكماً على نجد والأحساء
١٩١٦	الشريف حسين يعلن نفسه ملك العرب
١٩٢٤	الطائف في الحجاز تقع تحت سيطرة ابن سعود الشريف علي يخلف والده الشريف حسين في الحجاز
١٩٢٥	جدة تستسلم لابن سعود
١٩٢٦	ابن سعود يعلن نفسه «ملك الحجاز وسلطان نجد»
١٩٢٧	«الأخوان» يتمردون على ابن سعود
١٩٢٨	ابن سعود يجتمع مع علماء الرياض لحل أزمة «الأخوان»
١٩٢٩	ابن سعود يهزم تمرد «الأخوان»
١٩٣٢	ابن سعود يعلن دائرة سلطته: «المملكة العربية السعودية»
١٩٣٣	ابن سعود يوقع الامتياز النفطي
١٩٣٩	أول ناقلة نفط تغادر رأس تنورة محملة بالنفط السعودي
١٩٤٥	ابن سعود يلتقي الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت ابن سعود يلتقي رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرتشل
١٩٤٦	ابن سعود يزور القاهرة
١٩٥٣	تشكيل مجلس الوزراء وفاة ابن سعود، وابنه سعود يصبح ملكاً

	عمال آرامكو السعوديون ينظمون أول تظاهرة
١٩٥٥	اكتشاف مؤامرة انقلابية من تدبير ضباط عسكريين
١٩٥٦	عمال آرامكو السعوديون يتظاهرون في المنطقة الشرقية
١٩٦١	الأمير طلال بن عبد العزيز يشكل حركة «الأمراء الأحرار»
١٩٦٤	تنازل سعود عن العرش وفيصل يصبح ملكاً
١٩٦٩	وفاة سعود في اليونان
١٩٧٣	ارتفاع أسعار النفط نتيجة المقاطعة النفطية
١٩٧٥	اغتيال الملك فيصل على يد ابن أخيه الأمير فيصل بن مساعد خالد يصبح ملكاً
١٩٧٩	حصار مسجد مكة
١٩٨٠	الشيعة يتحركون في المنطقة الشرقية
١٩٨١	تأسيس مجلس التعاون الخليجي
١٩٨٢	وفاة الملك خالد ، وفهد يصبح ملكاً
١٩٨٦	هبوط أسعار النفط إلى أدنى مستوياتها منذ السبعينيات الملك فهد يعلن نفسه «خادم الحرمين»
١٩٩٠	صدام حسين يغزو الكويت نساء سعوديات يتحدين منع المرأة من قيادة السيارة في الرياض
١٩٩١	اندلاع حرب الخليج

	توجيه المذكرة الليبرالية إلى الملك فهد توجيه المذكرة الإسلامية إلى الملك فهد
١٩٩٢	تشكيل مجلس الشورى من ستين عضواً الإسلاميون السعوديون ينشرون «مذكرة النصيحة» الملك فهد يعلن سلسلة من الإصلاحات
١٩٩٣	تشكيل «لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية في العربية السعودية» في الرياض
١٩٩٦	تفجيرات إرهابية في أبراج الخبر تفجيرات إرهابية في مقر البعثة العسكرية الأميركية في العلية، الرياض زيادة عدد أعضاء مجلس الشورى إلى تسعين عضواً
١٩٩٩	العربية السعودية تبدأ احتفالات الذكرى المئوية
٢٠٠٠	أسعار النفط تزيد على ٣٠ دولاراً للبرميل سعوديان يخطفان طائرة تابعة للخطوط الجوية السعودية أثناء رحلة من جدة إلى لندن؛ الخاطفان يستسلمان في بغداد

المقدمة

السرد السائد في تاريخ العربية السعودية في القرن العشرين هو السرد المتعلق بتكوين الدولة؛ تلك العملية التي بدأت في عمق الجزيرة العربية بقيادة آل سعود. وفي حين أن هذه القيادة لم تكن جديدة (كانت ظاهرة في تاريخ الجزيرة العربية إبان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر)، فإن الدولة الحديثة التي نشأت في عام ١٩٣٢ تميزت بإقامة مملكة وطيدة وراسخة ضمت بنجاح الحجاز وعسير والإحساء بالإضافة إلى منطقة نجد الوسطى. وأخضعت الدولة أقواماً مختلفة وأراضي شاسعة لسلطتها نتيجة حملة مديدة من الغزو.

كان المسار الذي اتخذته الدولة الجديدة في أيامها الأولى شبيهاً بدورة معهودة في المنطقة. فمنذ القرن الثامن عشر حاول عدة حكام محليين طموحين (من آل سعود وغيرهم) توسيع سلطانهم إلى الأراضي المجاورة، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل لأسباب مختلفة. وأقام آل سعود وحكام محليون آخرون كيانات سياسية لكنها زالت بعد فترة قصيرة من بلوغها مستوى عالياً من التوسع. وإزاء هذه الخلفية التاريخية، كثيراً ما تعتبر الدولة التي قامت في عام ١٩٣٢ قصة من قصص النجاح. والشخصية الأسطورية المجسدة في عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود (ابن سعود من الآن فلاحقاً)، مؤسس المملكة العربية السعودية، هي السائدة في هذه القصة. والحقيقة الماثلة في أن دولته لم تختف، كما اختفت إمارات كثيرة قبلها، أسبغت مصداقية مضافة على القصة. هذا الكتاب محاولة لاستطلاع الاستمراريات والانقطاعات في التاريخ الاجتماعي والسياسي والسعودي.

في القرن التاسع عشر بُذلت محاولات عدة لإخضاع مزيد من الجزيرة العربية للحكم العثماني المباشر. وكان الهدف من الغزو العثماني ـ المصري للجزيرة العربية في عام ١٨١٨ والاحتلال العثماني للأحساء وعسير في عام ١٨٧١، بسط السيطرة العثمانية المباشرة على الجزيرة العربية. ولكن مناطق واسعة بقيت من دون والٍ عثماني. ونال عدة أمراء محليين في العمق اعترافاً بوصفهم «يحكمون باسم السلطان»، وأحياناً كانت تُرسَل اليهم أموال دعم وهدايا لتعزيز التحالف وتأمين الولاء. وكان العثمانيون يتوقعون من الحكام المحليين أن يلجموا أتباعهم عن مهاجمة قوافل الحج والحاميات العثمانية المتمركزة في مناطق حيوية مثل الحجاز والأحساء.

استمر هذا الوضع حتى هزيمة الإمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى. وفي حين أن الشريف حسين في الحجاز وقف بنشاط إلى جانب بريطانيا ضد العثمانيين، فإن حكاماً نافذين آخرين قرروا الابتعاد عن حرب لم تؤثر في إماراتهم تأثيراً مباشراً. وأعلن ابن رشيد في حائل ولاءه للسلطان العثماني من دون أن يسهم بأي دعم عسكري جدي، بينما اتخذ ابن سعود في الرياض جانب البريطانيين من دون أن ينخرط انخراطاً مباشراً في الحرب ضد العثمانيين.

إزاء ذلك، ماذا كان مآل الجزيرة العربية بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى؟

عندما تقاسمت فرنسا وبريطانيا الأقاليم العثمانية بموجب نظام الانتداب، وَقَعَت الجزيرة العربية ضمن دائرة النفوذ البريطاني. ولكن الجزيرة العربية لم تصبح مستعمرة شبيهة بالمستعمرات الأخرى في الإمبراطورية البريطانية. وأقامت بريطانيا خلال الحرب علاقات وثيقة مع قوتين محليتين كبريين هما الشريف حسين وابن سعود، ولكنها أخفقت في التوفيق بين دعاواهما بحكم الجزيرة العربية بعد الحرب. وعملت سياسات بريطانيا المتناقضة ووعودها فضلاً عن دعمها المالي، على تقوية الحاكمين معاً. وباتت الفكرة القائلة بإمكانية توحيد الجزيرة العربية واقعية أكثر بعدما خلت الحلبة إلا من متنافسين قويين، أحدهما في الحجاز والآخر في نجد. وجرت التضحية بعرش الشريف حسين لصالح ابن سعود الذي استولى على الحجاز في عام ١٩٢٥ خالعاً الأسرة الشريفية في العملية. وفي عام ١٩٣٢، أعلن ابن سعود نفسه ملكاً، ودائرة سلطانه المملكة العربية السعودية.

أدى ضم نجد، اسمياً، إلى الإمبراطورية العثمانية وحقيقة أنها لم تصبح مستعمرة مثل بلدان عربية أخرى، بالعديد من الباحثين إلى التعليق على تاريخها الفريد. وكثيراً ما تُعتبر دولتها الحديثة تكويناً محلياً انبثق بدفع من الجهود الفريدة لمؤسسها ابن سعود. وفي حين أن العربية السعودية لم ترث إدارة استعمارية أو نخبة قومية مماثلة للنخب التي نشأت في أماكن أخرى من العالم العربي، فإن المرء يجب ألا يبالغ بتاريخها الفريد، ذلك أن بريطانيا لم تحول العربية السعودية إلى مستعمرة، ولكن النفوذ البريطاني خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين كان بالغ الأهمية. ويصعب تخيل نجاح ابن سعود في قهر المنطقة تلو الأخرى من دون دعم بريطاني. وكانت الإمبراطورية العثمانية التي اعتراها الضعف سلمت بقهره الأحساء في

عام ١٩١٣ . وإذ عجز العثمانيون عن إعادة الوضع إلى سابق عهده اعترفوا بابن سعود حاكماً في واقع الأمر لمنطقة نجد . وأقرت بريطانيا بذلك لاحقاً في عام ١٩١٥ عندما اعترفت بأن «نجد والأحساء والقطيف وجبيل وتوابعها هي مناطق ابن سعود» . وعلى الغرار نفسه لم يكن قهره الإمارة الرشيدية ممكناً إلا بتسليح وتمويل سخي من بريطانيا . وحدث تمدده في الحجاز في وقت أخذت بريطانيا تضيق ذرعاً بمطالب الشريف حسين التي بدا أنها تشكل تهديداً للمصالح البريطانية . وكانت بريطانيا أكثر من سعيدة برؤية الشريف حسين مبعداً عن الحجاز مع تنصيب ولديه فيصل وعبد الله على عرشي مملكتين حديثتي التأسيس في شرق الأردن والعراق . وطيلة العشرينيات والثلاثينيات ظلت بريطانيا اللاعب الخارجي الرئيسي وراء تكوين الدولة السعودية . وفي حين أفلتت العربية السعودية من بعض تمزقات الحكم الاستعماري المباشر ، فإن تكوين الدولة وتوحيد الجزيرة العربية تحت لواء سعودي يجب أن يفهما في سياق التدخل البريطاني في الشرق الأوسط . فالنفوذ البريطاني لم يتراجع إلا بعد الحرب العالمية الثانية عندما شرعت الولايات المتحدة الاميركية تضطلع بدور أكبر .

لكن القول بأن الدولة السعودية التي نشأت عام ١٩٣٢ كانت «صناعة» بريطانية يُغفل جانباً هاماً من الدينامية الداخلية التي شكلت الدولة وأدت إلى توطدها . إذ لعل بريطانيا كانت قوة أساسية وراء تكوين الدولة ، بيد أن ظهور الدولة السعودية وتوطدها كانا نتيجة عملية معقدة لا يمكن أن تنسب إلى أي عامل خارجي أوحد .

شهد القرن العشرون انبثاق دولة فرضت على الناس بلا ذاكرة تاريخية من الوحدة أو الإرث الوطني الذي يبرر ضمهم في كيان واحد . وباستثناء وجود أقلية شيعية كبيرة في الأحساء ، فإن غالبية السعوديين هم من المسلمين السنة . ولكن السكان كانوا منقسمين بفعل اختلافات إقليمية وقبلية تعمل ضد الوحدة الوطنية أو التوحيد . وكانت العربية السعودية تشترك في هذه السمة الهامة مع عدة بلدان عربية نشأت خلال الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين . وفي حين أن حدود العديد من الدول العربية رُسمت بموجب سياسات فرنسية وبريطانية ، فإن «توحيد» المناطق الأربع التي تألفت منها العربية السعودية (نجد والأحساء والحجاز وعسير) كان نتيجة قهرها على يد قيادة محلية بتشجيع من قوة استعمارية .

كان توحيد الجزيرة العربية بقيادة ابن سعود عملية دامت نحو ثلاثين عاماً . وخلال الفترة الواقعة بين ١٩٠٢ و١٩٣٢ هزم ابن سعود منافسين عديدين حتى بلغ ملكه الحدود المقبولة

لبريطانيا. وحيث كانت فرنسا هي القوة الاستعمارية قامت جمهوريات. ولكن في العربية السعودية أُنشئت مملكة، كما في مناطق من العالم العربي كانت بريطانيا صاحبة النفوذ فيها، وهي شرق الأردن والعراق.

بيد أن العربية السعودية تختلف عن البلدان العربية الأخرى. فإن فتوحات ابن سعود لم تتحقق في إطار خطابية قومية أو خطاب الاستقلال والحكم الذاتي. وباستثناء الحجاز التي ظهرت فيها خطابية كهذه خلال الثورة العربية (١٩١٦) بالارتباط مع الشريف حسين الذي كان يطمح إلى أن يكون «ملك العرب»، فإن باقي العربية السعودية لم يعرف مثل هذه التطلعات. يضاف إلى ذلك أن بريطانيا لم تكن متميزة بجهودها الكبيرة لتوليد خطابات في الاستقلال والحكم الذاتي.

لقد تحققت سيطرة حاكم محلي على الجزيرة العربية بمفردات رمزية مختلفة للغاية. واعتمد ابن سعود على دعاوي سلفية لحكم منطقة كانت «ذات يوم ملك أجداده». وعندما عاد إلى الرياض من منفاه في الكويت عام ١٩٠٢ لم يكن يفعل سوى إحياء دعوى آل سعود بحقهم في المدينة أو توسيعها. وعلى الغرار نفسه، فإن التمدد اللاحق في القصيم والأحساء وشمال نجد والحجاز وعسير جرى بنية إعادة سلطة أسرته على مناطق كانت خاضعة في السابق للقيادة السعودية. وكان ذلك يشير إلى الواقعة قصيرة العمر في القرن الثامن عشر عندما نجحت الإمارة السعودية ـ الوهابية الأولى (١٧٤٤ ـ ١٨١٨) لفترة قصيرة في مد مشارف السيطرة السعودية أبعد من عاصمتهم الإقليمية الصغيرة: الدرعية. وأثبتت هذه السابقة التاريخية كونها مبرراً للتوسع في العقود الأولى من القرن العشرين.

غير أن هذا المبرر وحده لم يكن كافياً لإقناع غرماء ابن سعود المحليين بقبول حكمه. وكانت القوة سلاحاً أمضى من الدعاوي السلفية المبهمة. ولم تضم غالبية المناطق إلى ملك ابن سعود إلا بعد أن دحر مقاومة القيادات المحلية. ومضى الإكراه بتساوق مع انبعاث الوهابية؛ الحركة الإصلاحية التي دفعت في السابق سكان جنوب نجد إلى التوسع أبعد من عمق الجزيرة العربية. ومنذ عام ١٩٠٢ جند ابن سعود «مطاوعة» نجد (الذين كانوا مختصين بالطقوس الدينية) في عملية التوسع. وكان «المطاوعة» وراء تشكيل «الأخوان»، الذين كانوا قوة عسكرية قبلية نذرت نفسها للقتال باسم الجهاد ضد «الكفار»، وهم فئة محددة بمطاطية كانت أحياناً تشمل من لم يكن من السهل إقناعهم بقبول الزعامة السعودية.

كان مشروع توحيد الجزيرة العربية عملية تدريجية ساهمت فيها عدة عوامل خارجة عن سيطرة ابن سعود . فإن هزيمة الإمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى والتشجيع البريطاني، مكنا ابن سعود من ملء فراغ السلطة الذي نشأ في الجزيرة العربية. وما كان ليمكن بسهولة توقع توحيد مناطق مترامية تحت حكمه بعدما ضمن الرياض في عام ١٩٠٢ . وتميل التدوينات الشائعة في تأريخ هذه الفترة إلى رسم صورة لابن سعود بوصفه «محارباً صحراوياً» كانت لديه العبقرية وبعد النظر من البداية. وقد استغرق الأمر ثلاثين عاماً وأكثر من ٥٢ معركة بين ١٩٠٢ و ١٩٣٢ قبل أن يتحقق المشروع، وكانت فكرة إنشاء دولة سعودية تطوراً متأخراً، لا يرتبط قطعاً بغزوات ابن سعود الأولى.

وفي حين يصعب تخيل مملكة باسم العربية السعودية من دون ابن سعود، فإن على المرء أن يذهب أبعد من المعجزات والعبقرية الفردية. ذلك أن للأفراد والوسائط أهميتهم ولكنهم يتحركون في سياق تاريخي يحدد نجاحهم وفشلهم. وأنا أعتزم الابتعاد عن التأريخ الذي يمجد دور فاعلين أفراد، والتركيز على التفاعل بين الأحداث التاريخية والمجتمع مفضياً إلى توطد الدولة السعودية التي قامت في عام ١٩٣٢ . وسيجد القارئ أن هذا الكتاب لا يتضمن أي جدول زمني واضح يسطر معركة تلو أخرى لتوثيق المراحل الناجحة في توحيد الجزيرة العربية. كما أنه لا يتضمن جدولاً زمنياً لعهود الملوك الذين تعاقبوا على الحكم منذ عام ١٩٣٢ . فقد اعتمدت بدلاً من ذلك مقاربة ذات موضوعات محددة تسلك الضوء على أهمية المتغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بهدف استطلاع تفسير ممكن لنشوء الدولة السعودية وتوطدها اللاحق.

ما يتسم بأهمية حاسمة في أي فهم للتاريخ السعودي الحديث أن يلاحظ أن هذا التاريخ يبين وجود تعايش لافت بين القديم والجديد. وموقع العربية السعودية بوصفها مقر أقدس مقدسات الإسلام يكمن في صميم هذا التعايش. ويعني هذا أن السياسة الداخلية السعودية والمجتمع السعودي ليسا من شأن المواطنين السعوديين قليلي العدد نوعاً ما فحسب، بل هما أيضاً موضع اهتمام ملايين المسلمين في العالم. إذ لا تمكن المغالاة في تقدير ما تتمتع به العربية السعودية من أهمية رمزية للإسلام والمسلمين. وقد بات لزاماً على شعبها ودولتها أن يصونا تراثها الإسلامي. كما أن من الضروري الحرص على المسؤوليات الناجمة عن المصادفة الجغرافية

التي لم تجعلها موئل الحجاج المسلمين فحسب، بل وقبلة صلواتهم اليومية الخمس أيضاً. وتحول البلاد في القرن العشرين يتحدد بهذه الحقيقة الهامة التي تطلبت انغماراً حذراً ومتمنعاً في الحداثة. وجرى الحفاظ على «القديم»، على التقليد «الأصيل» مع عَينٍ على «الجديد» و«الحديث» و«الغريب». وكان التقليد الإسلامي المحدد للعربية السعودية، وهو التعاليم الوهابية، لا يشجع على الانخراط بسهولة في القرن العشرين. ومن البداية اعترضت طريق الفئة الحاكمة عقبات عديدة عندما أدخلت أبسط التكنولوجيات (مثلاً السيارة والتلغراف والتلفزيون من بين مبتكرات أخرى). وذللت اعتراضات الدوائر الدينية المحافظة بالجمع بين القوة والمفاوضات وأثبت التغيير الاجتماعي والسياسي كونه أكثر إشكالية، ولم يكن بالوسع تحقيقه من دون سجالات هددت استقرار البلاد الداخلي واستعدت قطاعات هامة ونافذة من المجتمع.

بالإضافة إلى إرثها الديني المحدد واجهت العربية السعودية الحديثة تنوع سكانها اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً. فقد ضمت الحجاز والأحساء الكوزموبوليتان بتاريخهما المديد من الاحتكاك بالعالم الخارجي، إلى العمق، إلى المنطقة التي بسطت سيادتها مع توطد الولة الحديثة برغم عزلتها النسبية طوال السنوات المئتين السابقة. وجرى تعميم قيم نجد الاجتماعية وتقليدها السياسي على البلاد بأسرها عبد عام ١٩٣٢. وكانت مقاومة التغيير الاجتماعي والسياسي المتسارع دائماً تنطلق من نجد حيث ما زال من الممكن العثور على أكثر العناصر محافظة في المجتمع حتى في مطالع القرن الحادي والعشرين. وتضافر التقليد القبلي العريق في العمق مع التأويل المتزمت للإسلام في المدن والواحات الكبيرة لجعل هذه المنطقة أشد المناطق مقاومة ضد «البدع». ونظراً إلى أن قيادة آل سعود كانت دائماً تستند إلى ولاء جماعات نجد الحضرية فإن حكمها اعتمد على مراعاة مصالح هذه المنطقة وتطلعاتها وتقليدها السياسي.

أضحى التوفيق بين القديم والجديد أشد إلحاحاً مع اكتشاف كميات ضخمة من النفط في باطن المناطق الصحراوية من العربية السعودية. وبالنفط، أخذت الدولة السعودية تمتلك تحت تصرفها ثروة غير مسبوقة لتشييد بنيتها التحتية الاقتصادية والمادية وتحويل مشهدها حتى لم يعد من الممكن التعرف إليه. وفي مجرى العملية، واجهت الدولة والمجتمع على السواء تحدياً ملحاً: هل يمكن الحفاظ على التقليد النجدي «القديم»؟ هل يمكن له أن يتعايش متجاوراً مع «الجديد»؟ هذان السؤالان أثبتا كونهما صعبين، بصفة خاصة في مجتمع عاش تحديثاً متسارعاً.

وأثارت القضية المتمثلة في كيف تمكن الإفادة من الثروة النفطية مع مواصلة الإيمان بالإسلام والوفاء للتقليد، توترات بلا حل رافقت بناء الدولة والأمة منذ أوائل الثلاثينيات. الاستعمار أو غيابه لا يمت إلى هذا بصلة لأن العربية السعودية زجت في السياق الدولي وسياسة القوى الدولية منذ العقود الأولى للقرن العشرين. ومع اكتشاف النفط في الثلاثينيات أصبح اندماج العربية السعودية بالاقتصاد العالمي جانباً هاماً من تطورها التاريخي.

الفصل الأول يُرسي الخلفية التاريخية لتكوين الدولة السعودية الحالية. وهو يتناول حكم آل سعود في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بهدف إعداد المسرح لانبعاث قيادتهم مع الاستيلاء على الرياض في عام ١٩٠٢. كما أنه يحدد مراكز القوى الرئيسية في نجد والحجاز والأحساء، التي تحدت سلطتهم في السابق. ويشخص هذا الفصل «الإمارة» بوصفها شكلاً من أشكال التنظيم السياسي سائداً في تاريخ الجزيرة العربية. فالإمارة نمط من المركزية السياسية كثيراً ما يُشار إليه في الأدب على أنه سلالة (الرشيد، ١٩٩١) أو مشيخة (كوستاينر Kostiner ١٩٩٣؛ ٢٠٠٠) لتمييزها عن «الدولة» التي يُعتقد أنها تطور لاحق.

الإمارات الأولى في وسط الجزيرة العربية كانت في أحيان كثيرة تشترك بعدد من السمات:

أ ـ تسيد أسر حاكمة مرموقة تقيم في الواحات أو المدن.

ب ـ صراعات ضارية على السلطة داخل الأسر الحاكمة وحدود متغيرة.

ج ـ التوسع بالغزو والغارات.

د ـ فرض ضريبة إسلامية (الزكاة) أو أتاوة على المناطق المقهورة.

ه ـ تثبيت الحكام المحليين أو الاستعاضة عنهم أحياناً بممثلين/ حكام.

و ـ الحفاظ على القانون والنظام.

ز ـ اقتصاد مختلط من التجارة والزراعة والبداوة الرعوية.

ح ـ تدفق فائض اقتصادي من أطراف الإمارة إلى المركز حيث يعاد توزيعه لكسب الولاء والمبايعة.

ط ـ إقامة صلات مع قوى خارجية، لا سيما الإمبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر ثم بريطانيا لاحقاً، وكانت كلتاهما مصدر موارد جديدة من خارج الاقتصاد المحلي.

وفي حين أخفقت الإمارات السابقة في توحيد الجزيرة العربية، فإن بعضها نجح في إقامة دوائر نفوذ على مناطق بعيدة عن مركز الإمارة. وفي القرن التاسع عشر سعى أشراف الحجاز وآل سعود وآل رشيد في وسط الجزيرة العربية، جميعهم، إلى تعزيز إمارات لديها السمات آنفة الذكر. وبقيت هذه الإمارات هشة ودأبت على التنافس مع بعضها بعضاً في محاولة للسيطرة على أجزاء من الجزيرة العربية. وإذ لم يكن لدى الأشراف طموح للسيطرة على وسط الجزيرة العربية، كانت أنظارهم موجهة صوب اليمن. وكان الرشيديون السعوديون يتنافسون في وسط الجزيرة العربية، وكانت قوى خارجية (مثل العثمانيين وبريطانيا) تقوم أحياناً بتأجيج صراعهم. وكثيراً ما كان هذا يؤدي إلى تصعيد الحرب بين إمارات تطمح إلى التوسع أبعد من أراضيها المركزية.

إن مزاعم «الفوضى» و«التشظي» في سياسة الجزيرة العربية قبل نشوء الدولة الحديثة في عام ١٩٣٢ إنما هي طروحات خاطئة تعجز عن تفسير تاريخ المنطقة الحديث. فالجزيرة العربية عرفت المركزية السياسية متبدية بانبثاق إمارات محلية أقيمت في واحات العمق الكبيرة والحجاز. وفي حين أن هذه الإمارات لا يمكن أن تسمى دولاً مكتملة، فإنها بذلت محاولات منتظمة ومقبولة عموماً لإخضاع سكان وأراض إلى سلطة قيادة ذات قاعدة مدينية. وحقيقة أن مثل هذه الإمارات فشلت كلها في إقامة كيانات سياسية دائمة، ينبغي ألا تقلل من أهميتها لفهم بنى سياسية سابقة وفهم الشكل الحالي: دولة ١٩٣٢.

في حالة الإمارة السعودية ـ الوهابية الأولى (١٧٤٤ ـ ١٨١٨) والإمارة الثانية (١٨٢٤ ـ ١٨٩١)، ساهم ائتلاف من التحالفات القبلية في عملية التوسع. ولكن القوة الدافعة الرئيسية وراء توطد الحكم السعودي كانت من جماعات نجد الحضرية، سكان المدن والواحات. فالوهابيون ظهروا بين الحضر مقدمين بذلك مبررا أيديولوجياً للتوسع وإقامة نظام أخلاقي وسياسي إسلامي. وفي حين أن البدو قاموا بدور بارز في الغزو فإنهم ظلوا هامشيين على مستوى القيادة. وكان هذا يصح أيضاً على الإمارتين الرشيدية والشريفية حيث كانت القيادة تتوفر بالدرجة الرئيسية من نسب قبلي حضري في حالة الأولى، ومن نسب ديني له قدسيته في حالة الثانية.

الإمارات السعودية ـ الوهابية كانت المقدمات التي أفضت إلى الدولة الحديثة. فالدولة السعودية التي نشأت عام ١٩٣٢ كانت في أيامها الأولى مشابهة لما سبقها. ومع اكتشاف النفط في العربية السعودية استطاعت الدولة أن تفلت من نمط الإمارة.

الفصل الثاني يتتبع قصة غزو ابن سعود للجزيرة العربية بين ١٩٠٢ و ١٩٣٢ من دون الخوض في تفاصيل المعارك المختلفة التي أسفرت عن توحيد البلاد تحت القيادة السعودية. وهو بدلاً من ذلك يعالج دور الدين الهام في السياسة ويسلط الضوء على القسط الحاسم الذي ساهمت به قوة لا تحظى باهتمام كافٍ في الأدب الخاص بالعربية السعودية، أي «مطاوعة» نجد. وفي حين أن غالبية الطروحات عن توطيد الدولة السعودية تنسب دوراً متميزاً إلى قوة «الأخوان» القبلية التي استخدمها ابن سعود ضد منافسيه (حبيب Habib ١٩٧٨، كشك Kishk ١٩٨١، كوستاينر Kostiner 1993)، سيجادل هذا الفصل بأن صيغة محددة من ذلك الإسلام الطقوسي الذي نادى به علماء الدين الحضر في نجد ساهمت بقسط لا يقل أهمية في توسيع ملك ابن سعود. وكثيراً ما تُعتبر الوهابية مصدر شرعية الحكم السعودي ولكن هذه الشرعية كانت تتطلب ما يضفي عليها طابعاً مرئياً وتمثيلياً، و«المطاوعة» كانوا وسائد نشيطة في هذه العملية. فهم دجنوا السكان باسم الإسلام ولكنهم فرضوا السلطة السعودية أيضاً تحت ستار برنامج صارم لـ «أسلمة» سكان الجزيرة العربية. وكانت القيادة السعودية «والمطاوعة» يمثلون مصالح الجماعات الحضرية النجدية على حساب مصالح الجماعات القبلية البدوية. وعلى الرغم من أن السكان القبليين كانوا أداة عسكرية هامة في توسع الحكم السعودي بعد عام ١٩١٢، فقد همشوا فور إنجاز عمليات الغزو الكبرى في أواخر العشرينيات. وكانت فكرة بناء دولة سعودية بكل تأكيد نتاج جهود «المطاوعة»، وهم جماعة حضرية كانت تنظر إلى العناصر القبلية والبدوية على أنها نقيض النظام الأخلاقي الإسلامي.

هذا التفسير لأصل الدولة السعودية سيصحح توصيفات رائجة للدولة على أنها دولة «قبلية» أو «بدوية». وفي حين أن التنظيم الاجتماعي القبلي كان سائداً بين قطاعات هامة من المجتمع، فإن القبلية السياسية قامت بدور ثانوي في تحديد شكل الدولة الناشئة. وديمومة الدولة السعودية التي نشأت في عام ١٩٣٢ إنما هي دالة للحقيقة الماثلة في أنها لا تمثل مصالح فئة قبلية/ بدوية واحدة لأن قيادتها مستمدة من خارج التجمعات القبلية الكبرى في الجزيرة العربية. ومن هنا قدرة هذه القيادة على القيام بدور الوسيط بين القبائل المختلفة والجماعات الحضرية ومناطق الحجاز وعسير الأكثر كوزموبوليتية.

بعد إعلان الدولة في عام ١٩٣٢ بقيت هناك مهمة الحفاظ على الولاء والسيطرة. وكانت استمرارية القرابة تعتمد على إيجاد أسرة ملكية قادرة على توفير ملوك المستقبل. وفي الفترة الواقعة بين ١٩٣٢ و١٩٥٣ عمد ابن سعود إلى تهميش فروع ثانوية من آل سعود وتعزيز نسبه (الفصل الثالث). وخلال هذه الفترة أدت مصاهرات عديدة مع أسر نبيلة ودينية في الجزيرة العربية إلى مولد أكثر من ٤٠ ولداً موفرين ملوك المستقبل وأمراءه وولادته. وفي حين أن

الأعمال التي تتناول اتحادات ابن سعود العسكرية تسلط الضوء على ما فيها من إمكان لبناء تحالفات مع قطاعات هامة من المجتمع، فإن المصاهرات أوجدت تبعية مديدة للفئة السعودية الحاكمة. وكان ذلك في وقت كانت بنية الدولة التحتية وجهازها البيروقراطي ومواردها غير مرئية لغالبية السعوديين. وفي غياب الموارد الاقتصادية الكبيرة لتعزيز السلطة على المناطق المقهورة جرى توطيد الدولة السعودية بالمصاهرة.

يضاف إلى ذلك أن موارد الدولة الشحيحة في الحقبة ما قبل النفطية تجلت في ولائم باذخة وعطايا نقدية وعينية. وتجسدت السلطة في سياق البلاد الملكي الذي كان هو الدولة السعودية. ويمنح فهم الأبهة الملكية منظوراً جديداً لتوطيد هذه الدولة ويبين استمراريتها مع نمط الإمارة. وعلى نحو يذكر بشيوخ القبائل وأمرائها، وطد ابن سعود سلطته بتحويل البلاط الملكي إلى مركز لإعادة توزيع الموارد وتخصيصها. وهو كان يأخذ فائض إنتاج من قطاعات معينة في المجتمع ويعيد توزيعه على قطاعات أخرى طلباً للمبايعة والولاء. ولم يكن توطيد الدولة السعودية خلال تلك الفترة المبكرة يعتمد على «مؤسسات» و «أجهزة بيروقراطية» و«إدارة» (فهذه لم تكن موجودة)، بل كان دالة آليات اجتماعية وثقافية غير رسمية، خاصة بالجزيرة العربية.

وفي حين أن العمر لم يمتد بحياة ابن سعود ما يكفي لأن يرى التحول الذي طرأ على الدولة السعودية والمجتمع السعودي، فإن اكتشاف النفط في أواخر الثلاثينيات أتاح له تعزيز موقعه بوصفه مصدر الثروة والرخاء الرئيسي. وأصبح الملك مصدر كل المكارم، وقد صارت بتصرفه موارد لم يعرفها قبله حكام في الجزيرة العربية. وخصصت موارد مالية كبيرة لبناء قصور فخمة لأفراد الفئة الحاكمة واستقبال الضيوف الأجانب وللبلاط الملكي. ولكن جهاز الدولة البيروقراطي ومؤسساتها بقيت ناقصة التطور في عهد ابن سعود. وكان الملك حاكماً مطلقاً مع إناطة بعض المسؤوليات بأبنائه. وتولت تطوير البنية التحتية للبلاد تطويراً متواضعاً في تلك الفترة «آرامكو»؛ شركة النفط الأميركية التي انبثقت من شركة «ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا» (سوكال) Standard Oil of California (SOCAL) التي فازت بامتياز التنقيب عن النفط في عام ١٩٣٣.

توفى ابن سعود في عام ١٩٥٣. وكما كان متوقعاً، ورثه نجله سعود (الفصل الرابع). وشهد عهد الملك سعود صراعاً ضارياً داخل الأسرة الملكية. وقد واجه سعود تحدي شقيقه ولي العهد

فيصل، الذي حُسم بتنازله عن العرش في عام ١٩٦٤ . وكان الصراع ناجماً عن سوء إدارة سعود لأموال الدولة، ولكن الأهم أن الصراع أماط اللثام عن أزمة سياسية أعقبت وفاة ابن سعود . فقد أصبحت كيفية تقسيم ميراث ابن سعود بين ورثته الكبار قضية ملحة هددت استمرارية الدولة. وازداد الوضع تفاقماً برغبة سعود في ترقية أبنائه في الحكم على حساب الكبار من أخوته غير الأشقاء . وأفضى النزاع إلى ظهور أجنحة متنافسة داخل الأسرة الملكية لم يكن بالوسع التوفيق بين مصالحها إلا بخلع سعود عن العرش. وخرج فيصل من النزاع بسلطات متعاظمة مكنته من الحكم ملكاً وأول رئيس وزراء مع تعيين أنصار مجندين من بين أشقائه الملكيين الموالين في الوزارات الحساسة.

واجه ورثة ابن سعود تحديات كبيرة مع التحديث المتسارع وتحول المشهد وظهور خطابات جديدة تمتد جذورها في الحداثة. وأصبح شعار الملك فيصل، «الحداثة في إطار إسلامي» ، إشكالياً بصورة متزايدة في الأيام الأخيرة من عهده. وفي الستينيات اعتبرت القومية العربية بنسختيها الناصرية والبعثية تهديداً لاستقرار الحكم السعودي، فوجد فيصل في الإسلام أيديولوجيا مضادة للدفاع عن سلامة الدولة السعودية وشرعيتها وسط حملات الخصوم والغرماء في العالم العربي. ولكن ترويج الهوية الإسلامية للدولة السعودية كان إشكالياً .

تمكن فيصل من لفت انتباه العالم إلى العربية السعودية عندما أعلن الحظر النفطي على الولايات المتحدة والغرب في عام ١٩٧٣ (الفصل الخامس). وانتقلت العربية السعودية من الهامش إلى مركز السياسة العربية والدولية. وفي السبعينيات زادت ثروتها الجديدة من انكشافها ودفعت قيادتها إلى البحث عن قوة خارجية توفر لها الحماية. وأصبح الارتباط السعودي ـ الأميركي إشكالياً حين كشف عن التوتر بين نظرة فيصل الإسلامية إلى العالم وعلاقاته الوثيقة مع الولايات المتحدة.

شهد خالد وفهد ، وريثا فيصل، ظهور قوى وتحديات جديدة. وكان حصار المسجد الكبير في مكة في عام ١٩٧٩ أول تحد كبير لشرعية الفئة الحاكمة منذ تمرد «الأخوان» في عام ١٩٢٧ . وكشف حصار المسجد عن التوتر بين الدولة ودينها ذاته. وكان من الضروري إيجاد صيغة للتوفيق بين ثروة الدولة الطائلة وزهد الإسلام الوهابي. وتسبب التعارض بين الدوغما الدينية والأبهة الملكية وانكشاف الأسرة الحاكمة إلى هجمات من صفوف أشد أنصارها ولاءً (المؤسسة

الدينية)، في صدمة لمراقبين في الداخل والخارج كانوا يعتبرون العربية السعودية من أكثر الدول استقراراً في الشرق الأوسط. إن بحث الدولة السعودية الدائب عن سبل التوفيق بين «القديم» و«الجديد» انهار بحصار المسجد.

ظهرت أبرز التوترات الاجتماعية والسياسية خلال حرب الخليج الثانية في عام ١٩٩١ (الفصل السادس). وسيذكر العقد الأخير من القرن العشرين بوصفه وقتاً عصيباً على الفئة السعودية الحاكمة. فإن معارضين في صفوف أولئك الذين كانوا في السابق أنصار آل سعود، أي علماء الدين، بدأوا يشككون في حقهم في الحكم وحكمتهم السياسية وسياساتهم الاقتصادية وعلاقاتهم مع الغرب. واستجابت الحكومة بإجراء إصلاحات واسعة كانت موعودة من قبل لكنها لم تنفذ قط. وفاجأ تنامي قوة المعارضة الإسلامية مراقبين في دولة تدعي الحكم بموجب مبادئ الشريعة. الفصل السادس يقوم أصول المعارضة الإسلامية والمحاولات الرامية إلى استطلاع خطاب أكثر عناصر هذه المعارضة مجاهرة بآرائها فضلاً عن استطلاع خطابيتها.

وإذ اعتمدت الدولة اعتماداً كبيراً على تصوير نفسها حامية الإسلام في سعيها إلى الشرعية، فإنها كانت تراهن أيضاً على مرويات تاريخية تُبرز دورها في تحديث البلاد. وينظر الفصل الأخير في مرويات الدولة كما ترد في التأريخ الرسمي. فالدولة السعودية توظف الكثير في تكوين المخيلة التاريخية لشعبها. وغدت نهضة البلاد في ظل الحكم السعودي أساس شرعية جديدة. وفي حين أن الدولة تسيطر على البنية التحتية والموارد المادية فقد ازدادت أهمية توسيع هذه السيطرة لتشمل مجال الأفكار الرمزي ورؤى الماضي والحاضر والمستقبل. ومن الهام معاينة مضمون كتب التاريخ المقررة في السعودية لفهم شرعية الدولة وبناء الأمة. وتركز الدولة في مثل هذه الكتب المدرسية على سعيها إلى التوفيق بين تراث البلاد الإسلامي والتزامها بالتحديث.

اظهرت الاحتفالات التي أُقيمت عام ١٩٩٩ بمناسبة مرور مئة عام على قيام الحكم السعودي، كيف تشاطر الدولة سكانها انشغالهم بالأنساب. فإن مرويات الدولة تدعو المواطنين إلى التخلي عن أصولهم لصالح الأمة (أمة المسلمين) محتفية في الوقت نفسه بنسبها الذي يبدأ من ابن سعود؛ الجد الأول ومؤسس الدولة والأمة. وباحتفالات الذكرى المئوية عمدت الدولة عبادة الفرد حول هذه الشخصية التاريخية. ولكن سرديات الدولة السعودية تواجهها

أيضاً طروحات تتحدى التأريخ الرسمي. فإن مجتمعاً يزداد تعلماً وثقافة قادر على الانخراط في مناظرات حول هويته وتاريخه. والسعوديون الذين أفادوا من اتساع التعليم منذ الستينيات يشاركون في النقاش حول الأصالة والتراث والتقليد ومستقبل البلاد. وهم يتقدمون بسرديات مضادة تفوض استئثار الدولة بالمخيلة التاريخية.

حاولت أن أقدم تفسيراً لتاريخ السعودية لا يزكي الرأي الرسمي السائد. فهذا الكتاب لا يتوقف عند منجزات السنوات المئة الماضية، وهي موضوعة سائدة في بعض الأعمال وخاصة الأعمال التي تُنتَج برعاية الدولة. وفي مثل هذه الأعمال تغرق العملية التاريخية في غمار الدعاية لأسباب سياسية واضحة. وأنا أقدم تفسيراً للمعطيات التاريخية يفرد حيزاً لقصص لم تُروَ قط من قبل في سياق تفسير نقدي للتاريخ السعودي والدولة السعودية والمجتمع السعودي.

إن منجزات الدولة محسوبة بمفردات الرخاء المادي والتكنولوجيا والخدمات الصحية الحديثة والتعليم، منجزات وفيرة ومرئية للناس داخل العربية السعودية وخارجها. والدولة تمجد جهودها في هذه المجالات. واحتفالاً بالعيد الوطني السعودي (عادة في ٢٣ أيلول/ سبتمبر) تنشر وزارة الإعلام إعلانات في صحف محلية ودولية تطلع القراء على عدد المدارس والمستشفيات والمطارات والمعامل والموانئ التي بنيت برعاية آل سعود. وعلى الغرار نفسه، نال استقرار النظام السياسي النسبي إعجاب مراقبين من الخارج في منطقة شهدت قلاقل وحروباً أهلية وانقلابات وثورات. وفي السنوات الأخيرة صدرت مجلدات تفسر استقرار الحكم الملكي وبقاءه لا في العربية السعودية وحدها بل في دول الخليج المجاورة أيضاً (غوز Gause ١٩٩٤؛ ٢٠٠٠، هيرب Herb ١٩٩٩؛ كوستاينر ٢٠٠٠).

ولكن كتابة تاريخ العربية السعودية في القرن العشرين ينبغي أن تستطلع الدينامية الاجتماعية الداخلية التي حددت طابع هذا البلد ونظامه السياسي والتأقلم مع التغيير المتسارع. ولفهم السنوات المئة الأخيرة يتعين أن يقيم المرء «حواراً لا ينتهي بين الحاضر والماضي» (كار Carr ١٩٦١ : ٣٠). وهذا الحوار لا يمكن أن يسكته التحول المادي الواضح، بل ينبغي أن يستكشف تقدم التحول ذاته وتوتراته وتناقضاته.

الفصل الأول

المجتمع والسياسة: ١٧٤٤ ـ ١٨١٨ و١٨٢٤ ـ ١٨٩١

مارست الإمبراطورية العثمانية سيادة اسمية على الأراضي التي تشكل اليوم جزءاً من المملكة العربية السعودية بعد توسعها الكبير شرقاً في الربع الأول من القرن السادس عشر. وعندما احتل سليم الأول مصر في عام ١٥١٧ ورث الوصاية على الحجاز عندما سلمه آخر المماليك مفاتيح مكة. وأصدر السلطان العثماني فرماناً يؤكد أمير مكة، شريف بركات، في موقعه. واضطلع السلاطين لاحقاً بتعيين الولاة في جدة والمدينة (السباعي ١٩٨٤: ٣٤٤) وحكموا الحجاز ٤٠٠ سنة بالتعاون مع الأسرة الشريفية.

وفي حين أن ضم الحجاز إلى الإمبراطورية العثمانية كان امتداداً لحكمهم في مصر، فإن سلطتهم في شرق الجزيرة العربية كانت امتداداً لاحتلالهم وادي الفرات الذي بدأ في عام ١٥٣٤ عندما فتح سليمان القانوني مدينة بغداد. وخضعت الأحساء طواعية للعثمانيين في عام ١٥٥٠ (أنسكومب Anscombe ١٩٩٧: ١٢). وانتهت المرحلة الأولى من الاحتلال العثماني بتمرد بني خالد في عام ١٦٧٠ (المصدر السابق). ولم يعد العثمانيون إلى شرق الجزيرة العربية حتى زمن مدحت باشا في سبعينيات القرن التاسع عشر.

ولكن العثمانيين أخفقوا في مد سيطرتهم إلى عمق الجزيرة العربية المعروف بنجد. وفي غياب الوجود العثماني الرسمي حكم مدن نجد وواحاتها أمراؤها بينما حافظت التحالفات القبلية على استقلالها وإدارتها الذاتية. وفي القرن الثامن عشر أقدمت الزعامة القائمة في نجد ممثلة بالإمارة السعودية ـ الوهابية الأولى (١٧٤٤ ـ ١٨١٨) على تحدي سلطة الإمبراطورية العثمانية في الحجاز والعراق وسوريا. وأسفر هذا التحدي عن احتلال قوات محمد علي وسط الجزيرة العربية نيابة عن الإمبراطورية العثمانية في عام ١٨١٨. وبحلول عام ١٨٤١ تقهقرت القوات المصرية إلى الحجاز تاركة نجداً بأيدي حكامها المحليين. وجاءت محاولة فاشلة ثانية للتغلغل في العمق بعد الاحتلال العثماني للأحساء احتلالاً أكثر حسماً هذه المرة في عام ١٨٧١. ومرة أخرى بقيت نجد تتمتع بحكم ذاتي. وأخذت السياسة المحلية في هذا الجزء الأوسط من الجزيرة العربية تلعب دوراً كبيراً في تشكل تاريخ البلاد الحديث.

كانت لدى أمراء نجد المحليين حرية نسبية لممارسة الحكم في مستوطنات نجد الصغيرة. وحاول أشراف مكة وحكام بني خالد في الأحساء توسيع سيطرتهم على نجد بأمل الاستحواذ على الفائض القليل الذي تنتجه تجمعاتها الزراعية (فتاح ١٩٩٧ : ٤٧). ولكن لا أشراف الحجاز ولا زعماء بني خالد تمكنوا من ضم نجد إلى دائرة نفوذهم. ونجد نفسها لم تكن منطقة جذابة لأنها كانت تنتج فائضاً متواضعاً من زراعة التمور وتربية الحيوانات. وكان سكانها دائماً يتطلعون إلى ساحل الأحساء وما وراءه من أجل البقاء. وكان تجارها الصغار يسافرون بعيداً إلى بغداد والهند لاستكمال مواردهم المحدودة.

في القرن الثامن عشر كانت الدرعية مستوطنة صغيرة في نجد سكانها خليط من الزارعين والتجار والحرفيين وعلماء الدين الصغار والعبيد[١]. وبحسب أحد المصادر لم يكن عدد بيوت المستوطنة يزيد على سبعين بيتاً (أبو حاكمة ١٩٦٧ : ٣٠). ومنذ عام ١٧٢٧ كان حاكمها المحلي رجلاً من أفراد آل سعود، هو محمد بن سعود. وكثيراً ما يُنسَب أصل آل سعود إلى مصاليخ بني وائل؛ أحد فروع قبيلة عُنيزة التي كانت تمارس رعي الابل في شمال الجزيرة العربية (لوريمر Lorimer ١٩٠٨ : ١٠٥٣). ولكن علاقة آل سعود بعنيزة تبقى موضع شك لعدم وجود مصدر تاريخي يشير إلى قيام هذه القبيلة بدور في توسعهم اللاحق في الجزيرة العربية.

الأرجح أن آل سعود كانوا مجموعة حضرية أنشأت مستوطنة الدرعية. واعترفت المستوطنة بسلطة الأمير السعودي نتيجة تضافر جملة عوامل: إقامته في الواحة وامتلاكه أرضاً زراعية وآباراً حول المستوطنة. ويبدو أن آل سعود كانوا في الأصل من طبقة التجار الملاك في نجد. فإن محمد بن سعود (توفي عام ١٧٦٥) كان ملاكاً ووسيطاً يمول رحلات التجار الذين يسافرون مسافات طويلة (فتاح ١٩٩٧ : ٤٧). وكانت المهارات السياسية في التوسط والقدرة على الدفاع عن المستوطنة ضد غزوات الواحات والتحالفات القبلية الأخرى، صفات مكملة هامة. ومقابل أتاوة من أفراد المستوطنة أضحى أمير الواحة حامي سكانها الذين كانوا

(١) للإطلاع على عمارة الدرعية، أنظر فايسي Facey ١٩٩٧.

يشكلون قوته العسكرية معززة بعبيده. وكانت جباية هذه الأتاوة تقوي الزعامة السياسية وتميز الأمير ونَسَبه عن أصول أهل المستوطنة الآخرين.

إن أفضل ما توصف به الزعامة السعودية في الدرعية هو أنها شكل تقليدي من أشكال الحكم كان شائعاً في العديد من مستوطنات الجزيرة العربية آنذاك[١]. وفي أربعينيات القرن الثامن عشر كان أمير الدرعية يتمتع بسلطة محدودة خارج مستوطنته. وباستثناء قدرته على جباية الأتاوت فإن السلطة التنفيذية لحاكم الواحة كانت ضعيفة تماماً (الجهني ١٩٨٣ : ١٧٩).

ويبدو أن الزعامة السعودية كانت قاصرة من ناحيتين: أولاً، لأنها كانت تفتقر إلى أصل قبلي يمكن التعرف إليه، من شأنه أن يضمن وجود رابطة قوية بتحالف قبلي على غرار معاصريهم من بني خالد في الأحساء مثلاً. وثانياً، لأن الزعامة السعودية كانت تفتقر إلى أي فائض كبير من الثروة. ولعل آل سعود كانوا ينالون قسطاً من جباية الأتاوات في المستوطنة ويتعاطون التجارة، ولكن لا يبدو أن هذا كان سمة مميزة. فإن مصالحهم التجارية وقتذاك لم تكن متطورة بما فيه الكفاية لتأمين دخل كبير إلى حد يمكنهم من توسيع سلطتهم إلى مستوطنات أخرى أو للسيطرة على شبكة كبيرة من طرق القوافل.

إزاء هذه التحديدات، ليس من المستغرب أن سلطتهم ظلت مقصورة على مستوطنة الدرعية الصغيرة. وبدأت حظوظ آل سعود تتغير مع تبنيهم الحركة الوهابية التي ارتبطت بالمصلح محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ ـ ١٧٩٢)[٢] .

كان محمد بن عبد الوهاب ينتمي إلى بني تميم، وهم قبيلة حضرية نجدية كان أفرادها يقطنون عدة واحات في نجد (أبو حاكمة ١٩٦٧ : ٢٤). وكانت أسرته أنجبت العديد من علماء الدين ولكنها لم تكن متميزة بثروتها. ويفيد أحد المصادر بأن محمد بن عبد الوهاب عاش في فقر مع زوجاته الثلاث. وكان يملك بستاناً من شجر النخيل وعشر بقرات أو عشرين بقرة (المصدر السابق: ٢٦). وسار محمد بن عبد الوهاب على خطى أجداده فسافر إلى المدينة

---

(١) انظر: ابن بشر ١٩٣٠؛ ابن غنام ١٩٧٠؛ ابن عيسى ١٩٦٦؛ فاسيلييف Vassiliev ١٩٩٨.

(٢) انظر العثيمين ١٩٩٥.

والبصرة والأحساء لمتابعة تعليمه الديني وربما سعياً إلى الثروة (العثيمين ١٩٩٧ : ٦١ ـ ٦٥). وعاد إلى عيينة حيث كان والده قاضياً للتبشير برسالة جديدة.

تميز المصلح بالإصرار على أهمية التوحيد ونبذ كل أشكال الوساطة بين الله والمؤمنين والالتزام بدفع الزكاة وفرض الاستجابة للدعوة إلى الجهاد ضد من لا يطيعون هذه المبادئ. وحرص محمد بن عبد الوهاب على تطهير الإسلام مما وصفه بالبدع وتطبيق تأويل متزمت للشريعة، وكلاهما كان يتطلب دعم سلطة سياسية. وكان يعد من مظاهر البدع عبادة القديسين وزيارة أضرحة الأولياء وتقديم النذور لهم مما كان شائعاً ليس بين سكان الواحات وبدو الجزيرة العربية فحسب، بل بين المسلمين الذين التقاهم خلال ترحاله في الحجاز والعراق وسوريا أيضاً. وطرح محمد بن عبد الوهاب آراء دينية تتعلق بالعديد من القضايا العملية. وشجع، من بين أشياء أخرى، على أداء صلاة الجماعة والامتناع عن التدخين. والأهم من ذلك أصر محمد بن عبد الوهاب على دفع الزكاة. وقضى بأن تدفع حسب الثروة البينة (مثل المحصول الزراعي) والثروة المخفية باكتنازها ذهباً وفضة (أبو حاكمة ١٩٦٧ : ١٩٥). وأعلن المصلح أن الخشوع للأولياء والأشجار وغيرها من الأشياء يؤدي إلى الكفر والزندقة والشرك، وأن مذهب التوحيد ينبغي أن يحترم بصرامة.

في البداية أيد أمير عيينة عثمان بن معمر الإصلاحات التي يدعو إليها محمد بن عبد الوهاب ولكنه قام في ما بعد بإبعاده من الواحة بضغط من زعماء بني خالد في الأحساء. فإن عقاب المصلح القاسي لمن يمتنعون عن أداء الصلاة الجماعية ومشاركته الشخصية في فرض تأويل متزمت للشريعة ورجمه امرأة من المنطقة علناً بتهمة الزنى، استغدَت عليه سكانَ عيينة وشيخهم. ويبدو أن المصلح أثار أيضاً استياء زعماء بني خالد في الأحساء ووجهاء نجد وقتذاك، وخوفهم من انتشار رسالته، فأمروا عثمان بن معمر بقتل محمد بن عبد الوهاب، ولكن عثمان قرر طرده بدلاً من المخاطرة بإشعال فتنة بين السكان الخاضعين لسلطته. وطلب من محمد بن عبد الوهاب وعائلته أن يرحلا عن عيينة. فوصل المصلح إلى الدرعية التي تبعد أربعين ميلاً عن عيينة على أمل إقناع أميرها السعودي بتبني رسالته.

كانت سمعة محمد بن عبد الوهاب سبقته إلى هذه الواحة الصغيرة. واستقبل محمد بن سعود هذا المصلح وأحاطه بحمايته. ويشير وصف اللقاء بين حاكم الدرعية ومحمد بن عبد الوهاب إلى أن حلفاً عُقد بين الاثنين في عام ١٧٤٤. وطبقاً لأحد المصادر:

فسمع محمد بن سعود بورود محمد بن عبد الوهاب... فجاء إليه وصافحه وقال: هذه القرية قريتك والمكان أنت واليه، فلا تخش أعداءك. والله لو انطبقت علينا جميع نجد ما أخرجناك عنا. فقال: أنت كبيرهم وشريفهم. أريد منك عهداً على أنك تجاهد في هذا الدين، والرياسة والأمانة فيك وفي ذريتك بعدك. وإن المشيخة والخلافة في الدين في وفي آلي من بعدي.

(أبو حاكمة ١٩٦٧ : ٣٠).

واستناداً إلى هذه الرواية، وافق الحاكم السعودي على دعم مطلب المصلح بالجهاد ضد غير المسلمين والمسلمين الذين لا يتفق إسلامهم مع تعاليم المصلح. وبالمقابل نال الأمير السعودي اعترافاً بكونه القائد السياسي للمسلمين. وضمنت لمحمد بن عبد الوهاب سيطرته على تفسير الدين. وبدأ المصلح التثقيف برسالته الدينية في مسجد بني خصيصاً له. وأصر على حضور الرجال والأطفال. وكانت تفرض على مَنْ لا يحضرون دروسه غرامة أو تحلق لحاهم (أبو حاكمة ١٩٦٧: ٣٢).

يصعب تحديد السبب وراء نجاح المصلح في الدرعية برغم أن الحركة الإصلاحية الوهابية وفرت لآل سعود، بكل تأكيد، مصدراً بديلاً للشرعية. فإن محمداً بن سعود تبنى رسالة دينية تعد بفرصة للتعويض عن حدود حكمه. وبتحديد أكبر، فإن محمداً بن عبد الوهاب وعده بالثروة في شكل زكاة وبالتوسع تحت رعايته الدينية. ومن الجائز أيضاً أن المنافسة بين أمراء عيينة والدرعية ساهمت في نجاح مستوطنة صغيرة ليس لها أهمية سياسية أو اقتصادية تُذكَر. إذ كانت عيينة ذات سمعة وأهمية أكبر بكثير من الدرعية وقتذاك.

أعد التحالف التاريخي الذي أبرم بين المصلح الديني الوهابي وحاكم الدرعية في عام ١٧٤٤، المسرحَ لظهور إمارة دينية في وسط الجزيرة العربية. ومن دون الوهابية كان من المستبعد للغاية أن تكتسب الدرعية وزعامتها أهمية سياسية كبيرة. إذ لم يكن هناك تحالف قبلي يدعم أي توسع أبعد من المستوطنة، ولا كان هناك فائض من الثروة يتيح لمحمد بن سعود أن يحشد قوة

مقاتلة لقهر المستوطنات الأخرى. والمستوطنة نفسها لم يكن لديها قوى بشرية كافية للشروع في غزو مستوطنات أو ديار قبلية أخرى.

ومن الأيام الاولى للتوسع السعودي ـ الوهابي، كان العنصر الحاسم فرضَ الطاعة لتعاليم الإسلام الوهابي بين السكان، الحضر منهم والبدو. وأدت هذه الطاعة إلى إقامة حلف شبه قبلي لغزو مزيد من المناطق في غياب تحالف قبلي سعودي معروف.

قدمت الوهابية دفعة جديدة للمركزية السياسية. وكان التوسع بالغزو الآلية الوحيدة التي تمكن الإمارة من اختراق الحدود الضيقة لمستوطنة ما. وإزاء ما يحظى به الجهاد من أهمية من تعاليم الوهابية، بات غزو مناطق أخرى ممكناً. وكان نشر الدعوة الوهابية وتطهير الجزيرة العربية من أشكال التدين «غير القويمة» وفرض الشريعة في مجتمع الجزيرة العربية، من المطالب الأساسية للحركة الوهابية. وقد شمل أمير الدرعية المصلح الوهابي المطرود حديثاً من العيينة بحمايته، وأقر بهذه المطالب. ومدت الوهابية الزعامة السعودية بقوة جديدة أثبتت كونها قوة حاسمة لتوطيد الحكم السعودي وتوسيعه. وقد وعدت الوهابية هذه الزعامة بمنافع واضحة في شكل سلطان سياسي وسلطة دينية ومكافآت مادية لولاها لما كان غزو الجزيرة العربية ممكناً. وأتاح التوطد الناجم عن ذلك للزعامة السعودية أن ترتقي إلى موقع مرموق في المنطقة.

اعتمد التوسع السعودي ـ الوهابي أبعد من الدرعية، على تجنيد قوة مقاتلة تكون مستعدة لنشر الرسالة الدينية التي تنادي بها الحركة الإصلاحية وبسط الهيمنة السياسية السعودية. وكان سكان الواحات في جنوب نجد أول من دانوا بالوهابية واستجابوا لدعوتها إلى الجهاد ضد «الكفار». وكان النجديون الحضر الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والستين أول مجنديها، والعمودَ الفقري للقوة السعودية ـ الوهابية. وقد اعتنق البعض الوهابية عن قناعة بينما أذعن لها البعض الآخر بدافع الخوف. ويبدو أن الإمارة السعودية ـ الوهابية قامت من البداية على ولاء الجماعات الحضرية في نجد. وكان ينتظر من الذين قبلوا الوهابية بإرادتهم أن يبايعوا قيادتها الدينية ـ السياسية ويبدوا ولاءهم بالموافقة على القتال من أجل قضيتها ودفع الزكاة إلى مثليها. وتعرض من قاوموا لغزوات تهدد مصادر عيشهم.

الأسلوب نفسه في التجنيد استخدم بين القبائل. واخذ التبشير والغزو يتقدمان في آن. وفي حين كان من السهل بسط السيطرة على الواحات فإن الاحتفاظ بولاء القبائل المختلفة في الجزيرة

العربية أثبت كونه أشد صعوبة. وكانت القبائل عموماً تفلح في التهرب من السلطة المركزية بسبب حراكها وتقليدها في الاستقلال الذاتي. ولكنها ما إن أخضعت حتى أثبتت أنها قوة قتالية هامة في نشر رسالة الوهابية. فهي وفرت القوى البشرية لمواصلة توسيع الإمارة السعودية ـ الوهابية بها. وكانت المشاركة في التوسع السعودي ـ الوهابي مغرية جداً للتحالفات القبلية لما يعد به هذا التوسع من حصة من الغنائم المتحققة من غزو سكان الواحات والقبائل الأخرى العاصية.

وما كان الإكراه وحده ليضمن مستوى التوسع الذي حققه السعوديون بانتهاء القرن الثامن عشر. فالوهابية كانت تعد بالخلاص، لا في هذا العالم فحسب بل في الآخرة أيضا: كان الخضوع لتعاليم الإسلام الوهابي يعني تفادي الغزوات الوهابية ويعد بمكافآت روحية. وغالبية الطروحات التي تفسر نجاح الكيان السعودي ـ الوهابي، تسلط الضوء على حقيقة أن الغزوات كانت منسجمة مع الممارسة القبلية. وبما هي كذلك كانت تشجع القبائل على المشاركة في توسيع السلطة السعودية ـ الوهابية بما تعد به من مكافآت مادية. ولكن التشديد على هذا الجانب يغفل تماماً البعد الروحي بوصفة قوة دافعة كبيرة وراء إقبال بعض قطاعات السكان عليها بلهفة، وهم الذين كانوا يحاولون بوجل، ولكن تصميم، أن ينموا روحانية مشتقة من رسالة الوهابية البسيطة والزاهدة. وأبدى سكان نجد انشداداً إلى تعاليمها المتوافقة مع توجه البعض من علمائهم الدينيين. فقبل صعود الحركة الوهابية، وكما في مناطق أخرى من العالم الإسلامي البعيدة بعض الشيء عن مراكز العلم التقليدية، كان علماء نجد يسافرون إلى سوريا ومصر للتعلم على أيدي أساتذتهم الفكريين (الجهني ١٩٨٣). وكان هؤلاء العلماء يتطورون لدى عودتهم إلى «أخصائيين طقوسيين» همهم الرئيسي هو الفقه: التقليد الذي ما زال مستمراً بين العلماء السعوديين إلى اليوم وإن كان لأسباب مختلفة.

يعكس تخصص العلماء النجديين بالفقه اهتمامات السكان في مدن نجد وقراها التي كانت تنصب على قضايا برغماتية تتعلق بالزواج والطلاق والإرث والأوقات الدينية والشعائر الإسلامية والأحكام الشرعية الإسلامية. وكانت المستوطنات النجدية تتطلع أصلاً إلى إيجاد حلول لمشاكلها العملية وأبدت وعياً دينياً سبق دعوة محمد بن عبد الوهاب (المصدر السابق: ٢٥٢). وفي حين أن المصلح كان لم يزل معنياً بهذه القضايا العملية، فإنه تميز عن العلماء

النجديين في ذلك الوقت بتطوير أفكاره عن التوحيد. وينبغي عدم إغفال الوعي الديني في المستوطنات النجدية بوصفه عاملاً في تيسير اعتناق الوهابية ونجاح التوسع السعودي.

كان دفع الزكاة بانتظام إلى الزعامة السعودية ـ الوهابية رمزاً للخضوع السياسي، ولكنه كان من فروض الدين أيضاً. وفي حين أن الإحساس بهذا الواجب الديني ربما لم يكن قوياً بصفة خاصة بين القبائل، فإنه كان ظاهراً بكل تأكيد بين سكان الواحات في جنوب نجد، الذين كان ولاؤهم للزعامة السعودية يقوم على أرضية أكثر صلابة.

ونستطيع أن نشير أيضاً إلى جاذبية مذهب التوحيد للمجموعات القبلية وخاصة القطاعات البدوية منها. ولعل الشعائر الإسلامية أو الفقه لم يكن يستهوي مثل هذه المجموعات كما استهوى السكان الحضر (كانت لدى هذه القطاعات أعرافها القبلية الخاصة في تسوية النزاعات وحل التجاوزات)، ولكن المؤكد أن مبدأ التوحيد لامس عَصَباً حساساً لديهم. ولا ريب في أن رسالة محمد بن عبد الوهاب لم تقع على آذان صماء. وحتى التحالفات القبلية التي قاتلت ضد الأجندة السياسية السعودية ـ الوهابية لم تتمكن من مقاومة إغراء الإسلام البسيط الذي لا يحتاج إلى توسط مع الله، والبعيد عن الطقوس المفرطة. وعلى سبيل المثال أن قبيلة شمر، برغم مقاومتها الضارية للوهابية السياسية، قبلت مبدأ التوحيد في القرن الثامن عشر. وأعلن شيخ شمري كبير أن إسلامه يبقى وفياً لتعاليم الوهابية برغم أن أجداده خاضوا معارك مع السعوديين منذ منتصف القرن الثامن عشر. ويبدو أن الوهابية حققت التكافل الديني النهائي بين البدو والسكان الحضر بالجمع بين إسلام توحيدي وطهراني لا يهادِن، وهاجس التخصص الطقوسي والفقه، مستجيبة بذلك لحاجات القبائل الصحراوية وسكان الواحات في وسط الجزيرة العربية.

وفي ظل القيادة العسكرية لنجل محمد بن سعود؛ عبد العزيز (١٧٦٥ ـ ١٨٠٣)، توسعت الزعامة السعودية إلى الرياض والخرج والقصيم بحلول عام ١٧٩٢[١]. واستقبلت مدن في وسط نجد قضاة وهابيين بوصفهم ممثلي النظام الديني ـ السياسي الجديد. وتحت واجهة نشر الرسالة الوهابية أخضعت الزعامة السعودية غالبية أمراء نجد لسطوتها. وسمح لهؤلاء الأمراء بالبقاء في مستوطناتهم ما داموا يدفعون الزكاة للزعيم السعودي تعبيراً عن خضوعهم لسلطته.

---

(١) انظر عبد الرحيم ١٩٧٦؛ أبو حاكمة ١٩٦٧؛ كوك Cook ١٩٨٨.

بعد إنجاز الحملات في وسط الجزيرة العربية تحركت القوات السعودية شرقاً داخل الأحساء ونجحت في إنهاء حكم بني خالد. وكان قسم كبير من سكان الأحساء يتألف من الشيعة الذين يمثلون بنظر الوهابيين حالة متطرفة من «أهل البدع». وفتح إخضاع القطيف عام ١٧٨٠ الطريق إلى ساحل الخليج وعُمان. وأقرت قطر بسلطة السعوديين في عام ١٧٩٧ ثم تلتها البحرين، وأخذت تدفع الزكاة إلى الدرعية.

أدى توسع القوات السعودية باتجاه الغرب، وخاصة في الحجاز، إلى تصادمها مع مرجعية دينية أخرى هي مرجعية شريف مكة. وبرغم مقاومة الحجازيين العنيدة بسط سعود بن عبد العزيز (١٨٠٣ - ١٨١٤) هيمنة سعودية مؤقتة على الطائف في عام ١٨٠٢، ومكة في عام ١٨٠٣، والمدينة في عام ١٨٠٤. وأضحى الشريف عبد المطلب بن غالب في مكة مجرد ممثل للسعوديين. وأمر العلماء الوهابيون بتدمير مساجد الرسول والخلفاء ذات القبب في المدينة عملاً بالمذهب الوهابي الذي حرم بناء الأضرحة على القبور. فطبقاً للتعاليم الوهابية، ينبغي أن تبقى القبور بلا علامات مميزة لكي لا يقوم المسلمون في ما بعد بزيارتها وتبجيلها.

نجاح السعوديين في الحجاز شجع توسعهم جنوباً في عسير حيث تبنى الزعماء المحليون الوهابية وانضموا لفترة إلى قوات السعوديين للزحف على اليمن. وحالت مقاومة اليمنيين العنيفة مقترنة بالجغرافيا غير المألوفة لبلادهم الجبلية، دون إلحاقها بدائرة السلطة السعودية - الوهابية.

إلى الشمال الشرقي بلغ التوسع السعودي أراضي بلاد ما بين النهرين الخصبة مهدداً مناطق حيوية من الامبراطورية العثمانية. ففي عام ١٨٠١ تعرضت مدينة كربلاء للغزو والنهب. واستمرت الغارات على مدن بلاد ما بين النهرين في الفترة الواقعة بين ١٨٠١ و١٨١٢ من دون أن تسفر عن إقامة وجود سعودي - وهابي قوي هناك بسبب بعد المسافة عن قاعدة سلطتهم في الجزيرة العربية. وكان الانشغال الوهابي ببلاد ما بين النهرين يتركز على أخذ الغنام من هذه الأقاليم الغنية. وأقيم نمط مماثل في سوريا حيث كانت القوات السعودية تغير على المدن وقوافل الحج من دون أن تتمكن من بناء قاعدة دائمة. وبلغ التوسع بالغازات حدوده في الشمال كما بلغها في اليمن. فإن سلب مدن شيعية في العراق أثار حفيظة جماعاته السكانية وأسفر عن اغتيال القائد السعودي عبد العزيز في عام ١٨٠٣ على يد شيعي في مسجد الدرعية من أجل الثأر لسلب كربلاء.

ساهمت أربعة عوامل في تيسير عملية التوسع. أولاً، عمل انقسام أمراء الواحات في نجد وتزاحمهم، على تمكين السعوديين من الاستفراد بهم ودحرهم الواحد تلو الآخر. ثانياً، إن الصراعات الداخلية بين أفراد الفئات الحاكمة في الواحات أضعفت مقاومتهم وأتاحت للغزاة أن يستخدموا منشقين في خدمة أغراضهم. ثالثاً، إن هجرة بعض قبائل الجزيرة العربية إلى مناطق أكثر خصوبة في العراق وسوريا ساعدت في تقدم الغزو. فإن مجموعات قبلية عدة هربت إلى بلاد ما بين النهرين تحت الضغط السعودي ـ الوهابي. وأخيراً، إن تبنى سكان نجد الحضر للوهابية سلمياً وفّر دعماً على مستوى القواعد للتوسع حتى قبل انطلاقه (عبد الرحيم ١٩٧٦ : ٧٣).

تمخض توسع الإمارة السعودية ـ الوهابية الأولى عن إقامة كيان سياسي بحدود متغيرة. وقد وفر أبناء آل سعود، بعد نيلهم الشرعية من القيادة الوهابية، زعامة سياسية دائمة بموجب حلف ١٧٤٤. ولكن لم تكن هناك آليات غير الغارات، لتأمين استمرارية هذا الكيان السياسي أو دوام حدوده، بينما احتفظت القبائل بقدرتها على تحدي السلطة السعودية ـ الوهابية. وكان الامتناع عن دفع الزكاة وتنظيم هجمات مضادة على مجموعات وأراض تقع في دائرة النفوذ السعودي ـ الوهابي، من التحديات المتكررة. وبرغم المحاولات الابتدائية لإضفاء طابع رسمي على العلاقات السياسية والاقتصادية والدينية في الإمارة، فإن هذه كانت عموماً غير كافية لإبقائها موحدة. كان هناك إدراك مبهم بالانتماء إلى جماعة إسلامية ولكن هذا لم يلغ التعلق بهويات قبلية / دينية خاصة أكثر.

كانت الغارات طقوس تجديد، تضخ دماً جديداً في دائرة الملك وخاصة حين يكون على حافة التفكك. وفي حين تكفلت هذه الغارات في البداية بضمان التوسع، فإنها أثبتت في ما بعد ضررها للاستمرارية السياسية عندما أخذت تثير سخط السكان على ما تسببه من دمار. وحين وردت الإمبراطورية العثمانية على التحدي السعودي ـ الوهابي بإرسال قوات محمد علي إلى الجزيرة العربية في عام ١٨١١ استجابت قبائل عانت من غارات السعوديين التأديبية، بتحويل ولائها إلى القوات الأجنبية. وقد توفى سعود بن عبد العزيز في عام ١٨١٤ تاركاً نجله عبد الله يواجه تحدي القوات المصرية. وتولى إبراهيم باشا نجل محمد علي قيادة غزو نجد بعدها أقامت القوات المصرية قاعدة قوية في الحجاز. وصل إبراهيم باشا إلى أبواب الدرعية على رأس ٢٠٠٠ فارس و

٤٣٠٠ جندي ألباني وتركي و١٣٠٠ فارس مغربي و١٥٠ مدفعياً مع حوالي ١٥ مدفعاً و٢٠ خبيراً في تقنية السلاح و١١ مهندساً عسكرياً (فاسيلييف Vassiliev ١٩٩٨ : ١٥٤). استسلم السعوديون في ١١ أيلول/ سبتمبر ١٨١٨ بعد تدمير عاصمتهم وتحصيناتها تدميراً ماحقاً. ونهبت قوات إبراهيم باشا الدرعية وذبحت العديد من العلماء الوهابيين. ونقل من نجا منهم إلى القاهرة مع عبد الله (١٨١٤ ـ ١٨١٨) الذي أُرسل لاحقاً إلى اسطنبول حيث قُطعت رأسه. وكان سلب الدرعية إيذاناً بنهاية الإمارة السعودية ـ الوهابية الأولى.

انبعاث سعودي هـ شّ (١٨٢٤ ـ ١٨٩١)

بعد انسحاب القوات المصرية بُذلت محاولة لإعادة بناء السلطة السعودية ـ الوهابية في عام ١٨٢٤ عندما عاد تركي بن عبد الله، نجل الحاكم السعودي الذي قُطعت رأسه، إلى الرياض، جنوب الدرعية[1]. اغتنم تركي (١٨٢٤ـ ١٨٣٤) انسحاب القوات المصرية الجزئي من نجد تحت ضغط سكانها المحليين، وتمكن من الاستيلاء على الرياض بقوة صغيرة عبأها من بين سكان واحات متعددة. وبعد تثبيت أركانه في الرياض مد سيطرته إلى العارض والخرج والحوطة والمحمل وسدير وأفلاج (المصدر السابق: ١٦٣). وبقيت سلطته في حائل والقصيم محدودة لكنه تمكن من فرض الاعتراف بالسلطة السعودية في منطقة الأحساء في عام ١٨٣٠ (وايندر Wonder ١٩٦٥).

وبرغم أن تركيا بن عبد الله كان إماماً وهابياً متزمتاً فإنه حرص على عدم استعداء القوات العثمانية ـ المصرية التي كانت لم تزل في الحجاز تحرس أمن قوافل الحج. بيد أن التحدي الأكبر لسلطة تركي كان مصدره المعارضة الداخلية في صفوف أسرته ذاتها. وفي عام ١٨٣١ واجه تركي تحدي مشاري؛ ابن عمه الذي عينه حاكم منفوحة. وفي عام ١٨٣٤ نجح مشاري؛ في مخططه لاغتيال تركي حين كانت القوات السعودية مشتبكة في حرب مع القطيف والبحرين. وقُتل تركي أثناء خروجه من المسجد بعد صلاة الجمعة (فاسيلييف ١٩٩٨ : ١٦٧). وسارع نجله فيصل بالعودة إلى الرياض من الأحساء ليبعث دعوى حقه بالمدينة. ونال فيصل (١٨٣٤ ـ ١٨٤٨) مساعدة أمير حائل عبد الله بن رشيد (١٨٣٦ ـ ١٨٤٨) الذي قتل مشاري بسيفه

(١) انظر أبو علية ١٩٦٩؛ وايندر Winder ١٩٦٥.

(لوريمر ١٩٠٨ : ١٠٩٧). وتمكن فيصل من دحر مشاري في عام ١٨٣٤ ليصبح إمام الإمارة السعودية ـ الوهابية الثانية.

تفوض حكم فيصل مرة أخرى في عام ١٨٣٧ عندما رفض أن يدفع الأتاوة إلى القوات المصرية في الحجاز. فجرد المصريون حملة إلى الرياض. أسر فيصل وأرسل إلى القاهرة. عين المصريون فرداً من آل سعود يُدعى خالداً حاكماً في جنوب نجد. واستمر هذا الوضع إلى أن قام فرد من أحد فروع آل سعود هو عبد الله بن ثنيان بالتمرد على خالد الذي هرب من الرياض إلى جدة. وحكم عبد الله بن ثنيان في الرياض حتى أفلح فيصل في الفرار من الأسر في القاهرة والعودة إلى الرياض في عام ١٨٤٣. وأقدم فيصل على قتل عبد الله ودشن زعامته الثانية التي دامت حتى وفاته في عام ١٨٦٥.

بعد وفاة فيصل أصبح نجله عبد الله (١٨٦٥ ـ ١٨٧١) حاكماً في الرياض. وقد نافسه أخوته غير الأشقاء سعود ومحمد وعبد الرحمن على الزعامة منافسة أثبتت ضررها على السعوديين. وعندما أصبح عبد الله، الأخ الأكبر، حاكماً، استاء أخوه غير الشقيق سعود من استبعاده عن السلطة وبدأ حملة عسكرية لإضعاف سلطته. بادر سعود إلى إجراء سلسلة من الاتصالات مع حكام عسير والعارض بأمل كسب ولائهم ضد أخيه. كما تفاوض لإقامة تحالف مع قبائل المرة والعجمان والدواسر التي كانت تحاول الحفاظ على استقلالها الذاتي بالتحالف مع أخي عبد الله المنافس له. وتأجج الصراع الداخلي بين الأخوة السعوديين برغبة مجموعات قبلية مختلفة في التخلص من هيمنة السعوديين (أبو علية ١٩٦٩ : ١٥٦ـ ١٩٧). وفي الفترة الواقعة بين ١٨٧٠ و١٨٧٥ لم يتمكن الأخوة السعوديون من التوصل إلى اتفاق مواصلين تحدي أحدهم الآخر.

توفي سعود في عام ١٨٧٥ تاركاً أخويه عبد الله وعبد الرحمن في غمرة صراع عنيف على الزعامة. وبعد وفاة سعود مباشرة أصبح عبد الرحمن حاكماً في الرياض بينما واصل أخوه عبد الله وأبناء أخيه (أبناء سعود) تحديهم لسلطته. وفي عام ١٨٨٧ ناشد عبد الله حاكم حائل محمد بن رشيد أن يساعده ضد أبناء أخيه. اغتنم حاكم حائل الفرصة للزحف على الرياض، وهرب أبناء سعود إلى الخرج تاركين عمهم في السجن. قام أمير حائل بالإفراج عن عبد الله

لكنه أخذه رهينة إلى عاصمته تاركاً سالم السبهان، الذي كان من أشد قادته إخلاصاً، بوصفه حاكم الرياض الجديد (فاسيلييف ١٩٩٨ : ٢٠١).

لاحق حاكم الرياض الرشيدي الجديد أبناء أخي عبد الله وقام بتصفية غالبيتهم في الخرج. وسمح لعبد الله وأخيه عبد الرحمن بالعودة إلى الرياض لأن عبد الله كان مريضاً ومتقدماً في السن. توفى عبد الله في عام ١٨٨٩ وحكم عبد الرحمن بوصفه من توابع ابن رشيد في إطار حاكميه سالم السبهان العامة.

عمد عبد الرحمن، في محاولة لإعادة هيمنة أسرته في جنوب نجد، إلى التعاون مع أهل القصيم وقطاعات من تحالف المطير القبلي نظراً إلى استياء الجانبين من سعود قوة آل رشيد. وكان تحالف سعودي ضد الرشيديين قيد البناء. وحشد محمد بن رشيد كل قواه المؤلفة من تحالفات قبائل شمر والمنتفق وحرب، وزحف على القصيم. التحم الرشيديون والقصيميون في مليدة عام ١٨٩١، وخرج محمد بن رشيد ظافراً. وبهزيمة حلفائه القصيميين هرب عبد الرحمن من الرياض بعد محاولة فاشلة لاستعادة سلطته. واحتمى أولاً بقبيلة المرة في الربع الخالي ثم استقر في الكويت عام ١٨٩٣ برعاية آل الصباح ومخصص مالي من الحكومة العثمانية، حيث منحته الأخيرة راتباً تقاعدياً متواضعاً قدره ٦٠ ليرة ذهبية (المصدر السابق: ٢٠٤). أما عاصمته الرياض فاستولى عليها عجلان ممثل ابن رشيد. كان لجوء آل سعود إلى الكويت هو الذي أتاح قيام صداقة مع حكام هذا الميناء من آل الصباح. وأثبتت هذه الصداقة أهميتها الحاسمة في عودة آل سعود إلى الرياض في القرن العشرين.

وفي حين كان تفكك الإمارة السعودية الأولى يعود في جزء منه إلى تدخل المصريين نيابة عن الإمبراطورية العثمانية، فإن إمارتهم الثانية انهارت لسببين. أولاً، لأن الزعامة السعودية الهشة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ازدادت ضعفاً بتأثير الصراع الداخلي بين أفراد الأسرة السعودية. وثانياً، لأن تعاظم قوة إمارة منافسة في وسط الجزيرة العربية إلى الشمال من قاعدة السعوديين، تسبب في إضعاف الهيمنة السعودية خلال الفترة الحاسمة التي كان السعوديون يخوضون فيها صراعاً داخلياً على الزعامة السياسية.

بهروب عبد الرحمن، وقعت العاصمة السعودية الرياض تحت سلطة آل رشيد. وأخذ المتبقون من أفراد آل سعود رهائن إلى العاصمة الرشيدية حائل.

بقيت الرياض تحت سلطة أمراء حائل حتى عام ١٩٠٢ عندما عاد نجل عبد الرحمن؛ عبد العزيز المعروف باسم ابن سعود، من المنفي في الكويت، وقتل الحاكم الرشيدي معلناً نفسه أمير الرياض؛ بدأ الانبعاث الثالث والأخير للحكم السعودي في التبلور. وكان هذا الانبعاث إيذاناً ببداية الدولة السعودية الثالثة في القرن العشرين.

إمارة آل رشيد في حائل (١٨٣٦ ـ ١٩٢١)

تعايشت الإمارة السعودية ـ الوهابية الثانية، الضعيفة (١٨٢٤ـ ١٨٩١)، مع قوة إقليمية جديدة شمال الرياض. وكانت الإمارة الرشيدية في حائل برزت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر في وقت كانت الهيمنة السعودية في وسط الجزيرة العربية في انحدار[١].

كانت الإمارة الرشيدية كياناً سياسياً يستمد شرعيته وسلطته من أحد التحالفات القبلية الكبيرة في الجزيرة العربية: شمر. وجاءت القوة الدافعة إلى المركزية من زعامة تتخذ واحة قاعدة لها، هي زعامة آل رشيد وهم فرع قبلي كان استقر في حائل، الواحة الواقعة في شمال نجد (الرشيد AL- Rasheed ١٩٩١). وكان آل رشيد من نبلاء شمر يحكمون أمراء على سكان حائل المختلطين من أفراد شمر ومزارعي بني تميم وتجارهم الحضر، وفئات غير قبلية من الحرفيين والصناع اليدويين والعبيد. وكان بدو شمر يأتون إلى حائل للتجارة ويعتبرون الواحة ضمن ديرتهم. وكان وجود آل رشيد في الواحة امتداداً لدعوى القبيلة بحقها فيها. ومنذ منتصف القرن التاسع عشر قامت حائل بدور القاعدة التي توسع آل رشيد انطلاقاً منها إلى شمال الجزيرة العربية ونجد جنوباً. وفي حين أن الإمارة السعودية ـ الوهابية توسعت تحت راية الشرعية الدينية فإن آل رشيد مدوا نفوذهم على واحات وقبائل أخرى بدعم من قبيلتهم ذاتها.

كانت غزوات الإمارة الرشيدية في الحقيقة آلية لبسط الهيمنة الشمرية على الآخرين. وعندما تعاظم زخم هذا التوسع في منتصف القرن التاسع عشر كان رجال شمر يوفرون القوة العسكرية. وكانت عشائر شمر العمود الفقري للقوة التي غزت واحات تقع خارج ديار شمر، كما أنها أخضعت المجموعات القبلية الأضعف وحولتها إلى توابع لها. وفي حالة آل رشيد كانت الإمارة والتحالفات القبلية كياناً واحداً في البداية. وكان هذا عاملاً هاماً في تمييز طبيعة السلطة

(١) انظر ابن رشيد ١٩٦٦؛ الدخيل ١٩٦٦؛ العثيمين ١٩٨١؛ الرشيد ١٩٩١؛ الزعارير ١٩٩٧.

الرشيدية عن سلطة الجيران السعوديين في جنوب نجد. ولم يتعين على آل رشيد أن «يكسبوا» شمر إلى قبيلتهم بل كانوا يعملون بارتباط معها لتوسيع هيمنة القبيلة. والأمراء الرشيديون أنفسهم كانوا من القبيلة ويرتبطون بها من خلال تحالفات أساسها المصاهرة. وعلى النقيض من ذلك، كانت الزعامة السعودية في الرياض تفتقر إلى العمق القبلي، الأمر الذي دفعها إلى الاعتماد على التحالف مع محمد بن عبد الوهاب وأتباعه.

ينبغي فهم السبب وراء التفاف شمر حول الزعامة الرشيدية في سياق الجزيرة العربية في منتصف القرن التاسع عشر. وسيكون من التبسيط الجدال بأن العصبية القبلية كانت القوة الدافعة الوحيدة وراء دعم القبيلة لهذه الزعامة الصاعدة حديثاً. وقد شهدت القبيلة تنامي الإمارة السعودية ـ الوهابية الأولى التي هزمت بعض العشائر الشمرية وأجبرتها على الهجرة إلى بلاد ما بين النهرين في أواخر القرن الثامن عشر. يضاف إلى ذلك أن شمر تعرضت في عام ١٨١٨ لهجوم القوات المصرية ـ العثمانية التي اعتبرت خطأً أن ديار شمر جزء من دائرة السلطة السعودية. وشمر بدعمها آل رشيد، كانت تبحث عن قيادة تضمن أمنها واستقلالها الذاتي في مواجهة غرماء محليين وغرباء على السواء. وبدعم آل رشيد الذين كانت تربطهم صلة قربى بشمر، كان التحالف القبلي الشمري يُرسى أسس تنظيم دفاعه وتمتين وحدة كانت تقوم في السابق على خطابية الأصل المشترك والعصبية القبلية. وكان تركيز السلطة بأيدي آل رشيد نابعاً، في هذا السياق، من الغليان السياسي والقلاقل العسكرية والتدخل الأجنبي في الجزيرة العربية. وتمكنت شمر لاحقاً من مقاومة التجاوزات على ديارها لا من القوات المصرية فحسب بل من الإمارة السعودية ـ الوهابية التي عادت من جديد في الرياض (الرشيد ١٩٩١: ٤٧).

مع توطد الزعامة الرشيدية، بدأ الأمراء يعتمدون أقل على شمر وأكثر على قوة مختلطة من العبيد والمجندين من الواحة. وكان هذا تطوراً أملاه عجز القيادة عن السيطرة على عشائرها ذاتها. وكان التحول الجزئي نحو بناء قوة عسكرية غير قبلية دائمة، مؤشراً إلى التغير الذي طرأ على قوة الأمراء. فلقد كان الأمراء في البداية شيوخاً قبليين مثلهم مثل شيوخ شمر الآخرين، ولكن سطوتهم تنامت لاحقاً عندما أضحوا من النبلاء الحضر الذين لديهم مطامحهم السياسة الخاصة. وتكرس هذا النمط بزعامة محمد بن رشيد (١٨٦٩ـ ١٨٩٧) الذي امتد مُلكُه من مشارف حلب ودمشق إلى البصرة وعمان وعسير (موسيل Musil ١٩٢٨: ٢٤٨). وضُمت منطقة القصيم والعاصمة السعودية ـ الوهابية الرياض إلى هذا الملك. وكان ممثلون وحكام يعينون في المناطق المقهورة.

اعتمدت الإمارة الرشيدية على أربع فئات في حملتها التوسعية في الجزيرة العربية. أولاً، إن زعامتها استدعت الحضر والبدو من شمر لمحاربة غرمائهم الذين عدوا أعداء القبيلة كلها. وعملت المناوشات ضد العشائر الشمرية لصالح محمد بن رشيد في تعبئة هذه القوة القبلية. ثانياً، شاركت تحالفات غير قبلية أخرى في هذه الحملة مدفوعة بإغراء الغنائم. ثالثاً، كان عبيد الأمير وحراسه الشخصيون يشكلون النواة الصلبة لهذه القوة العسكرية. رابعاً، كان المجندون من مدن جبل شمر وواحاته يوفرون قوة عسكرية موثوقة استخدمت بانتظام من أجل التوسع، وكانت مشاركتهم تضمن تسيد حائل اقتصادياً وسياسياً.

ولكن هذا التوسع لم يُقضِ إلى بسط السيطرة. فإن موارد المنطقة الشحيحة مقترنة بتخلف المواصلات، عملت ضد اندماج هذه المناطق اندماجاً كاملاً في وحدة متراصة. ومن هذه الناحية أبدت إمارة آل رشيد نمطاً مماثلاً للنمط الذي كان سائداً في الإمارتين السعوديتين ـ الوهابيتين الأولى والثانية. فإن السعوديين والرشيديين، على السواء، مارسوا الغزو والتمدد من دون أن يكونوا قادرين على الاحتفاظ بالمناطق المقهورة لفترة مديدة من الزمن. وفي حين أن الاحتفاظ بالسيطرة على مركز الإمارة كان سهلاً نسبياً، فإن المناطق المقهورة كانت تمثل أطرافاً يصعب الإشراف عليها بصورة منتظمة أو دمجها اندماجاً كاملاً. وإذ كان دفع الزكاة في الإمارتين السعوديتين ـ الوهابيتين الأولى والثانية مؤشراً إلى خضوع المجموعة ذات العلاقة لسلطة الإمارة، فإن دفع «الخوة» (الأتاوة) إلى آل رشيد كان يعبر عن سيطرتهم على جماعات أخرى. وكان «الخوة» ضريبة تفرض لا على جماعة الجهة الجابية بل على مجموعة مقهورة بقيت مستقلة ذاتياً بهذا القدر أو ذاك (بيرشت Pershit ١٩٧٩: ١٤٩ ـ ١٥٦). ولكن الزعامتين لجأتا إلى الغارات المنتظمة كآلية لتأمين دفع الزكاة أو «الخوة».

وفي حين أن إمارة آل رشيد اتسمت في البداية باندماج كامل بين الزعامة وتحالف شمر القبلي، فإن التوسع تسبب في نشوء توتر متكرر بين السلطة المركزية وتوابعها المتنوعة وشبه المستقلة. وفي ذروة السلطة الرشيدية كانت هذه التوابع تضم تحالفات قبلية ضعيفة أخرى بالإضافة إلى شمر وسكان الواحات من خارج ديارها التقليدية. وفي الوقت الذي استمرت الغارات متواترة ضد القبائل العاصية أنشئ اقتصاد يتسم بإعادة توزيع الموارد. وكان أمراء حائل يجبون «الخوة» من المجموعات الضعيفة ليعاد توزيعها على آخرين مكافأة لولائهم

ومشاركتهم في حملات القيادة العسكرية. وكان شيوخ القبائل يزورون الواحة ويتسلمون العطايا نقداً وعيناً. وقام نظام الدعم هذا بدور آلية لتداول الثروة حيث يكون التعهد بالولاء مقابل مكاسب مادية. وحقق دعم المركز للأطراف تكاملاً اقتصادياً بين زعامة حائل وتوابعها. والأهم من ذلك أنه أدى إلى اعتماد على إيرادات الأمراء بين السكان الحضر والبدو الذين أصبحوا ملحقين بكيانهم السياسي.

تحقق التكامل الاقتصادي بين الزعامة وتوابعها جزئياً في الإمارة الرشيدية، ولكن كان من الصعب تحقيق التكامل العسكري والسياسي وإدامته فترة طويلة. وبقيت المجموعات القبلية التي تدفع «الخوة» مستقلة ذاتياً بهذا القدر أو ذاك. ولم يكن أمراء حائل يحتكرون وسائل الإكراه لصعوبة تحطيم القوة العسكرية للمجموعات القبلية المختلفة التي كانت خاضعة لسلطتهم. وكانت قوة القبائل العسكرية تحيد أحياناً بغارات وأشكال دعم متواترة ولكن هذه الاستراتيجيات أخفقت على المدى البعيد في تأمين الولاء.

غير أن السيطرة على الواحات في جبل شمر كانت مسألة مختلفة. فإن حائلاً، مركز الإمارة الحضري، بقيت موالية للزعامة الرشيدية ما دامت هذه الزعامة قادرة على الدفاع عن مصالح الإمارة الأوسع. وكان التجار والحرفيون والزراع يدعمون هذه القيادة لأنها قادرة على تأمين المرور الآمن لقوافل التجارة والحج متيحة بذلك استمرار تدفق التجارة بين حائل والعالم الخارجي. وكان الأمير الذي يمد سلطته على القبائل في الصحراء يوفر ظروفاً آمنة للسفر بين الأسواق التجارية في الجزيرة العربية بما يخدم مصالح التجار والحرفيين بين الجماعات الحضرية. وكان ولاء سكان الواحات شديد الاعتماد على هذا العامل. ولم يحجب سكان حائل دعمهم إلا عندما أصبحت القيادة الرشيدية في العقدين الأول والثاني من القرن العشرين عاجزة عن توفير الحماية خارج أسوار الواحة.

بعد أن كان آل رشيد ثبتوا أنفسهم حكاماً لنجد في أواخر القرن التاسع عشر، فقدوا سيطرتهم على الرياض عندما عاد ابن سعود نجل الحاكم السعودي المنفي من الكويت، إلى مدينته الأصلية في عام ١٩٠٢. أقدم ابن سعود على قتل حاكم الرياض الرشيدي وأعلن نفسه حاكمها الجديد. وفي الفترة الواقعة بين ١٩٠٢ و١٩٢١ تنافس آل رشيد وآل سعود من أجل السيطرة على وسط الجزيرة العربية، وتسببت هذه المنافسة في إضعاف الإمارة الرشيدية وأدت إلى سقوطها.

يمكن أن يعزى سقوط الكيان السياسي الرشيدي إلى عوامل متعددة. فالصراع بين بريطانيا والإمبراطورية العثمانية في الجزيرة العربية أخل بالتوازن بين مراكز القوى في وسط الجزيرة العربية. وكان أمراء آل رشيد بقوا متحالفين مع العثمانيين حتى بعد أن اتخذ العديد من القبائل والأمراء المحليين جانب بريطانيا. وفي أعقاب هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى شعر الحلفاء الرشيديون المحليون بالضغط المتزايد من السعوديين الذين ضمنوا إقامة تحالف متين مع بريطانيا. وهذا العامل وحده لا يمكن أن يفسر بالكامل انهيار السلطة الرشيدية في عام ١٩٢١. ولكن عدم استقرار الزعامة الرشيدية الذي تبدى في صراع داخلي بين فروع آل رشيد المختلفة زاد في إضعاف موقعهم غير المتكافئ أصلاً في الجزيرة العربية. ولم تكن زعامة اعتراها الضعف قادرة على الاحتفاظ بولاء القبائل المختلفة التي حولت ولاءها إلى مركز أقوى: السعوديين. وفقدت الإمارة السيطرة على أطرافها القبلية، وشهدت زعامتها تقلص أراضيها من دون أن تكون قادرة على استعادتها. ولم يكن آل رشيد يحتكرون استخدام الإكراه. وعنى هذا أن المجموعات القبلية المستقلة وشبه المستقلة ذاتياً احتفظت بقدرتها على إضعاف الزعامة الرشيدية. وظلت هذه القبائل تشكل تهديداً محتملاً في غياب آي آلية لاحتواء ميلها إلى تحدي السلطة الرشيدية مباشرة أو مقاومتها سلباً بحجب الدعم الذي تحتاج إليه في أوقات الخطر الخارجي.

الإمارة الشريفية في الحجاز

في الحجاز، موطن أقدس مقدسات الإسلام، يبدو أن النمط النجدي في تكوين الإمارات نشأ هناك بأوجه شبه لافتة (السباعي ١٩٨٤؛ بيترز Peters ١٩٩٤)[1]. وكان سكان الحجاز دائماً يتميزون عن سكان نجد بعدم تجانسهم. فالمجتمع الحجازي كان يضم تحالفات قبلية تدعي الوحدة من خلال أواصر نسبية تحمل اسم نَسَبها من حيث الجوهر. وكانت حرب وعتيبة وبلي وهتيم والشرارات وبنو عطية وحويطات من أشهر المجموعات القبلية الحجازية (هوغارث Hogarth ١٩١٧: ١٧، أدميرالتي Admiralty ١٩١٦: ١٠٠). وتتفق توصيفات التحالفات القبلية الحجازية على أنها تختلف عن نظيراتها النجدية لأنه لم تكن لديها زعامة قبلية شاملة تستطيع

(١) عن المجتمع الحجازي والسياسة الحجازية، انظر مورتيل Mortel ١٩٩١، ١٩٩٤؛ وعن القرن التاسع عشر، انظر أوكسنوولد Ochsenwald ١٩٨٤؛ وعن القرن العشرين، انظر تيتلبوم Teitelbaum ٢٠٠١.

ادعاء السلطة على التحالف القبلي برمته. ويبدو أن المجموعات القبلية الحجازية الكبرى كانت مجزاة إلى وحدات صغيرة بقيادة شيخ مرموق لا يستطيع ادعاء السلطة خارج عشيرته. ويمكن تفسير هذا التشظي السياسي بكونه نتيجة الجغرافيا ووجود زعامة عامة في شخص شريف مكة (يُبحث أدناه). ولكن القبائل الحجازية كانت مجموعات إقليمية شبيهة بالقبائل النجدية. فإن قبيلة حرب، مثلاً، كانت تسيطر على المنطقة الواقعة بين مكة ونجد، وعتيبة كانت تسيطر على شرق الحجاز بينما كان أحد فروعها يتسيد في الطائف ومحيطها (هوغارث ١٩١٧: ١٨).

كانت التحالفات القبلية تتعايش مع مجموعات أخرى تدعي نسبها إلى قريش والنبي محمد من خلال حفيديه الحسن والحسين المعروفين بالأشراف. وعاش الذين ينتمون بأصولهم إلى الأشراف، في مكة والمدينة، ولكنهم كانوا مبعثرين أيضاً بين البدو من سكان الحجاز فضلاً عن وجودهم، بالطبع، في مناطق أخرى من العالمين العربي والإسلامي حيث انتشروا منذ سقوط الإمبراطورية العباسية (دحلان ١٩٩٣). وكان نسب الشريفيين إلى آل البيت أهلهم للقيام بدور قيادي بارز في إمارات مكة والمدينة من القرنين الثامن والتاسع مع استبعاد مجموعات أخرى ليس لها هذا النسب المقدس. كما قاموا بدور مرموق بوصفهم خبراء دينيين، مثلاً كقضاة ووعاظ في المدن المقدسة وشيوخ طرق صوفية (المصدر السابق).

بالإضافة إلى التحالفات القبلية الحجازية والعشائر الشريفية، كان سكان الحجاز يضمون مسلمين جاء أجدادهم أو هم أنفسهم من تركيا وأفريقيا والهند وآسيا وكانوا الآن يقيمون في المدن والموانئ الكبيرة. وامتد هذا التنوع إلى المجال الديني حيث اعترف العثمانيون بالمدارس الشرعية الإسلامية المختلفة. وازدهرت الحلقات الصوفية في مكة والمدينة. وكان الشريف حسين (١٩٠٨ ـ ١٩٢٤) وأبناؤه من السنة الشافعيين. وبالقدر نفسه من الأهمية كان وجود طائفة شيعية وخاصة في المدينة وبين بعض العشائر الشريفية. ويقول إندي Ende:

عند الكثير من الكتاب الشيعة ـ كان أشراف مكة والمدينة أنفسهم شيعة في الحقيقة تظاهروا، لأسباب بديهية، بكونهم سنة ـ موقف يعتبر مشروعاً بوصفه «تقية» في المذهب الشيعي. وكانت بعض فروع حرب (بنو علي) وجهينة أيضا من الشيعة الذين توطنوا حول نخيل المدينة حيث يبدو أن مجموعة شيعية أخرى هي النخاولة عاشت هناك منذ أيام الإمبراطورية الإسلامية الأولى.

(إندي ١٩٩٧: ٢٦٦ ـ ٢٨٦).

انعكس هذا التنوع الحجازي في تمايز أشد حدة بين المناطق الحضرية والريفية. وفي الحجاز كان الخط الفاصل بين المدينة والريف أكثر وضوحاً منه في نجد. وكانت مراكز جدة ومكة المدينية الكوزموبوليتية لا تقارن في حجمها وتخصصها ورقيها بأي مستوطنة في نجد أو أي مكان آخر في الجزيرة العربية. إذ كانت هذه مراكز حضرية لا يجد المسافر فيها عناء في رسم الحدود بين الصحراء والمدينة. وفي مطالع القرن العشرين دفع هذا التمايز الحاد هوغارث إلى القول «إن بدو الحجاز يتسمون بطابع النهب على نحو استثنائي، وبهبوط المعنويات والتنظيم المنقسم» (هوغارث ١٩١٧ : ١٧). ولعل ملاحظاته السلبية كانت قائمة على آراء سكان المراكز الحضرية مثل جدة التي كانت متميزة عن المناطق القبلية المحيطة. في نجد، ما كان التواصل بين الريف والمدينة ليبرر مثل هذه التمثيلات. ففي نجد كان سكان الواحات والقبائل ينتمون في أحيان كثيرة إلى فئة اجتماعية واحدة.

في هذه المنطقة المتنوعة كان للإمارة الشريفية حضور مديد بعض الشيء يسبق وجود السعوديين والرشيديين معاً في وسط الجزيرة العربية. وتفاوتت السلطة الشريفية منذ القرن السادس عشر حسب التطورات التي تحدث خارج المنطقة، لا سيما السياسات العثمانية تجاه هذه المنطقة الحيوية. وفي حين أن إمارات وسط الجزيرة كانت تواجه التوتر بين سلطتها وقوة التحالفات القبلية، فإن عاملاً كابحاً آخر كان يُثقل كاهل الإمارة الشريفية، بمقدوره أن يعزز سلطة قيادتها ويقوضها. إذ كان أمراء مكة في الحجاز واقعين بين التحالفات القبلية والسلطان العثماني وممثليه. وأقيم نظام من السلطة المزدوجة حيث كان ممثلو السلطات في المدن يتعاملون مع العلاقات التجارية والسياسية والخارجية بينما كان الشريف يتولى شؤون المدن المقدسة والتحالفات القبلية، وهي ازدواجية كانت تنتهك أحياناً. وكانت السلطتان تتنافسان من دون أن تكون الواحدة قادرة على إخضاع الأخرى.

كانت هذه السلطة المزدوجة تميز الحجاز بحدة عن نجد. إذ كان العثمانيون الأوصياء الرسميين على الأماكن المقدسة ولكنهم لم يكونوا قادرين على ممارسة هذا الامتياز من دون أمير الحجاز. ويقول بيترز إن «هذه الازدواجية أوجدت توازناً قلقاً» (بيترز ١٩٩٤ : ٣٣٥). وكانت الحكومة القائمة في الحجاز تختلف عنها في نجد حيث كانت الأخيرة تقع خارج سيطرة الإمبراطورية العثمانية برغم تدخل العثمانيين بانتظام في شؤونها. وبلغ هذا التدخل ذروته بغزو

محمد علي في أوائل القرن التاسع عشر في محاولة لمنع استمرار التوسع السعودي ـ الوهابي وفرض الحكم العثماني على السواء .

في الحجاز ، احتفظ السلطان العثماني بسلطة تعيين الأمير الذي كانت حاميته تمول من الخزينة العثمانية . كما كان العثمانيون يدفعون رواتب العلماء الحجازيين (دحلان ١٩٩٣) . وفي حين كان الوجود العسكري والإداري العثماني ظاهراً في المدن فإنه كان غائباً من الناحية العملية خارجها . وكان واجب السيطرة على الأراضي والسكان في المناطق الواقعة بين المراكز المدينية الكبيرة مناطاً بالشريف . وكان الأشراف المتميزون يكافأون على ما يبدونه من قدرة استثنائية في ضبط القبائل وبخاصة خلال موسم الحج . ومقابل ضمان الأمن لقوافل الحج القادمة من دمشق (باستخدام قوة عسكرية تتألف من شرطة الأمير والعبيد وخليط من المجموعات القبلية المدمجة) كان أمير مكة يتلقى أموال دعم منتظمة ، وكانت دائرة سلطته المدينية معفاة من الضرائب العثمانية . وكانت الحجاز بصفة عامة معفاة من الخدمة العسكرية احتراماً لمكانتها الخاصة والسامية بين الأقاليم العثمانية المختلفة . ولكن موانئها وتجارتها كانت خاضعة للضريبة .

استمر شريف مكة في تنفيذ السياسات العثمانية . وعلق دحلان ، مفتي مكة في القرن التاسع عشر ، على الطريقة التي حل بها العمثانيون محل المصريين بعد انسحاب قوات محمد علي من الحجاز في أربعينيات القرن التاسع عشر . فلقد أبقى العثمانيون على أموال الدعم للشريف التي باشر بها محمد علي . كما كانوا يتوقعون من الشريف أن ينفذ سياساتهم لا في الحجاز فحسب بل في عمق الجزيرة العربية أيضاً . ويبدو أن الشريف محمد بن عون (١٨٥٦ ـ ١٨٥٨) سار في حملة مع قبيلة شمر ضد فيصل بن تركي ؛ الحاكم السعودي للإمارة السعودية ـ الوهابية الثانية . وفرض الشريف ضريبة سنوية قدرها ١٠ آلاف ريال على الحاكم السعودي الذي واظب على دفعها حتى وفاته في عام ١٨٦٥ (دحلان ١٩٩٣) . ومرة أخرى ، جرد الشريف عبد الله ؛ نجل محمد بن عون ، حملة مع القوات العثمانية في عسير عام ١٨٧١ بعد ثورة محمد بن عائض على السلطان العثماني (دحلان ١٩٩٣ : ٢٥) . واستولى الشريف على ميناء قنفذة الذي كان خاضعاً لسيطرة قبيلة مغيدي العسيرية (بانغ Bang ١٩٩٦ : ٣٠) .

كانت أربعة فوارق رئيسية تميز الحجاز عن نجد : تبوؤ الأسر الشريفية مواقع السلطة ، والانقسام الحاد بين الريف والمدينة ، والمدن والموانئ الكوزموبوليتية غير المتجانسة ، وقوة

امبراطورية لها وجود عسكري في المدن الرئيسية وحق تعيين الشريف الذي كثيراً ما كانت تجري تنشئته وتعليمه في اسطنبول تحت رقابة السلطان العثماني ورعايته (دي غوري de Gaury ١٩٥١ : ٢٤٨). وحين يصدر قرار تعيينهم في اسطنبول كان الأشراف على اختلافهم يسافرون إلى مكة، لأول مرة في أحيان كثيرة، في حال كانوا يحتجزون رهائن في اسطنبول. وكان ينتظر منهم أن يحكموا في مكة وبين قبائل الحجاز بالأصالة عن السلطان. وكان الأشراف يستخدمون أموال الدعم العثمانية للسيطرة وتهدئة القبائل المختلفة التي كانت تضعف السلطة العثمانية بشكل منتظم من خلال غاراتها على الحجاج.

اعتمد الاشراف على أصلهم الهاشمي الرفيع لانتزاع الاعتراف بسلطتهم من سكان المدن والقبائل على السواء. يضاف إلى ذلك أن مرجعيتهم الدينية كانت تحظى بتزكية العثمانيين ودعمهم. ولكن هذه المرجعية لم تكن كافية لضمان الطاعة. وعلى غرار أمراء حائل والدرعية ولاحقاً الرياض، كان أشراف مكة يلجأون إلى الرشاوي والإكراه في محاولتهم تهدئة القبائل. وكان التوتر المتأصل بين القبائل وأمراء وسط نجد يتكرر في الحجاز. فلا شرعية السعوديين والأشراف الدينية ولا أصول أمراء حائل القبلية كانت كافية لحل التوتر. وكانت الإمارة الشريفية تتأرجح مع قدرة القبائل على تعزيز استمرارية الإمارة أو تهديدها. وسعت الإمارة إلى إدماج القبائل الحجازية لكن هذا لم يكن ممكناً دائماً.

وعلى غرار الإمارات النجدية فإن الضعف اعترى الكيان الشريفي بسبب النزاعات المتعاقبة بين عائلات شريفية مختلفة. وكان تدخل السلطة العثمانية بانتظام يزيد الصراعات الداخلية تفاقماً. ففي خمسينيات القرن التاسع عشر وجه الوالي العثماني دعوة إلى الشريف محمد بن عون لزيارة جدة حيث خطف وأرسل إلى اسطنبول. وأرسل غريمه عبد المطلب بن غالب الذي كان محتجزاً قبله في اسطنبول، ليكون شريف مكة (دي غوري ١٩٥١ : ٢٤٨). وعلى الرغم من أن العثمانيين كثيراً ما كان يتدخلون تدخلاً مباشراً بتأليب عائلة ضد أخرى فإن النزاعات على وراثة السلطة كانت قائمة حتى في المناطق التي لم يكن للسلطة العثمانية وجود يذكر فيها. ولا يمكن فهم مثل هذه النزاعات إلا بالإحالة على غياب قواعد واضحة للخلافة في هذه الإمارات، وحقيقة أن مصدر الشرعية والسلطة كان النسب بصفة عامة أكان شريفياً أو سعودياً أو رشيدياً بدلاً من أن يكون مصدرهما شخص الحاكم والمتحدرون من صلبه مباشرة. وإذ تنامت موارد مراكز الإمارات وسمعتها وقوتها تصاعدت معها النزاعات بين المتنافسين على حكمها (الرشيد ١٩٩١ : ٦٦ ـ ٧٤).

كانت الأحساء المنطقة الزراعية التي أولاها تجار نجد وقبائلها اهتمامهم. وكانت موانئ الخليج وواحات الأحساء ذات أهمية حيوية لبقاء سكان نجد بمواردهم الشحيحة[1]. وكان التكافل بين الجماعات البدوية والحضرية بادياً بجلاء في هذه المنطقة، إذ كان بدو نجد يأتون بحيواناتهم ومنتجاتها (الخيل والأغنام والإبل والزبدة) إلى أسواق الواحات والموانئ لمقايضتها بمنتجات زراعية (حبوب وتمور بالدرجة الرئيسية) وطائفة من البضائع المصنعة والسلع المستوردة (بما في ذلك الأسلحة). وأدت الموارد المائية الوفيرة لواحات هذه المنطقة إلى ظهور زارعين متخصصين بينهم ملاك ومحاصصون وعمال زراعيون. وفي حين أن بعض الزارعين النجديين كانوا فلاحين «غير متفرغين»، فإن الحساويين كانوا فئة متخصصة تتعايش مع القبائل، لا سيما تلك التي كانت ديارها محاذية للأحساء مثل شمر والعجمان والمرة ومطير (أنسكومب ١٩٩٧: ١٠). وكان هذا المجتمع الزراعي يتميز عن باقي السكان بسبب انتمائه الديني. فإن غالبية الفلاحين كانوا من المسلمين الشيعة، الذين يشكلون أقلية بين غالبية سنية. وقد تعرضوا للاضطهاد طوال القرن الثامن عشر على أيدي الوهابيين الذين كانوا يعدونهم تجسيداً لـ «أهل البدع» (الحسن ١٩٩٤، دوتي Doughty ١٩٧٩، والن Wallin ١٨٥٤).

عانى الفلاحون الشيعة، على امتداد تاريخهم، تمييزاً ثلاثياً: تمييزاً ناجماً عن وضعهم كأقلية دينية، وتمييزاً بسبب تخصصهم الزراعي المحتقر، وتمييزاً قائماً على الجهل بأصولهم القبلية على وجه التحديد. وبكلمات مؤرخ شيعي، فإن فقدان النسب لا يشير إلى أصل غريب أو غير عربي - محاجة كثيراً ما تسوقها المروبات التاريخية السعودية الرسمية الأخيرة - بل ينبغي أن يفسر بوصفة دالة تاريخ مديد من التوطن والالتصاق بالزراعة (الحسن ١٩٩٤: الجزء الأول، ٢٧؛ الرشيد ١٩٩٨: ١٣٠-١٣٥).

بالإضافة إلى العاملين في الزراعة، كان في الأحساء عدد من العائلات التجارية المعروفة التي تتعاطى التجارة بين واحات الداخل وموانئ الخليج (مثل الكويت والبحرين وقطر وعقير والقطيف) والعالم الخارجي (خاصة الهند وأفريقيا). وفي حين أن بعض العائلات التجارية كانت

---

(١) أنظر أنسكومب١٩٩٧؛ وفتاح ١٩٩٧.

تنسب أصولها إلى نجد فإن عائلات أخرى كانت حساوية محلية (فتاح ١٩٩٧ : ٧٧ ـ ٨٣). كما كان للتجار الأجانب وجودهم الملحوظ في المنطقة. إذ أقيمت شركات تجارية هندية وبريطانية في القطيف في منتصف القرن التاسع عشر (لوريمر ١٩٠٨ : ٩٦٥).

قبل صعود الحركة الوهابية كانت سياسة هذا العالم الصغير محكومة بقبيلة بني خالد بزعامة الحميد (أبو حاكمة ١٩٦٧ : ٦٧، ١٥٧). وكان بنو خالد حلوا محل العثمانيين في الأحساء منذ عام ١٦٧٠ ثم بسطوا بعد ذلك هيمنتهم الكاملة. وامتدت سيطرتهم إلى نجد التي أصبحت منطقة تقع ضمن دائرة نفوذهم (فتاح ١٩٩٧ : ٦٦؛ أنسكومب ١٩٩٧ : ١٢). وأدى صعود الإمارة السعودية ـ الوهابية الأولى إلى زوال سلطة بني خالد في عام ١٧٩٥ (أبو حاكمة ١٩٦٧ : ١٥٧)، بينما وقعت الأحساء تحت نفوذ القوات السعودية ـ الوهابية حتى هزيمة هذه الإمارة في عام ١٨١٨. وقام تدفق الإمدادات الغذائية والبضائع من الأحساء بدعم السعوديين وأتباعهم في الداخل، لا سميا في أوقات الجفاف (أنسكومب ١٩٩٧ : ٤٥).

تمكن السعوديون من إقامة شيء من مظاهر السلطة مجدداً في المنطقة عام ١٨٣٠. وفي الحقيقة، أن احتلال الأحساء كان المحاولة الأولى لإقامة الحكم السعودي بعد تدمير الدرعية في عام ١٨١٨. ولكن هذا الاحتلال السعودي ـ الوهابي الثاني (١٨٣٠ ـ ١٨٣٨) كان محفوفاً بالأخطار. فلقد أصبحت الأحساء الميدان الذي خاض فيه المتنافسون السعوديون صراعهم بعد وفاة فيصل بن تركي عام ١٨٦٥. وتم حل هذا النزاع جزئياً بالغزو العثماني في عام ١٨٧٠، في حركة من تخطيط وتدبير والي بغداد مدحت باشا. وأصبحت الأحساء «سنجقاً» تابعاً لولاية البصرة وعين حاكم عثماني في الهفوف. وفي عام ١٨٧٤ حاول العثمانيون إحياء سلطة بني خالد في مواجهة سلطة السعوديين عندما عينوا براك بن عريعر حاكماً على الأحساء (لوريمر ١٩٠٨ : ١١٣٢). وكان بنو خالد فقدوا حينذاك سلطتهم وأخفق حتى الدعم العثماني في إعادة مجدهم السابق. ويبدو أن الحساويين الشيعة رحبوا بالحكم العثماني نظراً إلى ما عانوه من ظلم وقمع مستمرين. ويؤكد أنسكومب إن أمراء الرياض دفعوا السكان إلى الفقر بضرائبهم واستحوذوا على ممتلكاتهم ولم يفعلوا شيئاً لوقف أعمال النهب التي كان يمارسها البدو ضدهم (أنسكومب ١٩٩٧ : ٣٥ ـ ٣٦).

كان التعارض اللافت في القرن التاسع عشر بين الأحساء من جهة ونجد والحجاز من الجهة الثانية، عجز الأولى عن إنجاب قوة قادرة على التطور إلى إمارة إقليمية. وبعد سقوط إمارة بني خالد يبدو أن الأحساء أصبحت هدفاً لأطماع قوى إقليمية مختلفة (الكويتيين والسعوديين

والرشيديين) ودول إمبراطورية أجنبية مثل العثمانيين وبريطانيا. وكانت المنافسة من أجل السيطرة عليها مدفوعة بمواردها الزراعية التي كانت أوفر بكثير من موارد نجد، وبالشبكات التجارية المتنوعة لسكانها، وهي ميزة قام ابن سعود بتفعيلها في القرن العشرين من أجل توطيد أركان دولته الناشئة حديثاً. ولكن غياب الإمارة المحلية لا يعني أن الأحساء كانت بلا قيادة محلية. وباستثناء دراسات قليلة (الحسن ١٩٩٤؛ فتاح ١٩٩٧. أنسكومب ١٩٩٧؛ ستينبرغ Steinberg ٢٠٠١)، فإننا ما زلنا نفتقر إلى تحليل تاريخي - مايكروي (جزئي) شامل يركز على الزعامة المحلية والتاريخ الاجتماعي في الأحساء. فالأعمال التاريخية ما زالت مهتمة بالسياسات العثمانية والبريطانية في إطار انشغال عام بـ «القرصنة» و«الرق» و«الصراع الدولي» في منطقة الخليج.

إن السؤال عن سبب إخفاق الأحساء في إبداء أشكال ابتدائية من الإمارة لا تمكن الإجابة عنه إجابة دقيقة. ولا يسعنا سوى التكهن بأن هذه المنطقة غير المتجانسة دينياً وقبلياً أصبحت منطقة عازلة بين التحالفات القبلية الجنوبية القوية في العراق ونظيراتها النجدية والإمارات النجدية والساحلية على شواطئ الخليج. يضاف إلى هذا، الوجودان العثماني والبريطاني اللذان أديا إلى تبلور مراكز وقوى مختلفة حول المنطقة ولكن ليس بين سكانها. والحقيقة الماثلة في أن نسبة كبيرة من هؤلاء السكان كانت من المزارعين الشيعة بين مسلمين سنة، لا بد من أن تكون مارست تأثيرها في التطور السياسي وعملت ضد انبثاق سلطة في إحدى واحات الأحساء.

تكوين الإمارات في الجزيرة العربية

إن الدينامية الداخلية لحركة السكان وتوطنهم (الجهني ١٩٨٣)، والقوة العسكرية والغزو (روزنفيلد Rosenfeld ١٩٦٥)، والمصالح الاقتصادية والتجارية (فتاح ١٩٩٧)، والدافع الديني (كوك Cook ١٩٨٨)، ذكرت كلها بوصفها متغيرات مسؤولة عن تكوين الإمارات في الجزيرة العربية. ولكن ليس من متغير من المتغيرات أعلاه يلفت انتباهنا إلى التفاعل بين الجماعات الحضرية والبدوية في الجزيرة العربية. فإن الاعتماد المتبادل بين هاتين الجماعتين المترابطتين ارتباطاً لا فكاك منه، أسفر عن تكافل اقتصادي وسياسي واجتماعي في صميم المركزية السياسية. وأصبح بعض واحات الجزيرة العربية ومدنها مراكز هامة تجمع بين اقتصاد البدو الرعوي والنشاطات الزراعية والتجارية للسكان الحضر. وكانت الكيانات السياسية السعودية -

الوهابية والإمارة الرشيدية محاولات لتنظيم هذا التفاعل. وقد سعت هذه وتلك إلى إدماج الأطراف البدوية بقاعدتهما الحضرية. ونجحتا حين كانت لديهما زعامة قوية تنعم بفائض كاف للحفاظ على التوازن بين مصالح البدو ومصالح الجماعات الحضرية. وكان هذا التوازن يتسم بأهمية حاسمة لدوام هذه الإمارات. وتسببت عوامل خارجية ونضوب الموارد والصراعات بين أفراد الفئات الحاكمة في زعزعة استقرار الإمارات مؤدية إلى تفككها الكامل في لحظات تاريخية حرجة.

ولكن الإمارة السعودية والإمارة الشريفية، على السواء، كانتا تختلفان عن الإمارة الرشيدية بسبب زعامتها. فالأشراف حكموا على أساس نسبهم المحدد إلى أهل البيت، الذي يعتبر في الحجاز فوق المجموعات القبلية الأخرى، في حين لم تكن لدى السعوديين صلة واضحة بمجموعات نجد القبلية. وتمكن الأشراف والسعوديون، على السواء، من القيام بدور الوسيط بين قطاعات مختلفة من المجتمع (البدو والحضر، القبلي وغير القبلي)، وهو دول لم يتمكن الرشيديون من الاضطلاع به بنجاح نظراً إلى ارتباطهم بقبيلة شمر. فقد كان حكم آل رشيد يقوم أساساً على هيمنة قبيلة واحدة. وكان توسع الإمارة الرشيدية يعتبر في الجزيرة العربية توسيعاً لسيادة شمر على المجموعات القبلية الأخرى والجماعات الحضرية. وعلى النقيض من ذلك، لم يكن بالإمكان ربط توسع الإمارتين السعودية والشريفية بهيمنة تحالف قبلي واحد. وفي حالة السعوديين جرى التوسع بذريعة رسالة دينية صنعتها ودعمتها جماعات حضرية في جنوب نجد.

يعزي انبعاث الحكم السعودي في أوائل القرن العشرين وتطور إمارته الثالثة لتكون دولة مكتملة النمو، إلى الحقيقة الماثلة في عدم وجود صلة واضحة أو جلية تربطه بتحالف قبلي. ولكن الإمارة في المناطق كافة بقيت نموذجاً للمركزية السياسية. وخلال العقود الثلاثة ألاولى من القرن العشرين كانت الدولة السعودية في البداية إمارة، أصولها وغزواتها وتوسعها كبيرة الشبة بسابقاتها.

الفصل الثاني

الدولة الناشئة: ١٩٠٢ ـ ١٩٣٢

شهدت العقود الأولى من القرن العشرين تفكك الإمارات المحلية السابقة في الجزيرة العربية وصعود عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، المعروف باسم ابن سعود. هذا الفصل يستعرض حملات ابن سعود العسكرية التي أدت إلى انبعاث السلطة السعودية كخلفية لمعاينة دور عاملين هامين هما «المطاوعة»، أو الخبراء الدينيون، و«الأخوان»، أو القوة العسكرية القبلية. وكان الأولون وسائط فاعلة في بناء الدولة، وكانوا أيضاً قوة قائمة من قبل مهيَّأة للتعبئة في خدمة الدولة. وبالمقابل، كان «الأخوان» قوة عسكرية حاسمة وُجِدت نتيجة جهود «المطاوعة» من أجل التوسع السعودي.

تحقق هذا التوسع في وقت كانت الجزيرة العربية تدرج شيئا فشيئاً ضمن دائرة النفوذ البريطانية بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية. وبحلول عام ١٩٠٠ كان غالبية حكام الساحل في الجزيرة العربية، من الكويت إلى مسقط، وقعوا معاهدات حماية مع بريطانيا. ولكن بريطانيا رفضت مد حمايتها إلى حكام الداخل حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى. وكانت الحرب ذريعة أتاحت مزيداً من التدخل البريطاني في العمق، معززاً المساعي السعودية لبناء الدولة.

الاستيلاء على الرياض (١٩٠٢)

كما سبقت الإشارة، كانت الرياض في عام ١٩٠٠ خاضعة لسلطة الأمراء الرشيديين الذين كانت دائرة ملكهم تشمل وقتذاك غالبية المنطقة الوسطى من الجزيرة العربية. وكانت تمتد من حائل في الشمال إلى القصيم في الوسط وصولاً إلى الرياض في الجنوب. وكان محمد بن رشيد (١٨٦٩ ـ ١٨٩٧) طرد آخر حاكم سعودي على الرياض، هو عبد الرحمن، إلى الكويت حيث عاش برعاية آل الصباح. وحكم عبد العزيز بن متعب بن رشيد (١٨٩٧ ـ ١٩٠٦)، وريث محمد، هذه المنطقة من خلال شيوخ وممثلين محليين. وضمن أمير حائل تأييد العثمانيين لكنهم كانوا يتابعون سلطته المتنامية بعين الشك.

من الكويت شن ابن سعود، نجل عبد الرحمن، هجوماً على الرياض لانتزاع المدينة من آل رشيد. ونال هذا تشجيع آل الصباح الذين كانوا هم أيضاً يخشون امتداد السلطة الرشيدية إلى مينائهم. وتفاقمت مخاوفهم بتحالف آل رشيد مع الإمبراطورية العثمانية. والجدير بالملاحظة أن الحكام الكويتيين وقعوا معاهدة حماية مع بريطانيا في عام ١٨٩٩. ونصت الاتفاقية الأنغلو - كويتية على ضمان سلامة الإمارة الكويتية والتعهد بحمايتها ضد الهجمات الخارجية. كما أباحت الاتفاقية لبريطانيا توسيع مصالحها إلى أعالي الخليج (أنسكومب ١٩٩٧). ومن الكويت حشد ابن سعود أربعين رجلاً (كشك ١٩٨١: ٢٧٧) - في تقارير أخرى ستون رجلاً (العثيمين ١٩٩٧: ٣٥٩ - ٣٦١) - وسار صوب الرياض. وتحقق الاستيلاء على الرياض بعد مباغتة الحامية الرشيدية ليلاً، وقتل عجلان ممثل ابن رشيد في ١٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٠٢ (فاسيلييف ١٩٩٨: ٢١٢). وهذا الهجوم المباغت هو الذي أعاد ابن سعود إلى الرياض[1]، وجاء الباقون من أسرة آل سعود في ما بعد. كما أن والد ابن سعود وصل إلى الرياض في أيار/ مايو لتأكيد ابنه في موقعه حاكماً على المدينة.

من الرياض بدأ ابن سعود سلسلة من الحملات في جنوب نجد وشرقها. وسقطت بلدات العارض والوشم والسدير والخرج بيديه. وتقهقرت قوات آل رشيد إلى القصيم التي باتت الآن منطقة عازلة بين عاصمتهم الشمالية والإمارة السعودية حديثة النشأة في جنوب نجد.

بعد الرياض وجنوب نجد أصبحت القصيم ساحة القتال بين السعوديين والرشيديين خلال الفترة الواقعة بين ١٩٠٢ و١٩٠٦. ودعم العثمانيون ابن رشيد ضد ابن سعود بإرسال قوات وذخيرة. وضمن ابن سعود تحالفاً مع الكويتيين وتأييد البريطانيين الذين اعتبروا دعم العثمانيين لابن رشيد تهديداً لمصالحهم في الكويت.

تأمن إلحاق القصيم بإمارة ابن سعود بعد معركة روضة مهنا في عام ١٩٠٦ التي قتل خلالها حاكم حائل عبد العزيز بن رشيد. وبحلول عام ١٩٠٦ مد ابن سعود سلطته إلى مدينتي القصيم الرئيسيتين: عنيزة وبريدة. وانكفأ أمير حائل الجديد إلى عاصمته وعاد ما تبقى من القوات التركية إلى المدينة والبصرة. وأكد العثمانيون ابن سعود حاكماً في واقع الأمر على القصيم

---

(١) التقارير التاريخية السعودية الرسمية تعتبر الاستيلاء على الرياض من حاكمها الرشيدي في عام ١٩٠٢، التاريخ الذي بدأت به الدولة السعودية الثالثة. ولكن هذا غير دقيق. فقد أعلن قيام المملكة العربية السعودية في عام ١٩٣٢. الفصل السابع يناقش أهمية هذا الحدث في المدونات التاريخية السعودية.

وجنوب نجد. وعين ابن سعود في البداية «قائمقام» القصيم ثم «والي» نجد. ويبدو أن العثمانيين سلموا بتقسيم نجد بين ابن سعود وابن رشيد.

بعد القصيم انتقل مسرح القتال إلى الأحساء حيث تعيش طائفة شيعية كبيرة. وفي عام ١٩١٣ شن ابن سعود هجوماً على الهفوف حيث وضع العثمانيون ١٢٠٠ جندي تركي بعد ضم المنطقة في عام ١٨٧٠ [1]. واعترف ابن سعود شكلياً بالسلطان العثماني ولكنه أضعف سلطته عندما عين أحد أقربائه؛ ابن جلوي، حاكماً على المنطقة. وفي أيار/ مايو ١٩١٣ وقع ابن سعود المعاهدة العثمانية ـ السعودية التي بموجبها أكد العثمانيون أن عبد العزيز باشا حاكم نجد بفرمان امبراطوري (لذرديل Leatherdale ١٩٨٣: ٣٦٩ ـ ٣٧٠؛ فاسيلييف ١٩٩٨: ٢٣٣). ويبدو أن ابن سعود كان يخشى وقوع غزو تركي من البحر بعد إقدامه على طرد الحامية العثمانية من الأحساء (ترولر Troeller ١٩٧٦: ٨٣). وأسفر غزو الأحساء عن عودة زعامة آل سعود إلى هذه المنطقة الشيعية حيث بسط العثمانيون سيطرتهم في سبعينيات القرن التاسع عشر. ويفيد أحد المصادر بأن اتفاقية عُقدت بين كبار العلماء الشيعة وابن سعود ضمن فيها الأخير الحرية الدينية للشيعة مقابل مبايعتهم لابن سعود (ستينبرغ Steinberg ٢٠٠١: ٢٤٣). وبقيت الحرية الدينية وعداً على الورق لأن الإسلام الوهابي كان ينظر إلى الشيعة بوصفهم «رافضة». وأصبح هذا الموقف الإطار الديني الذي يحدد وضع الشيعة في أراضي ابن سعود.

حتى بعد غزو الأحساء كانت بريطانيا تعتبر ابن سعود تابعاً عثمانياً ورفضت إبرام معاهدة تشمله بالحماية البريطانية (سلغلت وسلغلت Sluglett and Sluglett ١٩٨٢: ٤٩). ورسمت اتفاقية تموز/ يوليو ١٩١٣ الأنغلو ـ تركية حدود «سنجق» نجد الذي ضم ممتلكات ابن سعود الجديدة في الأحساء (لذرديل ١٩٨٣: ٣٦٩). لذا، لم تعترض بريطانيا على غزو ابن سعود للأحساء ولا اعترفت به. وطرأ تغير درامي على هذا الوضع باندلاع الحرب العالمية الأولى.

الحرب العالمية الأولى وابن سعود

مع دنو الحرب العالمية الأولى سعى المسؤولون العثمانيون إلى عقد صلح بين حاكمي نجد؛ ابن سعود وسعود بن عبد العزيز بن رشيد، والحصول على تعهد بتعاونهما العسكري. ونصت

(١) انظر أنسكومب ١٩٩٧؛ عن شيعة الأحساء في القرن العشرين، انظر ستينبرغ Steinberg ٢٠٠١.

الاتفاقية العثمانية ـ السعودية الموقعة في أيار/ مايو ١٩١٤ على بقاء نجد ضمن أراضي ابن سعود وأيلولتها إلى أبنائه وأحفاده بفرمان إمبراطوري. كما منعت الاتفاقية ابن سعود من إقامة علاقات تعاقدية مع قوى أجنبية أو منح امتيازات إلى أجانب في أراضيه (المصدر السابق: ٣٧٠).

وبالقدر نفسه، بدأت بريطانيا تبحث عن حلفاء محليين في نجد كان دعمهم يُعتبر ضرورياً لإنهاء السلطة العثمانية في المنطقة (الرشيد ١٩٩١: ٢١٤ ـ ٢١٥). وقد حررت الحرب بريطانيا من سياستها السابقة في عدم التدخل في شؤون عمق الجزيرة العربية. وأعرب ابن سعود عن رغبته في إجراء مفاوضات مع البريطانيين بعد استيلائه على الأحساء في عام ١٩١٣. وبعد عامين استقبل ابن سعود الكابتن شكسبير؛ المبعوث البريطاني الذي كان دوره إبرام معاهدة مع ابن سعود مماثلة للمعاهدات التي أبرمت مع حكام الساحل على شاطئ الخليج. وطرح شكسبير الفكرة القائلة إن بريطانيا ستحقق السيطرة على شاطئ الخليج الغربي وتتحكم بحركة السلاح وتستبعد سائر القوى الأجنبية من وسط الجزيرة العربية (ترولر ١٩٧٦: ٨٥). وقتل الكابتن شكسبير في معركة جراب بين ابن سعود وابن رشيد في عام ١٩١٥ قبل أن ينتهي من إعداد بنود المعاهدة.

وفي حين أن تفاصيل مقتل شكسبير ليست معروفة فإن مهمته كانت ناجحة لأن ابن سعود وقع المعاهدة الأنغلو ـ سعودية في ٢٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٥ (ترولر ١٩٧٦: ٨٦ ـ ٨٩؛ لذرديل ١٩٨٣: ٣٧٢ـ ٣٧٣). وبموجب هذه المعاهدة اعترفت الحكومة البريطانية بأن نجداً والأحساء والقطيف وجبيلاً وتوابعها وديارها هي أقاليم ابن سعود، وأن تعرض هذه الأراضي لاعتداء سيؤدي إلى قيام الحكومة البريطانية بمساعدة ابن سعود (لذرديل ١٩٨٣: ٣٧٢). وتلقى ابن سعود لدى توقيع المعاهدة ١٠٠٠ بندقية و٢٠ الف جنيه استرليني (فاسيلييف ١٩٩٨: ٢٣٨). يضاف إلى ذلك إن المعاهدة نصت على منح ابن سعود دعماً مالياً قدره ٥٠٠٠ جنيه استرليني شهرياً وشحنة منتظمة من المدافع الرشاشة والبنادق (المصدر السابق). واستمر ابن سعود في تلقي هذا الدعم حتى عام ١٩٢٤ (ترولر ١٩٧٦: ١٥٧ ـ ١٦٧؛ سلغلت وسلغلت ١٩٨٢: ٥٠).

في مقابل ذلك، وافق ابن سعود على عدم «الدخول في أي مراسلة أو اتفاقية أو معاهدة مع أي دولة أو قوة أجنبية، والامتناع عن كل عدوان، أو التدخل في أراضي الكويت والبحرين ومشايخ قطر وساحل عُمان، التي كانت تحت حماية الحكومة البريطانية ولها علاقات تعاهدية

مع الحكومة المذكورة» (لذرديل ١٩٨٣ : ٣٧٣). وكان هذا إيذاناً ببدء التدخل البريطاني المباشر في الشؤون السياسية لعمق الجزيرة العربية.

ولكن ابن رشيد ابتعد عن بريطانيا مواصلاً تحالفه الهش مع العثمانيين، وبقيت حائل ضمن دائرة النفوذ العثماني خلال الحرب. وبعد الاعتراف بابن سعود «والياً» على نجد (في الاتفاقية العثمانية ـ السعودية لعام ١٩١٤، المذكورة أعلاه) عين العثمانيون ابن رشيد بمنصب «القائد العسكري لعموم نجد» وأرسل له ٢٥ ضابطاً ألمانياً وتركياً مع ٣٠٠ جندي مقابل ولائه (الرشيد ١٩٩١ : ٢١٥).

واصل الغريمان في وسط الجزيرة العربية؛ ابن سعود وابن رشيد، عملياتهما القتالية خلال الحرب. واحتدمت المنافسة بينهما مع اتضاح معالم التحالفات على نحو أسطع. وقامت بريطانيا بدفع ابن سعود إلى الهجوم على حائل في عام ١٩١٧ خصوصاً أن حكامها اعتبروا حلفاء للعثمانيين. وفي الوقت الذي لم تسجل فيه انتصارات كبيرة فإن ابن سعود اغتنم ظروف الحرب لطلب مزيد من المساعدات من بريطانيا ضد ابن رشيد. وذهب ابن سعود إلى أن تضاريس الأرض بين القصيم وحائل فلاة قاحلة وأن من المحتم أن يجعل هذا صمود قواته صعباً. يضاف إلى ذلك أن جادل بأن حائلاً محصنة تحصيناً جيداً ويصعب فتحها بما يملك من سلاح فوافقت بريطانيا على مساعدته بألف بندقية و ١٠٠ ألف طلقة لضم العاصمة الرشيدية (الرشيد ١٩٩١ : ٢١٦). ولكن ابن سعود أخفق خلال الحرب في إضافة حائل إلى ملكه.

الاستيلاء على حائل

وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها في عام ١٩١٨ ولكن المعارك المحلية بين ابن سعود وغرمائه استمرت محتدمة. وكان ابن سعود وابن رشيد يسهران على حماية أراضيهما بأمل توسيع سلطتيهما إلى مناطق أخرى خصوصاً مع اختفاء الإمبراطورية العثمانية من الخريطة السياسية للجزيرة العربية. وتركب الحرب ابن رشيد بلا حليف، وساهمت في إضعافه أمام غريمه ابن سعود. وكان كل ما بمقدور ابن رشيد أن يعول عليه وقتذاك هو البقاء في السلطة في حائل والمناطق المحيطة بها. وخلال الفترة الواقعة بين ١٩١٨ و ١٩٢٠ حاول أمراء حائل، باستمرار، أن يعوضوا خسائرهم في وسط الجزيرة العربية، فدخلوا في مفاوضات مع الهاشميين في الحجاز، وآل الصباح أمراء الكويت الذين بدأوا يدركون الخطر الذي يمثله ابن سعود، خاصة

بعد أن بات واضحاً أن دعم بريطانيا خلال الحرب عزز موقعه بدرجة كبيرة. وبرغم نجاح هذه المفاوضات في كسر عزلة آل رشيد بعد الحرب، فإنها لم تسفر عن أي نشاط عسكري مشترك ضد ابن سعود. ولم يتمكن آل رشيد من درء هجوم ابن سعود على أراضيهم في عشرينيات القرن العشرين (المصدر السابق: ٢٢٣ ـ ٢٢٤). وبدأ الهجوم على حائل بممارسة ضغط اقتصادي على قبيلة شمر، التي كانت من أنصار آل رشيد الأقوياء، وذلك عن طريق حرمانها من إمكانية الوصول إلى الأسواق في الأحساء التي كانت وقعت تحت سيطرة ابن سعود. وأعقبت ذلك مناوشات وتجاوزات عسكرية على واحات جبل شمر.

وعندما اقترن الضغط العسكري بنزاعات داخلية على الخلافة في العاصمة الرشيدية، بات سقوط السلطة الرشيدية في وسط الجزيرة العربية حتمياً. وكان الضعف اعترى الإمارة أصلاً بتحالفها مع الإمبراطورية العثمانية المهزومة. وبدعم البريطانيين وتحالفهم تمكن ابن سعود من الاستيلاء على حائل في عام ١٩٢١ (الرشيد ١٩٩١: ٢٢٣ ـ ٢٢٤). ففي آب/ أغسطس ١٩٢١ فرض ابن سعود حصاراً على العاصمة الرشيدية بعشرة آلاف رجل. وفي ١ تشرين الثاني/ نوفمبر استسلم آل رشيد لابن سعود. وفي ٤ تشرين الثاني/ نوفمبر فتحت أبواب الواحة وبايع أهل حائل ابن سعود[1].

بسقوط حائل امتدت سلطة ابن سعود إلى المناطق الشمالية من نجد. وأنهى سقوط إمارة آل رشيد أفق تطور هذه السلطة المحلية إلى قوة سياسية كبيرة في الجزيرة العربية في القرن العشرين. يضاف إلى ذلك أن احتلال حائل كان يتسم بأهمية بالغة لأنه مد الحدود السعودية إلى مشارف أبعد شمالاً. وعلقت غير ترود بيل Gertrude Bell على أهمية الاستيلاء على حائل بقولها «إن قهر حائل ستكون له نتائج بالغة الأثر. فهو سيضع ابن سعود على مسرح السياسة في شرق الأردن» (ترولر ١٩٧٦: ١٦٩).

(١) للاطلاع على التفاصيل الكاملة للاستيلاء على حائل ومصير أمراء آل رشيد، انظر الرشيد ١٩٩١.

الاستيلاء على الحجاز (١٩٢٥)

في ١٩١٨ و١٩١٩ كانت العلاقات الحجازية ـ النجدية متفجرة مع استمرار المنافسة بين ابن سعود والملك حسين، والضغط العسكري الذي كان الأول يمارسه على الحجاز. وقبل الاستيلاء على حائل كان ابن سعود مشتبكاً في حرب هامة. وكان النزاع يدور حول قرية صغيرة لا أهمية لها هي قرية خرمة التي اعتبرها كل من ابن سعود والملك حسين واقعة ضمن أراضيه. وبحسب رواية فيلبي Philby للأحداث، فإن أهل خرمة حولوا ولاءهم إلى ابن سعود، وهو تطور دفع حسيناً إلى إرسال قواته لاستعادة سلطته في هذه القرية. وقد منيت قواته بالهزيمة وانتقل النزاع إلى قرية أخرى هي تربة التي تبعد ثلاثين ميلاً جنوب غرب خرمة (مقتبس من ترولر ١٩٧٦ : ١٤٢ ؛ كوستاينر ١٩٩٣ : ٣٥). ودمرت القوات السعودية الجيش الشريفي النظامي بقيادة عبد الله نجل حسين، واستولت على كل أسلحته. وأسفرت الاشتباكات مع الهاشميين عن ملاحقة عبد الله وطرده من تربة. وأعقبت هزيمة الجيش الحجازي هدنة بين ابن سعود وحسين بتحكيم بريطاني. وأصر ابن سعود على أن تضم حدود نجد قريتي خرمة وتربة وأن يسمح للحجاج النجديين بأداء مناسك الحج بأمان (ترولر ١٩٧٦ : ١٥٢). وسافر ابن ثنيان ممثل ابن سعود إلى الحجاز لبحث بنود السلام. ووقعت هدنة بين نجد والحجاز أوقفت العمليات الحربية أربع سنوات على أقل تقدير (المصدر السابق).

بعد الهدنة مع حسين، اغتنم ابن سعود الفرصة للتوسع في جنوب الحجاز وتحديداً في عسير. ويبدو أن الدعم البريطاني لتنصيب عبد الله وفيصل (ابني حسين) ملكين في العراق وسوريا أثار حفيظة ابن سعود. واستناداً إلى ترولر فقد «بدا للحاكم النجدي أن خصومه الهاشميين يقومون بحركة التفاف عليه» (ترولر ١٩٧٦ : ١٥٢).

كانت لدى عسير إمارة مقرها في صبيا أقامها أحد أحفاد المعلم الصوفي في القرن التاسع عشر أحمد بن إدريس. وكان الأدارسة عارضوا الحكم العثماني منذ أواخر القرن التاسع عشر وحشدوا تحالفات قبلية بهدف طرد العثمانيين من الأرض (الزلفي ١٩٩٥). وكان هذا عاملاً هاماً وراء قيام الإمارة الأدريسية في القرن العشرين (١٩٠٦ ـ ١٩٣٤) على يد محمد بن علي الإدريسي (١٨٧٦ ـ ١٩٢٣). وأصبحت الإمارة الإدريسية منطقة عازلة بين قوى محلية متنازعة. فالأسرة الهاشمية في مكة وأئمة اليمن كانوا يحاولون التوسع في هذه المنطقة الزراعية، وسعى

الجانبان إلى نيل المساعدة من قوى خارجية لتوسيع نفوذهم في عسير. وأحيطت الدولة الإدريسية في نهاية المطاف بحماية بريطانيا وإيطاليا اللتين كانت لهما أسبابهما لمعارضة العثمانيين قبل الحرب العالمية الأولى (بانغ ١٩٩٦ : ١٤١). وأعلنت إيطاليا الحرب على الإمبراطورية العثمانية في عام ١٩١١بعد الغزو الإيطالي لطرابلس وسرنيقة. وبعد أن بسطت إيطاليا سيطرتها على أريتريا وجدت في محمد الإدريسي الذي عارض الحكم العثماني في عسير، حليفاً محتملاً في منطقة البحر الأحمر.

أقام الأدارسة سيطرة رخوة على المجموعات القبلية في عسير وخاصة بعد هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى. وفي أعقاب الحرب انتقلت قبائل كانت موالية للأدارسة إلى جانب ابن سعود مؤكدة بذلك هشاشة الائتلاف بين الأدارسة وعمقهم القبلي. الأدارسة أنفسهم لم تكن لهم جذور قبلية في المنطقة بل كانوا وظلوا وافدين جداً بين قبائل عسير غير المتجانسة (بانغ ١٩٩٦ : ١٣٥). وفي حين واصل الأدارسة حكمهم الضعيف في عسير فإن أمير أبها المحلي عرض مبايعة ابن سعود بعدما قامت القوات السعودية بقيادة نجله فيصل باحتلال أبها، عاصمة عسير[١]. وفي عام ١٩٢٢، أصبحت أبها جزءاً من مُلك ابن سعود، وهو حدث أثار غضب حسين الذي كان يعتبر المنطقة امتداداً لحكمه على الحجاز (فاسيلييف ١٩٩٨ : ٢٦٢).

كانت الحملة السعودية في عسير مقدمة لتجاوز عسكري أشد شراسة على أراضي حسين في قلب الحجاز، وثمة سببان يشكلان خلفية في هذا السياق: أولاً، إن موارد ابن سعود المالية تعرضت لضربة عندما أوقفت بريطانيا مخصصه الشهري البالغ ٥٠٠٠ جنيه استرليني في عام ١٩٢٤. فبدأ يتطلع إلى المنطقة الأكثر ازدهاراً في وسط الحجاز حيث سيفوق الدخل المتحقق من ضريبة الحج والرسوم الجمركية المفروضة في جدة بكثير دخله المحدود من نجد والأحساء. ثانياً، تولى حسين في ٥ آذار/ مارس ١٩٢٤ الخلافة التي كان المجلس التركي ألغاها قبل يومين (ترولر ١٩٧٦ : ٢١٦). وكان هجوم ابن سعود على الحجاز مؤشراً واضحاً إلى أنه لا يعترف بحسين خليفة جديداً. وبحجب الدعم المالي الذي كان يقدم إلى ابن سعود لم يكن لديه ما يخسره من استعداد بريطانيا التي اضطلعت حتى ذلك الوقت بضمان سلامة الحكم الشريفي.

---

(١) ضم عسير إلى دائرة السلطة السعودية يرد في بانغ ١٩٩٦ ؛ والزلفي ١٩٩٥.

في أيلول/ سبتمبر ١٩٢٤ ظهرت قوات ابن سعود في الطائف، وهي منتجع جبلي قرب مكة. ونهبت المدينة على امتداد ثلاثة أيام رضخ بعدها سكانها للحكم السعودي. وبضغط من وجهاء الحجاز تنازل حسين لصالح نجله علي في ٦ تشرين الأول/ أكتوبر١٩٢٤. وأرسل حسين إلى ميناء جدة حيث رتب البريطانيون أمر إبحاره إلى العقبة. إذ يبدو أن البريطانيين قرروا أخيراً الاعتراف بالأمر الواقع الذي أوجده الغزو السعودي للحجاز (ترولر ١٩٧٦: ٢١٨). ورفضت بريطانيا، بوصفها قوة الانتداب في شرق الأردن، السماح لحسين بالاستقرار مع نجله عبد الله خشية أن يستحث هذا انطلاق الغارات السعودية. وبدلاً من ذلك أقام حسين مؤقتاً في العقبة ثم انتقل لاحقاً إلى قبرص.

تنازل حسين شجع ابن سعود على الزحف إلى مكة. ودخلت قواته المدينة المقدسة في ٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٤. ومن مكة أصر ابن سعود على رحيل الشريف علي وريث حسين عن الحجاز شرطاً مسبقاً للسلام. وأعلن ابن سعود أن الغرض الوحيد من غزوه الحجاز هو «تأمين حرية الحج وتقرير مصير الأرض المقدسة بما يرضي العالم الإسلامي» (المصدر السابق: ٢٠٠-٢٠١).

ظهرت قوات ابن سعود على أبواب جدة في كانون الثاني/ يناير ١٩٢٥ وفرضت حصاراً دام نحو عام. وبوساطة بريطانية غادر الشريف علي مدينة جدة لدى استسلامها في ١٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٥. وكانت المدينة الكبيرة المتبقية في الحجاز، وهي المدينة، استسلمت لابن سعود. وإذ وقعت المدن الحجازية الرئيسية تحت سيطرة ابنس عود، أعلن نفسه «ملك الحجاز» في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٥[1]. وفي ٨ كانون الثاني/ يناير ١٩٢٦ بايع وجهاء الحجاز ابن سعود وأعلنوه «ملك الحجاز وسلطان نجد وتوابعها». وفي غضون ثلاثة أشهر نال اعتراف القوى الأوروبية التي كانت تسيطر على اعداد كبيرة من السكان المسلمين، وهي بريطانيا والاتحاد السوفياتي وفرنسا وهولندا (ترولر ١٩٧٦: ٢٣١).

ضمنت حملات ابن سعود العسكرية في الجزيرة العربية توسع سلطانه على نجد والأحساء والحجاز وعسير. وكانت هذه أول مرة تقع المناطق الأربع تحت سيطرة حاكم واحد منذ الإمارة

---

(١) للاطلاع على مزيد من التفاصيل عن سقوط الحكم الشريفي في الحجاز، انظر ترولر ١٩٧٦؛ وكوستاينر ١٩٩٣.

السعودية ـ الوهابية في القرن الثامن عشر. وكانت الغزوات العسكرية هي الخلفية التي قامت عليها الدولة السعودية في القرن العشرين. وحدثت غزوات ابن سعود في وقت بلغ التدخل الخارجي البريطاني مستوى لا سابق له. وكانت هزيمة في الإمبراطورية العثمانية في الحرب عاملاً مساعداً هاماً في هذا التدخل، متيحاً لبريطانيا أن تتعامل مع الأمراء المحليين بدلاً من الإمبراطورية البائدة. وقامت بريطانيا بدور حاسم في توسع ابن سعود إلى حائل والحجاز. وأخل دعمها المالي وما كانت تقدمه من ذخيرة وسلاح بميزان القوى بين ابن سعود وابن رشيد. يضاف إلى ذلك أن بريطانيا لم تتمكن من التدخل تدخلاً سافراً في الحرب الحجازية بين ابن سعود وحسين لأن هذا كان من شأنه أن يستعدي عليها رعاياها المسلمين. ويبدو أن بريطانيا تخلت عن الشريف حسين وامتنعت عن ضبط ابن سعود بعدما كانت وعدت الشريف بالحفاظ على سلامة مملكته في الحجاز.

بعد أن أنجز غزو الحجاز، كان هم بريطانيا الرئيسي أن تحافظ على سلامة الإقليمين اللذين وقعا تحت انتدابها، وهما العراق وشرق الأردن، حيث كان ابن سعود يمثل تهديداً حقيقياً للنظامين الملكيين الهاشميين اللذين أقيما حديثاً هناك. سعت الحكومة البريطانية إلى تنظيم الحدود بين ابن سعود وجيرانه الشماليين بتوقيع اتفاقيتي «بحرة» و«هداء» في تشرين الأول/أكتوبر١٩٢٥. ورسمت هاتان الاتفاقيتان الحدود بين ابن سعود وغرمائه الهاشميين. يضاف إلى ذلك أنهما قيدتا حركة القبائل البدوية الرحل في الشمال. وبموجب «اتفاقية بحرة» بين ابن سعود والعراق، لا يجوز للقبائل الخاضعة لإحدى الحكومتين (العراق ونجد) أن تعبر الحدود إلى أراضي الحكومة الأخرى إلا بعد الحصول على إذن من حكومتها وموافقة الحكومة الأخرى. (ترولر ١٩٧٦: ٢٢٧ ـ ٢٣١؛ لذرديل ١٩٨٣: ٣٧٥).

وأدرجت مادة مماثلة في «اتفاقية هداء» مع شرق الأردن. وأسفرت هذه القيود على حركة القبائل بين أراضي ابن سعود وشرق الأردن والعراق، عن تحد خطير لسلطة ابن سعود من قوة «الأخوان» القبلية، سيناقش لاحقاً في هذا الفصل. ويكفي هنا القول إن هذه كانت أول محاولة رسمية لفرض قيود على حركة القبائل والتحكم بها في منطقة كانت الاتفاقيات الدولية وترسيم الحدود بين «الدول» مفاهيم غريبة عنها. وفي عام ١٩٢٥ تعرض بدو الشمال الرحل الذين

كانوا يعتمدون في معيشتهم اعتماداً كبيراً على التنقل والهجرة، لضربة ثانية عندما ألغى ابن سعود تقليد «الديرة» (أرض القبيلة)، وأعلن أنها تعتبر من الآن ولاحقاً أراضي مملوكة للدولة.

بعدما انتهى ابن سعود من تأمين أعالي الحجاز وجه اهتمامه مجدداً إلى عسير حيث وقع «معاهدة مكة» مع حسين بن علي الإدريسي في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٦. واعترف الإدريسي بوضعه خاضعاً لـ «سيادة صاحب الجلالة ملك الحجاز وسلطان نجد وتوابعها» موافقاً على أن « لا يدخل في مفاوضات سياسية مع أي حكومة أو يمنح أي امتيازات اقتصادية لأي شخص إلا بموافقة جلالته». ووافق ابن سعود على أن «يتولى الأدارسة أمور الإدارة الداخلية لعسير والإشراف على شؤونها القبيلة» (لذرديل ١٩٨٣ : ٣٧٩). وأتاحت هذه المعاهدة لإمارة عسير شبه المستقلة ذاتياً، أن تتعايش مع المناطق الخاضعة لسيطرة ابن سعود فترة قصيرة من الزمن، ولكن هذا الوضع انتهى في عام ١٩٣٠، كما سيتضح في الفصل التالي (الفصل الثالث).

بعد قهر الحجاز كانت بريطانيا القوة الأجنبية الرئيسية التي تولت تنظيم العلاقة بين دولة ابن سعود الناشئة حديثاً والأقاليم الواقعة تحت انتدابها في الشمال. وعلى إثر هذا الغزو على وجه التحديد، أدركت الحكومة البريطانية أن معاهدتها الأولى مع ابن سعود، التي وُقعت عام ١٩١٥، كانت «غير ملائمة على نحو واضح لظروف ١٩٢٦» (المصدر السابق:٦٣). واعترفت «معاهدة جدة» التي وقعت في أيار/ مايو١٩٢٧، بـ «الاستقلال التام والمطلق لدولة جلالته ملك الحجاز ونجد وتوابعها»، ونصت على أن يتعهد ابن سعود بـ «تسهيل أداء الحج للرعايا البريطانيين والأشخاص المحميين بريطانياً من ذوي الديانة الإسلامية». وأكدت المعاهدة مجدداً أن يقيم ابن سعود «علاقات ودية وسلمية مع أراضي الكويت والبحرين ومع شيوخ قطر والساحل العماني» (المصدر السابق: ٣٨١). وبحسب لذرديل فإن ابن سعود توثق من أن تشير المعاهدة إلى شرعية حقوقه الدنيوية والتاريخية ضامناً حقه في اختيار وريثه. ولكن بريطانيا لم تدرج صفة «الدولة الأولى بالرعاية، ولا هي أتاحت إمكان عقد معاهدة تجارية مع دولة ابن سعود» (لذرديل ١٩٨٣ : ٧١). وكانت معاهدة بريطانيا مع ابن سعود معترفة باستقلاله التام والمطلق، معاهدة فريدة تقريباً في أنها لم تكن موجهة إلى دولة مثل مصر أو العراق، بل إلى رجل (المصدر السابق: ٧٣). وعمدت بريطانيا إلى قصر صلاحية المعاهدة على عهد ابن سعود.

ولكن علاقة بريطانيا الحميمة مع ابن سعود ظلت علاقة مُبهَمة. وحتى عام ١٩٢٩، فإن الحكومة البريطانية «في الوقت الذي أخذت في اعتبارها مآثر ابن سعود وضرورة تعديل العلاقات معه، لم تذهب مع ذلك إلى حد النظر إليه على أنه عامل حاسم في موقع بريطانيا في العالم العربي. فإن ابن سعود كان لم يزل يبعد سبع أو ثماني سنوات عن تحقيق هذا النوع من المكانة المرموقة» (المصدر السابق: ٨٩). وعندما أعلن ابن سعود دائرة سلطانه المملكة العربية السعودية في عام ١٩٣٢، فإن هذه المملكة ودولاً خليجية أخرى معها لم تكن مستعمرات بل كانت قائمة بصورة مُبهَمة في إطار الإمبراطورية البريطانية وفق علاقات تعاهدية خاصة مع بريطانيا. وبرغم ما في هذه العلاقة الخاصة مع بريطانيا من «إبهام»، فإنها بقيت علاقة مطلقة حتى وصول الأميركيين بكل اندفاعهم خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها (سلغلت وسلغلت ١٩٨٢: ٥٤).

وفي حين أن علاقة ابن سعود الخاصة مع بريطانيا بدأت تكتسب طابعاً رسمياً بعد ضم الحجاز، فقد كانت هناك آليات محلية هامة عملت على تيسير التوسع السعودي خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين. ولن تكتمل قصة توطد الحكم السعودي من دون تقييم فاعلين محليين قاما بدور لا يقل أهمية في تكوين الدولة، هما «المطاوعة» و«الأخوان» في نجد.

«مطاوعة» نجد

كان رجال الدين النجديون يعرفون باسم «المطاوعة» في اللهجة الملحية الدارجة. وبرغم أن تسمية «المطاوعة» تشير اليوم إلى مهنة محددة في إطار المؤسسة الدينية، فقد كان للتسمية في بداية القرن العشرين معنى أوسع من دلالتها المعاصرة، السلبية في أحيان كثيرة[1]. وفي عام ١٩٠٠ كان «المطاوع» حضرياً نال تعليماً دينياً بعد فترة من الدراسة مع أحد العلماء المعروفين في المدن الكبيرة جنوبي نجد (بالدرجة الرئيسية الرياض) والقصيم (عنيزة) وأصبح بعدها

(١) ثلاثة ألقاب دينية كانت متداولة في الجزيرة العربية عام ١٩٠٠: «المطاوع» (الذي يراقب السلوك العام)، و«الإمام» (الذي يؤم الصلاة ولكنه يمكن أن يشير أيضاً إلى قائد الأمة الإسلامية)، و«القاضي». وكان من الشائع أن يؤدي شخص واحد وظائف متعددة. انتشار الألقاب الدينية في العربية السعودية ظاهرة حديثة العهد تعود إلى زمن الملك فيصل (١٩٦٤ ـ ١٩٧٥).

متخصصاً في الفقه وأمور العبادة. وتجسد تسمية «المطاوع» الطاعة والالتزام على السواء. فلقد كان «المطاوع» متطوعاً يسهر على طاعة الإسلام وأداء شعائره.

كان «المطاوعة» ظاهرة نجدية. وكانوا يختلفون عن رجال الدين في مناطق أخرى من العالم الإسلامي، الذين من الشائع أن يشار إليهم باسم «العلماء». وتاريخياً كان رجال الدين النجديون في أحيان كثيرة لا يدرسون ويدرسون ويطبقون إلا الفقه الحنبلي، معتبرين أن الفروع الأخرى من علوم الدين والكلام تزفيات فكرية لا حاجة لها في مجتمعهم (الجهني ١٩٨٣: ٢٥٢). ولأنهم كانوا خبراء في «فقه العبادة» فإن من الأدق وصفهم بالأخصائيين في شعائر الدين أو مجرد «أخصائيين طقوسيين». ويستحضر مصطلح «العلماء» صورة مفكرين دينيين كثيراً ما تشمل معارفهم وعلومهم فروعاً أخرى من علم الدين بالإضافة إلى الفقه. وباستثناء البعض، ربما، من أحفاد محمد بن عبد الوهاب المعروفين باسم آل الشيخ، وقلة من الشخصيات النجدية التي حافظت على تقليد من التبحر في علوم الدين منذ القرن الثامن عشر، فإن غالبية رجال الدين النجديين كانوا من «المطاوعة». وكان اهتمامهم ينصب على الإسلام الطقوسي مع معرفة محدودة في اللاهوت. وكانوا يمارسون معارفهم بالارتباط مع الزراعة والتجارة.

إن غالبية المؤرخين السعوديين لعلماء نجد لا يميزون بين «العلماء» و«المطاوعة» (البسام ١٩٧٨). ويشار في تقاريرهم إلى رجال الدين النجديين جميعهم بوصفهم «علماء». ولكن إطلاق تسمية «العلماء» على الفقهاء النجديين في أوائل القرن العشرين سيكون مضللاً، إذ لم يكن في نجد مركز هام لعلوم الدين يقارن بما لدى مكة والقاهرة والنجف. وباستثناء قلة من «العلماء» في الرياض والقصيم فإن غالبية المختصين بشؤون الدين كانوا في الحقيقة «مطاوعة».

كانت لاضطلاع «المطاوعة» النجديين بفرض الإسلام الطقوسي أهميته في عملية تكوين الدولة. وفي الفترة الواقعة بين ١٩٠٢ و١٩٣٢ كان نظام «الانضباط والعقاب» الذي فرضه «المطاوعة» المنشغلون دائماً بالإسلام الطقوسي، ضرورياً لحمل سكان الجزيرة العربية على قبول سلطة ابن سعود السياسية بعد استيلائه على الرياض في عام ١٩٠٢.

كان أخصائيو الطقوس النجديون بحاجة إلى شخصية سياسية ـ عسكرية؛ إلى «إمام» رمزي يزكي قضيتهم. ومن سيكون أنسب لهذه المهمة من ابن سعود الذي دأب أجداده على دعمهم منذ تحالف ١٧٤٤ الشهير؟ وعندما دخل ابن سعود الرياض أعلنوه «إمامهم» بأمل مواصلة

صعودهم ذاته. وقد منحه لقب «الإمام» الرمزي شرعية كان في حاجة ماسة إليها[1]. وبالمقابل، ضُمنت لـ «المطاوعة» قيادة سياسية وعسكرية متعاطفة. ومن الهام أن يلاحظ أن ابن سعود لم يُعتبر أميرهم أو شيخهم القبلي. ولم يكن بوسعه إلا أن يكون إمامهم، وهو لقب ينطوي على الرمزية الدينية نفسها التي مُنحت لأجداده من قبله. ولم يكن «المطاوعة» معلميه خلال سنوات نفيه في الكويت فحسب، بل كانوا أيضاً أقرباءه من ناحية الأم، ولاحقاً أنسباءه. ومنذ سن السابعة عُهدت رعاية ابن سعود الدينية إلى عدة شخصيات دينية أشهرها عبد الله بن عبد اللطيف الشيخ، وهو من أحفاد محمد بن عبد الوهاب. وإن «هذا العالم علمه التوحيد والفقه» من كراس أعد خصيصاً له (الزركلي ١٩٧٢: ١٧). وجرى تأهيل ابن سعود نفسه لهذين المضارين اللذين يعتبران الأهم بنظر ((المطاوعة)) (حمزة ١٩٣: ١٣). وأصبح معلمه، جد الملك فيصل (١٩٦٤ ـ ١٩٧٥) من أمه، حماه.

كانت غالبية «المطاوعة» من سكان الواحات النجدية الحضر. وهم لم يظهروا خلال فترة قصيرة من الزمن، ولا كان ابن سعود من أوجدهم، بل كانوا فئة اجتماعية ـ دينية قائمة أصلاً، تربت على تعاليم المصلح محمد بن عبد الوهاب منذ القرن الثامن عشر. ومثل هؤلاء الأخصائيين الدينيين كانوا موجودين تقريباً في كل مدينة وواحة في نجد حتى قبل أن يتعاظم زخم الحركة الإصلاحية في القرن الثامن عشر «الجهني ١٩٨٣». وكانت لدى المستوطنات النجدية مساجد يقوم فيها العلماء بتعليم مبادئ الدين وشعائر الإسلام. وكان طلابهم يتخرجون أئمة وخطباء جوامع. وكان ذوو المعارف الدينية الأرقى يعملون قضاة يديرون أمور الشرع برعاية الأمراء المحليين.

يتسم التحالف المقدس بين ابن سعود وأخصائي الطقوس النجديين بأهميته لفهم أصول الكيان السياسي السعودي في القرن العشرين. وكان هذا التحالف أيضاً الآلية التي ساهمت في استمراره. فإن الأخصائيين الطقوسيين اضطلعوا بوظائف هامة في عملية تكوين الدولة. وكانوا، بحكم إعدادهم الوهابي، ميالين إلى فكرة الدولة بوصفها شراكة بين الإمام الرمزي، «قائد الأمة»،

---

(١) ينبغي ألا يخلط بين لقب ابن سعود الجديد بوصفه «الإمام» ومَنْ يَؤم الصلاة (انظر الهامش ٦). وعندما أصبح ابن سعود «إماماً» كان المقصود ألا يكون من يؤم الصلاة فحسب، بل قائد الأمة الإسلامية أيضاً.

والأخصائيين الدينيين، حيث الأول يسهر على تطبيق القواعد الدينية للثانين. ومن الهام أن يلاحظ أن فكرة الشراكة هذه لم تكن نتاج النشاط الفكري الذي مارسه «المطاوعة» أنفسهم، بل طرحها رجال دين أرسخ مكانة، العديد منهم من أحفاد محمد بن عبد الوهاب، الذين كانوا من نمط «العلماء».

أقر الأخصائيون الدينيون الوهابيون بالمبدأ القائل إن السلطة مشروعة ايأ كانت طريقة الوصول إليها، وإن الطاعة لصاحب السلطة أياً يكن، واجبة على رعيته بأسرها (العظمة Al Azmeh ١٩٩٣ : ١٠٧). وهكذا كان الأخصائيون الوهابيون برغماتيين، بمعنى أنهم كانوا قادرين على تحويل ولائهم من حاكم إلى آخر دونما صعوبات فقهية.

وجد ابن سعود في الفكرة الوهابية عن الدولة إطاراً مفهومياً حاسماً لتوطيد أركان حكمه. فهو كان يتمتع بالشرعية ما دام يحتضن قضية الأخصائيين الدينيين متحولاً إلى حامي الإسلام الطقوسي. وكانت شرعيته تنبع من الاعتراف بالشريعة وتطبيقها قانوناً إلهياً يسمو عليه ومستقلاً عن إرادته (العظمة ١٩٩٣ : ٢٣٠). وما دام يتحكم إلى هذا القانون وطريقة علماء الرياض في تفسيره، فإنه كان قادراً على الحكم. وكانت مثل هذه المفاهيم في المرجعية والسلطة ذات أهمية حاسمة لتسويق قيادة طموحة.

كان «المطاوعة» كثيراً ما يصلون إلى القبائل قبل قوات ابن سعود المغيرة[١]. كما كانوا بين السكان الحضر جزءاً من الجماعة بوصفهم فئة اجتماعية ـ دينية. وقاموا بتيسير التوسع السعودي بتعريف السكان إلى الأفكار آنفة الذكر. ولكن ينبغي ألا يذهب التفكير إلى أن «المطاوعة» في الفترة الواقعة بين ١٩٢ و١٩٣٢، كانوا منهمكين في نقاشات مستفيضة مع جمهورهم حول طبيعة الدولة الإسلامية. فالناس الذين كان «المطاوعة» يثقفونهم بمذهبهم لم يكونوا معنيين بالمناظرات اللاهوتية حول طبيعة النظرية الإسلامية في الدولة والحاكم العادل، لأسباب منها أنهم كانوا أميين، ولكن الأهم لأن غالبية «المطاوعة» أنفسهم لم تكن لديهم معرفة بمثل هذه الأمور النظرية. والأرجح أن «المطاوعة» اقتصروا على تعليم القرآن والعبادة التي كان لهم اختصاص متميز فيها. يضاف إلى ذلك، أنهم كانوا يبشرون بأهمية الطاعة لولي الأمر.

---

(١) معلق سعودي على دور «المطاوعة» بعدهم رهطاً من الجواسيس الذين أرسلهم ابن سعود تحت ستار توعية القبائل بأمور الدين لجمع معلومات عن العلاقات والتحالفات القبلية، انظر عبد الله ١٩٩٥. لعل «المطاوعة» مارسوا مهمات «تجسسية» ولكن مساهمتهم في بناء الدولة تتعدى هذا الدور المحدود.

والطاعة ينبغي أن تتبدى في الاستعداد لدفع الزكاة إليه وتلبية دعوته إلى الجهاد . وكانت الزكاة والجهاد في صميم الفكرة الوهابية عن الدولة، وكانا يعتبران من الآليات الحاسمة لتوطيدها .

يضاف إلى ذلك أن الخبراء الدينيين كانوا جماعة محلية متخصصة في أمور الفقه. وكان همهم الرئيسي ضبط الآخرين في ممارسة أركان الإسلام الخمسة متمثلة في الصلاة والصيام والجهاد والزكاة والحج . وهم كانوا معلمين دينيين ذوي معرفة مقدسة . ومن بين أشياء أخرى كانوا يعلمون الناس طريقة الوضوء من دون ماء ، والصلاة من دون علم بالقراءة، وتلاوة القرآن من دون فهم، وتطبيق الإسلام الحق من دون بِدَع ، ودفن الموتى من دون علامات على قبورهم، وعبادة الله من دون وسطاء . كانت القائمة طويلة حقاً . وبالإضافة إلى وضع نظام «انضباط» ، فإنهم إذ نصبوا أنفسهم أوصياء على الإسلام الحق، كانوا معنيين أيضاً بقضية «العقاب» . وأصبح هؤلاء الأخصائيون الطقوسيون نواة «هيئة العمل بالمعروف والنهي عن المنكر» .

قام «المطاوعة» بتأهيل جماعات كاملة في فن الطاعة والأمتثال. وبرغم أن هذا الخضوع كان يراد له أن يكون لسلطة أعلى، هي سلطة الله، فإنها في الممارسة كانت تعني أنه من دون الامتثال لسلطة ابن سعود السياسية سيكون دين المسلمين ودنياهم في خطر . وكان الأخصائيون الطقوسيون النجديون يرسلون إلى الجماعات الحضرية والقبائل على السواء . وبرغم أنهم كانوا يمارسون الوعظ بصراحة ويدعون الناس سليماً إلى «العودة» إلى صراط الإسلام المستقيم، فقد تعين عليهم في أحيان كثيرة أن يستخدموا العنف ضد من كانوا يرفضون الخضوع لسلطتهم. وقد سمح لهم أنفسهم بإنزال العقاب الجسدي.

كان شكل هذا العقاب يتبدَّى في أحيان كثيرة بجَلد المخالفين لقواعد السلوك التي وضعها «المطاوعة» في الساحات العامة. وكثيراً ما يُذكر «المطاوعة» بأنهم يتجولون حاملين عصياً طويلة يستخدمونها بين حين وآخر لمعاقبة كل من يمانع في أداء الطقوس الموصوفة. وبين الناس كان «المطاوعة» يستخدمون أساليب عقابية أتقنت في مدارسهم الخاصة التي كانوا يعلمون فيها أبناء الوجهاء والتجار والملاك المحليين. وكان المانع وصف أساليبهم في العقاب عام ١٩٢٦ عندما وصل إلى الرياض. وهو يذكر أن أحد المسؤولين الكبار في البلاط الملكي جلد علناً لأن«المطاوعة» ارتابوا بأنه لم يؤد صلاة الجماعة. كما عرف عن «المطاوعة» أنهم كانوا يقصون، أمام الملا، شعر الرجال وثيابهم التي تزيد على الطول «الإسلامي» المحدد لها. ولم ينج ابن

سعود من القاص العلني عندما انتقده «المطاوعة» لارتدائه ثوباً طويلاً. وفي إحدى المناسبات أمروا بتقصير ثوبه وهو يرتديه. وجيء بمقص نفذ به الأمر (المانع ١٩٨٠: ١١١ ـ ١١٢).

بقيت أساليب العقاب نفهسا سارية في ما بعد. واستذكر وجيه من وجهاء نجد تعلم على يد مختص طقوسي سيء الصيت من الرياض في الأربعينيات، خبرته عندما وصل إلى مدرسته الدينية ذات صباح وعلى معصمه ساعة يد كانت هدية من ابن سعود نفسه لوالده. لم يتمالك الفتى الغض نفسه من شدة الفرح بهذه المقتنية الجديدة غير المعهودة. سحبه «المطاوع» جانباً، وبعصا طويلة هشم الساعة على معصمه. وكان بقية التلاميذ يراقبون برعب. وقد برر «المطاوع» هذه التظاهرة التأديبية العلنية قائلاً له إن ساعة اليد «بدعة»، من رجس الشيطان. وقيل للفتى إنه ما كان ينبغي أن يرتدي الساعة على معصمه بل كان عليه أن يضعها في جيبه، كما يفعل «المطاوع». عاد الصبي إلى والديه اللذين لم يتمكنا من التفوه بكلمة احتجاج واحدة. وبدلاً من ذلك، جرى توبيخ الفتى على تجاهله السلطة المقدسة لهذا «المطاوع» الشهير في الرياض. وإذا كان هذا هو الأسلوب المتبع في إشاعة المعرفة والممارسة الدينيتين بين وجهاء الرياض في أربعينيات القرن العشرين، فلا يسع المرء إلا أن يتخيل كيف كان هؤلاء المختصون في الطقوس يعاملون العامة من الناس، أكانوا من الواحات أو بين قبائل الجزيرة العربية خلال حملات ابن سعود العسكرية.

تاريخياً، كان أصل غالبية الموصوفين هنا بأنهم أخصائيون في الطقوس من المستوطنات الصغيرة في جنوب نجد والقصيم. وباللغة المحلية، كانوا من «الحضر» الذين لم يحتفظوا بصلات نسبية مع القبائل. وكان بعض الأخصائيين الطقوسيين يدعون تحدرهم من مجموعات حضرية معروفة في الهرم الاجتماعي للجزيرة العربية (على سبيل المثال بنو تميم)، بينما فَقَدَ البعض الآخر الصلة بمثل هذا الأصل وذكراه على السواء.

وكان «المطاوعة» يجمعون بين تخصصهم الديني ونشاطات دنيوية مثل التجارة والزراعة (البسام ١٩٧٨). وفي حين أن أقلية من الأخصائيين الطقوسيين جمعوا ثروة نتيجة انخراطهم في الشبكة التجارية بين نجد والعراق ومنطقة الخليج والهند، فإن غالبيتهم بقوا فقراء وريفيين. ويصفهم أحد مؤرخيهم؛ البسام، بأنهم رجال كان «العلم والخلق» نَسَبهم وثروتهم (المصدر السابق).

وبرغم أن الأخصائيين الدينيين لم يتسموا بأطر القرابة والنسب التي كانت قائمة بين القبائل، فإن من الصحيح القول إنهم كانوا مجموعة متلاحمة توحدهم المعرفة والممارسة الدينيتان. وكانت معرفتهم مستمدة من علماء دين معروفين مثل أحفاد محمد بن عبد الوهاب. وكانت هذه المعرفة نابعة من مصدر واحد هو تعاليم المصلح الذي عاش في القرن الثامن عشر. وكان هذا يشكل العمود الفقري لوحدتهم كفئة. وبعد إكمال تدربهم كانوا يمارسون عملهم في مستوطنات مختلفة في شمال نجد والقصيم وجنوب نجد. وقد عزز مصدر معرفتهم المشترك ولاءهم لبعضهم البعض وأوجد أواصر صداقة ورفقه دائمة بينهم.

كما كان تضامنهم نابعاً من علاقات أسرية. فإن بعض العائلات النجدية أنجبت العديد منم الأخصائيين الطقوسيين الذين كثيراً ما كانت تربط بينهم أواصر قربى. وعلى سبيل المثال، أن عائلات الشيخ والعنقري وابن عتيق وابن بليحد والسالم والسيف والعيسى كانت كلها عائلات دينية نجدية نذر الكثير من أفرادها أنفسهم لـ «الدعوة» (البسام ١٩٧٨ : الجزء الأول : ٧٤٥؛ عبد الله ١٩٩٥ : ٥٣). ولم يكن من النادر أن تجد عدة أخوة من أسرة واحدة متخصصين بالدراسات الدينية. وكان بعض هذه العائلات ارتبط بالمعرفة الدينية منذ القرن الثامن عشر في حين لم يتأهل لها البعض الآخر إلا في وقت لاحق.

ويبدو أن «المطاوعة»، قبل استيلاء ابن سعود على الرياض، كانوا يفتقرون إلى السمعة والسلطة. وكان الأخصائيون الدينيون يتمتعون بين ناسهم، أي السكان الحضر، بقدر من الاحترام مقابل أدائهم وظائف عملية هامة مثل الوساطة وفض النزاعات والتوجيه الديني في مجال الأوقاف والزواج والإرث والطلاق. ولكن حين كانوا يغالون في أعمالهم، فإن مرجعية سياسية أعلى كثيراً ما كانت قادرة على إضعاف أحكامهم. ولم يكن من الممكن دائماً تنفيذ قراراتهم من دون موافقة الأمير المحلي. وكانت قصة طرد محمد بن عبد الوهاب من العيينة في القرن الثامن عشر، حالة تقليدية لأخصائي في أمور الدين يختلف مع القيادة السياسية حول الغلو في تطبيق أحكام الشريعة.

بين القبائل، لم تكن المعرفة المقدسة ولا الورع يمنحان الأخصائيين الطقوسيين مكانة رفيعة، بل إنهم كانوا في أحسن الأحوال موضع تسامح وفي أسوئها يصرفون بسهولة. وخلال العقدين الأولين من القرن العشرين، تعايش الأخصائيون الدينيون في حائل، عاصمة الإمارة الرشيدية، مع المتوطنين من رجال شمر الذين ما كان أحد منهم ليفكر في احتراف علوم الدين. فهي كانت

ببساطة مهنة تلقى هوى لدى مَنْ لا قبيلة بدوية لهم. وكان صالح سالم البنيان، وهو «مطاوع» من حائل، وُصف بأنه رجل «نسيه الدين والخُلُق». وبعد أن درس مع عبد الله بن عبد اللطيف الشيخ عندما استدعى الأمير الرشيدي هذا العالم إلى حائل خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، وُصِف البنيان بأنه رجل دين متفانٍ. وقال حاكم حائل ذات مرة إنه لو أُرسِل هذا العالِم إلى الشيطان لنجح في هدايته إلى الإسلام. وبعد خلافات عديدة مع علماء آخرين في حائل، فقد البنيان حظوته لدى حاكمها الذي أبعده إلى واحة تيماء المجاورة (البسام ١٩٧٨: ٣٤٩). كما ضاق أمير حائل ذرعاً بمطاوع آخر من حائل هو ابن خلف. فقد طالب ابن خلف بطرد المشاهدة، وهم جماعة من التجار الشيعة الذين عاشوا في الواحة منذ عقود، ولكنه هو الذي طرد بدلاً منهم إلى تيماء (المصدر السابق: ٥٣٧)، إذ لم يكن بمقدور أمير حائل أن يبعد هذه الجماعة الهامة من دافعي الضرائب حتى وإن عدهم «المطاوعة» «خارجين» عن الدين الإسلامي الحق.

بين الفروع البدوية من التحالفات القبلية، كان الأخصائيون الدينيون غير معروفين عملياً، وفي أحيان كثيرة لم تكن تُطلَب مشورتهم إذا كان هناك نظام قيم بديل يقوم على الأعراف والتقاليد والعادات القبلية. وإذا أراد بدوي مشورة دينية، فإنه كان يزور أقرب واحة إليه. وفي غالبية الحالات، كان ينتظر حتى تقتضي الحاجة زيارة الواحة لإنجاز أمور أشد إلحاحاً مثل شراء تمور أو بيع غنمه وأصوافه.

كان «المطاوعة» يتمتعون بسلطة محدودة في الجزيرة العربية عشية عودة ابن سعود إلى الرياض، ولكنهم احتفظوا بذكرى حية لحظوظهم خلال الإمارة السعودية الأولى في القرن الثامن عشر عندما أصبحوا مشاركين نشيطين في القضايا السياسية والمالية والعسكرية. وكانت تلك أولى خبراتهم في العيش في حضرة الإمام (عبد الله ١٩٩٥). وقد أفادوا مع توسع الإمارة على نحو لا سابق له. إذ كان الاستقرار السياسي يعني اتساع المعرفة والعلوم الدينية وازدهار التجارة وتعاظم إيرادات الدولة التي كانوا يتقاسمونها مع القيادة السياسية في الإمارة. وهم كانوا يتقاسمون الخزينة مع الحكام السعوديين. وكان صعودهم في القرن الثامن عشر على نقيض حاد مع انحدارهم في القرن التاسع عشر.

تعرض «المطاوعة» لكارثة كبيرة بالغزو المصري للجزيرة العربية في أوائل القرن التاسع عشر. فإن وقوع حاكم الدرعية السعودي في الأسر على يد إبراهيم باشا في عام ١٨١٨، اقترن

بإبعاد وقتل الكثير من الأخصائيين الدينيين الذين كان غالبيتهم ينتمون إلى عائلة الشيخ (البسام ١٩٧٨). ومحيت تقريباً المعارف الدينية في نجد. وبعد نهب الدرعية اعترى الضعف بعض الشيء استئثار عائلة الشيخ بهذا المجال عندما بدأ أخصائيون دينيون جدد بالظهور. وفي حين أن محمد بن إبراهيم، كبير قضاة ابن سعود، كان من أفراد عائلة الشيخ، فإن ابن سعود اعتمد في «تدجين» القبائل عموماً، على دائرة أوسع من الأخصائيين، الذين كثيراً ما كانوا ينتمون إلى عائلات نجدية دينية أقل عراقة.

تسببت تصفية الأخصائيين الدينيين، وخاصة أفراد عائلة الشيخ، على أيدي القوات المصرية عام ١٨١٨، في إضعافهم. وبديهي أن «المطاوعة» ما كانوا يريدون الوقوع مرة أخرى ضحية كارثة كهذه، وهي حملة إبادة لم يشفعوا من آثارهم تماماً حتى القرن العشرين. وبعد انهيار الإمارة السعودية ـ الوهابية الأولى، تلكأ الناجون من هؤلاء «المطاوعة» في علوم الدين وهم يحاولون، باستماتة، أن يصونوا تركة محمد بن عبد الوهاب. وكان الكثير من أحفاد هذا العالم عاشوا وماتوا في المنفي ـ في مصر ـ (بليغ Bligh ١٩٨٥ : ٣٨). وبقي العلماء الوهابيون المنفيون في مصر حيث قاموا بتدريس مبادئ المدرسة الحنبلية في الفقه الإسلامي في جامع الأزهر تاركين «المطاوعة» النجديين بلا مصادر هامة للمرجعية الدينية طوال الشطر الأعظم من القرن التاسع عشر.

وإذ فقد «المطاوعة» ثروتهم المادية وسمعتهم ومكانتهم في القرن التاسع عشر، أخذوا يميلون إلى قبول شخصية سياسية لا تعد بخلاصهم فحسب، بل يرد المصاب الذي ألم بهم أيضاً. ولا يعني هذا التقليل من تصميمهم الحقيقي على إحياء الرسالة الدينية لجدهم الأكبر وإصلاحاته، إذ لا يتطرق الشك إلى التزامهم بإنقاذ الجزيرة العربية من حالة «الجاهلية والهمجية» التي ما فتئت تقع فيها. وهم كانوا يتطلعون إلى حقبة تسودها أحكام الشريعة، فتعيد، من بين أشياء أخرى، مكانتهم وسلطتهم.

لا غرو من أنه خلال الفترة الواقعة بين ١٩٠٢ و١٩٣٠ مارس «المطاوعة» سطوتهم المكتسبة حديثاً بحمية وتفانٍ. وعندما وصل ابن سعود إلى الرياض قام بإعلاء سمعتهم عن طريق ما أبداه لهم من احترام مقابل نجاحهم في انتزاع الاعتراف بسلطته من الجماعات العاصية التي لم تقبل حكمه بإرادتها. ومقابل «ضبط» و«معاقبة» أهل الجزيرة العربية، سيُكافَأ «المطاوعة»

مادياً ورمزياً. وتقليدياً، كان الأخصائيون الطقوسيون لا يتسلمون رواتب من الأمراء المحليين، وكان الأوفر حظاً بينهم يكسبون رزقهم في مزاولة الزراعة وتعاطي التجارة، بينما كان الباقون يتعيشون على الصدقات وأوقاف المساجد. وكان آخرون يطلبون أجراً مالياً لقاء أتعابهم بما يقدمونه من خدمات وأحكام ومشورة دينية، وهي ممارسة اعتبرها محمد بن عبد الوهاب نوعاً من الرشوة ينتقص من حيادهم (الجهني ١٩٨٣ : ٢٥٢). وعمد ابن سعود إلى توظيفهم في خدمة سلطته بتشغيلهم ودفع رواتب نقدية وعينية لهم. وهكذا، حولهم ابن سعود إلى أخصائيين طقوسيين دينيين متفرغين يدينون له بالولاء ويعتمدون على موارده. وبالمقابل، ضمن له خضوع سكان الجزيرة العربية سياسياً تحت ستار الخضوع لله. وكان ينتظر من «المطاوعة» أن «يجلدوا كلَّ مَنْ يُضبَط وهو يدخّن أو يرتدي حلة مزوقة أو يتوانى عن واجباته الدينية... وكانوا أيضاً مسؤولين عن جمع الزكاة للحكومة المركزية» (هيلمز Helms ١٩٨١ : ١٣١). لقد كان نظام الانضباط الاخلاقي وجباية الزكاة على السواء، آليتين هامتين وراء توطيد أركان السلطة السعودية في الجزيرة العربية.

بدأ تحالف مقدس جديد بين ابن سعود والأخصائيين الدينيين بـ «بيعة» ١٩٠٢. وكان ابن سعود بويع بعد استيلائه على الرياض وقتل حاكمها الذي كان يمارس مهامة نيابة عن أمراء آل الرشيد في حائل. وبعد صلاة الجمعة، تجمع الأخصائيون الدينيون ووجهاء الرياض وسكانها الاعتياديون ليسمعوا تأكيد ابن سعود بوصفه «الإمام» الجديد. بقي عبد الرحمن، والد ابن سعود، موضع احترام وتقدير. وتعبيراً عن تأييده للصيغة الجديدة قدم عبد الرحمن لنجله سيف سعود الكبير (أحد أجداد ابن سعود) بنصله الدمشقي الحاد ومقبض مرصع بالذهب وغمد من الفضة (الزركلي ١٩٧٢ : ٣٢). وكان لبيعة ١٩٠٢ مغزى رمزي مماثل لحلف ١٧٤٤ بين أمير الدرعية السعودي ومحمد بن عبد الوهاب.

وسرعان ما أصبحت الرياض محط أنظار العلماء من سائر مدن نجد. ووجد أخصائيون دينيون نجديون متمرسون وآخرون حديثو العهد، في الرياض ملاذاً آمناً برعاية ابن سعود. وكان غالبية الأخصائيين الدينيين النجديين على صلة بنظرائهم في الرياض خلال فترات الدراسة معهم أو عن طريق الزيارات المنتظمة. ومن ذلك الوقت ولاحقاً، أخذ طلاب العلوم الدينية

يتوجهون إلى الرياض لقضاء فترات من التدرب والتحصيل. وكانوا يرسلون في ما بعد لنشر الدعوة بين القبائل والجماعات الحضرية.

وتشير حكاية من شمر (التحالف القبلي الذي قاوم في البداية برنامج «المطاوعة» لمذهبة السكان، وواصل معارضته ضد ابن سعود حتى عام ١٩٢١) إلى التناقض بين ما كان الأخصائيون الدينيون يبشرون به وأصول القبائل الاجتماعية والثقافية. كان المشهد لقاء بين شيخين من شمر لبحث سبل مقاومة التهديد المتمثل بقوات ابن سعود التي كانت تقترب من حائل لإنهاء حكم آل رشيد وتحالفهم القبلي. اقترح ندى بن نهير، شيخ ويبار الشمرية، أنه ينبغي، لإنقاذ استقلال القبيلة، أن يرتدي رجال شمر «عمائمهم» (عمائم «الأخوان»)، بما يفيد أن على شمر أن تتبنى رسالة الإسلام الإصلاحي وتصبح من «الأخوان» ويرتدي رجالها الشماغ المتميز الذي يرتديه من أصبحوا فعلاً من «الأخوان». رد الشيخ الشمري الآخر عقاب بن عجل «حنا ما خذيناها ببا وتا، حنا خذيناها بالسيف» (بمعنى أن سطوة شمر لم تتحقق بمعرفة الحروف الأبجدية بل تحققت بالسيف). وبعد سقوط حائل في عام ١٩٢١ آثرت بعض العشائر الشمرية الفرار إلى العراق على أن تخضع لنظام الانضباط والعقاب، وما يترتب على ذلك من خنوع سياسي.

كان تغير دائم طرأ على أولئك الذين أخضعوا لهذا النظام. وتشير التقارير التي تصف شخصية شيخ مطير نتيجة تمذهبه على أيدي «المطاوعة»، إلى نطاق هذه العملية. إذ كان فيصل الدويش، شيخ مطير، بحسب أحد المصادر، بدوياً متوحشاً، متعجرفاً وحصيفاً. وأصبح شيخاً بعد والده. وحين عاش في أرطاوية تغير سلوكه واهتماماته نتيجة جهود العلماء والقضاة و«المطاوعة» (الزركلي ١٩٧٢: ١٦٦). وبالارتباط مع برنامج «الانضباط والعقاب»، «دُعي» الدويش، مثله مثل شيوخ آخرين إلى الإقامة في الرياض كي يتلقى تعليمه الديني من أكبر علمائها الذين كان ارتقاء مكانتهم يعني بقاءهم قريبين من مركز السلطة. وكان ما يُسمى «الدعوة»، آلية أخرى للسيطرة، لتأمين خضوع القبائل. وإذا رفض شيخ من الشيوخ «الدعوة» فإن الضعف يمكن أن يعتري موقعه لأن ابن سعود سيقدم على ترقية فرد آخر من نَسَب الشيخ إلى تولي المشيخة. وبين القبائل لم يكن هناك في أحيان كثيرة شح في الأنساب المؤهلة لهذا المنصب.

بعد الاستيلاء على الرياض، كان «مطاوعة» نجد الأداة الأولى التي استخدمها ابن سعود لغزو الجزيرة العربية. وتحت ستار التربية الدينية وتطبيق الشريعة وحماية الاخلاق العامة، تكفل «المطاوعة» بخضوع غالبية السكان الذين وقعوا تحت سلطة ابن سعود في الفترة الممتدة من ١٩٠٢ إلى ١٩٣٢. وكان من بين هؤلاء حضر الواحات النجدية وبدو القبائل. كما قام «المطاوعة» بدور حاسم في تشكيل قوة «الأخوان» القتالية.

«الأخوان»

في الفترة الواقعة بين ١٩٠٢ و١٩١٢ كان جيش ابن سعود يتألف بالدرجة الرئيسية من رجال مدن جنوب نجد الذين رأوا في مشاركتهم في غاراته آلية للدفاع عن مصالحهم التجارية الخاصة. وكان أشد المقاتلين ولاء من العارض في جنوب نجد. فهم كانوا يشكلون نواة الحرس الملكي ويعتبرون من «المجاهدين». وكانوا يتميزون عن الآخرين، من القبائل مثلاً، بخدمتهم الدائمة مع ابن سعود (فاسيلييف ١٩٩٨: ٣٠٧). ولم تتبلور فكرة بناء قوة قبلية إلا في ١٩٠٧ - ١٩٠٨ عندما كان ابن سعود مدداً بتمرد فرع «العرائف» من أسرته (أحفاد سعود عم ابن سعود) مع البعض من أفراد قبيلة العجمان. ونال تمرد «العرائف» مساعدة إحدى القبائل البدوية. وأدرك ابن سعود أن القبائل يمكن أن تهدد بسهولة غزواته في القصيم وجنوب نجد ما دامت تعيش حياة البداوة وتحتفظ باستقلالها الذاتي.

وبفضل برنامج «المطاوعة» التثقيفي تمكن ابن سعود من تشكيل قوة قتالية شبه دائمة ترفد من رجال القبائل. ويتعين فهم الدور الذي قام به «المطاوعة» في تكوين الدولة بالارتباط مع أداة أخرى هي «الأخوان»؛ القوة العسكرية القبلية التي غزا ابن سعود الأحساء وحائلاً والحجاز بواسطتها. وتقدم لنا الأعمال التي تتناول تكوين الدولة السعودية الحالية، تحليلاً مستفيضاً لهذه القوة التي قهر ابن سعود مناطق مختلفة بها (حبيب ١٩٧٨، كوستاينر ١٩٨٥، لاكتر Lackner ١٩٧٨، هيلمز ١٩٨١، عبد العزيز ١٩٩٣، الياسيني ١٩٨٥). وثمة تشديد قوي في هذه الأعمال على دور «الأخوان» البارز بوصفهم فيلقاً دينياً - قبلياً أخضع الجزيرة العربية لابن سعود.

كان «الأخوان» هم أولئك البدو الذين قبلوا المبادئ الأساسية للإسلام السلفي للمدرسة الحنبلية كما بشر بها ابن عبد الوهاب، والتي نسيها آباؤهم وأجدادهم أو حرفوها، والذين من

خلال إقناع المبشرين الدينيين ومساعدة عبد العزيز المادية، هجروا حياتهم البدوية للعيش في الهجَر التي بناها لهم (حبيب ١٩٧٨ : ١٦).

بعد حضر الواحات النجدية، كان «الأخوان» أول قوة عسكرية منظمة أخضعت لبرنامج «المطاوعة» التثقيفي بين السكان البدو. وكان «الأخوان» يُجندون من بين قبائل الجزيرة العربية. وكانوا في البداية يستقبلون «المطاوعة» في مخيماتهم البدوية، ولكن بعض القبائل وافقت على التوطن في الهجر، وهي القرى التي انبثقت حول الآبار حيث كان العمل الزراعي ممكناً. وتستوحي كلمة «هجر» هجرة النبي محمد الأولى من مكة إلى المدينة حيث أقام جماعته الأولى من المسلمين في القرن السابع. وكانت تعاليم «المطاوعة» تتطلب نمط حياة حضرياً حيث يستطيع الدعاة والقضاة أن يعملوا بحسب التقليد الأصيل للنبي محمد (ص). لذا، كان المطلوب من القبائل أن تتخلى عن حياتها البدوية والتوطن في الهجر وممارسة الإسلام كما يدعو إليه «المطاوعة». وكان ينتظر منها أن تمارس العمل الزراعي. وبديهي أن الاستقرار في حياة حضرية كان أنسب لنشر الدعوة الدينية والتجنيد للخدمة العسكرية وأغراض السيطرة. وأصبح من وافقوا على التوطن وتأييد تعاليم «المطاوعة» يعرفون باسم «الأخوان». وقد جرى تعليمهم على طاعة الإمام الشرعي وتلبية دعوته إلى الجهاد (عبد العزيز ١٩٩٣ : ١٠٥).

كان لـ «الأخوان» دور حاسم في تذليل التوتر، ولو جزئياً، بين السلطة المركزية والأطراف القبلية، الذي ابتلت به الإمارات السعودية السابقة وأدى إلى سقوطها. فقد أدمج ابن سعود المجموعات القبلية في قوة شبه دائمة لم يكن يُراد لها أن تنفض مشتتة بعد الغارات على مستوطنات أو قبائل أخرى. ويجادل حبيب بأن ما كان ابن سعود يحتاج إليه هو قوة قتالية لديها حراك البدو وولاء أهل المدن وشجاعتهم وتفانيهم واستقرارهم (حبيب ١٩٧٨ : ١٥). ومن هذه الناحية، كانت السلطة السعودية الناشئة تختلف عن الإمارات السابقة لأنها طالبت من البداية بالتزام القبائل بحياة حضرية تحت برقع التربية الدينية.

وإذ كان المتوقع من توطن القبائل أن يؤدي إلى مزاولة الزراعة، فإن مستوطنات «الهجر» المتناثرة في وسط نجد كانت أرضاً صالحة للزراعة، والماء متوفر فيها. وأنشئت الهجرة الأولى الأكثر شهرة، الأرطاوية، شمال الرياض في عام ١٩١٢ لتكون مستوطنة قبيلة مطير بزعامة فيصل الدويش. واستقبلت هذه المستوطنة عبد الله العنقري من ثرمدة الذي أرسل لتعليم قبيلة

مطير. وفي سن السادسة عشرة كان العنقري نال علومه الدينية في الرياض برعاية عبد الله بن عبد اللطيف الشيخ (البسام ١٩٧٨: ٥٨٢؛ عبد العزيز ١٩٩٣: ١٠٤). وبالإضافة إلى التربية الدينية التي مارسها بين القبائل كان العنقري قاضياً في السدير أيضاً. وبعد العنقري أرسل عالم آخر باسم عمر بن محمد بن سالم لمواصلة تثقيف قبيلة مطير. ولعل أهمية مطير العسكرية كانت السبب وراء اختيار ابن سعود علماء أكبر بدلاً من إرسال «مطاوعة» اعتياديين لتعليم القبيلة وإكمال تمذهبها.

في عام ١٩١٣ جرى توطين عشائر من قبيلة عتيبة بزعامة شيخها سلطان بن بيجاد في الغطغط (عبد العزيز ١٩٩٣؛ حبيب ١٩٧٨). واتبع نمط الأرطاوية فيها. واستقبل رجال قبيلة عتيبة «المطاوعة» الذين تولوا تثقيفهم في أمور تتعلق بالصيام والصلاة وغيرهما من شعائر الإسلام. كما جرت تربيتهم على طاعة ابن سعود بوصفه الإمام الشرعي للأمة الإسلامية ودفع الزكاة له. واجتذب كل من هذه المستوطنات ١٥٠٠ شخص في المتوسط.

ويفيد حبيب بأن حوالي ١٥٠ ألفاً من رجال القبائل تم توطينهم بحلول عام ١٩٢٦ (حبيب ١٩٧٨). وبحلول عام ١٩٣٠ كان من الصعب إيجاد قبيلة ليس لديها أقسام ترتبط بالهجر. وفي حين أن بعض الشعائر قبلت التوطن طواعية بسبب الضائقة الناجمة عن تضافر عوامل المناخ والضغوط الاقتصادية المرتبطة بالحرب العالمية الأولى، فإن عشائر أخرى أجبرت على التوطن بعد هزيمتها أمام قوات ابن سعود وأقر «الأخوان» بسلطة ابن سعود؛ إمام الأمة الإسلامية المسؤول عن التفاوض مع القوى الأجنبية والدعوة إلى الجهاد. كما أقروا بسلطة علماء الرياض أوصياءَ ومفسرين للشريعة الإسلامية (هيلمز ١٩٨١: ١٣١). ولكن ابن سعود وعلماء الرياض، على السواء، كانوا بعيدين. وكان «المطاوعة» يعيشون بين «الأخوان» في المستوطنة وعلى اتصال مباشر أوثق بهم. ولم يكن «المطاوعة» يمارسون التثقيف بأمور الدين فحسب، بل كانوا أيضاً يوزعون عطايا مادية مختلفة من ابن سعود. ولأن العمل الزراعي في المستوطنات لم يكن منتجاً أو ناجحاً، فإن ولاء «الأخوان» كان يعتمد على استمرار تدفق أموال الدعم من خزينة ابن سعود. وكان «المطاوعة» يوزعون الهدايا المنتظمة والسنوية على «الأخوان» وعائلاتهم (حبيب ١٩٧٨؛ هيلمز ١٩٨١؛ عبد العزيز ١٩٩٣). ومع حصة من الغنائم المتحققة بعد الغارات والغزوات العسكرية، عززت أموال الدعم هذه ولاء «الأخوان» لابن سعود.

وفي حين مارس «المطاوعة» الإكراه المعنوي بين أولئك الذين كان يفترض بهم أن يثقفوهم في شعائر الإسلام، فإن «الأخوان» كانوا يمارسون الإكراه العسكري ضد سكان الجزيرة العربية. وفي الأحساء وحائل والحجاز، مارس «الأخوان» سلطاتهم بلا كابح[(١)]. كانوا يرهبون السكان باسم تطبيق الشريعة وأسلمة الجزيرة العربية وإصلاح الممارسات الدينية. وارتُكبت أبشع فظائعهم في الأحساء ضد السكان الشيعة في عام ١٩١٣ وفي منتجع الطائف الحجازي في عام ١٩٢٤[(٢)]. فقد نفذ «الأخوان» إعدامات في الساحات العامة وقاموا بسلب ونهب المدن وسكانها. وأصبحوا معروفين في الجزيرة العربية باسم «جند التوحيد». وكانوا يتميزون بملبسهم وسلوكهم. إذ كانوا يرتدون ثياباً بيضاء اللون قصيرة وشماغاً أبيض، تعبيراً عن تفسيرهم المتزمت والمتقشف للإسلام. وكانوا يرفضون تحية غير المسلمين، والمسلمين الذين يُعد إسلامهم «باطلاً» مثل الشيعة والحجازيين. وأشاع موقفهم غير المهادن وقدرتهم على العقاب الشديد، أجواء من الخوف والتوجس بين السكان. وذاع صيتهم بسرعة في أنحاء الجزيرة العربية حتى قبل وصولهم إلى أبواب الواحات والمدن. ورسخت صورة «الأخوان» في الذاكرة التاريخية بوصفهم «جهلة وشرسين». ويبدو أن «الأخوان» أبدوا موافقتهم التامة على تعاليم أساتذتهم «المطاوعة»، وعملوا بموجب تفسير حرفي لهذه التعاليم.

مارس «المطاوعة» و«الأخوان» نظاماً إرهابياً كان يصعب الإفلات منه ما دام يحظى بدعم كامل من ابن سعود وعلماء الرياض. والظاهر أن قوتهم أخذت تصبح موضع استياء في الرياض بعدما ضمنوا قهر الحجاز في عام ١٩٢٦. وانقلب التحالف المقدس الذي بدأ مع «المطاوعة» و«الأخوان» عندما تمردوا على سلطة ابن سعود.

تحالف ليس بذلك القدْر من القدسية: ابن سعود و«المطاوعة» و«الأخوان»

---

(١) هيلمز يذكر أن ابن سعود حاول لجم «المطاوعة» منذ عام ١٩١٤ عندما وجه إليهم رسائل تشير إلى أن عليهم أن يتحلوا بالاعتدال بين القبائل التي كان يفترض بهم أن يعيدوها إلى طريق الإسلام الحق. انظر هيلمز ١٩٨١ : ١٣٢. ولكن رسائل ابن سعود أخفقت في التخفيف من غلواء «المطاوعة» وأتباعهم بين قوة «الأخوان» القبلية التي ساعدوا في تشكيلها.

(٢)(٢) انظر الحسن ١٩٩٤.

«دُجن» ابنُ سعود نفسُه على أيدي «المطاوعة» في صورة مشابهة لما عرفة باقي سكان الجزيرة العربية. ويزعم أنه اعترف ذات مرة قائلاً «ما لقيت ا لشيخ (عبد الله بن عبد اللطيف) إلا تصبب العرق من إبطي» (الزركلي ١٩٧٢ : ١٩٧). كما يزعم أنه عندما توفي هذا العالم الوهابي الكبير في عام ١٩٢٢ أعلن ابن سعود «اليوم أنا حاكم نجد». ومن المستبعد أن ابن سعود كان يخافه لأسباب دينية. فقد كان ابن سعود معروفاً بورعه وتقواه الدينية اللذين كان يبديهما بانتظام أمام الملأ. ولكن المؤكد أنه كان يخشى إقدام العالم على حجب دعمه. وكانت لمثل هذه الخطوة سوابق تاريخية.

أظهرت قرارات العالم خلال الصراعات الداخلية بين الأخوة السعوديين في سبعينيات القرن التاسع عشر، السهولة التي كان يحول بها ولاءه من أخ إلى آخر (كراوفورد Crawford ١٩٨٢)، إذ كان يبايع مَنْ يُخضع الرياض لسيطرته أياً يكن في حينه. واستمر شبح هذا التحول يطارد ابن سعود في العشرينيات.

ولا يمكن أن نعتبر من المسلم به، أن علماء الرياض، وخاصة أحفاد محمد بن عبد الوهاب، كانوا ميالين تلقائياً إلى مبايعة ابن سعود على أساس نَسَبه أو تحالفات أجداده مع عائلة الشيخ من خلال المصاهرة. ففي عام ١٨٩١ بايع عبد الله بن عبد اللطيف رشيدياً هو محمد بن رشيد؛ سيد نجد الجديد الذي حسم الصراع على السلطة بين الفئة الحاكمة السعودية، وطرد آخر الحكام السعوديين، عبد الرحمن، إلى الكويت (كراوفورد ١٩٨٢ : ٢٣٥). وكان موقف العالم يقوم على أساس المبدأ القائل إن «سلطاناً ظالماً خير من فتنة دائمة» (المصدر السابق). وقد نُقل العالم إلى حائل لمدة سنتين حيث تولى تدريس العديد من طلاب حائل المحليين (البسام ١٩٧٨ : ٣٤٩، ٥٣٧) عاد بعدها إلى الرياض. يضاف إلى ذلك أنه عندما ظهر ابن سعود على أطراف الرياض في عام ١٩٠٠ خلال محاولته الفاشلة الأولى لاستعادة المدينة، اتخذ عبد الله بن عبد اللطيف جانب آل رشيد وساعد في الدفاع عن المدينة ضده (بليغ ١٩٨٥ : ٤٥). ولم يُبدِ استعداده لمبايعة ابن سعود إلا في عام ١٩٠٢ عندما بات واضحاً له أن ابن سعود استولى في الحقيقة على الرياض وقتل الحاكم الرشيدي.

بعد بيعة ١٩٠٢ بدأت نجد تشير إلى ابن سعود بوصفه «الإمام». وأخذ يُشار إلى مُلكه المتسع باسم الإمارة في اللغة المحلية الدارجة. وكان السكان الحضر والقبائل على السواء يعرفون

مفهومي الإمامة والإمارة. وفي حين كانت الإمامة تنتمي إلى الخطاب الديني، فإن الإمارة كانت ترتبط بفكرة السلطة مع ما لها من خصوصية في سياق الجزيرة العربية. وبعد الاستيلاء على حائل، أصبح ابن سعود القوة الإقليمية في وسط الجزيرة العربية، وبرز بوصفه حاكم منطقة شاسعة بلا منازع. وسلمت الأحساء والقصيم وشمال نجد بزعامته على حساب مراكز قوى محلية. واعتمد ابن سعود لقب الإمام لتمييز إمارته عن الإمارات القبلية في الجزيرة العربية وأمراء الواحات/ البلدات المحليين الصغار.

في صيف ١٩٢١ أعلن ابن سعود نفسه «سلطان نجد كلها وتوابعها» (كوستاينر ١٩٩٣: ١٨ـ ٣٥). ومخص الأخصائيون الدينيون دعمهم للقب الجديد. وبدا لقب «السلطان» مقبولاً لسكان نجد وعلمائها لأنه كان يقوم على مفهوم مألوف، بلغ مرحلة متقدمة من التطور في الخطاب الديني. ولم يُنظر إلى اللقب بما هو كذلك على أنه انحراف عن الإمامة. ولكن لقب السلطان بقي صيغة شكلية لا تعني شيئاً لغالبية من أصبحوا رعايا ابن سعود. وفي عام ١٩٢١ كان السكان الحضر والقبائل ما زالوا يعتبرون ابن سعود حاكم نجد الإقليمي الذي استطاع أن يقهر عدداً من مراكز القوى ويفرض هيمنته على مناطق واسعة، وهو سيناريو معهود للغاية عندهم. بحلول تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٢١ أصبح جنوب نجد وجبل شمر والأحساء جزءاً من إمارته، وكان قد تم التخلص من قادتها المحليين.

كان لقب «السلطان» مُعَدّاً للاستهلاك الخارجي، الهدف منه نيل إعجاب قوى أجنبية، لا سيما بريطانيا، بإنجازاته. واعتمد ابن سعود هذا اللقب مباشرة بعد تتويج فيصل؛ نجل ملك الحجاز حسين، ملكاً على العراق. وفي الوقت الذي عرفت الجزيرة العربية العديد من الأمراء، كان هناك، بلا شك، سلطان واحد في وسطها عام ١٩٢ . وكان بمقدور الضباط البريطانيين أن يبعثوا في مراسلاتهم حول شؤون الجزيرة العربية برسائل تشير إلى سلطان نجد بوصفه من الآن ولاحقاً شخصية يمكن تمييزها بسهولة عن مراكز القوى النجدية المحلية الأخرى. وبقدر تعلق الأمر ببريطانيا فإن من بقي في الجزيرة العربية هما ابن سعود سلطان نجد والشريف حسين ملك الحجاز. وفي آب/ أغسطس عام ١٩٢١ أكدت بريطانيا لقب ابن سعود.

عندما استولى ابن سعود على الحجاز من حكامها الشريفيين في عام ١٩٢٦، أكده الأخصائيون الدينيون بوصفه ملك الحجاز وسلطان نجد. وكان الحجازيون على علم بفكرة الملكية لأن الشريف حسين اعتمد هذا اللقب في عام ١٩١٦. وإذ كان علماء الحجاز على علم

بالمدرستين الشافعية الحجازية والحنفية العثمانية، فإنهم لم يواجهوا مشكلة مع مفهوم الملكية. وبعد الاستيلاء على مكة احتك ابن سعود احتكاكاً مباشراً بمثل هؤلاء العلماء، وقام باستدعاء وجهاء الحجاز وطلب منهم أن يحددوا زمناً يمكن أن يحضر فيه أكبر العلماء والوجهاء والتجار وأهل الرأي لبحث حكمهم تحت إشرافه (حمزة ١٩٣٦: ٩٨).

كان لقبا «الملك في الحجاز» و«السلطان في نجد» ينطويان على ازدواجية تعكس إحجام ابن سعود عن وضع ولاء العلماء النجديين الذين ربما لم يكونوا مستعدين لمثل هذه البدعة السياسية، على المحك النهائي في عام ١٩٢٦. وكان علماء نجد يتطلعون إلى إمام أصبح سلطاناً يرفع لواء قضيتهم. وقد وجدوا مثل هذا الشخص في ابن سعود، إذ كانت الإمامة مفهوماً على درجة كبيرة من التطور في اللاهوت الحنبلي. وكان السلطنة مفهوماً وثيق الارتباط بالإمامة في نصوصهم الدينية الخاصة. ولكن في عام ١٩٢٦، كان الانتقال من الإمامة إلى المَلَكية سيكون سابقاً لأوانه. وتطلب الأمر جولة أخرى من الأحداث لاستمالة العلماء النجديين إلى قبول فكرة الملك في أرضهم.

في عام ١٩٢٦، كان العلماء النجديون ما زالوا في نشوة النصر بالاستيلاء على مدينتي الحجاز المقدستين مبشرين بتوسيع نظامهم في العقاب والانضباط إلى أقدس الأقاليم طراً. وفي ذلك الوقت، كانوا ما زالوا مهتمين بقضايا «تنقية» الممارسات الإسلامية من كل ما علق بها من بدع. وإذا كان العلماء الوهابيون عدوا الأحساء تربة خصبة للبدع بسبب ممارسات سكانها الشيعة (الحسن ١٩٩٤)، فقد كان للحجاز وضع مماثل في أذهانهم نظراً إلى ارتباطها بالإسلام العثماني. وكان العلماء النجديون سعداء برؤية تلامذتهم «المطاوعة» منخرطين بحماسة في «أسلمة» الحجازيين.

بالاستيلاء على الحجاز، بدأ العلماء النجديون على الفور مناقشة ما إذا كان من الممكن استخدام تلغرافها وغيره من الابتكارات التكنولوجية في الإقليم من دون النيل من مبادئ الإسلام. وفي الوقت نفسه، كان «الأخوان» وأساتذتهم «المطاوعة» منهمكين في «تنقية» المشهد من آثار ما كان بنظرهم بِدَعاً دينية. واشتمل هذا على تدمير الأضرحة التي بُنيت حول قبور الرسول وأهل البيت والصحابة. كما امتد إلى «أسلمة» الفضاء العام في الحجاز مثل حظر التدخين في الأماكن العامة (وهبة ١٩٦٤: ٢٢).

لعل هذه كانت لحظة ملائمة ليعلن ابن سعود نفسه ملك نجد بينما كان علماء الرياض منشغلين في مناقشة شرعية التكنولوجيا التي لم تكن معروفة عندهم بعد، لكنها أرست لها وجوداً ثابتاً في الحجاز. وقد أحسن ابن سعود بالنذر المبكرة لوقوع تمرد وشيك وخطير.

وفي حين أن تحالف ابن سعود مع علماء الرياض كان تحالفاً راسخ الجذور، فإن ولاء «الأخوان» كان آخذاً في الاضمحلال. وبدأ «إخوان» نجد بقيادة الدويش، وابن بيجاد وابن حثلين يرفضون موقعهم التابع. وخلال غزو الحجاز مارس ابن سعود سلطته للجم «المطاوعة» و«الأخوان» على السواء. وكان جرى تأهيل أخوان مطير وعتيبة والعجمان في شعائر الإسلام لأنهم كانوا أول من أخضع لبرنامج «المطاوعة» التثقيفي. وبدأ هذا التأهيل يتمخض عن عواقب خطيرة لم تكن متوقعة.

كشف الاستيلاء على الحجاز عن تصورات متناقضة لتوسع ابن سعود. فإن ابن سعود نفسه كان يعتبره بمثابة «استعادة مجد أجداده» وهيمنتهم على غالبية أقاليم الجزيرة العربية. وكان «مطاوعته» ينظرون إليه على أنه توسيع مشارف الأمة الإسلامية وفاء لأحكام الشريعة برعاية إمام يحمي التراث الإسلامي وينفذ إرادتهم. ولكن «الأخوان» برغم تبعيتهم للأخصائيين الدينيين «المطاوعة»، لم يتخلوا عن آرائهم الثابتة بشأن الزعامة السياسية والاستقلال الذاتي. وكان فيصل الدويش، أشهر متمردي «الأخوان»، يجسد التناقض بين الأفكار الثلاث في الدولة، وهي أفكار ابن سعود و«المطاوعة» والقبائل. وقد وصف الزركلي شخصية الدويش على النحو الآتي: «عندما يأتي للرياض بصحبة ١٥٠ رجلاً مسلحاً. إذا جلس لا يجلس إلا في جوار الملك، يترفع عن إلقاء السلام على أي مخلوق يضمه القصر ما عدا العلماء» (الزركلي ١٩٧٢: ١٠٧ - ١٠٨).

كان الدويش حتى ذلك الحين شيخ قبيلة. وكان الاستيلاء على المدينة ومكة والطائف ومدن حجازية أخرى، فتح له ولشيوخ قبائل آخرين أفق الارتقاء إلى مرتبة أمير إحدى المستوطنات المقهورة حديثاً. وكان الدويش عازماً على أن يصبح أمير المدينة في حين كان ابن بيجاد يتطلع إلى الطائف (الزركلي ١٩٧٢: ١٠٨). وفي حين كان ابن سعود يطمح إلى تركيز السلطة بيده، كان شيوخ القبائل يضغطون عليه لتقاسمهما. وظل قادة تمرد «الأخوان» يعتبرون أنفسهم شركاء شرعيين في السلطة الناشئة حديثاً وليس «أدوات» لتوسعها يُستخدمون ويسرحون بعد إنجاز المهمة (كوستايز ١٩٨٥). وكانت مطامح الدويش مفهومة تماماً لدى أمير الكويت الذي،

بخلاف الزركلي، لم يكن معنياً بطبيعة الدويش «البدوية» و«الوحشية». فإن أمير الكويت أحمد وصف الدويش بالكلمات التالية:

الدويش سياسي كبير... وليست هناك مسألة «دين» وراء هذا التمرد. فإن ما يراهن عليه الدويش هو سقوط آل سعود وصعوده هو، الدويش، ليأخذ مكان ابن سعود. ومع ما حققه من نجاح اتسع أفقه وهو يأمل الآن بأن يصبح سيد نجد. وفي مجرى العملية لا يهمه إذا عادت الحجاز إلى الاسرة الشريفية أو حائل إلى ابن رشيد.

(كوستاينر ١٩٩٣: ١٣٩).

وفي حين أن تفاصيل تمرد

«الأخوان» في ١٩٢٧ - ١٩٣٠ موثقة توثيقاً حسناً[١]، يبقى من الهام استيعاب الجانب الطقوسي لحسمه لأن هذا يلقي ضوءاً على التوتر والتفاهم في التحالف المقدس بين ابن سعود و«المطاوعة» و«الأخوان» فبعد الاستيلاء على الحجاز مباشرة، عقد قادة «الأخوان» «مؤتمراً» في الأرطاوية انتقدوا فيه ابن سعود لأسباب متعددة. ويركز أهم الانتقادات على العلاقات مع بريطانيا وطبيعة الملطية وشرعية ضرائب ابن سعود إسلامياً وسلوكه الشخصي مثل زيجاته المتتالية من بنات شيوخ القبائل والعبيد ونمط حياته الباذخ. وكانت نقاط الخلاف الأخرى تتعلق بوضع الطائفة الشيعية في الأحساء وضرورة «أسلمتها»، ومجيء الحجاج السوريين والمصريين سنوياً بممارسات معينة تعد خارجة عن الإسلام، مثل استخدامهم الموسيقي والغناء. كما انتقد ابن سعود لتحديده بنطاق الجهاد ضد طائفة كاملة من الجماعات مثل قبائل في العراق والأردن والكويت (شامية ١٩٨٦: ١٩٥). وكانت هذه الشكوى ترتبط ارتباطاً مباشراً باتفاقيتي «هداء» و«بحرة» معم بريطانيا «ذكرتا سابقاً» اللتين نظمتا حركة القبائل بين دائرة نفوذ أراضي ابن سعود وشرق الأردن والعراق.

رد ابن سعود على انتقادات «الأخوان» بالدعوة إلى عقد مؤتمر في عام ١٩٢٧. وكانت تلك أول مرة يناط فيها حل مثل هذه القضايا الملحة بعلماء الرياض. وما كان ابن سعود ليستطيع حل

---

(١) يرد عرض لتمرد«الأخوان» في ١٩٢٧ - ١٩٣٠ في كشك ١٩٨١؛ كوستاينر ١٩٩٣؛ ديكسون Dickson ١٩٤٩ - ١٩٥٦، حبيب ١٩٧٨؛ لذرديل ١٩٨٣؛ ترولر ١٩٧٦؛ وغلوب Glubb ١٩٦٠.

هذه القضايا من دون التشاور مع العلماء . وأعطى العلماء رأيهم في كل نقطة من النقاط موضع النقد . وقبلوا انتقادات «الأخوان» للممارسات اللاإسلامية في الحجاز، وأوصوا بتدمير أضرحة القبور . كما أوصوا بأن يصبح شيعة الأحساء الخاضعين لسلطة ابن سعود منذ عام ١٩١٣ «مسلمين حقيقيين» ، ويتخلوا عن بدعهم . وطالب العلماء بأن يكف الحجاج السوريون والمصريون عن «ممارستهم اللاإسلامية» ، وذلك في إشارة إلى استخدام الموسيقي والغناء خلال موسم الحج ، وأوصوا بمنع القبائل الشيعية العراقية من رعي حيواناتها في بلاد المسلمين، وذلك في إشارة إلى أراضي ابن سعود .

وحول قضية الجهاد الأكثر أهمية، أكد العلماء أن هذا يبقى من صلاحية ابن سعود ؛ «إمام الأمة الإسلامية» الذي له أيضاً حرية فرض الضرائب ما دامت هذه الضرائب إسلامية. ونفى العلماء أي علم بسلوك غير إسلامي من جانبه. وكان رأي العلماء حاسماً لابن سعود . فمن الآن ولاحقاً ، كان بمقدوره التحرك ضد تمرد «الأخوان» بدعم كامل من علماء الرياض. وكان مؤتمر العلماء في عام ١٩٢٧ لحظة حاسمة في العلاقة بين ابن سعود ورجال الدين النجديين.

رفض «الأخوان» آراء علماء الرياض واستمروا في تحدي سلطة ابن سعود . وفي عام ١٩٢٨ عندما بدا أن تمرد «الأخوان» أخذ يفلت من سيطرته، بعث ابن سعود برسائل إلى سائر أنحاء نجد يعلن فيها تنازله. وعلى الفور أصبحت الرياض «محجاً» لأشد أنصاره ولاء وبينهم شيوخ قبائل وعلماء ووجهاء نجديون آخرون . وفي اجتماع مع مئات الحاضرين ألقى ابن سعود خطاباً شهيراً . وبعد أن استحضر مفاهيم عاطفية مثل «النعمة» و«البداوة» ، ذكر مستمعيه بمنجزاته في الاستيلاء على الرياض بأربعين رجلاً فقط . وتضافرت في كلمته خطابية المكاسب الاقتصادية وفروسية غزوته الأولى وتقاليد البدو النبيلة والالتزام الديني الذي تحقق في الأقاليم، لإيجاد استعارة في السطوة من الصعب مقاومتها . وطلب من العلماء و«المطاوعة» أن يوضحوا العلاقة بين الراعي والرعية والالتزامات المتبادلة بينهما . واستحضر المفهوم الوهابي المتطور الشهير في الخضوع للحاكم الذي يقود الأمة الإسلامية. وأخيراً ، طلب من العلماء والوجهاء الحاضرين أن يختاروا حاكماً آخر من بين أسرته ليحل محله إذا لم يكونوا راضين على طريقته في الحكم (الزركلي ١٩٧٢ : ١١٢).

كان لهذا مغزى بالغ الأهمية لأن ابن سعود ما كان ليستطيع أن يتخيل أسرة أخرى تحكم الجزيرة العربية. كما كان في ذلك مؤشر إلى أن الدويش لا يمكن بأي حال أن يصبح حاكماً. وكان خطاب ابن سعود يعني أنه في الوقت الذي يمكن استبداله، فإن هيمنة أسرته مقدسة. ومرة أخرى، كان الأخصائيون الدينيون منشغلين بقضايا تتعلق بما إذا كان التلغراف شكلاً من أشكال السحر يجب رفضه. وصدر الحكم النهائي بأنه لا القرآن ولا السنة يشيران إلى عدم شرعية التلغراف. وحول القضية الأهم متمثلة بتمرد «الأخوان»، أعلن الأخصائيون الدينيون أن قيادة «الأخوان» خرجت عن إجماع الأمة وتنبغي مقاتلتهم حتى يعودوا إلى جادة الصواب. والدويش نفسه وصم بنعت «الباغي» الذي كان التخلص منه وتحجيمه مشروعاً من الناحية الإسلامية. وأخيراً، جددوا البيعة لابن سعود الذي منح في النهاية تفويضاً دينياً بالقضاء على ما كان من الجائز أن يتطور إلى انتكاسة حاسمة لحكمه.

أكد اجتماع الرياض عام ١٩٢٨ مكانة علماء الرياض التي بدأت تتبلور منذ عام ١٩٢٧. ومن الآن ولاحقاً، اقتصر عملهم على إبداء الرأي في قضايا الشعائر الإسلامية والابتكارات التكنولوجية التي لن تعرف البلاد نقصاً فيها خلال السنوات التالية. وسلم العلماء بهذا الدور المحدود في السلطة الناشئة حديثاً لأنه كان امتداداً لتخصصهم القديم في قضايا العبادة. وكانوا في الواقع ميالين إلى القيام بهذا الدور المريح الذي ينسجم مع اهتماماتهم الناضجة. وكان إقحامهم في أمور السياسة اليومية سيشكل خرقاً لتقسيم العمل القديم بين الإمام السياسي ورجال الدين عنده. وكان هذا التقسيم نشأ مع التحالف الأول بين ابن سعود ومحمد بن عبد الوهاب في عام ١٧٤٤. وفي عام ١٩٢٧ لم يكن علماء الرياض مستعدين لتحدي هذه الصيغة أو محاولة تغييرها. فهم كانوا بحلول عام ١٩٢٨ أنجزوا المهمة الصعبة بعض الشيء في تجنيد عدد كبير من الدعاة «المطاوعة»الذين أرسلوا لتطويع باقي سكان الجزيرة العربية لابن سعود. وبعد ذلك، كان دورهم أن يصبحوا مدافعين عن الدولة يستدعون عند الحاجة والسهر على حماية الأخلاق العامة في المملكة، وأن يتخصص الأعلى مقاماً بينهم بإصدار الفتاوي التي تضفي شرعية على ممارسة الدولة. وفي عام ١٩٢٨، أصبح واضحاً للمتميزين بينهم أنهم إذا كانوا يريدون القيام بدور في البلاد فيستعين عليهم القبول بإخضاع الدين للسياسة. كما أنهم فهموا أن موقعهم المرموق يحتم على لجم طلابهم السابقين: «المطاوعة».

تمكن ابن سعود، بموافقة العلماء، من لجم «الأخوان» وسحق تمردهم. وأصبح إخمادهم أشد إلحاحاً بعدما أعد قادة «الأخوان» خططاً لتقسيم دائرة سلطان ابن سعود في ما بينهم. ويقول فاسيلييف إن الدويش وابن بيجاد وابن حثلين كانوا يطمحون إلى أن يصبحوا حكام نجد والحجاز والأحساء على التوالي (فاسيلييف ١٩٩٨: ٢٧٧)

انهيار تمرد «الأخوان»

بحلول آذار/ مارس ١٩٢٩، حشد ابن سعود قوة مقاتلة قوامها بالدرجة الرئيسية رجال من الواحات النجدية لإنهاء تمرد «الأخوان». وبدأت الحرب ضد المتمردين «الأخوان» بمعركة السبلة تلتها عدة هجمات عسكرية على هجرهم وخاصة في الأرطاوية والغطغط (كوستاينر ١٩٩٣: ١٣٦). وقد وجدت بريطانيا نفسها تساعد ابن سعود في لجم «الأخوان» الذين بدأ السلاح الجوي الملكي يطاردهم (سلغلت وسلغلت ١٩٨٢: ٤٥). وكان هذا عنصراً حاسماً في إخماد «الأخوان» الذين هرب غالبيتهم عبر الحدود الكويتية. ويفيد لذرديل أن «التقارير تحدثت عن أناس مذعورين يندفعون مرعوبين هرباً من السلاح الجوي الملكي وابن سعود ... وكان البريطانيون يخشون أن يطلب «الأخوان» اللجوء لدى قبائل كويتية ويندمجون بها في نهاية المطاف» (لذرديل ١٩٨٣: ١١٩).

لابد من أن هذا كان عاملاً هاماً وراء إقدام البريطانيين على استخدام القوة الجوية الملكية. فإن آخر ما كانت تريد بريطانيا أن تراه هو متعاطفون مع «الأخوان» بين القبائل الكويتية التي كانت للبعض منها أصول مشتركة مع نظيراتها السعودية. ولكن قادة «الأخوان» لم يستسلموا للبريطانيين في الكويت إلا في كانون الثاني/ يناير عام ١٩٣٠. وأبدت بريطانيا ممانعة في تسليمهم بلا شروط «خوفاً من إعدام أعداد كبيرة بالجملة، ربما بينهم نساء وأطفال، أو بخلافة إصدار عفو شامل يمكنهم من معاودة الإغارة في المستقبل» (لذرديل ١٩٨٣: ١١٩). في النهاية، وافقت بريطانيا على إعادة قادة «الأخوان» إلى الرياض بعدما وعد ابن سعود بالإبقاء على حياتهم وتعهد بألاّ تكون هناك غارات أخرى داخل أراضي الكويت والعراق (المصدر السابق: ١٢٠). أعيد «الأخوان» المتمردون إلى ابن سعود الذي أودعهم السجن في الأحساء أولاً ثم في الرياض. وتوفي أبرز «الأخوان» المتمردين؛ فيصل الدويش، بعد عام. وكانت هزيمة «الأخوان»

إيذاناً بنهاية فترة مضطربة في التاريخ السعودي، إذ أثبت «الأخوان» أنهم قوة قتالية فاعلة لتوسع ملك ابن سعود، ولكن اتضح أنهم كانوا إشكالية في توطيد سلطته.

أقام ابن سعود و«المطاوعة» و«الأخوان» تحالفاً لم يفسخ إلا بالانتهاء من غزو الجزيرة العربية. وبعد الاستيلاء على الحجاز في عام ١٩٢٦، لم يتمكن ابن سعود من مواصلة التوسع في الشمال والشرق لأن هذا كان سيثير حفيظة بريطانيا؛ القوة الانتدابية في شرق الأردن والعراق، وحامية حكام الخليج من الكويت إلى مسقط. وبقيت هناك فرصة ضئيلة على الحدود السعودية - اليمنية. وفي عام ١٩٣٠، ضم ابن سعود عسيراً وأعلن أن حاكمها الإدريسي لا يجوز له إلا البقاء حاكماً اسمياً على الإقليم. وكان إلحاق عسير رسمياً بعدما كانت عاصمتها أبها جزءاً من ملك ابن سعود منذ حوالي ثماني سنوات، آخر التوسعات الإقليمية (لذرديل ١٩٨٣: ١٣٦). ولم يسفر ضم عسير عن وقوع اشتباكات كبيرة مع القوى المحلية أو الأجنبية مثل بريطانيا أو إيطاليا اللتين كان نفوذهما يتعزز في البحر الأحمر إبان الثلاثينيات. ولكنه كاد يدفع ابن سعود وإمام اليمن يحيى إلى مواجهة عسكرية خطيرة في عام ١٩٣٤[1].

بلغ التوسع العسكري حدوده في الشمال والشرق والجنوب الغربي. وكانت دائرة السلطة السعودية تتاخم أراضي تكفلت بريطانيا فيها بضمان سلامة المملكتين الهاشميتين حديثتي النشأة: مملكة عبد الله في شرق الأردن ومملكة فيصل في العراق. وارتكب «الأخوان» المتمردون خطأً فادحاً في عدم اعترافهم بالحقائق السياسية للوضع الجديد. وبدافع من الطموح السياسي والحماسة الدينية، واصلوا الإغارة على المجموعات القبلية والمدن شمالاً في مناطق لم تكن لابن سعود فيها سلطة أو دعوى تعترف بها بريطانيا. وتعاون ابن سعود وبريطانيا في تفكيك قوة «الأخوان» بعدما أنجزوا المهمة الشاقة بعض الشيء متمثلة بتوسيع سلطة ابن سعود في الحدود التي كانت ممكنة. وانهار التحالف المركزي بين ابن سعود و«المطاوعة» و«الأخوان» تحت ضغوط جديدة كانت تتطلب وقف التوسع العسكري. ودُعي علماء الرياض، معلمو «المطاوعة» في البداية، لتبرير قمع «الأخوان» الذين تحقق أفولهم باستسلام قادتهم.

(١) تُناقَّش الحربُ السعودية - اليمنية الأولى في الفصل الثالث.

لم يكن تمرد «الأخوان» احتجاجاً دينياً على ابن سعود فحسب، بل كان أيضاً تمرداً قبلياً كشف عن استياء بعض المجموعات القبلية من سلطاته المتعاظمة. ورفض «الأخوان» المتمردون أن يبقوا أدوات توسع ابن سعود متوقعين مشاركة حقيقية بصفة حكام وزعماء محليين في الأراضي المقهورة. وقد رفض ابن سعود أن يتقاسم معهم المكاسب السياسية التي حققتها غزواتهم. والأهم من ذلك، أن تمرد «الأخوان» أظهر أن الدولة الناشئة كانت من البداية كياناً غير قبلي لا يمكن أن يتقدم توسعه وتتوطد أركانه إلا على حساب العنصر القبلي. وإزاء الاهتمام البحثي بتوثيق تمرد «الأخوان» وتفسيره، يكون من المستغرب أن بعض الباحثين ما زالوا يعتبرون، خطأً، أن الدولة السعودية تجسيد للدولة القبلية[1]. وما زال هذا التصور الخاطئ يروج برغم الأدلة التي تثبت العكس. وفي حين أن قطاعات واسعة من السكان كانت قبلية بكل تأكيد في الثلاثينيات، فإن الدولة كانت قطعاً كياناً غير قبلي عمل تدريجياً على إضعاف المجموعات القبلية المختلفة وتحطيم تلاحمها.

بعد إخماد «الأخوان» ولجم «المطاوعة» بموافقة الدائرة الضيقة من كبار علماء الرياض ومساعدة بريطانيا القيمة، أعلن ابن سعود مُلكه (الذي كان حتى ذلك الوقت يدعي مملكة الحجاز ونجد وتوابعها) «المملكة العربية السعودية» في ٢٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٢. وأكد الاسم الجديد إدماج المنطقتين الرئيسيتين؛ الحجاز ونجد، والأهم من ذلك أنه «حفظ ذكرى دور ابن سعود في إقامة دولة موحدة تحت سلطته» (لذرديل ١٩٨٣: ١٤٨)[2]

---

(١) يستطلع الأساسُ غير القبلي للدولة السعودية في القرن العشرين في الفهد ٢٠٠١، حيث يجادل ضد تفسير كوستاينر (١٩٩٣) للدولة السعودية بوصفها مشيخة قبلية.

(٢) حسب لذرديل: شعر جورج رندل George Rendel رئيس الشعبة الشرقية في وزارة الخارجية، بأن الاسم الجديد أمر يستطيع شخصياً أن ينسب إلى نفسه قدْراً من الفضل فيه. فلقد أبلغ رندل أن ابن سعود يريد أن يسمي دولته باسمه «سعودية». وأشار رندل إلى أن المجتمع الدولي لن يفهم تماماً هذا الاسم وطلع باسم «العربية السعودية»، وهو مقترح أخذ به. (لذرديل ١٩٨٣: ١٤٧).

الفصل الثالث

السيطرة والولاء: ١٩٣٢ ـ ١٩٥٣

حين أعلنت المملكة العربية السعودية في عام ١٩٣٢، سعى ابن سعود إلى تكريس نسب ملكي لتوفير استمرارية على مستوى القيادة. وتحقق ترسيخ نَسَب ملكي نتيجة عمليتين متوازيتين. أولاً، عمد ابن سعود إلى تهميش أبناء جيله ذاته (أخوته وأبناء أخوته)، وثانياً، عزز سلسلة المتحدرين من صلبه (أبنائه)، التي تطورت في النهاية إلى فئة ملكية متميزة. هذا الفصل يعالج عمليات السيطرة ويستطلع الآليات الكامنة في أساس الولاء للدولة في الحقبة ما قبل النفطية، ثم يمضي إلى تقديم حَدَث كان يشكل، بأهميته، علامة بارزة في تاريخ العربية السعودية في القرن العشرين، وهو الامتياز النفطي عام ١٩٣٣ الذي تمخض عن اكتشاف النفط بكميات تجارية.

تهميش الفروع السعودية الجانبية

اشتملت استراتيجية التهميش على احتواء الدعاوي المحتملة بالحق في العرش من داخل آل سعود. وبعد الاستيلاء على الرياض مباشرة سعى ابن سعود إلى درء تهديد أعمامه وأبنائهم.

في فترة المراحل الأولى من التوسع في الجزيرة العربية، واجه ابن سعود تحدي من يسمون العرائف، أو أبناء عمومته بقيادة عبد العزيز بن سعود بن فيصل بن تركي (الدخيل ١٩٨٢: ١٠٣ ـ ١٠٤؛ ريحاني ١٩٢٨: ١٨٢)[1]. وكان أبناء العمومة هؤلاء يتحدرون من سعود الذي تحدى سلطة الحاكم السعودي عبد الله في سبعينيات القرن التاسع عشر. وبعد انهيار القيادة السعودية في تسعينيات القرن التاسع عشر، كان أبناء عمومة ابن سعود رهائن في بلاط ابن

(١) «عرائف» مصطلح نجدي كثيراً ما يطلق على الشاردة أو المسروقة من الإبل. ويشار إلى أبناء عمومة وخؤولة ابن سعود بهذه التسمية بما يفيد «إعادتهم» أو عودتهم إلى حظيرة ابن سعود. انظر الدخيل ١٩٨٢: ١٠٣ ـ ١٠٤.

رشيد في حائل. وخلال إحدى المعارك مع ابن رشيد، ضمن ابن سعود إطلاق سراحهم في عام ١٩٠٤ ولكنه لم ينل ولاءهم (سامور Samore ١٩٨٣: ٣٨).

في عام ١٩٠٨، تحالف العرائف مع أبناء خؤولتهم من قبيلة العجمان وتمردوا ضد ابن سعود في المنطقة الشرقية. ولم يخمد العرائف إلا بعد سلسلة من الحملات العسكرية. وعُمد إخمادهم بزيجة بين سعود بن عبد العزيز (ابن العم المتمرد الذي عُرف لاحقاً باسم سعود الكبير) ونورة أخت ابن سعود (بليغ ١٩٨٤: ١٧؛ القحطاني ١٩٨٨: ٦٥). وتزوج محمد، أخو سعود الكبير، من منيرة، وهي أخت أخرى من أخوات ابن سعود (سامور ١٩٨٣: ٣٨). وبتهدئة العرائف أزيل تهديد محتمل من جانب أبناء عمومة ابن سعود. واستمر أفراد هذه المجموعة في العيش تحت إشراف ابن سعود ومراقبته.

كان منافسون محتملون آخرون ينتمون إلى فروع جانبية من آل سعود. وعلى سبيل المثال، أن آل جلوي كان من المحتمل أن يشكلوا تهديداً لو لم يُدمَجوا بعملية بناء الدولة من البداية. فإن أحد أفراد هذا الفرع، وهو عبد الله بن جلوي، ساعد ابن سعود في الاستيلاء على الرياض عام ١٩٠٢. وكان عبد الله بن جلوي نشيطاً في الحملات العسكرية التي أعقبت سقوط الرياض. ومقابل معونته العسكرية، كافأه ابن سعود أولاً بمنحه حاكمية القصيم في عام ١٩٠٨، ثم نقله إلى الأحساء في عام ١٩١٣. وبقي عبد الله بن جلوي حاكم الأحساء حتى وفاته في عام ١٩٣٦. وقد ورثه ابنه سعود (بليغ ١٩٨٤: ٣٨). وكوفئ آخر من آل جلوي هو عبد العزيز بن مساعد بحاكمية حائل في عام ١٩٢٥. وحكم عبد الله بن جلوي المنطقة الشرقية كأنها إمارته التي تكاد تكون مستقلة ذاتياً. وعمل بيد طليقة على ضبط سكانها الشيعة الحضر وقبائلها البدوية (الحسن ١٩٩٣). ويفيد أحد التقارير أنه حكم المنطقة بقبضة من حديد. ووصف ريحاني كيف كان اسم عبد الله يبث الرعب في قلوب البدو، وبه كانت الأمهات يخفن أطفالهن (ريحاني ١٩٢٨: ٢١٩). وقام ابن سعود بتحييد آل جلوي سياسياً من خلال إشراكهم في الحكم. وبعد

أن أصبحوا موظفين لدى ابن سعود تقاسموا السلطة السياسية عندما أضحوا حكاماً مستقلين تقريباً في أهم مكتسباته الإقليمية وهي القصيم وحائل والأحساء[١].

بقي تحدي أشقاء ابن سعود وأخوته غير الأشقاء. ويعدد حمزة سبعة منهم: سعد وعبد الله ومحمد وسعود وأحمد ومساعد وعبد المحسن (حمزة ١٩٣٦: ٧٧). وخلال ثلاثين عاماً من الحملات العسكرية (١٩٠٢ - ١٩٣٢) أسهم العديد من أخوة ابن سعود في توسعه العسكري في الجزيرة العربية. وكان أخوه الوحيد الشقيق، سعد، مفيداً بصفة خاصة في سلسلة من الحملات في القصيم. وقد وقع في أسر قوات الشريف حسين خلال المناوشات العسكرية الأولى في الحجاز. وضمن ابن سعود إطلاق سراحه بعد قبول شروط مهينة فرضها الشريف[٢]. وقُتل سعد في ساحة المعركة، وبالتالي لم يشكل مصدر تهديد لزعامة ابن سعود. ومعروف أن موت سعد قبل الأوان كان ضربة لابن سعود لأنه كان أخاه الشقيق الوحيد، وحليفاً ضد أخوته غير الأشقاء. وتزوج ابن سعود من أرملة الفتيل جوهرة بنت السديري.

وفي حين أن أخوة ابن سعود الباقين كانوا ما زالوا من أفراد الأسرة الثانويين، فقد بقي عبد الله ومحمد من منافسيه الرئيسيين بين أخوته. إذ كان أخو ابن سعود غير الشقيق عبد الله قائد الجيش السعودي الذي قهر الحجاز في ١٩٢٤ - ١٩٢٥ وأخمد «الأخوان» خلال تمردهم عام ١٩٢٧. وعندما انتهت الحملة العسكرية أصبح عبد الله شخصية مراسيمية يستقبل الزوار في منزله في الرياض، أشبه بحكيم العائلة الموقر (يزرائيلي Yizraeli ١٩٩٧: ٦٣). توفي عبد الله في عام ١٩٧٦، وكان طوال حياته مهمشاً من الناحية السياسية، ولكنه بقي شخصية رمزية محترمة، من مجايلي ابن سعود نفسه.

كان أخو ابن سعود الثالث؛ محمد، نشيطاً في الحملات العسكرية ضد إمارة آل رشيد في عام ١٩٢١. وكان محمد الأقل ارتياحاً إلى تعيين سعود نجل ابن سعود ولياً للعهد في أيار/مايو ١٩٣٣ (حمزة ١٩٣٦: ٥٠ - ٥١). وفي الفترة الواقعة بين ١٩٣٣ و١٩٤٣ كان محمد يشكل تحدياً خطيراً لاستئثار ابن سعود بالسلطة، وحاول تسويق نجله خالد بوصفه منافساً

(١) من فروع آل سعود الأخرى الأقل أهمية، آل ثنيان وآل فرحان. انظر بيترسن Peterson ١٩٩٣: ١٤٢ - ١٤٣.

(٢) لمزيد من التفاصيل، انظر كوستاينر Kostiner ١٩٩٣.

محتملاً لسعود. ويذهب بليغ إلى أن محمداً كان متحالفاً مع سلطان بن بيجاد، المتمرد الأخواني الشهير الذي كان أيضاً حماه. وقد وصف محمد بأنه من المتعاطفين مع «الأخوان» ولقب في ما بعد بـ «المطاوع» وشعر بخيبة أمل لإخماد «الأخوان» الذي أدى إلى موت حمية.

يُزعَم أن خالداً، نجل محمد، حاول في عام ١٩٢٧ أن يغتال سعوداً نجل ابن سعود (ولي العهد لاحقاً) (بليغ ١٩٨٤: ٣٣)[1]. وكان محمد ونجله مستاءين من معاملة ابن سعود القاسية لـ «الأخوان». وبعد تعيين سعود ولياً للعهد، كتب محمد إلى الملك يشكو من تسمية وريث العرش. ومعروف أن محمداً رفض مبايعة سعود (سامور ١٩٨٣: ٤٦). وبقي وابنه في مكة فترة من الوقت، بعيداً عن بلاط ابن سعود في الرياض. وتوفي خالد عام ١٩٣٨ في ظروف غامضة. ويشير بليغ إلى أن ابن سعود ربما اغتاله خلال رحلة صيد (بليغ ١٩٨٤: ٣٧). توفي محمد في عام ١٩٤٣ تاركاً ابن سعود بلا مرشح خطير ينافسه من مجايليه. وكان ابن سعود عمد إلى تهميش محمد عندما قصر خلافته على أبنائه على حساب أخوته. واستثار موت محمد تعليقاً كاشفاً من أحد الدبلوماسيين البريطانيين. «إن الملك في الوقت الذي حزن على خسارة رفيق قديم، كان مغتبطاً، كحاكم، بأن يرى اختفاء سبب محتمل لمتاعب في المستقبل» (بليغ ١٩٨٤: ٣٧).

تكريس ذرية ابن سعود

اقترن تهميش مجايلي ابن سعود؛ أي أبناء عمومته وأخوته غير الأشقاء، بتكريس ذريته هو من خلال استراتيجيا نشيطة في تعدد الزوجات واتخاذ المحظيات. وبحلول عام ١٩٥٣ أسفرت هذه الاستراتيجيا عن مولد ٤٣ ولداً وأكثر من ٥٠ بنتاً لهم أهميتهم في إيجاد نَسَب ملكي. وكان ابن سعود يريد أن يضمن بقاء الملكية محصورة بأبنائه. وبعد جلوس سعود على العرش كان يريد لثاني أكبر أبنائه فيصل أن يصبح ملكاً. كان يُراد للملكية أن تبقى مكافأة لأبنائه، وخاصة الأوائل منهم الذين شاركوا في قهره القسم الأعظم من الجزيرة العربية، وتحديداً سعوداً وفيصلاً.

---

(١) ليس لدى المؤلفة (مضاوي الرشيد) تأكيد لهذه المعلومة.

أثارت زيجات ابن سعود المتعددة وعدد أطفاله دهشة المراقبين الأجانب والمحليين. وقام فيلبي وريحاني وحمزة والزركلي، من بين آخرين، بتوثيق زيجات ابن سعود بإشارات ماكرة إلى كونها مفرطة بعض الشيء حتى في مجتمع يقر بتعدد الزوجات مثل الجزيرة العربية. ووصف فيلبي لقاء غير رسمي مع الملك:

ثم اعترف الملك بالزواج مما لا يقل عن ١٣٥ عذراء، عدا عن «نحو مئة» أخريات في حياته برغم أنه اتخذ قراراً بقصر نفسه في المستقبل على زوجتين جديدتين سنوياً، الأمر الذي يعني، بالطبع، التخلي عن اثنتين من فريقه الموجود في أي وقت للإفساح في المجال لهما.

(فيلبي ١٩٥٢: ١١١).

من المثير للاهتمام أن يصف فيلبي كلمات الملك بـ «الاعتراف» وليس مجرد أقوال للعلم حول شؤونه الزوجية. وجاء «اعتراف» ابن سعود في سياق مجلس خاص مع صحبه الأجدر بالثقة في مقر إقامته الصيفي في الطائف. ويبدو أن الملك كرر مثل هذه «الاعترافات» أثناء خلواته الأكثر استرخاء في أشهر الصيف.

وعلق أيضاً شيوخ قبائل عاصروا ابن سعود على تعدد زوجاته. وبرغم أن هؤلاء الشيوخ كانوا أنفسهم يمارسون تعدد الزوجات، فإن غالبيتهم اعتبروا ابن سعود مغالياً في ممارساته. ويشير أحد المرويات عن حديث شفهي بين الملك وأحد شيوخ القبائل كم كانت ممارسات ابن سعود الزوجية خارجة عن المتعارف عليه في مجتمع الجزيرة العربية، حتى بين الشيوخ والأمراء. ففي مجلس خاص يبدو أن ابن سعود «اعتراف» بأنه تزوج من أكثر من مئة امرأة، فسأل شيخ كان حاضراً ابن سعود «وكلهن بليلة واحدة يا محفوظ؟» (تقليد شفهي). ويتكرر سرد هذه الحكاية لتسليط الضوء على عدة أشياء: جهل شيخ القبيلة بحياة البلاد وأفقه المحدود وافتقاره إلى المخيلة. ولكن لعل الحكاية ما زالت تذكر لأنها تعكس كيف كانت زيجات ابن سعود تعد استثنائية حتى في مجتمع يبيح مزيجاً من تعدد الزوجات وأخذ المحظيات. فإن ابن سعود مد هذه الممارسة إلى حدودها القصوى.

كيف يمكن أن نفسر العدد «الاستثنائي» لزيجات الملك؟ فإن عدد زوجات ابن سعود ومحظياته وأطفاله فاق عددهم عند معاصريه في الجزيرة العربية وغيرها. فلا ملك الحجاز حسين ولا إمام اليمن يحيى ولا سلطان عُمان، كانوا يضاهونه في ذلك. ولعل نجله سعوداً وحده الذي

تفوق عليه في عدد زوجاته وأطفاله. إذ كان لدى سعود ٥٣ ابناً و٥٤ بنتاً (شامية ١٩٨٦ : ٢٤٣).

فُسرت ممارسات ابن سعود الزوجية بطرق مختلفة. ويعزو خصومه تعدد زوجاته ومحظياته إلى شبقه وشهوته التي لا ترتوي. وهم يجدون تحت تصرفهم وفرة من الأدلة المكتوبة على غرار قول فيلبي المقتبس والمذكور سابقاً، ومرويات شفهية محلية. وفي حين أن غذاء ابن سعود وملبسه والكثير من العادات الشخصية الأخرى ظلت بسيطة ومنسجمة مع الأنماط السائدة في الجزيرة العربية (حمزة ١٩٣٦ : ٣١ ؛ الزركلي ١٩٧٢ : ١٨١ ؛ بنوا ـ مكين Benoist – Mechin ١٩٥٧ : ٢٤٣) فإنه في مضمار الزواج أبدى ميلاً غير معهود بعض الشيء. واعتُبرت «اعترافاته» التي استشهد بها كتاب عديدون، انعكاساً لطبع فاسد متستر ببرقع الطهرانية الإسلامية[١]. ومن دون استبعاد مثل هذه التفسيرات جملة وتفصيلاً، ينبغي ألا ينظر إلى ممارسات الملك الزوجية فقط بمفردات خيارات راسخة في الطاقة الجنسية واستغراق شخصي في الملذات من الجائز أن تكون السلطة عملت على تضخيمها. ولعل الملك شعر بعد عام ١٩٣٢ بما يكفي من الراحة والأمان في ملكه لأن يوجه اهتمامه نحو إشباع رغباته. ولكن مثل هذا التفسير يقوم على فهم ضيق للمصاهرات في الجزيرة العربية، وخاصة في حالة الزيجات التي تعقدها قيادة سياسية. فهو تفسير يختزل معنى الزواج إلى بُعد واحد غافلاً حقيقة أن الزواج مؤسسة اجتماعية ذات أهمية أوسع.

تفسير آخر يبرز في الأعمال التي تتناول نشوء الدولة السعودية الحديثة، يحيل زيجات الملك الأباعدية/ المتعددة على مضمار الاستراتيجيا. إذ تعتبر زيجاته آلية لتعزيز تحالفات مع قطاعات مختلفة من السكان وخاصة المجموعات القبلية المعروفة والنخبة الدينية والنبلاء من الحضر[٢]. ولكن الزواج بوصفه آلية للتحالف، لا يفسر بديهياً العدد الكبير من المحظيات اللواتي أخذهن الملك. وكثيراً ما كانت المحظيات إماء أجنبيات من أفريقيا، وشركسيات أو يمنيات في

---

(١) هذه المحاجة رائجة في أدبيات المعارضة السعودية. انظر السعيد ١٩٨١.

(٢) يعيد كتاب عدة تأكيد المحاجة القائلة إن زيجات ابن سعود كانت استراتيجيات سياسية تعزز تحالفه مع عائلات كبيرة في الجزيرة العربية. انظر الزركلي ١٩٧٢ ؛ وفيلبي Philby ١٩٥٢.

أصولهن، وبالتالي فإن نظرية التحالف لا يمكن أن تفسر أهمية مثل هذه الروابط. ومع ذلك، نظر إلى زيجات الملك الأباعدية الكثيرة على أنها انعكاس لتفكيره الاستراتيجي حيث أضحى الزواج وسيلة لتحقيق غاية سياسية هي إقامة أواصر قربى تربط السكان بالفئة الحاكمة. وأصبح الزواج استراتيجيا سياسية لبناء الدولة وتوطيد أركانها.

من الصعب إعداد قائمة شاملة بالزيجات التي عقدها الملك على امتداد ما يقرب من نصف قرن. وكان بعض الزيجات قصيرة العمر، حتى أنها تلاشت من الذاكرة والسجلات التاريخية على السواء. ولكن بعض الزيجات ما زالت تُذكر لمغزاها الاجتماعي والسياسي. ويفيد أحد المصادر بأنه كانت لدى ابن سعود ٢٢ زوجة (ليز Less ١٩٨٠: ٣٦؛ هولدن وجونز Holden and Johns ١٩٨١: ١٤). وكان بعض زيجات ابن سعود من بنات قبائل عربية معروفة (بني خالد وشمر وعنيزة والعجمان) ونبلاء القبائل (الشعلان وآل رشيد) وعائلات حضرية من علماء الدين (الشيخ) وعائلات نجدية حضرية (السديري) وفروع من آل سعود (آل ثنيان، آل جلوي). وتؤخذ هذه الزيجات بوصفها دليلاً لإسناد المحاجة القائلة إن التحالفات مع مراكز قوى كبيرة مختلفة كانت مبرر الكامن وراءها. وينبغي أن يلاحظ أن العديد من أبناء ابن سعود وُلدوا لمحظيات عُتقن من وضع عبوديتهم بعد إنجاب ولد[1].

لكي تعزز الزيجات تحالفات قائمة أو تقيم تحالفات جديدة، لا بد من توافر شروط مسبقة هامة. أولاً يتعين أن ينتمي الزوج والزوجة إلى جماعتين متساويتين في القوة والثروة على أقل تقدير.

ثانياً، يتعين أن تكون الزيجات أحادية لبناء تحالفات سياسية طويلة الأمد. وحتى تكون للزواج أي قيمة سياسية فإنه لا يمكن أن يجمع مع عدة زيجات أخرى يراد بها كلها أن تخدم غرضاً واحداً. ومن الناحية النظرية، يمكن لتعدد الزوجات أن يوسع شبكة التحالفات، ولكنه في الواقع يثير تزاحماً ومنافسة بين الجماعات ذات العلاقة. وتعد الزوجات يقلل من الأهمية السياسية لأي زيجة منفردة (سامور ١٩٨٣: ٥)، وليس من شأنه إلا أن يزيد من إمكانية قيام متلقى

(١) من بين أبناء ابن سعود الآخرين، اشتهر طلال بن عبد العزيز بتشكيله مجموعة «الأمراء الأحرار، المعارضة في الستينات، وهو قد ولد لمحظية أرمنية اسمها منير. انظر سامور Samore ١٩٨٣: ٤٩ ـ ٥٠. حياة طلال السياسية تناقش في الفصل التالي (الرابع).

الزوجات باستغلال واهبي الزوجات. وإذا حدث أن كان متلقو الزوجات مهيمنين سياسياً فالأرجح أن تبعية ـ لا تحالفاً ـ ستترتب على ذلك.

ثالثاً، تعمل سهولة الطلاق ضد توظيف الزواج وسيلة لأجندات سياسية طويلة الأمد. فالزواج قصير العمر لا يمكن أن يشكل ركناً يبنى عليه ولاء بين متلقى الزوجات وواهبي الزوجات.

رابعاً، لكي يعمل الزواج على تشجيع التحالف سيتعين على متلقى الزوجان أن يردوا بالمثل ويصبحوا هم أنفسهم واهبي زوجات إلى الجماعة التي تمدهم بالزوجات. والمواقف التي تتلقى فيها جماعة مهيمنة زوجات من جماعات أخرى لكنها تحتفظ ببناتها للتداول الداخلي، لا يمكن أن تتوقع ولاء سياسياً ثابتاً من واهبي الزوجات.

غالبية زيجات ابن سعود لم تستوف هذه الشروط اللازمة. وفي حين أنه صاهر نبلاء الجزيرة العربية، فإن غالبية هذه الجماعات كانت جردت من قوتها وأخضعت سياسياً. وكان الملك يتزوج من نساء مثل هذه الجماعات في تلك اللحظة على وجه التحديد التي تكون غزواته العسكرية قد أضعفت قوة هذه الجماعات وثروتها وسمعتها.

والأمثلة كثيرة لتبيان هذه النقطة. فإن إحدى زيجات ابن سعود الأولى حين كان لم يزل في الكويت، كانت من إحدى نساء قبيلة بني خالد هي وضحى بنت عريعر التي أصبحت أم الملك سعود لاحقاً. وكانت سطوة بني خالد في انحسار منذ القرن الثامن عشر، وكان من المستبعَد أن تعمل مثل هذه الزيجة على بناء تحالف هام لأن بني خالد أصبحوا أصلاً لاعبين سياسيين هامشيين.

بعد الاستيلاء على الرياض في عام ١٩٠٢ مباشرة، تزوج ابن سعود بترفة؛ ابنة عبد الله بن عبد اللطيف الشيخ. وأصبحت أم فيصل، الملك الثالث. واعتبر هذا الزواج استراتيجيا هامة ترسخ ولاء أسرة الشيخ الدينية للقيادة السعودية. ولكن هذا الولاء كان متوافراً قبل زمن طويل من مصاهرة ابن سعود لهذه العائلة. وكما ورد في الفصل السابق لم يكن من الممكن الرهان على ولاء آل الشيخ بوصفه أمراً مفروغاً منه.

يضاف إلى ذلك أن زيجات ابن سعود المتتالية من نساء شمر، وبخاصة مصاهرة فئتها الرشيدية الحاكمة، حدثت على الوجه التحديد في اللحظة التي بدأت فيها انحسار سطوة شمر. وقد تزوج الملك من فهدة بنت عاصي الشريم، وهي من أفراد شمر، بعد تحطيم هيمنة القبيلة. وعلى الغرار نفسه، حدثت زيجاته من نساء آل رشيد بعدما قهر حائلاً وأجبر حكامها على الانتقال إلى الرياض في عام ١٩٢١. وعندما تزوج ابن سعود من جوهرة بنت محمد بن رشيد وتزوج نجله مساعد من أختها وطفاء، كان آل رشيد أسرى في بلاط ابن سعود (الرشيد ١٩٩١: ٢٥٠ ـ ٢٥١).

وفي حين أن غالبية زيجات ابن سعود كانت من عائلات نبيلة ذات سمعة رفيعة في الجزيرة العربية، ففي معظم الحالات كانت هذه المجموعات فقدت سطوتها قبل المصاهرة. وغني عن القول أن الشروط اللازم الأخرى للتحالف لم تكن مستوفاة. وقد التزم ابن سعود بالتقليد الإسلامي الذي يبيح للرجال أربع زوجات في وقت واحد وعدداً غير محدود من المحظيات. وكثيراً ما كان ابن سعود يطلق إحدى زوجاته الأربع لعقد رابطة زوجية جديدة. وكما سبقت الإشارة، فإن فيلبي قال إن الملك اتخذ قراراً بقصر نفسه في المستقبل على زوجتين جديدتين سنوياً، الأمر الذي يعني بالطبع نبذ اثنتين من فريق زوجاته المتاح في أي وقت للإفساح في المجال للزوجتين الجديدتين (فيلبي ١٩٥٢: ١١١). وأسقطت بنات العديد من العائلات النبيلة الهامة من القائمة لتمكينه من استقبال زوجة جديدة. ولكن، كانت هناك إمكانية تطليق امرأة والزواج منها ثانية، وتطليقها مرة ثانية أو ثالثة. وبعد المرة الثالثة كان على المرأة نفسها أن تتزوج من رجل آخر ثم تطلق لتمكين الزوج الأول من الزواج منها للمرة الرابعة. وبرغم أن هذا قد يبدو معقداً، فقد كانت ممارسته سهلة. وكان الملك يطلق امرأة ليفسح في المجال لزوجة رابعة جديدة تكون أحياناً أخت المطلقة. وكان يعيد الزواج من المرأة المطلقة في وقت لاحق إن شاء ذلك. وبرغم أن الطلاق كان ممارسة طبيعية فإن جوانبه الاجتماعية السلبية لا يمكن أن تخدم بناء تحالفات سياسية طويلة الأمد: أن «تُنبَذ» بناتُ مجموعات حضرية أو قبائل نبيلة فإن هذا ما كان له أن يديم التحالف الطويل الأمد المنشود. وان يجري الانتظار بأمل أن تعود البنت إلى بيت الزوجية مع ابن سعود أو أحد أخوته (مثل هذه الممارسات أيضاً كانت شائعة) فإن هذا ما كان ليخدم غايات سياسية. ولا شيء يمكن أن يكون أبعد عن إيجاد ولاءات أو المحافظة عليها من تطليق

امرأة للزواج من أختها. وكانت خيارات الملك الزوجية من نمط بحيث يشك في إمكانية استحضار مفهوم التحالف هنا، عدا عن تطبيقه على البعض من مصارهراته.

يضاف إلى ذلك أنه في الوقت الذي كان الملك يمارس الزواج اللحمي والأباعدي، فإن تداول بناته بقي محصوراً في إطار شبكة قريبة من أبناء العمومة وأسر متفرعة من آل سعود. وتزوجت عدة بنات من أبناء عمومتهن الذين كان بعضهم منافسين محتملين لابن سعود. وكان يراد لزيجات بناته أن تخفف ضغط الصراعات الداخلية على السلطة. ومن المشكوك فيه أن هذه الاستراتيجيا كانت ناجحة. ولكن ما له صلة بالموضوع هنا هو حقيقة أن آل سعود برزوا مع توطد أركان المملكة بوصفهم متلقى زوجات من دون أن يسمحوا لنسائهم بأن يكن جزءاً من شبكة أباعدية، محددين بذلك نطاق التحالفات السياسية الحقيقية التي كان يراد إقامتها.

كانت زيجات ابن سعود آلية تقسيمية فاعلة تبقى على تراتبيات اجتماعية قائمة أصلاً وتكرسها. كما أنها أوجدت تراتبيات جديدة. وما كان بمقدور زيجات ابن سعود أن تقيم شبكة من التحالفات السياسية مع مراكز قوى هامة لأن هذه الزيجات لم تستوفِ أياً من الشروط المسبقة التي كانت ستؤهلها لهذا الدور. ولا يمكن النظر الى زيجات الملك إلا بمفردات سياسة عامة لإخضاع سكان الجزيرة العربية من خلال الاستحواذ المنهجي على أعز أفرادهم وأثمنهم: النساء. وكانت الزيجات جزءاً من استراتيجيا سياسية للهيمنة والسيطرة في بلاد كانت الموارد لم تزل شحيحة فيها لتحقيق هذا الهدف.

وفي غالبية الحالات، تزوج ابن سعود من مطلقات أو بنات منافسيه وغرمائه السابقين. وما كان من الممكن لمثل هذه الزيجات أن تحولهم بسهولة إلى حلفاء، بل كانت هذه الزيجات امتداداً للهيمنة السياسية على جماعات بعد هزيمتها عسكرياً. وفي مثل هذه السياقات، لم يكن بوسع العروس ولا ذويها أن يبدوا رأياً أو يرفضوا زواجاً. وكانت غالبية النساء مؤهلات لوضع السبايا. وقد وصف معلق على مصاهرات الملك مع أعدائه المندحرين هذه الزيجات بأنها «إشارة مؤكدة للعالم إلى أن الملك كان القاهر» (ماكلوغلن McLoughlin ١٩٩٣: ١٢٣).

أصبح بقاء واهبي الزوجات يعتمد على كونهم جزءاً من شبكة مصاهري الملك. وهذه المكانة لم تكن حتى مضمونة لأن الطلاق الذي يحدث في أحيان كثيرة كان يحدد أمدها. ولدى الزواج يمكن للجماعة صاحبة العلاقة أن تصبح متلقية هدايا وعطايا مختلفة، ولكن هذه المنافع يمكن أن

تنقطع. والأكثر من ذلك، أن النظام كان يشجع المجموعات المختلفة على التنافس مع بعضها بعضاً على الموقع المتمثل في نسابة الملك. وكان التنافس بين المجموعات وداخلها على توفير الزوجات ناجماً عن تعدد الزوجات الذي تمارسه، بحمية، أعلى سلطة في المملكة. فإن الزواج حسم إخضاع نبلاء الجزيرة العربية لآل سعود. وعلى حد تعبير فإن دير مولن van der Meulen فإن «الملك أوجد طبقات ممتازة» (فإن دير مولن ١٩٥٧ : ٢٥٥). وفي حين أن غالبية هذه «الطبقات» كانت في ما مضى ذات سطوة سياسية واقتصادية مستقلة، فإنها أصبحت تعتمد اعتماداً مطلقاً على المكارم الملكية السعودية مع توطد أركان الدولة السعودية. وإن مصاهرة نبلاء الجزيرة العربية مكنتهم من أن يكونوا جزءاً من شبكات المحسوبية التي نسجت حول الملك وأبنائه. ومن منظور سياسي، عملت مصاهرات النسب الملكي على توسيع هيمنة الفئة الحاكمة. وكانت استراتيجيات المصاهرة تعميداً لما كان تحقق سياسياً وعسكرياً.

السطوة والأبهة في الحقبة ما قبل النفطية: المجلس

بعد العديد من المصاهرات مع نبلاء الجزيرة العربية وإنجاب عدد كبير من الأبناء، منح ابن سعود ذريته مكانة ملكية بسلسلة من الأعمال والممارسات الرمزية. وقد تميز أصحاب النَّسَب الملكي عن رعيته بفضل موارده التي كانت شحيحة في الحقبة ما قبل النفطية ولكنها كانت مع ذلك مؤثرة في مجتمع عرف شظف العيش. وتعين تمثيل السلطة وتجسيدها لكي يخافها السكان ويحترموها. وأصبح هذا قضية ملحة لا سيما بعد توقف حملات ابن سعود العسكرية التي أثارت إعجاب حلفائه وأرعبت أعداءه. وبات استعراض القوة مهماً في وقت لم تكن الدولة قادرة على نيل الإعجاب بأشغال عامة أو بإدارة أو جهاز بيروقراطي. وفي مجتمع لم يكن لتكنولوجيا الاتصالات وجود عملي فيه، تعين استعراض سطوة الملكية أمام الرعية مباشرة.

كانت السطوة الملكية تُستَعرض في المجلس؛ ذلك الاجتماع التقليدي المعروف في الجزيرة العربية منذ قرون. إذ كان أمراء الواحات وشيوخ القبائل وأصحاب السلطة يعقدون تقليدياً اجتماعات عامة يستقبلون فيها رعاياها والزوار من الخارج على السواء. وكان المجلس حلبة للوساطة وفض النزاعات وتجديد البيعة، ولكن الأهم أنه كان تمثيلاً للسلطة (الرشيد ١٩٩٩ : ١٥٢ ـ ١٥٥). وكان حضور مجلس الأمير المحلي يتيح للرعية فرصة تقييم حجم سلطته. وكان الأمراء يستعرضون ثروتهم بولائهم منتظمة كثيراً ما تجتذب الجياع من السكان. وكان عدد العبيد والخدم مؤشراً إلى قوة الحاكم العسكرية. وكثيراً ما كان المحيط المادي، بغرفة فسيحة في

مقر إقامة الأمير مفروشة بسجاد مستورد ووسادات وثيرة، يثير إعجاب سكان الجزيرة العربية من الحضر والبدو على السواء[1]. واستمرت تِرْكة المجلس مع توطد أركان الدولة السعودية، ولكن حجمه ووظائفه ابتعدت عن الأنماط التي ارتبطت بالأمراء السابقين.

كان الملك يرأس العديد من الاجتماعات اليومية المنتظمة حيث يستعرض سلطته المتوطدة. وفي عام ١٩٣٢ كان ابن سعود ملكَ الجزيرة العربية، ومجلسُه يعكس هذا الموقع. وكان أحد اجتماعاته المعروف باسم «المجلس العام»، يُعقد في الصباح. وكان هذا المجلس من الناحية النظرية مفتوحاً للجميع، ولكن في الممارسة العملية كان لا يُنتَظر أن يحضره إلا مَنْ لديهم قضية يريدون مناقشتها أو التماساً يريدون تقديمه:

كان هناك فهم واضح بين رعايا الملك أن الرجل لا يذهب إلى القصر إلا إذا كانت لديه قضية محددة مع الملك، أو تكون الزيارة حقاً تقليدياً مثل الزيارة السنوية التي يقوم بها البدو. وعلى سبيل المثال أن أهل مدينة الرياض لم يحضروا قط إلى القصر إلا إذا كان لديهم سبب خاص للقيام بذلك.

(المانع ١٩٨٠: ١٧٨).

كان الملك يجلس في وسط المجلس يحيط به أخوته وأقرباؤه وأطفاله حسب تقدم مراتبهم. وبالإضافة إلى شيوخ القبائل الزائرين، كان يحضر المجلس المهزومون حديثاً من غرمائه الذين كان مطلوباً منهم أن يقيموا في الرياض تحت رقابة صارمة. كانوا يحضرون مجلس الملك المنتظم، لا سيما المجلس الذي يُعقَد بعد صلاة العصر. وكانت هذه المجموعة كثيراً ما تضم بينها عدداً من نبلاء الجزيرة العربية. وقال الملك لفيلبي ذات يوم مبتسما: «لدي ضيوف كثيرون من سائر أنحاء البلاد. آل رشيد مثلاً، والأشراف وبنو عائض وآخرون» (فيلبي ١٩٥٢: ١٠٧). وكان حضور مثل هؤلاء النبلاء في مجلس ابن سعود مهماً. فهو دليل على هزيمتهم، وكذلك علامة كرم الملك ومغفرته. وإذ كان أعداؤه السابقون يجلسون معه ويتمتعون بسخائه، كانت حنكته السياسية تُستعرَض أمام الملأ.

---

(١) يمكن العثور على وصف «المجلس» في إمارات الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر في أدب الرحلات الأوروبي، مثل بلانت Blunt ١٩٦٨؛ ودوتي Doughty ١٩٧٩.

كـان الملـك يتميـز بعقالـه المـزدوج مؤشـراً إلى مكانتـه الملكيـة. ويظهـر الملـك في الـصور الفوتوغرافيـة الأولى وهـو يرتـدي العقال الملكـي المـزدوج منذ عـام ١٩١٠ (العربيـة الـسعودية ١٩٩٦: ٢٢ ـ ٢٣). وكان يرتدي فوق ثوبه الأبـيض «البـشت» العربي البني أو الأسـود الموشى بالذهب. ومثل هذه الملابس كانـت في الماضي حكـراً على الحكام المتميـزين في نجد. ولم يكـن يرتديها شيوخ القبائل أو أمراء الواحات الاعتياديون.

في المجلس، كان حيز على يمين الملك يبقى دائماً شاغراً للـزوار الخاصـين. ولـدى وصـول مثـل هؤلاء الزوار كان الملك ينهض لمصافحتهم. كان الملك نفسه شخصية مهيبة، أطول قامة من غالبيـة أهله والسكان. بنيته «التي كانت تـثير إعجاب الـزوار المحليين والأجانـب على الـسواء، خلعت عليه مظهر سلطة بعيدة عن التكلف لكنها سلطة عميقة» (هولدن وجونز ١٩٨١: ٩٩). وعنـدما ينهض الملك لتحية ضيوفه الكرام كان الحاضرون يحذون حذره. وكانـت التحايـا الـتي يتمـتم بهـا الملك مؤشراً إلى دخول العامة إلى المجلس (الزركلي ١٩٧٠: ٥١٧).

كان الملك دائماً هو المبادر إلى الحديث في المجلس. ولاحظ فيلبي «أن الحـديث كـان عمومـاً يتحول إلى مونولوغ مَلَكي تتخلله تمتمات الموافقـة مـن سـائر الحاضـرين، وكانـت الجلـسة تنتهـي نهايـة سـريعة أو أقـل مـن سـريعة حسب اهتمـام الملـك نفسه بالمواضـيع المطروحـة على بـساط البحث» (فـيلبي ١٩٥٢: ١٠٥). وأضـاف: «في المجالس العامـة والخاصـة كـان دائمـاً هـو الـذي يتولى كل الحديث لجمهور صامت كثيراً ما لا يستمع إلى كلماته الحكيمة أو يسمعها لكنه دائماً مـستعد للتفـوه بعبـارات الموافقـة إذا مـا تفـضل جلالتـه بطلـب رأي مـا عـن ملاحضاته» (المـصدر السابق: ٢٥).

في المجلس العام كانت سطوة الملك تتبدى بصمت الحاضـرين. وكـان هـؤلاء يبقـون سـاكنين حتى يُطلَب مـنهم تقـديم قـضاياهم. كـان الـبعض يقـدم للملـك عـرائض طويلـة يـشرحون فيهـا التماساتهم أو تظلماتهم. وكان البعض الآخر يخاطب الملك مباشرة. وفي الحالتين كـثيراً مـا يُتخَذ قرار في اللحظة إلا إذا كانت هناك حاجة إلى مزيد من المشاورات لتسوية القضية. وفي مثل هـذه الاجتماعات كان الملك هو الوسيط والحَكَم، وكانت كلمته نهائية وغير قابلة للاستئناف: مـرتين في اليوم كان الملك يعقد مجلساً خاصاً، مرة قبل صلاة الظهر ومرة بعد صلاة العصر. وكان أخوه عبـد الله وولـي العهـد سـعود يحضران هـذا المجلـس بالإضـافة إلى مستـشارين آخـرين (الزركلـي ١٩٧٠: ٣٥٣).

كان يُعقَد إجتماع آخر يُسمى «مجلس الدرس»، بعد صلاة المغرب[1]. وكان هذا الاجتماع يكرس لقراءة القرآن يليها تعليق وتفسيرات. وقد وصف الزركلي هذا الاجتماع مشيراً إلى وجود مجلس بين الخاص والعام. وهو يبدأ بعد صلاة المغرب. ونادراً ما يظهر الأمراء السعوديون في هذا المجلس. ويحضره عادة كبار موظفي الملك وبعض الضيوف المحليين. والغرض منه هو دراسة القرآن والشريعة. ويقوم قارئ من بين العلماء بتلاوة مقطع من القرآن أمام مصباح لمدة نصف ساعة، ثم يقدم بعض التفسيرات والتعليقات. ويذكر الزركلي أنه سأل أخا الملك عبد الله عن أصول هذا المجلس فأوضح أنه تقليد في أسرتهم (الزركلي ١٩٧٠ : ٥١٩).

وفي حين أن بعض الاجتماعات العامة تستعرض سطوة الملك، فإن «مجلس الدرس» كان يُرسي مُلكَه في الدين. وكان هذا المجلس يؤكد تمسكه بالشريعة ومفسريها. ومرة أخرى، كانت السلطة في هذا العالم ترتبط ارتباطاً وثيقاً بملكوت المقدس. وكان الالتزام بالمقدس يتعزز أيضاً من خلال الصلاة العامة بانتظام حيث يظهر الملك في حال من الخشوع راكعاً لخالقه.

كانت تسلية الملك الخاصة تدور حول «مجلس الربع» الذي يحضره عدد محدود من الشخصيات الأكثر ثقة. كانوا يجلسون على الأرض متربعين ويتبادلون الحديث حتى يغادر الملك إلى مهجعه الخاص (الزركلي ١٩٧٢ : ٢١٠). وكان بين من يحضر هذا المجلس فيلبي وغيره من المستشارين والموظفين القريبين. وفي هذه الأجواء، حيث يتحدث الملك عن النساء والزواج والملذات الدنيوية والسياسة: «ظلت (موضوعتا) النساء والسياسة العالمية تتقاسمان التشريفات بوصفهما المواضيع الرئيسية للحديث في مجالس الملك الخاصة» (فيلبي ١٩٥٢ : ١١١).

وفي وقت كانت الدولة السعودية، خلاف ذلك، دولة غير مرئية، فإنها كانت مشخصنة في سياق مجالس عامة وخاصة عدة. وكانت هذه طقوساً متكررة لها أهميتها، توطد السلطة الناشئة للنَّسَب الملكي. وعندما توقفت الحملات العسكرية أصبح المجلس هو المسرح الذي تُمثَّل عليه دراما السلطة ليشاهدها السكان. والذين كانوا يأتون إلى الرياض في عمل كانوا يطَّلعون عليها. ولكن دراما السلطة الملكية كانت دراما متنقلة أيضاً.

---

(١) كان «مجلس الدرس» يختلف عن الاجتماع الأسبوعي الرسمي الذي يعقده ابن سعود مع العلماء.

كانت الرحلات الصحراوية بين حين وآخر جزءاً من الروتين الملكي. وكان الملك وأبناؤه وأفراد حاشيته يغادرون القصر الملكي ويتوجهون إلى كثبان الرمل القريبة حول الرياض. وقبل أن تظهر السيارة في البلاد، كان الملك يستخدم عربة من طراز «فكتوريا» ذات حصان واحد - الوحيدة في الرياض - كانت تصرف وتتهادى بكل رشاقة (ريحاني ١٩٢٨ : ١٧٥).

وعندما توافرت السيارات أخيراً في العاصمة في أواخر العشرينيات، كان الملك يستخدم واحدة منها لرحلاته الموسمية في الصحراء. وكانت تثير إعجاب البدو وتزيد من الهالة المحيطة به. وقد شهد ريحاني وصول السيارة ودعاه الملك إلى الانضمام إليه خلال إحدى رحلاته في الصحراء: «أدركت أننا كنا خارجين في رحلة، لأن السلطان يصطحب الأطفال في مثل هذه المناسبات - أطفاله وأطفال آل رشيد -. حوالي مئة شخص في ذلك اليوم، بمن فيهم «الرجاجيل»، رافقونا راكبين الخيل، وكان بعضهم يتسابق معنا، عندما كان مقياس السرعة يسجل ميلين، ثلاثة، أربعة فوق الأربعين ميلاً» (ريحاني ١٩٢٨ : ١٨٢).

مثل هذه الرحلات كثيراً ما كانت تشتمل على سباقات الخيل. وكان الأمراء السعوديون ووجهاء الجزيرة العربية يتسابقون بينما كان الملك يراقب من خلال المنظار مستمتعاً (ريحاني ١٩٢٨ : ١٧٦). وكان أبناء الملك يشاركون في هذه السباقات مع أبناء الوجهاء، الذين كان جيش ابن سعود هزم غالبيتهم. وكان الفائزون يكافأون بجوائز مسؤول مالية الملك ذهباً إنكليزياً في الموقع (المصدر السابق).

أتاح توسع السلطة السعودية، وخاصة بعد غزو الحجاز، للملك أن يسافر إلى هذه المنطقة الكوزموبوليتية. وتعين في البداية نقل البلاط الملكي برمته على الجِمال ثم بالسيارات. وكان الملك يقيم في قصور الأشراف ويستخدم أيضاً البيوت الكبيرة لتجار نجد الذين كانوا أحياناً يضعونها تحت تصرفه[1]. وخلال هذه الزيارات لم يكن الملك وحاشيته وحدهم الذين يقومون بالرحلة إلى الحجاز، بل ومعهم رسائله محفوظة في صناديق خشبية. ففي الثلاثينيات والأربعينيات لم يكن لدى الدولة أرشيفات أو وثائق. ولم تُبذَل محاولة لحفظ هذه الرسائل وبناء

(١) على سبيل المثال، كان الملك يستخدم في جدة منزل عائلة السقاف التجارية.

أرشيفات حديثة إلا بعد الحرب العالمية الثانية (فيتاليس Vitalis ١٩٩٩ : ٦٥٩). وقد وصف المانع، مترجم الملك، الموكب الملكي عندما كان يسافر خارج الرياض:

عندما يسافر الملك، كان يأخذ معه غالبية الموظفين في البلاطين الداخلي والخارجي، الذين يُعَدُّون إجمالاً بحوالي اثنى عشر كاتباً وستة خدم. وكنا لا نأخذ معنا التموينات والأسلحة المعهودة فحسب، بل أيضاً كل سجلات البلاط والملفات والمراسلات. وكانت تُحفَظ في صناديق خشبية ضخمة وتحمل في البداية على ظهور الجِمال ثم بالسيارة عبر آلاف لا تحصى من الأميال الصحراوية تابعة القافلة الملكية أينما ذهبت.

(المانع ١٩٨٠ : ١٨١).

كان البلاط الملكي المسافر يتوقف أحياناً على الطريق للراحة وتناول الطعام. وكانت القبائل البدوية وشيوخها يزورون مخيم الملك ويجددون له البيعة. وكان الشيوخ يحملون إليه هدايا من المنتجات الحيوانية ويُكافَأون بعملات من الذهب والفضة من «الصرة» الملكية (الزركلي ١٩٧٢ : ٣٦٥). كان الملك يسافر مع «صرّته» وله امتياز توزيع محتوياتها بنفسه: «من حين إلى آخر، من كيس جاهز دائماً بجانبه للفقراء والمحتاجين الذين قد يلتقيهم على الطريق، كانت اليد الملكية تنثر العملات الفضية على البُسط، ويلي ذلك تدافع يشارك فيه جميع الحاضرين» (فيلبي ١٩٥٢ : ١١٢).

وسواء في الرياض أو غيرها، كان الضيوف الزائرون ينضمون إلى وليمة اللحم والرز تليها القهوة. وكان الضيوف الكبار يغادرون بعد تعطيرهم بالبخور شاكرين الله على الأمن والنعمة. وستبقى ذاكرة الحدث حية في أذهان من كانوا حاضرين. وكانت أنباء بلاط الملك تسافر أبعد من هؤلاء الحاضرين.

كان تنظيم الضيافة أحد الإجراءات المبكرة التي أُضفِيَ عليها طابع رسمي في المملكة. وكانت إحدى وظائف البلاط الملكي التعامل مع متطلبات إطعام الأعداد الغفيرة من الضيوف المَلَكيين وأفراد الحاشية وشيوخ القبائل. وقد أُعِدَّت ميزانية خاصة للطعام في القصر الملكي. وكان نظام الحياة في القصر يتطلب عدم الخلط بين الضيوف فأقيمت ثلاثة أقسام من «المضايف»: مضيف لإطعام الوفود الأجنبية الخاصة، ومضيف للبدو، وثالث لأهل المدن (الزركلي

١٩٧٠ : ٣٥٤). وخلال تفقد الملك للمنشآت النفطية في الأحساء أقيم حفل ملكي في مقر إقامة الحاكم المحلي ابن جلوي:

واجه الضيوف الأميركيون جملاً مطهواً كاملاً، سيقانه ورأسه، كل ما فيه، و ٢٨٠ خروفاً مطهواً على تلال الرز المعهودة وألفي دجاجة وستة آلاف بيضة ونحو عشرة آلاف طبق جانبي من الفواكه والخضار والحلوى. وعندما أكلت الدفعة الأولى المؤلفة من ٥٠٠ ضيف ما بوسعها أن تأكله، أكل الخدم والجنود حتى الشبع، ٥٠٠ كل مرة. وأخيراً، في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، سمح لمواطني المدينة بالدخول لأكل ما تبقى ولف ما لم يستطيعوا أكله في ثيابهم وأخذه معهم.

(هاوارث Howarth ١٩٦٤ : ٢٢٢).

وفي حين أن أرقام هاوارث مشكوك في دقتها، فإن الولائم الملكية كانت محط إعجاب ضيوف الملك، وكانت تجتذب أفواجاً من البدو. وفي الثلاثينيات والأربعينيات، لم يكن من غير المألوف أن ينصب بدو جياع خيمهم حول العاصمة خلال أشهر الصيف حيث سيضمنون وجبة في مضيف خريمس قسم الضيافة المسؤول عن إطعام البدو، سُمي كناية بالعبد خريمس الذي أنيطت به هذه المهمة (تقليد شفهي). وعين حي خاص في الرياض هو حي بطحاء لتقديم الطعام لأن البدو البسطان لم يكونوا موضع ترحيب في القصر الملكي الذي كانت رحابه محجوزة للكبار من شيوخ القبائل والضيوف الأجانب.

تلك هي الآليات التي استعرضت الدولة السعودية الناشئة نفسها بواسطتها أمام الملأ، في وقت كان جهازها لم يزل بدائياً. وكان توطيد الدولة شديد الاعتماد على سلسلة من الأفعال الطقوسية التي تؤدي في المجلس العام. إذ لم يكن لسلطة الأسرة الحاكمة من منفذ تتجلى به سوى تلك المؤسسة التقليدية، التي كانت من الناحية النظرية مفتوحة لقطاع واسع من السكان. وإن ترتيب أماكن الجلوس وصَمْتَ الحاضرين وتنمية إحساس بالمَلَكية بين الفئة الحاكمة، حطمت أسطورة المجلس بوصفه النموذج الذي يجسد «الديمقراطية القبلية العربية»، لأن «القدرة على التعبير عن الآراء لصانع القرار لا تعادل المشاركة في تحديد القرارات التي تُتَّخَذ» (نيبلوك Niblock ١٩٨٢ : ٨٩). ويمكن أن يضاف أن مجموعة مختارة فقط كانت لديها إمكانية الدخول إلى المجلس الملكي بصورة منتظمة. وفي هذه السياقات، لم يكن ثمة شك في أن نظاماً

ملكياً هرمياً ومطلقاً كان قيد التوطد. وفي حين أن المجلس كان يوحي بسهولة دخول رعبة الملك إليه، فإن واقع المجلس كان بعيداً عن ذلك.

كانت الملكية تتبدى من خلال ولائم باذخة تطعم السكان وتشيع بينهم إحساساً بالسلطة السياسية التي كانت قيد البناء. وكانت الضيافة الملكية تتكفل بضمان ولاء السكان في وقت لم تكن هناك ميثولوجيات وطنية أو إحساس عام بالتاريخ والمصير أو برنامج متقدم للرعاية الاجتماعية يربط المحكومين بالحكام. وباستثناء بعض الجماعات الحضرية النجدية التي دعمت ابن سعود بإرادتها، فإن غالبية الرعايا في المناطق الأخرى من نجد والحجاز والأحساء وعسير أصبحت جزءاً من المملكة نتيجة الغزو. وفي حين كان المجلس حلبة تتبدى فيها السلطة السعودية التي لا تمارى، فإن المصاهرات والولائم أسفرت عن إقامة آصرة بين العائلة الملكية السعودية وسكان الجزيرة العربية. فقد عملت الزيجات والولائم على إقامة علاقات تبعية وامتثال. وكانت علاقة الدولة ـ المجتمع تدور حول اتصالات مشخصنة مع الملك وغيره من كبار أفراد الأسرة الملكية. وعندما بدأت عائدات النفط تتدفق على الخزينة الملكية جرى الحفاظ على المبادئ نفسها، ولكن حجم العملية فاق الأنماط السابقة.

شؤون الدولة

في وقت كانت مثل هذه الأشكال الدرامية المطقسنة للسلطة تجعل الأسرة الملكية السعودية بادية أمام الشعب، كانت شؤون الدولة تدار وراء أبواب مغلقة وعندما أعلنت المملكة العربية السعودية في عام ١٩٣٢ كان الملك ومعه حلقة صغيرة من الأمراء (ولداه سعود وفيصل بالدرجة الرئيسية) والمستشارين الأجانب والموظفين، يتولون التعامل مع القضايا العاجلة لشؤون الدولة. واستحدث قسم في البلاط الملكي باسم «الشعبة السياسية» مر وقت كانت تتألف من ثمانية أعضاء بينهم مصري هو حافظ وهبة وسوريان هما خالد الحكيم ويوسف ياسين ولبناني هو فؤاد حمزة وليبي هو خالد الغرغيني وهـ. سانت جون فيلبي (المانع ١٩٨٠: ١٩١ ـ ١٩٢). ونادراً ما كان فيلبي يحضر اجتماعات الشعبة لأنه كان يفضل رؤية الملك خلال مجلسه المسائي الذي يعقد في أجواء منفرجة. وكان الطاقم العربي لدى ابن سعود يتولى إدارة الشؤون اليومية للدولة. ويبدو أن ابن سعود ائتمنهم على هذه المهمة وكان يشعر بالاسترخاء في صحبتهم (فيلبي ١٩٥٥: ٢٩٤).

ما عدا فيلبي، كان هؤلاء الأشخاص عرباً لهم مكانتهم. وكانوا قد اكتسبوا مهارات إدارية في بلدانهم وضعوها في خدمة الملك، في وقت كانت الخبرة المحلية منعدمة. وكان بعضهم أبعدوا من أوطانهم بضغط من القوى الاستعمارية فوجدوا ملاذاً لهم في العربية السعودية بعيداً عن الحكم الأجنبي المباشر. والجدير بالملاحظة، أنه في العشرينيات والثلاثينيات لم يكن موظفو الملك في البداية يتقاضون رواتب منتظمة بل كانوا يُكافَأون بهدايا سنوية، وكان بعضهم يقيم في أقسام خاصة من القصور الملكية ويُطعَم بين حاشية الملك. وقد شدهم هذا الترتيب غير الرسمي إلى الملك الذي أصبحوا يعتمدون عليه اعتماداً كاملاً.

كان اجتماع يومي منتظم يُعقَد مع الملك، عادة بعد صلاة الظهر، لبحث قضايا مختلفة مثل الاتصالات مع القوى الخارجية وشؤون الحج، إذ كانت الشعبة تتعامل مع شؤون محلية وخارجية على السواء. وكان دورها استشارياً بلا سلطة تنفيذية:

كان الملك يثير موضوعاً يريد مشورة فيه. وكان يعقب ذلك نقاش عام لكل عضو من أعضاء الشعبة مطلق الحرية فيه لإبداء رأيه الحقيقي وتقديم أي اقتراح يريد تقديمه. وكان الملك يُنهي النقاش حين يعتقد أنه قيل ما يكفي ثم يتخذ قراره الخاص بشأن ما ينبغي عمله. وما كان عضو من أعضاء الشعبة ليفكر ذات يوم في اقتراح موضوع للنقاش بمبادرة منه، فقد كان هذا امتياز الملك وحده.

(المانع ١٩٨٠: ١٧٩).

لم تكن الشعبة تناقش القضايا المالية أو تتعامل معها، فقد كانت هذه تناقش سراً بين الملك ووزير ماليته الأشد ولاء وثقة؛ عبد الله بن سليمان. وكان ابن سليمان غادر في شبابه بلدته عنيزة إلى بومباي للعمل مع تاجر نجدي كبير. وبعد مشروع تجاري فاشل في البحرين عاد إلى نجد وطلب منه عمه الذي كان يتولى مالية البلاط، أن يكون معاونه. وعندما توفي عمه رُقي ابن سليمان إلى منصب وزير المال للاضطلاع بكل إيرادات الدولة وإنفاقها. وبقي في هذا المنصب حتى وفاة ابن سعود (المصدر السابق: ١٩٢ ـ ١٩٣). وكان من مشاغله الأولى إدارة المخصص البالغ ٥٠٠٠ جنيه استرليني كانت الحكومة البريطانية تدفعه لابن سعود حتى عام ١٩٢٤ (فاسيلييف ١٩٩٨: ٢٩٨).

وفي عدة مناسبات، كان ابن سليمان رسول الملك إلى التجار الذين كان يُعتمد على مواردهم في أيام الضيق. وعندما كان الملك يستعد لإنهاء تمرد «الأخوان» في عام ١٩٢٧ وكانت الخزينة الملكية خاوية عملياً، كان ابن سليمان هو الذي أُرسل لـ «حَلْب» التجار. وقد عاد بهدايا نقدية وقروض لتمويل الحملة العسكرية (المانع ١٩٨٠: ١٩٤)، إذ كانت لديه العلاقات والمهارات لإقناع التجار بتوظيف شيء من أرباحهم في تمويل مشاريع الملك العسكرية التي صورت على أنها لصالح التجارة: «بينما كان ابن سعود يفرغ الخزينة، كان واجب عبد الله بن سليمان أن يرفدها» (فاسيلييف ١٩٩٨: ٢٩٩).

كان هناك أيضاً التقليد المتمثل في أنه كان يُنتَظر من التجار أن «يتبرعوا» بالمال والتموينات لأغراض محددة وتوفير إمدادات منتظمة للعائلة الملكية (نيبلوك ١٩٨٢: ٩٣). وقد ظلت مداولات ابن سليمان مع الملك خاصة تماماً، بعيدة عن السكان والشعبة السياسية، ولكنها كانت أيضاً بعيدة عن أبناء ابن سعود الذين تزايدت مطالبهم بالمال من مسؤول ماليه والدهم لتمويل اهتماماتهم الخاصة[١]، «لكن شؤون الدولة الحقيقية كانت تُدار في برد الصباح الباكر عندما كان ابن سليمان يأتي مع دفاتره، بمفرده بعيداً عن الأنظار، إلى غرفة الملك الخاصة بعد صلاة الصباح مباشرة» (المانع ١٩٨٠: ١٩٧).

في العشرينيات والثلاثينيات كانت الزكاة مصدر القسم الأعظم من عائدات الدولة. وفي عام ١٩٢٥، أصدر ابن سعود مرسوماً بتنظيم جباية هذه الضريبة الإسلامية. وقضى مرسومه بأن الزكاة التي تُدفَع عيناً ينبغي أن تُؤخَذ من حيوانات متوسطة النوعية. والزكاة التي تُدفَع نقداً ينبغي أن تستند إلى متوسط سعر الحيوانات وفرضت ضرائب أخرى على المحصول الزراعي محتَسَبة بنسبة ٥ في المئة من المحاصيل المزروعة في أرض مروية و١٠ في المئة من المحاصيل المزروعة في أرض غير مروية. وكانت الضريبة المفروضة على الفضة والذهب تبلغ ٥ ,٢ في المئة من سعرهما (فاسيلييف ١٩٩٨: ٣٠٤ ـ ٣٠٥).

---

(١) كدرت ابن سعود قبل وفاته سلسلة من الفضائح التي طاولت العديد من أبنائه. وكانت قصورهم الملكية وسفراتهم المنتظمة إلى الخارج استنزفت موارده، حتى أن مسؤول ماليته ابن سليمان كان أحياناً يرفض أن يدفع لهم. وجعل هذا ابن سليمان غير محبوب، مثلاً، لدى سعود. لمزيد من التفاصيل انظر المانع Almana ١٩٨٠: ١٩٦ ـ ١٩٧؛ وهاورث Howarth ١٩٦٤: ٢١٢ ـ ٢١٧.

وبين البدو، كان واجب الشيوخ المحليين وأمراء المناطق أن يتوثقوا من دفع هذه الضرائب. وفي الهجَر التي ورد ذكرها في الفصل السابق، كانت جباية الضرائب من واجب «المطاوعة». وكان جباة الضرائب يتقاضون راتباً ثابتاً أو عمولات محسوبة كنسبة مئوية مما ينتزعونه من السكان.

بالإضافة إلى هذه الضرائب، فرض ابن سعود رسوماً جمركية بنسبة ٨ في المئة في الاحساء والحجاز، كما فرض دفع «الجزية» (التي تؤخذ من غير المسلمين). وقد شمل بهذه الضريبة شيعة الأحساء وأهل الذمة، ولا سيما النجار المسيحيون والهندوس.

ولكن قبل اكتشاف النفط، كانت عائدات الدولة تتحقق بالدرجة الرئيسية من الحج. وكان ابن سليمان يقيم في الحجاز للإشراف على جباة الضرائب وفرض الرسوم على البضائع المستوردة والحجاج. وقدر أنه كان يستخدم نحو ٤٠٠ شخص من الموظفين والعبيد والحراس لما أصبح يُعرَف بـ «وزارة المال» (الزركلي ١٩٧٠ : ١٩١٠). وفي عام ١٩١٣، لم تزد عائدات ابن سعود على ١٠٠ ألف جنيه استرليني. وفي عام ١٩٢٣ بلغت ٢١٠ آلاف جنيه استرليني (الزركلي ١٩٧٠ : ٧٠٩). وبعد الاستيلاء على الحجاز ارتفعت إلى ١,٥ مليون جنيه استرليني في عام ١٩٢٧ (فاسيلييف ١٩٩٨ : ٣٠٥). وبرغم أن هذه العائدات ما كان لها أن تُنشئ بنية تحتية للدولة، فإنها كانت معتَبَرة لدى توزيعها كهدايا وأموال دعم وولائم.

وبوجود خزينة الدولة أمنية في يد عبد الله بن سليمان، تعين إضفاء طابع رسمي على وظائف الدولة الأخرى. وبعد قهر الحجاز في عام ١٩٢٦، استحدثت مديرية للشؤون الخارجية. وفي عام ١٩٣٠ أعيد تسميتها لتكون «وزارة الشؤون الخارجية». وكانت وظائفها منفصلة عن وظائف الشعبة السياسية. وتولى إدارتها فيصل نجل الملك. وكان عدة نواب عرب يديرون شؤونها اليومية، بينهم يوسف ياسين وفؤاد حمزة وحافظ وهبة. وقامت الوزارة بتوظيف مترجم هو المانع لتولي المراسلات الخارجية (حمزة ١٩٣٦ : ١١٧ ـ ١١٨).

في الثلاثينيات، اعتمدت وزارة الشؤون الخارجية في البداية على تجار سعوديين لتمثيل البلاد في الخارج. وكان أفراد عائلات تجارية نجدية وحجازية معروفة بما أقامته من بيوتات تجارية وشركات في موانئ ومدن كبيرة في الخارج، يخدمون الملك بوصفهم ممثليه فضلاً عن ممارسة نشاطاتهم التجارية الخاصة. وكان هناك تجار كبار من عائلات منديل والنفيسي وفوزان

والقصيبي، التي كانت كلها عائلات حضرية من نجد والأحساء والحجاز (المانع ١٩٨٠ : ١٩١). ومع تنامي جهاز الدولة البيروقراطي في السنوات اللاحقة، أصبحت هذه العائلات نواة الخدمة المدنية السعودية.

كان من وظائف الوزارة العملية تنظيم دخول الأجانب إلى العربية السعودية بإصدار تأشيرة خاصة. وكانت لهذا أهميته في تنظيم حج مكة سنوياً وجباية الضريبة المفروضة على الحجاج. وصرف النظر تدريجياً عن هذه الضريبة عندما بدأت الخزينة تتلقى عائداتها من النفط[١].

كان ممثلو البعثات الأجنبية يقيمون في جدة. وكان الاتحاد السوفياتي من أول الدول التي اعترفت بابن سعود ملكاً على الحجاز في عام ١٩٢٦[٢]، تلته بريطانيا وهولندا وفرنسا. وفي الثلاثينيات لم يكن عدد السفارات الأجنبية يزيد على اثنتي عشرة سفارة، وكانت وزارة الشؤون الخارجية تتولى كل الاتصالات مع مثل هذه البعثات وترفع تقارير عن القضايا العاجلة إلى الملك (حمزة ١٩٣٦ : ١١٤ ـ ١٣٦).

بالإضافة إلى الشعبة السياسية ووزارة المال ووزارة الشؤون الخارجية، اعتبر إضفاء طابع رسمي على الترتيبات العسكرية أمراً ضرورياً فور إعلان المملكة في عام ١٩٣٢. وكانت القوات السعودية تضم أفراد الجيش الحجازي والشرطة الحجازية اللذين أصبحا نواة الجيش السعودي بعد الاستيلاء على الحجاز في عام ١٩٢٥. وأقيمت «وكالة» في أوائل الثلاثينيات ترأسها وزير المال عبد الله بن سليمان (المصدر السابق: ٢٥٧)، وفي عام ١٩٤٤ أصبحت هذه وزارة الدفاع.

في الثلاثينيات وحتى في الأربعينيات، لم يوجد جيش سعودي نظامي. وكما ذُكر في الفصل السابق، فإن توسعات ابن سعود بين ١٩٠٢ و١٩٣٢ كانت أشبه بالغزو الذي تمارسه قوة أساسية دائمة قوامها في العارض (أو وادي حنيفة، المنطقة المحيطة بالعاصمة الرياض) وواحات

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن تنظيم الضرائب خلال السنوات الأولى من الدولة السعودية، انظر تشودري Chaudhry ١٩٩٧ : ٥٨ ـ ٦٥. ولكن يتعين الاحتراس من المبالغة في «السياسات المالية السعودية» إبان الثلاثينيات والأربعينيات.

(٢) عن العلاقات السعودية ـ الروسية، انظر فاسيلييف Vassiliev ١٩٩٨ : ٢٩٦.

أخرى في نجد، وتستكملها قوة «الأخوان» القبلية. وقوة «الأخوان» القبلية لم تُحسَب قط جزءاً من الجيش السعودي، وما تبقى من قوة «الأخوان» أصبح نواة الحرس الوطني، وهو قوة شبه عسكرية منفصلة كثيراً ما تستخدم للأمن الداخلي.

وحين لم يكن الجيش السعودي والحرس الوطني منظمين تنظيماً كاملاً بعد في أوائل الثلاثينيات، كانت القوة العسكرية الأهم تتألف من «المجاهدين» والحرس الملكي، وهما حشد من المجندين من واحات نجد والجماعات الحضرية في العارض: كان صنف «المجاهدين» يشكل الجناحين في المعركة بينما كان الحرس الملكي يقاتل في الوسط (الدخيل ١٩٨٢: ١٢٣). واحتفظ ابن سعود بعدد كبير من العبيد لأمنه الخاص، ولكن هؤلاء العبيد كانوا يشاركون في المعارك أيضاً. وكان عبده الأشد إخلاصاً، الذي يقف وراءه في المجلس ويراقبه حين يصلي في المسجد، يتكفل بضمان أمنه الشخصي (فاسيلييف ١٩٩٨: ٣٠٨).

وفي حين لم تُستحدَث وزارة للشؤون الدينية بالمعنى المتعارَف عليه إبان الثلاثينيات، فإن الملك كان يعقد اجتماعاً أسبوعياً رسمياً مع علماء الدين. وكان هذا حدثاً منتظماً الغرض منه إطلاع العلماء على الأحداث الهامة وطلب نصيحتهم في ما يتعلق بالابتكارات في المملكة. وكان هذا الاجتماع مهماً مثله مثل «مجلس الدرس» اليومي غير الرسمي، لأنه يبين أن الملك ملتزم برأي العلماء برغم أن هؤلاء كانوا قد ألحقوا في خدمة الدولة. وبعد عام ١٩٣٢ لم يُبلَّغ عن وقوع صدامات جدية مع العلماء. وكان إدخال السيارة والطائرة والتلغراف وحتى وصول أول بعثة أميركية للتنقيب عن النفط في عام ١٩٣٣ (يناقَش أدناه)، مر من دون تحديات جدية. ويبدو أن العلماء سلموا بسلطة ابن سعود وتبريراته للابتكارات الكبيرة. وظل اجتماعهم مع الملك ممارسة شكلية بقي الملوك السعوديون اللاحقون أمناء عليها.

الامتياز النفطي (١٩٣٢)

كان اليوم يوم جمعة، وقت صلاة الظهر في مسجد الرياض الكبير. الشيخ ابن نمر، إمام المسجد في الرياض، كان يلقي خطبته على عدد كبير من الحضور. وكان ابن سعود يستمع. وقرأ الشيخ عدة آيات قرآنية بما فيها (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تُنصرون) («سورة هود»، ١١٣). واستشاط ابن سعود غضباً، وطلب من الشيخ ابن نمر أن ينزل. وبدأ ابن سعود يقرأ «سورة الكافرون»: (قل يا أيها الكافرون. لا

أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم ولي ديني) («سورة الكافرون»، ١- ٦).

(من المرويات الشفهية).

بعد عدة أشهر على ذلك اليوم من أيام الجمعة في عام ١٩٣٣، وقع عبد الله بن سليمان وزير مال ابن سعود اتفاقية مع الشركة الأميركية «ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا» (SOCAL) Standard Oil of California (سوكال) للبدء بالتنقيب عن النفط[1]. كان إخماد «الأخوان» والأبهة الملكية أورثا ابن سعود ديناً يزيد على ٣٠٠ ألف جنيه استرليني فوافق على مبادرة أميركية للتنقيب عن النفط في أراضيه. وكان ابن سعود استحضر الآية القرآنية الشهيرة أمام الملأ وخلال الصلاة الجماعية. وبوجود المفاوضات النفطية في الخلفية بدا أن آية قرآنية تحدد العلاقات بين المسلمين و«الكافرين» («سورة الكافرون» التي قرأها ابن سعود) مناسبة أكثر من الآية التي قرأها ابن نمر. فالآية الأولى تتيح إمكانية الفصل/ التعاون بين المسلمين وغير المسلمين ما دام لكل دينه. لقد كان من الهام إيجاد تبرير للتفاوض مع «الكافرين».

قبل عام من توقيع الامتياز النفطي، كان في العربية السعودية أقل من خمسين مقيماً من غير المسلمين. وبعد الامتياز النفطي ارتفع عددهم إلى ١٣٤ بينهم ٥٠ أميركيا و١١ هولندياً و٤٤ بريطانياً و١٩ أيطالياً و٥ روس و٥ فرنسيين. وكان غير المسلمين يعملون في قنصليات ومحطات لتعبئة البنزين ومراكز لبيع قطع الغيار والأدوية (حمزة ١٩٣٦ : ١٤٤). وفي حين أن غالبية «الكافرين» الأوائل كانوا يقيمون في الحجاز الكوزموبوليتية، فإن فريق الاستكشاف الأميركي غامر بدخول مناطق لم يرها «الكافرون» من قبل مثل نجد والصحراء الممتدة بين واحاتها الرئيسية وواحات المنطقة الشرقية[2]. وكانت هذه بداية عملية لم تسفر عن استجلاب عدد متزايد من «الكافرين» إلى البلاد فحسب، بل أرست كذلك الأساس لتحول مادي كبير.

---

(١) في عام ١٩٢٣، تفاوض ابن سعود بشأن الامتياز النفطي مع ميجر فرانك هولمز Major Frank Holmes، الذي كان رجل أعمال من نيوزيلندا. وسافر الأميركي ذو الأصل اللبناني أمين ريحاني إلى الجزيرة العربية وسيطاً ومترجماً. وفي عام ١٩٢٨، تعرض مشروع الامتياز لانتكاسة لأن هولمز لم يتمكن من العثور على شركة نفطية راغبة في شرائه. انظر لونغ Long ١٩٩٧ : ٦١؛ فاسيلييف ١٩٩٨ : ٣١٢ ـ ٣١٣؛ الشيخ ١٩٨٨ : ٦٣.

(٢) للاطلاع على التفاصيل الكاملة بشأن الامتياز النفطي، انظر الشيخ ١٩٨٨.

عرضت الشركة الأميركية «سوكال» على ابن سعود ما رفضت أن تعرضه شركة النفط ـ الأنغلو ـ إيرانية The Anglo – Persian Oil Company. فإن الشركة الأنغلو ـ إيرانية بإشراف ستيفن لونغريغ Stephen Longrigg رفضت مطالب ابن سعود بريع سنوي قدرة ٥٠٠٠ جنيه استرليني ذهباً، وقرض فوري بقيمة ١٠٠ ألف جنيه استرليني. واقترحت دفع الربع بروبيات هندية بدلاً من الذهب[1].

فاز كبير مفاوضي «سوكال» لويد هاملتون Lloyd Hamilton بالعقد الذي تلقى الملك بموجبه قرضاً قيمته ٢٠ الف جنيه استرليني وريعاً سنوياً قدره ٥٠٠٠ جنيه استرليني (الشيخ ١٩٨٨: ٩٢). والمفارقة أنه نظراً إلى الحظر الذي فرضته الحكومة الأميركية على تصدير الذهب، قامت «سوكال» بشرائه من لندن وشحنه على متن سفينة تملكها شركة «بي أند أو» P & O للنقل البحري إلى جدة حيث أودع البنك الوحيد في البلاد: «ذي نذرلانذر تريدنغ سوسايتي» The Netherlands Trading Society. وفي مكتب مدير البنك عد عبد الله بن سليمان الذهب على الطاولة بينما كانت التحضيرات جارية لمغادرة منقبي «سوكال» جواً إلى جبيل مع أنابيبهم ورافعاتهم وبراميلهم وعتلاتهم وسياراتهم وشاحناتهم (هولدن وجونز ١٩٨١: ١١٨؛ الشيخ ١٩٨٨: ١٢٣). وفي عام ١٩٣٣، سجلت «سوكال» الامتياز النفطي لدى العربية السعودية باسم شركة فرعية تعود ملكيتها لها بالكامل هي «كاليفورنيا آراب ستاندارد أويل كومباني» (كاسوك) California Arab Standard Oil Company (CASOC). وكانت هذه الشركة مقدمة لمجيء «شركة النفط العربية ـ الأميركية» (آرامكو) التي تأسست في عام ١٩٤٤ (لونغ Long ١٩٩٧: ٦٣).

كان فيلبي الشخصية الأساسية وراء الاتفاقية من الجانب السعودي (براون Brown ١٩٩٩: ٤٥). وتقول مونرو Monroe، كاتبة سيرة فيلبي، إن «سوكال» كانت تدفع له ١٠٠٠ دولار

---

(١) بعد الحرب العالمية الأولى بادرت بريطانيا إلى تأسيس شركة نفط العراق Iraq Petroleum Company؛ شقيقة الشركة الأنغلو ـ فارسية التي كانت تنقب عن النفط في إيران. وتملكت الشركتان «شركة البترول التركية»، وبذلك سيطرت الشركتان البريطانيتان على إنتاج النفط في العراق وإيران، المنتجين الرئيسيين في الشرق الأوسط خلال الفترة الواقعة بين الحربين. لمزيد من التفاصيل انظر براون Brown ١٩٩٩: ٩ـ ٣٤.

شهرياً و ١٢٠ ألف دولار في حال فازت بالامتياز، و٢٥ ألف دولار أخرى في حال العثور على النفط بكميات تجارية وعائدات تبلغ ٢٥ سنتاً عن كل طن يصدر من النفط حتى بلوغ ٢٥ ألف دولار ثانية (مونرو ١٩٧٤: ٢٠٤ ـ ٢٠٥؛ الشيخ ١٩٨٨: ٧١ ـ ٧٤). وفي الوقت الذي ضمن فيلبي لنفسه عمولات كبيرة، بدأ الآن ينتظر من ابن سعود أن يسدد الدين البالغ أكثر من ٥٠ ألف جنيه استرليني إلى شركته «الشرقية». وتمكن ابن سعود من سداد هذا الدين في عام ١٩٤٣ (براون ١٩٩٩: ٥٤)[١]. لقد جعل فيلبي شركات النفط البريطانية والأميركية تتنافس ضد بعضها بعضاً لصالح ابن سعود ولصالحه هو، وحققت مفاوضاته مع «سوكال» لابن سعود أفضل صفقة وقتذاك، وعرفت المصالح التجارية الأميركية بالعربية السعودية. وأعقب ذلك دور سياسي أكبر من جانب الحكومة الأميركية، وهي قضية تناقش لاحقاً في هذا الكتاب[٢].

خففت بنود اتفاقية ١٩٣٣ مع «سوكال» من الضغوط المالية الآتية الناجمة عن هبوط عائدات الحج خلال الكساد الاقتصادي العالمي. ففي حين أن ١٠٠ ألف حاج وصلوا إلى مكة في عام ١٩٣٠، انخفض العدد إلى ٢٠ ألفاً بعد ثلاث سنوات (حمزة ١٩٣٦: ٢١٦ ـ ٢١٩). وجاء الامتياز النفطي في وقت كانت الدولة «تترنح من أزمة مالية إلى أخرى». وكانت رواتب الموظفين متأخرة فترة طويلة والحكومة تقترض من غالبية الشركات التجارية في جدة (سلغلت وسلغلت ١٩٨٢: ٤٧). وقدر أن ديون ابن سعود كانت وقتذاك ٣٠ ألف جنيه استرليني لحكومة الهند و٤٠٠٠ جنيه استرليني لشركة التلغراف الشرقية Eastern Telegraph Company و٦٠٠٠ جنيه استرليني للشركة المصرفية والبحرية Banking and Marine Company فضلاً عن ٨٠ ألف جنيه استرليني لعبد الله القصيبي؛ مصرفي الملك الخاص (سلغلت وسلغلت ١٩٨٢: ٤٨). لقد أسفر الامتياز النفطي عن إغاثة فورية.

---

(١) شركة فيلبي الـ «شرقية» كانت شركة تجارية قامت بدور الوكيل لشركتي «فورد» و«ماركوني» في العربية السعودي. ويفيد أحد المصادر أن فيلبي باع ١٤٥٠ سيارة إلى ابن سعود في أواخر الثلاثينيات، الأمر الذي زاد ديون ابن سعود إلى ١٤٠ ألف جنيه استرليني. انظر براون ١٩٩٩: ٥٥.

(٢) انظر الفصل الرابع للاطلاع على تفاصيل الانفصام الذي حدث في العلاقات السعودية ـ البريطانية بعد الحرب العالمية الثانية.

مر بعض الوقت قبل أن يتضح أن الاستثمار الأول الذي قامت به شركة «سوكال» الفرعية؛ «كاسوك» سيحقق ربحاً في المستقبل. فقد بدأت أعمال الحفر في عام١٩٣٥ وبعد خيبات عدة باشرت بئر «الدمام رقم ٧» النفطية إنتاجها من النفط. وفي عام ١٩٣٨، فتحت الصمامات لضخ النفط بكميات تجارية. وفي ١ أيار/ مايو ١٩٣٩ أبحرت أول ناقلة محملة بوقود سائل من رأس تنورة (فاسيلييف ١٩٩٨: ٣١٨). وكانت بئر «الدمام رقم ٧» تنتج أكثر من ١٥٠٠ برميل يومياً، وهي كمية تزيد على ما كانت غالبية آبار النفط في الولايات المتحدة الأميركية تنتجه وقتذاك (الونغ ١٩٩٧: ٦٢).

أندلعت الحرب العالمية الثانية في وقت سيئ لشركة «آرامكو» وللعربية السعودية على السواء. وفي حين أن إنتاج النفط لم يتوقف تماماً، فقد كان من الصعب بلوغ مستوى عال من الاستخراج نظراً إلى التحديدات التي كانت تقيد التوسع في أعمال التنقيب وفي الموارد البشرية والحفر والشحن. وفي عام ١٩٣٨ بدأ استخراج النفط بـ ٥٠٠ ألف برميل. وبحلول عام ١٩٤٥ ارتفع إلى ٢١,٣ مليون برميل (فاسيلييف ١٩٩٨: ٣١٩).

وهكذا، صار بمقدور الملك أن يتمتع ببداية الثروة النفطية التي استخدم قسم منها لبدء قصور ملكية جديدة له ولأبنائه. وشيد قصر «المربع» في عام ١٩٣٦ من أول شيك دفعته شركة النفط وانجز بناؤه في عام ١٩٣٧ (فيسي Facey ١٩٩٢: ٣١١)[1]. وكان القصر محل سكن العائلة الملكية المؤلفة من ١٠٠٠ شخص في نهاية الحرب العالمية الثانية (فيسي ١٩٩٢: ١٣٢). وكان الضيوف الأجانب من القنصليات الموجودة في جدة وكبار شيوخ القبائل يستضافون في قصر آخر، في«البديعة»، وهو منتجع للملك وأفراد أسرته. وأسكن أخوة ابن سعود الكبار وأبناؤه في مبان وملحقات جديدة تشكل جزءاً من المجمع الملكي. وأصبحت الرياض ورشة بناء

---

(١) للاطلاع على صور قصر المربع التي التقطها دي غوري de Gaury وفان دير مولن van der Meulen، أنظر فايسي Facey ١٩٩٢: ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥ و٣١٦. قصر المربع الآن جزء من مجمع المباني والمتاحف التي رممت لاحتفالات الذكرى المئوية في عام ١٩٩٩.

ضخمة تجتذب البدو الباحثين عن العمل والعطايا الملكية. وازداد عدد سكانها مما يقدر بـ ٤٧ ألف شخص في عام ١٩٤٠ إلى ٨٣ ألفاً في عام ١٩٥٠ (المصدر السابق: ٣٠٠).

الجدول رقم١

عائدات الحكومة ١٩٤٦ ـ ١٩٥٢

السنة	العائدات بالدولار الأميركي
١٩٤٦	١٣,٥ مليوناً
١٩٥٠	١١٣مليوناً
١٩٥١	١٦٥ مليوناً
١٩٥٢	٢١٢ مليوناً

المصدر: الزركلي ١٩٧٠: ٧٠٩.

في عام ١٩٣٨، قدرت عائدات الدولة بمليون وثلاثمئة ألف جنيه استرليني ذهباً غالبيتها من جمارك الحجاز وحجابها (سلغلت وسلغلت ١٩٨٢: ٤٦). واستمرت عائدات الدولة في الارتفاع باطراد بعد الحرب العالمية الثانية (انظر الجدول رقم ١).

تعطل انتعاش حركة الإعمار في الرياض باندلاع الحرب العالمية الثانية. خفضت الحرب عدد الحجاج الذين كانت مالية الدولة ما زالت تعتمد جزئياً عليهم، وقللت المستلزمات المادية والأيدي العاملة الماهرة التي كانت مطلوبة لمواصلة التنقيب عن النفط وانتاجه[1]. وشهدت العربية السعودية أزمات غذائية، وبجهود مدراء «آرامكو» في الضغط على واشنطن تأهلت البلاد لشمولها ببرنامج الإعارة والتأجير عندما أعلن فرانكلين روزفلت أن المملكة ذات «أهمية حيوية للدفاع عن الولايات المتحدة الأميركية» في عام ١٩٤٣ (هولدن وجونز ١٩٨١: ١٢٨). وبعد

(١) خلال الحرب العالمية الثانية، عانت شركة «آرامكو» نقصاً في الأيدي العاملة. واستخدمت الشركة أسرى حرب إيطاليين أسروا في شرق أفريقيا لتدريب العمال السعوديين والعرب. انظر براون Brown ١٩٩٩؛ وهولدن Holden؛ وجونز Johns ١٩٨١.

اتخاذ موقف الحياد رسمياً خلال السنوات الأولى من الحرب، أعلنت العربية السعودية الحرب على ألمانيا[١]. وعملت المعونات الأميركية مع دعم مالي بريطاني قدره مليون جنيه استرليني سنوياً، على مساعدة العربية السعودية في تجاوز سنوات الحرب الأخيرة. وعندما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، كانت مساهمة النفط بلغت ١٠ ملايين دولار من إجمالي عائدات الدولة البالغة ١٣,٢ مليون جنيه استرليني (فيلبي ١٩٥٥: ١٩٧؛ الشيخ ١٩٨٨: ١٢٠).

في عام ١٩٤٦، قام الملك بزيارة القاهرة حيث عاش خبرته الأولى مع القطار .ولدى عودته طلب من «آرامكو» أن تمد خطاً للسكة الحديد من الدمام إلى الرياض عن طريق الهفوف وحرد والخرج. وفتح الخط في عام ١٩٥١ (فيسي ١٩٩٢: ٣٠٥). كما بدأت «آرامكو» حفر آبار عميقة لتوفير الماء بمضخات آلية ملبية بذلك احتياجات القصور الملكية والعدد المتزايد من سكان الرياض.

في عام ١٩٥٣ بلغ استخراج النفط ٣٠٨,٣ ملايين برميل (فاسيلييف ١٩٩٨: ٣١٩). وفي الفترة الواقعة بين ١٩٤٥ و١٩٥٣ تمتع الملك بما سماه كاتب سعودي «استراحة المحارب» (حالة من السلام والهدوء) (عبد الله ١٩٩٠). وكان هذا السلام يعكره أحياناً سلوك البعض من أفراد عائلته الذين «أفرطوا في الاستمتاع بالثروة الشخصية الجديدة وما كانت توفره من تَرَفيات، على نحو لم يكن معروفاً قط من قبل» (هولدن وجونز ١٩٨١؛ هاوارث ١٩٦٤)[٢].

شهد الملك خلال سنواته الأخيرة توسع الرياض وتشييد قصور ملكية وظهور مضخات الماء والكهرباء والسيارات والطائرات وإدخال القطار من جديد بعد تجربة قصيرة العمر معه خلال الحرب العالمية الأولى[٣] وانخراط العربية السعودية في السياسة الدولية والعربية. وبالإضافة إلى اجتماعه مع العاهل المصري الملك فاروق، التقى ابن سعود الرئيس الأميركي فرانكلين دي.

---

(١) إبان الحرب العالمية الثانية حافظ ابن سعود على حياده، ولكنه أرسل مبعوثين إلى ألمانيا. وكان أحد هؤلاء المبعوثين ليبيا هرب من بلاده ووضع نفسه في خدمة الملك السعودي. انظر هولدن وجونز ١٩٨١: ١٢٨.

(٢) في الأربعينيات، عانى ابن سعود معاناة ممضة بسبب سلوك البعض من أبنائه. فإن حفلات تعاطي الكحول في القصور المليكة أصبحت مصدر إحراج، وكان عليه أن يستجيب لانتقادات العلماء. لمزيد من التفاصيل انظر ماكلوفلن McLoughlin ١٩٩٣: ١٧٨.

(٣) تعطل خط الحجاز الشهير للسكة الحديد بين دمشق والمدينة خلال الحرب العالمية الأولى. وقد كان الخط أول تجربة عاشتها الجزيرة العربية مع السكك الحديد. انظر العمر ١٩٧٤).

روزفلت ورئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرتشل في عام ١٩٤٥ : الأول قدم له طائرة مدنية من طراز «دوغلاس دي سي ـ ٣» أعقبتها اتفاقية مع شركة «ترانس وورلد إيرلاينز» (تي دبليو أي) لتوفير طيارين وخدمات جوية مساعدة. وبعد أشهر أرسل تشرتشل سيارة رولز رويس[١]. وكانت العربية السعودية أخذت وقتذاك تفلت من قبضة بريطانيا.

كما شهد الملك توسع حكومته المتواضع. وبالإضافة إلى الوزارات التي استحدثت في الثلاثينيات والأربعينيات (الخارجية والمال) التي سبق ذكرها، دُشنت خمس وزارات أخرى في مطالع الخمسينيات: الداخلية (١٩٥١)، والصحة (١٩٥١)، والاتصالات (١٩٥٣)، والزراعة والموارد المائية (١٩٥٣)، والمعارف (١٩٥٣). وفي تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٣، قبل شهر من وفاته، وافق ابن سعود على تشكيل «مجلس الوزراء». وبقي هذا المجلس هيئة شكلية هددت لاحقاً ميزان القوى بين ولديه سعود وفيصل (شامية ١٩٨٦ : ٢٤٣). وفي عام ١٩٥٠ كان لدى من يسمون وزراء ٤٦٥٣ موظفاً (الزركلي ١٩٧٠ : ٣٧٨)، وكان غالبيتهم لا يتقاضون رواتب أو يحفظون سجلات منتظمة لأعمالهم (فيتاليس ١٩٩٩ : ٦٦٠ ؛ عبد الله ١٩٩٠ : ٣٦). وبقيت الأشغال العامة وجهاز الدولة متخلفة لأن الموارد المالية كانت ضئيلة خلال الحرب من جهة، ولأن مبالغ ضخمة أنفقت على تشييد القصور الملكية وتسديد نفقات الأسرة الملكية من الجهة الثانية. وكانت في البلاد ٢٧ مدرسة رسمية و٢٢ مدرسة خاصة. وكان يتعلم في أكبر المدارس وأرقاها سمعة («مدرسة الفلاح» في مكة) أقل من ٨٠٠ تلميذ (حمزة ١٩٣٦ : ٢٧٧ ـ ٢٨٨).

النفط والمجتمع في الأربعينيات والخمسينيات

برغم النمو التدريجي في جهاز الدولة الإداري، بقي ابن سعود ملكاً مطلقاً. وكان يعهد ببعض مسؤولياته إلى ولديه سعود وفيصل، واحتفظ بعدد من الموظفين. وكانت «آرامكو» تساهم في غالبية الأشغال العامة التي نُفذت خلال العقد الأخير من حياته. ومن الخطل تصور وجود جهاز دولة «بيروقراطي» أو «إدارة» خلال هذه الفترة برغم استحداث الوزرات آنفة

---

(١) يبدو أن هدية تشرتشل لم يكن لها وقع حسن لدى ابن سعود الذي قدم سيارة الرولز رويس إلى أخيه عبد الله.

الذكر. وامتد دور «آرامكو» في تشييد البنية التحتية للبلاد من أجل تيسير استخراج النفط وشحنه إلى الأسواق الخارجية. وأبعد من بناء الطرق والأنابيب والموانئ والمطارات في المناطق النفطية وغيرها ليشمل توفير المدارس والمستشفيات وإدارة شبه رسمية، فإن «آرامكو» كانت تسد ثغرة ناجمة عن قصور تطور الخدمات العامة والتعليم والمرافق الصحية، وانعدامها عملياً في بعض مناطق البلاد. وفي غياب جهاز الدولة كانت «آرامكو» مقاول الدولة الثانوي، إذ كانت توفر خدمات حيوية (الماء والعناية الصحية) للأسرة الملكية، بالإضافة إلى مشاريع عامة ظاهرة للغاية تعزز السلطة الملكية. وكان مشروع السكة الحديد واحداً من بين مبادرات عديدة نُفُذت بين ١٩٤٥ و١٩٥٤. وبعد الدور الذي قامت به الشركة خلال المراحل الابتدائية في تشييد البنية التحتية المادية تتمثل المفارقة في أنه لا مساهمتها الأولى ولا «سعودتها» اللاحقة يرد لهما ذكر في المرويات التاريخية الرسمية (فيتاليس ١٩٩٧ : ١٧ و١٩٩٨ : ٣ ـ ٢٥)، وهي موضوعة ستعالج لاحقاً في هذا الكتاب.

لكن من الهام أن يلاحظ أنه في الأربعينيات وأوائل الخمسينيات لم يحتك الكثير من السعوديين بالشركة ومدارتها الأميركيين وعائلاتهم (براون ١٩٩٩ : ١٤٠). وكان هذا يعود في بعض أسبابه إلى عزل كبار مسؤوليها في ما كان يُشار اليه باسم «الكامب الأميركي» في الدمام. وكان «رجال النفط ومدراؤه صدروا نظاماً من الفصل العرقي والطائفي» في هذا الكامب (فيتاليس ١٩٩٧ : ١٧). وبحلول عام ١٩٥٠ تطورت الظهران؛ مقر موظفي «آرامكو» الأميركيين، إلى «مدينة» حيث «يستطيع المرء أن يشتري طابعاً ويبعث برسالة في البريد، ويحلق شعر رأسه أو يجمل نفسه، ويبتاع بقاليات وتموينات منزلة ومواد شخصية لازمة» (براون ١٩٩٩ : ١٤٠). كانت هذه المنطقة منفصلة مادياً عن منشآت الكامب الأخرى بأسلاك شائكة يعيش وراءها العمال السعوديون والعرب في ما كان يعرف باسم «الكامب السعودي». وكان الكامب (المعسكر) السعودي «مفتوحاً وغير مسيج، وفي البداية يفتقر إلى كل الخدمات الأساسية من ماء وكهرباء وتأسيسات صرف وما إلى ذلك. وقد جاءت هذه لاحقاً وببطء بعد سلسلة من الإضرابات التي نظمها العمال غير الأميركيين، وفي أعقاب حرب فلسطين عام ١٩٤٨ عندما ظن مسؤولو «آرامكو» أن امتياز الشركة في خطر» (فيتاليس ١٩٩٨ : ١٤).

وبرغم أن هذا الفصل كان جزءاً من روح «آرامكو»، فإن السعوديين لم يكن لديهم المزاج ولا القدرة على تحديه. وبقيت «سورة الكافرون» التي قرأها ابن سعود خلال صلاة الجمعة

الخلفية التي كان السعوديون ينظرون منها إلى توافد «الكافرين» إلى «أرض الإسلام»، وهو فهم مستمر حتى يومنا هذا. في غضون ذلك، بدأت الظهران «تكتسب مظهر وأجواء مدينة صناعية أميركية. وقيل إنها تشبه بيكرزفيلد Bakersfield على حافة صحراء موجايف Mojave في كاليفورنيا ـ كما كانت في الخمسينيات ـ عالماً صغيراً من البيوت الواطئة ضواحيه أكواخ كئيبة ذات أسطح من الصفيح، وحانات من الكتل الاسمنتية، ومحطات التعبئة» (براون ١٩٩٩: ١٣٩ ـ ١٤٠).

كان السعوديون يستأجرون للعمل من بين سكان واحات الأحساء الشيعة المحليين الذين كانوا في عام ١٩٥٤ يشكلون ٦٠ في المئة من الأيدي العاملة السعودي في «آرامكو» (فيتاليس ١٩٩٨: ١٠). وكان آخرون من بين سكان الواحات الحضر في المنطقة الشرقية ونجد. كما كان البدو يستخدمون للقيام بأعمال وضيعة حول مواقع الحفر، وفي البناء والسياقة وإزالة الأنقاض والتنظيف. وقام تجار حساويون وحجازيون مثل آل القصيبي وعليان بدور المقاولين الثانويين للنقل والتعاقد مع العمال والغسيل والتموين (فيتاليس ١٩٩٨: ١١؛ فيلد Field ١٩٨٤: ٢١٧، ٣١١).

في أوائل الخمسينيات كان بين الـ ٢٠٤٠٠ شخص الذين يعملون في «آرامكو» ٤٠٠٠ أميركي و١٣٤٠٠ سعودي و٣٠٠٠ من جنسيات أخرى: أفريقية وعربية ومتوسطية (براون ١٩٩٩: ١٤٠). وكان الأميركيون يشكلون نحو ثلث الأيدي العاملة في آرامكو. ولعل عدد العمال السعوديين كان صغيراً بين السكان، يقدر وقتذاك بمليونين ونصف مليون (الزركلي ١٩٧٠: ٧٠٩)، ولكن نتائج تشغيلهم امتدت أبعد من أولئك الذين كانوا يتمركزون في الكامب.

واكتشفت وقتذاك هذه الأكواخ ذات الأسطح الصفيحية التي كانت مساكن العمال السعوديين والعرب المُستخدَمين في حقول النفط الأربعة: أبو حدرية وأبقيق والقطيف والدمام (فاسيلييف ١٩٩٨: ٣٢٩). وكانت مساكنهم الشبيهة بالثكنات، تتألف من أبنية ذات كتل اسمنتية من الخرسانة فيها مرافق ترفيهية متواضعة وسوق لشراء الغذاء ومواد أخرى ومسجد أو أكثر (براون ١٩٩٩: ١٤١). وكانت الأغنام والجمال تختلط مع العمال. وفي الفترة الواقعة بين ١٩٤٥ و ١٩٠ بلغ حجم دورة المعاملين العرب مستوى ٧٥ في المئة، وبقي عند هذا المستوى

طوال سنوات (المصدر السابق: ١٥٠). وفي حين أن بدواً من مناطق مختلفة من البلاد كانوا يأتون ويذهبون، فإن الفلاحين الشيعة الحساويين أثبتوا كونهم الفئة الأقل تقلباً في هذا الكيان غير المتجانس حديث النشأة الذي يسمى «عمال آرامكو». ويقول براون إن هؤلاء كانوا يأتون للعمل موسماً واحداً: «كان النبأ يصل إلى سكان الصحراء والمدن بأنه مقابل بعض المجهود الجسدي سيمنح الأجانب ذوو العيون الزرق كل رجل حفنة من الفضة» (المصدر السابق: ١٤٧).

ولكن «أكواخ» «آرامكو» تتبدى مائلة في الذكرى الشعبية للعمال السعوديين الأوائل. وقد وصف عامل سعودي سابق من عمال «آرامكو» خبرته على النحو الآتي:

خلال الحرب الثانية كنا نتضور جوعاً في القصيم. أفراد عائلتي كانوا فلاحين فقراء يعتنون ببساتين النخيل التي يملكها ثري من المنطقة. وكنا سمعنا من آخرين أن بعض النصارى يعرضون فرص عمل في الأحساء مقابل نقود. والذي قرر أن أذهب وأجرب احظي. سافرت مع قافلة بدوية إلى «الكامب الأميركي» وعرض علي عمل يرتبط بحمل بضائع ومواد. كنت أؤدي أعمالاً شتى. ولأول مرة في حياتي وجدت نفسي مع رجال قبائل آخرين من عتيبة وشمر وقحطان، لكل منهم حكاياته ولهجته. كنا نعمل معاً. التقيت أشخاصاً من عسير ومناطق أخرى من نجد. كان الأمر عجيباً. كان لدينا مطبخ جماعي، كان «مطعمنا». كنا نسميه «مطعم أبو ربع» لأن سعر الوجبة كان ربع ريال. كان الطعام فظيعاً. ولكن النجديين كانوا لا يتفوهون بأي شيء. كانوا يستحون، ولم يكونوا يشتكون. كانوا لا يطلبون أجوراً أعلى أو طعاماً أكثر. كانوا يتركون الهنود يأكلون هناك لاحقاً، في الخمسينيات، بدأوا يطالبون بأشياء من «آرامكو». وعندما أخبرتنا «اللجنة العمالية» أن نطلب

أجوراً أعلى وطعاماً أفضل، لم نستجب لها. فالناس لم يكونوا شحاذين. ولكن عندما قالوا أن نطلب حقوقاً سياسية استجبنا جميعنا وشاركنا في إضرابات ١٩٥٣. كنت أرسل المال إلى أهلي. كل ما أردت شراءه لنفسي هو جهاز راديو. كنت أريد أن أسمع ما يجري في فلسطين ومصر. كان العمال الفلسطينيون يحدثوننا عن مشاكلهم، وكنا نستمع إلى الأخبار معاً.

(مقابلة، آذار/ مارس ١٩٩٩).

كان للراديو تأثيره حقاً في تغيير وعي البعض من أولئك العمال السعوديين الأوائل إلى جانب تغيير الأجور التي كانوا يتقاضونها. وعندما اختلط السعوديون بالعمال الفلسطينيين والسوريين والمصريين واللبنانيين، فإنهم واجهوا مباشرة اللحظة التاريخية المضطربة في العالم العربي بعد حرب فلسطين عام ١٩٤٨. وكان العمال السعوديون يستمعون إلى الأخبار مع نظرائهم العمال العرب ويتناقشون حول الأحداث في مهاجع مخصصة للرجال. ولم يعد بالإمكان في أواخر الأربعينيات الاستمرار في سياسة ابن سعود الحذرة إزاء فلسطين، التي دأب عليها في الثلاثينيات.

بدأ نمط جديد من الوعي يتطور بين عمال «آرامكو» السعوديين، وهو كان وعياً يختلف عن الوعي المتشكل نتيجة احتكاكات سابقة بين بدو الجزيرة العربية وتجار عابرين حدود البلاد الشمالية مثلاً إلى مناطق أصبحت أراضي محددة تحديداً أوضح ضمن «الدول القومية» حديثة النشأة. وفي حين أن الدول الناشئة شمالاً ضبطت تدريجياً عبور الحدود، فإن توافد العمال المهاجرين إلى العربية السعودية بدأ يكتسب شكلاً متكاملاً. وكان هذا التدفق يستكمل الموظفين العرب الموجودين أصلاً الذين بدأ تشغيلهم في البلاد منذ العشرينيات. وباستثناء الحجاج العابرين، أصبحت العربية السعودية بلداً يستضيف عمالاً مهاجرين لأول مرة.

في أوائل الخمسينيات بدأ عدد محدود من السعوديين في الأحساء يفيد من عمل الصحة العامة والمستشفيات والمدارس. وكان مدراء «آرامكو» يغامرون خارج محيط الكامب للإشراف على أعمال الحفر بحثاً عن الماء، بين أشياء أخرى، في الرياض وغيرها. وكثيراً ما يُذكَرون بكونهم «ضخاماً ذوي وجوه حمراء، يعتمرون طاقيات كبيرة. وكان الناس يقولون إنهم يرتدونها لأنهم لا يريدون أن يروا ربَّ المسلمين» (تقليد شفهي). كان العمال السعوديون يرسلون أجورهم بعيداً إلى عائلات في نجد وعسير والحجاز. وفي حين كانت المساهمات والتحويلات الفردية من صناعة «آرامكو» المقيمة في الأحساء تسافر إلى مناطق أخرى من البلاد، فإن البنى التحتية في هذه المناطق ظلت عملياً على حالها. وفي عسير؛ أبعد المناطق الداخلية في العربية السعودية، لم يبدأ التطور الاقتصادي الحقيقي إلا بعد عقود عديدة.

قلة فقط من العمال السعوديين انتقلت من درجات العمل اليدوي وغير الماهر حين بدأت تثبت قدرات إدارية. وقامت «آرامكو» بتنفيذ مشاريع تدريب ابتدائية. وبدأت دورات لمكافحة

الأمية تجتذب العمال. والسعوديون الذي يتميزون خلال عملهم مع «آرامكو» كانوا يُرسَلون لاحقاً إلى الخارج: في البداية إلى مصر ثم إلى أوروبا والولايات المتحدة لمتابعة تحصيلهم في معاهد التعليم العالي.

عمل المعارض السعودي ناصر السعيد (من مواليد عام ١٩٢٣) فترة قصيرة في «آرامكو» انتهت في عام ١٩٥٧ بعدما أعلن تمثيله العمال العرب من خلال نشاطاته في اتحاد النقابات العربية. وكان السعيد سافر إلى كامب «آرامكو» من مدينته حائل بحثاً عن العمل. ومن خلال اتصاله بالعمال العرب وزيارة يُزعَم أنه قام بها الى الاتحاد السوفياتي، انخرط في العمل السياسي، وكان وراء اضطرابات ١٩٥٣ ثم إضرابات ١٩٥٦ التي نظمها عمال «آرامكو» (السعيد ١٩٨١؛ أبو ذر ١٩٨٢؛ لاكنر ١٩٧٨؛ أبير Abir ١٩٨٨). ودفعت هذه التحركات «آرامكو» إلى إعادة النظر في الظروف المادية والاجتماعية في المعسكرات، وزيادة الأجور. وبحلول عام ١٩٥٧ ،ازداد سُلَّم الأجور الأساسية في «آرامكو» أكثر من مرتين وارتفع متوسط الدخل السنوي بين سائر العاملين السعوديين إلى ١٣٠٠ دولار (براون ١٩٩٩: ١٥٤). وأدى تعاطي السعيد، من بين آخرين، مع قضايا تتعلق بتحسين ظروف العمل في ما كانت الحكومة و«آرامكو» تعتبر أنه نشاطاً ثورياً، إلى إيداعه السجن. وعندما أطلق سراحه غادر العربية السعودية ليمضي حياته منفياً في لبنان وسوريا والعراق. وفي عام ١٩٧٩، خطف السعيد في لبنان، واتهم في خطفه عملاء للحكومة السعودية، ولم يُسمع عنه شيء منذ ذلك الوقت (أبو ذر ١٩٨٢)، وما زالت زوجته وأطفاله يعيشون في ليبيا.

أوجدت الصناعة النفطية أشكالاً من المعارضة لم تكن معروفة من قبل في العربية السعودية، كما أنها وفرت الشيء الكثير من الخلفية للأعمال التي كتبت عن المعارضة السعودية في أوائل الخمسينيات. وعلى سبيل المثال، أن الروائي السعودي عبد الرحمن منيف، في ثلاثيته مدن الملح، التقط روح تلك الخبرة التاريخية الفريدة. وكانت رواياته تمثل أول محاولة جادة لكشف تأثير النفط والأميركيين في العربية السعودية، وتجري أحداثها في موران، وهي مدينة وهمية معزولة في الصحراء لكنها تحولت بحيث لم يعد من الممكن التعرف إليها.

يكتب منيف في الأخدود:

لم تمض سنوات حتى أصبحت موران مدينة عجيبة. فمن الأسفار التي قام بها الكثيرون إلى بلدان عديدة، ومن المجلات التي حملوها معهم، أو من الرسوم البدائية التي خططوها لبيوت رأوها في هذه الأسفار، إضافة إلى وجود شركة الغزال لبناء الفيلات والقصور، بدأت تنبت القصور كما ينبت المداد، أو كما تتشكل الحدائق اليابانية: مجموعة من الألوان والأشكال والحجوم لا تحتملها عن: بيوت فسيحة إلى درجة لا يُعرَف لأي شيء ستُستعمل أو مَنْ سيسكن فيها... ومثلما وصلت السيارات ومكيفات الهواء والجواهر، ومثلما وصلها أعداد تزيد كل يوم من الغرباء...

(منيف، الأخدود، الطبعة السابعة، ١٩٩٩، ص ٥١٩).

لم تعمل «آرامكو» على تيسير ظهور الموجة الأولى من الإداريين والتكنوقراط والموظفين والمليونيرات النفطيين فحسب، بل ظهور أول السجناء السياسيين والمنشقين والمنفيين والأدباء المعارضين أيضاً. وما كان يُوصَف بأنه مؤامرات قبلية أو معارضة دينية في عهد ابن سعود، حل محله خطاب جديد يستند إلى الاتجاهات السياسية العربية التي كانت رائجة في الخمسينيات. ففي عام ١٩٥٣، كان للعربية السعودية ناصريوها وقوميوها العرب وشيوعيوها المتوجسون، الذين انبثقوا كلهم قرب حقول النفط وداخل الكامب السعودي. وفي حين أن ابن سعود لم يعش طويلاً بما فيه الكفاية ليرى ظهور قوى جديدة في المجتمع السعودي، فإن نجله سعوداً طاردته تطورات سياسية جديدة نبتت أصولها قرب حقول النفط، كما سيجري بحثه في الفصل التالي.

العربية السعودية وبريطانيا

كان الامتياز النفطي لشركة «آرامكو» إيذاناً بانحسار النفوذ البريطاني في العربية السعودية، الذي بلغ مرحلته الأخيرة بعد الحرب العالمية الثانية. ففي أوائل الثلاثينيات، دأب ابن سعود على التوجه إلى بريطانيا طلباً للمساعدة، ولكن لم يُعدَّم إليه دعم مالي مباشر. وبدلاً من ذلك، قررت الحكومة البريطانية إرسال أسلحة بشروط سهلة جداً وطائرات للسلاح الجوي السعودي (سلغلت وسلغلت ١٩٨٢: ٤٧). غير أن بريطانيا كانت قلقة من أن صعوبات ابن

سعود المالية قد تشجع الإيطاليين الذين أقاموا قاعدة على الشاطئ الأفريقي من البحر الأحمر، لإنقاذه من صعوباته (المصدر السابق: ٤٨).

في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٠، أعلن ابن سعود ضم عسير سامحاً للإدريسي (الذي ورد ذكره في الفصل السابق) بالاستمرار اسمياً في إدارة الإقليم. وكان لهذا وقع حسن في لندن (الذرديل ١٩٨٣: ١٤٦). ولكن ضم عسير قرب ابن سعود من أراضي إمام اليمن يحيى الذي كانت له أيضاً مطامحه القوية في عسير.

في عام ١٩٣٢، اكتشفت مؤامرة لشن هجمات متزامنة على الحجاز من الجنوب ومن الشمال. وكانت المؤامرة من تدبير ابن رفادة؛ شيخ إحدى القبائل الحجازية، مع وجهاء حجازيين من عائلتي الدباغ والخطيب كانوا فروا إلى اليمن وشرق الأردن بعد الاستيلاء على الحجاز في عام ١٩٢٥. ولفتت هذه المؤامرة انتباه ابن سعود إلى الخطر الذي يمكن أن تشكله عسير على أمن سلطته. وفي وقت لاحق تمرد الإدريسي، بدعم يمني، على حاكم عسير السعودي. وأخمد التمرد في عام ١٩٣٣. بعدها، هرب الإدريسي نفسه إلى اليمن (المصدر السابق: ١٥٠). وتحركت القوات اليمنية على الفور لدخول مدينة نجران في العمق ومناطق أخرى من عسير مطالبة بعودة كل الأراضي التي كانت خاضعة لسيطرة الأدارسة.

كان ابن سعود يفتقر إلى الموارد المالية لشراء السلاح استعداداً لما بدا أنه حرب حتمية مع إمام اليمن. ومرة أخرى، رفضت بريطانيا طلبه أن تمده بالسلاح وحاولت إقناعه بالعدول عن أي عمل عدائي (المصدر السابق: ١٥١). وتحول النزاع الذي بدأ في عسير إلى مواجهة بين العربية السعودية واليمن مع انجرار بريطانيا وإيطاليا إلى هذا الصراع. وفي الفترة الواقعة بين آذار/ مارس وأيار/ مايو ١٩٣٣ زحفت القوات السعودية على المناطق المتنازع حولها على الحدود السعودية ـ اليمنية، وبعد عدة مواجهات عسكرية، أعلن ابن سعود وقف إطلاق النار في أيار/ مايو. وأعقبت ذلك «معاهدة الطائف» في حزيران/ يونيو ١٩٣٤. وتوجه ابن سعود والإمام يحيى إلى «الصداقة والأخوة الإسلامية». ووافق الإمام يحيى على مطالب ابن سعود بالإفراج عن الرهائن السعوديين وتسوية المناطق المتنازع عليها وتسليم الإدريسي وأتباعه (المصدر السابق: ١٦٠). واستطاع ابن سعود أن يضم عسيراً رسمياً ولكنه أخفق في التوصل إلى اتفاق نهائي مع الإمام يحيى على الحدود السعودية ـ اليمنية.

وفي حين أن بريطانيا دعمت ابن سعود في إخماد تمرد «الأخوان» عام ١٩٢٧، يبدو أنها ضمنت بهذا الدعم خلال الحرب السعودية ـ اليمنية. ويقول لذرديل «إن اليمن لم يكن العراق: لم تكن لدى بريطانيا مصلحة مماثلة موضع رهان» (لذرديل ١٩٨٣: ١٦٠). وكانت سياسة بريطانيا إبان الثلاثينيات تدور حول الحفاظ على ابن سعود بوصفه المصدر الرئيسي للسلطة السياسية. ونظرت بريطانيا إلى الحرب السعودية ـ اليمنية على أنها خلاف محلي حول منطقة عسير العازلة المتنازع عليها. وليس من المستبعد أن ابن سعود فهم موقف بريطانيا المتحفظ من هذه الحرب على أنه امتناع عن مساعدته. ولعل هذا كان أحد الأسباب وراء موافقته على توقيع الامتياز النفطي مع شركة أميركية تعتبر حكومتها (حتى ذلك الوقت) محايدة وبلا مطامح امبراطورية واضحة في الجزيرة العربية.

في الثلاثينيات، لم تكن المسألة الفلسطينية أصبحت قضية بين ابن سعود وبريطانيا. وقبل أحداث ١٩٣٦ في فلسطين، يبدو أن ابن سعود لم يول اهتماماً يُذكر بالأحداث في هذا الجزء من العالم العربي الذي كان يُعَدُّ بعيداً جغرافياً، وغريباً ثقافياً عن مُلكه: «كان ابن سعود يرفض على نحو لافت أن يسمح للمحرضين الفلسطينيين أو السوريين باستخدامه برغم أن مفتي القدس شكا لابن سعود من سياسة بريطانيا الصهيونية التي صُورت بأنها سياسة محسوبة لتدمير الأمة العربية» (لذرديل ١٩٨٣: ٢٦٨).

رأت بريطانيا من الواضح أن «الملك السعودي لن يخدم صداقته معها أو يعزز سمعته في العالم العربي بصفة عامة إذا أقحم نفسه في مشكلة بريطانية محضة في فلسطين» (لذرديل ١٩٨٣: ٢٦٨). وفي عام ١٩٣٧ بات جلياً أن الانتداب البريطاني في فلسطين يدخل مرحلته النهائية، وأن أرض فلسطين مقبلة على تقسيمها إلى دولة عربية وأخرى يهودية. وقامت بريطانيا بإبلاغ ابن سعود بالقرار، لكن لم يُلحظ رد فعل سعودي مماثل لردود أفعال بلدان عربية أخرى. وفي الحقيقة، أن رد ابن سعود على تقسيم فلسطين كان الصمت في البداية (المصدر السابق: ٢٧٤). ويبدو «أن ابن سعود كان أكثر اهتماماً بمطامح عبد الله الهاشمي الذي كان يكيد بنشاط مع العرب الفلسطينيين، وبدعم من العراق، لم يخف التعويل على ضم فلسطين إلى أردن أكبر» (المصدر السابق: ٢٧٤).

كانت سياسة ابن سعود تجاه فلسطين في الثلاثينيات سياسة حذرة. وكان الملك مصمماً على ألا يفتح مملكته لعقد مؤتمرات عربية على أرضها. كما أنه لم يرسل وفداً إلى المؤتمر العربي في بلودان في سوريا عام ١٩٣٧. وكان دعم ابن سعود الظاهري لحركات التضامن بين المسلمين

شيئاً، وتشجيعه كراهية الغرباء ذات الشعبية الواسعة، واللاأدرية الفكرية والمثل الإصلاحية التي يمكن أن تنتشر في مملكته، شيئاً آخر تماماً (لذرديل ١٩٨٣: ٢٨٢).

استمر عدم اكتراث ابن سعود بالقضية الفلسطينية حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية. ولخص هذا الموقف بقوله الشهير «أهل فلسطين أدرى بشعابها» (اليمامة، ٣١ آذار/ مارس ٢٠٠١: ٢٤). وفي حين أن هذا القول يعني الإحجام عن التدخل في النزاع الفلسطيني، فإنه كان يعكس تحفظاً راسخاً ورغبة في البقاء بعيداً عن أزمة عربية كان ابن سعود لا يرى أن لها علاقة بصيانة ملكه. ولم تشارك العربية السعودية بدور جاد في الحرب العربية - اليهودية عام ١٩٤٨ برغم أنها أرسلت كتيبة عملت بوصفها إحدى وحدات الجيش المصري (فاسيلييف ١٩٩٨: ٣٤٩). وأسفر إعلان دولة إسرائيل في عام ١٩٤٨ عن طرد ألوف الفلسطينيين الذين نزحوا لاجئين إلى البلدان العربية المجاورة. وقدم ابن سعود تنازلاً للقضية الفلسطينية عندما أبلغ «آرامكو» في عام ١٩٤٩ برغبته في أن تقوم الشركة بتشغيل ألف لاجئ فلسطيني على الأقل (سيكومب ولولس Seccombe and Lawless ١٩٨٦: ٥٧١). وسرعان ما أرسلت «آرامكو» مسولين لتسجيل فلسطينيين في بيروت حيث تلقوا أكثر من ٥٦٥٠ طلباً. وفي كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٩ قامت «آرامكو» بتشغيل ١٠٠ فلسطيني، وبعد عام ارتفع عددهم إلى ٨٢٦ فلسطينياً (المصدر السابق: ٥٧٢).

في أواخر الأربعينيات، كان الهم الرئيسي لابن سعود يتمحور حول المملكتين الهاشميتين في العراق وشرق الأردن، اللتين لديهما أعداد كبيرة من السكان القبليين ذوي الأصول السعودية. كما كانت لدى العاهلين، على السواء، دعاوى مشروعة بالحق في الزعامة على أساس نَسَبهما «المقدس». وقد وقفت العربية السعودية ضد طموح الملك عبد الله في ضم شرق فلسطين (الضفة الغربية) واستخدمت الجامعة العربية التي انضمت إليها عام ١٩٤٥ للحد من النفوذ الهاشمي في العالم العربي.

بقيت العربية السعودية مقتنعة بأن السياسة البريطانية في الشرق الأوسط تقوي مواقع غرمائها الهاشميين، وهذ القناعة كانت وراء رغبة ابن سعود في إقامة علاقة أوثق مع الولايات المتحدة. وفي عام ١٩٤٢، عينت الولايات المتحدة قائماً بالأعمال في جدة. وفي الفترة الواقعة بين ١٩٤٤ و١٩٤٦ كانت البعثة الدبلوماسية الأميركية برئاسة دبليو. أي. إيدي W. A. Eddy،

وهو ضابط استخبارات متمرس ومستعرب، ولاحقاً مستشار لدى «آرامكو» (فاسيلييف ١٩٩٨ : ٣٢٥. وظل مسؤولو «آرامكو» القوة المحركة الرئيسية وراء العلاقات السعودية ـ الأميركية خلال السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الثانية. وفي عام ١٩٤٣، قام مسؤولو «آرامكو» بتيسير زيارات الأميرين السعوديين سعود وفيصل إلى واشنطن. وكان مسؤولو «آرامكو» أقنعوا واشنطن بأن احتياطات العربية السعودية من النفط تبلغ ٢٠ بليون برميل تعادل كل المكامن النفطية المكتشفة في الولايات المتحدة (المصدر السابق).

تكللت جهود «آرامكو» للفت انتباه واشنطن إلى العربية السعودية بلقاء بين ابن سعود والرئيس الأميركي روزفلت في عام ١٩٤٥. ونقل ابن سعود من جدة إلى قناة السويس حيث كان روزفلت بانتظاره على متن الطراد الأميركي «كوينسي» (ميلر Miller ١٩٨٠ : ١٢٨ ـ ١٣٥). وأسفر اللقاء عن إقامة علاقات أمتن مع الولايات المتحدة على حساب بريطانيا. ووافق ابن سعود على السماح للسفن الأميركية باستخدام الموانئ السعودية وبناء قاعدة جوية أميركية كبيرة. وأجرت منطقة للجيش الأميركي لفترة خمس سنوات تعاد بعدها إلى العربية السعودية مع كل ما بني فيها من منشآت (فاسيلييف ١٩٩٨ : ٣٢٧). وأكد ابن سعود أن الامتيازا النفطي الموقع عام ١٩٣٣ مع «آرامكو» ما زال سارياً، ومنح موافقته على مد أنبوب النفط العابر للجزيرة العربية بين الأحساء والبحر الأبيض المتوسط (المصدر السابق). وأرسلت واشنطن بعثة عسكرية لدراسة بناء مطارات عسكرية في الظهران. وكان اللقاء أكبر أهمية عند ابن سعود لأنه مضى أبعد من حدوده بحثاص عن حليف يضمن استقلال دولته حديثة النشأة بينما كانت الولايات المتحدة تبحث عن مكامن نقطية وقواعد جوية عسكرية.

كان العامل الرئيسي وراء العلاقات السعودية ـ الأميركية خلال الحرب العالمية الثانية يتمثل في النفط والمصالح التجارية لشركات النفط الأميركية. وبعد امتياز ١٩٣٣ النفطي، أصبحت العربية السعودية أول دولة عربية مستقلة تقيم علاقات هامة مع الولايات المتحدة (لذرديل ١٩٨٣ : ٢١١). كما كانت العربية السعودية أول منطقة خارج نصف الكرة الغربي حل فيها النفوذ السياسي والاستراتيجي الأميركي محل النفوذ البريطاني (المصدر السابق: ٢١٢). وكان الامتياز النفطي إيذاناً ببدء علاقة لم تنضج إلا بعد الحرب العالمية الثانية. فخلال الحرب، احتفظت بريطانيا بالعربية السعودية ضمن دائرة نفوذها، وهو وضع لم تسع الولايات المتحدة

قط إلى تحديه إلا بعد انتهاء الحرب (المصدر السابق). ولكن العربية السعودية كانت تتلقى أسلحة ومعدات عسكرية من الولايات المتحدة في إطار برنامج «الإعارة والتأجير» الذي ترك انطباعات إيجابية في العربية السعودية، ومهد الطريق لإقامة علاقة حميمة عندما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها.

في الوقت الذي كانت الاعتراضات على الظروف في كامب «آرامكو» تختمر على بعد مئات الأميال من الرياض، كان ابن سعود يمضي سنوات عمره الأخيرة في هدوء وسكينة بسبب الشيخوخة والمرض، يحيط به أبناؤه الأحب إليه. وفي حين كان ولداه الأكبر سعود (ولي العهد) وفيصل يشاركان في تصريف شؤون المناطق الأكثر أهمية من الناحية السياسية (نجد والحجاز)، وامبراطورية «آرامكو» تتنامى (باطراد وفي آن واحد في الأحساء)، فإن هذا الهدوء تنحى تدريجياً ليحل محله اعتزال الحياة العامة. واعتكف ابن سعود بين أهله الأقربين مهتماً بتنشئة أبنائه الأصغر سناً الذين أنجبهم في الثلاثينيات والأربعينيات من محظيات سابقات أقام معهم أواصر حميمة. وكان الأمير طلال بن عبد العزيز آل سعود وحياته السياسية اللاحقة نتاج تلك العلاقة الحميمة بين الوالد الشيخ/ الملك وابن لم يكن ولاؤه ملوثاً بخؤولة من نبلاء الجزيرة العربية[1]. وتوجه ابن سعود إلى رعاية طلال وأشقائه، وهو عمل تسبب لاحقاً في إذكاء صراعات داخلية بين أبنائه وتهديد بقاء المملكة. وكان فان دير مولن زار الرياض قبل وفاة الملك في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٣، ووصف المجلس الشهير على النحو الآتي:

الربيع الآفل قد أفل. لم أسمع شيئاً جديداً: لا تعليقات متألقة، ولا آراء قوية عن السياسة العربية ـ الإسلامية أو شؤون العالم الخارجي. لم تعد غرفة الحضور مكان إلهام لشعبه. فالصوت الذي كان يتردد هناك لم يعد يثير صدى في قلوب الرجال. ولن يمضي وقت طويل قبل أن يسكت. كانت الرياض تنتظر تلك اللحظة، ومن باب الاحترام للشيخ الكبير كانت تنتظر بصمت.

(فان دير مولن ١٩٥٧: ٢٢٩ ـ ١٣٠).

---

(١) كان معروفاً للجميع أن ابن سعود كان يفضل الأبناء المولودين لزوجات غير سعوديات. وكانت هذه النساء وأطفالهن يتلقون معاملة خاصة وهدايا باذخة. في ذكرى الملك كتب طلال بن عبد العزيز كتاباً لتكريم والده. انظر السعود ١٩٩٩.

الفصل الرابع

سياسة المعارضة: ١٩٥٣ ـ ١٩٧٣

نشب صراع عنيف على السلطة بين ولدي ابن سعود الكبيرين سعود وفيصل فور وفاته. وطوال عقد الخمسينيات اقتربت الدولة السعودية من الانهيار في مناسبات عدة، وبدا مستقبل البلاد غامضاً نتيجة الصراع السياسي الداخلي المتفجر بين الأخوين السعوديين.

وعلى امتداد هذه الفترة، كان للغليان السياسي في العالم العربي (أزمة السويس عام ١٩٥٦ والحرب العربية ـ الإسرائيلية عام ١٩٦٧) تأثيره في الأحداث السياسية والاجتماعية في العربية السعودية. وهددت أيديولوجيات خارجية مختلفة مثل القومية العربية الاشتراكية الناصرية ثم البعث العراقي/ السوري، الحكم السعودي من أساسه، وأصبحت القوة الدافعة لتطور سياسة فيصل الإسلامية في أوائل الستينيات. وقد أبرز فيصل الهوية الإسلامية للدولة السعودية، وأصبحت هذه استراتيجيا مضادة كانت العربية السعودية تهدف بها إلى النيل من الدعاوي الأوسع للقومية العربية وتثبيت نفسها لاعباً هاماً في السياسة الإقليمية العربية بعد عقود من البقاء على هامش عالم عربي تتسيده مصر.

هذا الفصل تقرير تاريخي للصراع السياسي الداخلي في إطار الأسرة الملكية السعودية على خلفية السياق الأقليمي العربي. وفي الوقت الذي كانت للمنافسة الداخلية بين سعود وفيصل أسبابها المحلية الخاصة، فإن الصراع السياسي لا يمكن أن يُفهَم فهماً كاملاً من دون استطلاع علاقة العربية السعودية بالعالم العربي في الخمسينيات والستينيات.

عهد الملك سعود

أعلن ولي العهد سعود (وُلد عام ١٩٠٢) ملكاً بعد فترة قصيرة على وفاة والده، وأصبح أخوه فيصل تلقائياً ولي العهد. ولم يكن سعود مؤهلاً لخلافة والده، وأثبت كونه على قدر بالغ من عدم الكفاءة عندما دقت الساعة.

خلال العام الأول على العرش ارتفعت عائدات سعود النفطية إلى ٢٣٦ مليون دولار، وبلغت ٣٤٠ مليون دولار في عام ١٩٥٤ ثم انخفضت إلى ٢٩٠ مليون دولار في عام ١٩٥٦. وبقيت

راكـدة في عـامي ١٩٥٧ و١٩٥٨ . ولم تـؤد زيـادة العائـدات النفطيـة إلى حـل المـشكلة الماليـة المرتبطة بالديون التي ورثها سعود من والده، والتي يقدر أنها كانـت ٢٠٠ مليـون دولار في عام ١٩٥٣ . وفي الحقيقة أن هذا الدين تضاعف أكثـر مـن مـرتين بحلول عـام ١٩٥٨ عنـدما بلغ ٤٨٠ مليون دولار (شامية ١٩٨٦ : ٢٤٣) . وفقد الريال السعودي نصف قيمته الرسمية مقابل الـدولار ورفضت «آرامكـو» والبنـوك الدوليـة طلبـات سـعود إقراضـه. وجمـد سـعود المـشاريع الحكوميـة القليلة التي بدأها لكنه واصـل إنفاقـه على بنـاء قصور فخمـة (سـفران Safran ١٩٨٥ : ٨٧). وفي الحقيقة، أنه في عـام ١٩٥٣ حـدد رواتـب الأمـراء بــ ٣٢ ألـف دولار سـنوياً مع شـخص مخصص للنثريات بـرغم مديونيـة الحكومـة (شـامية ١٩٨٦ : ٢٤٤) . وكـان الأمـراء يعتمـدون في الـسباق على كرم ابن سعود وترتيبات غير رسميـة يحصلون بهـا على عطايـا مختلفـة، نقديـة وفي شـكل أراض، من والدهم الذي كان وزير المال ينفذ تعليماته[1] .

هذه كانت خلفية الأزمة السياسية التي جعلت عهد سعود يرتبط بأشد الفترات اضطراباً في تاريخ الدولة السعودية الفتية. وأصبحت ماليـة الحكومـة، أو بـالأحرى نهبهـا ، المظلـة الـتي جـرى تحتها الصراع العنيف على السلطة بين سعود وأخيه الطموح فيصل. وخاض كل من سعود وفيصل معركة داخلية على تحديد المسؤوليات السياسية وتوزيع وظائف الحكومة.

ترسم المدونات التاريخية المحدودة عن تلك الفترة صورة سعود وفيصل بوصفهما على طـرفي نقيض. وكثيراً ما يربط سعود في هذه التقارير، من بين ما يربط به، بـ «الحكـم القبلي التقليـدي ونهب عائـدات الـنفط وتـرف الحيـاة في القـصور ودسـائس داخـل العربيـة الـسعودية وخارجهـا ، والفسـاد» . ويربط فيصل بـ «الرصانة والورع والطهرانية والحكمة الماليـة والتحديـث» (يزرائيلي ١٩٩٧ ؛ سفران ١٩٨٥ ؛ شـامية ١٩٨٦ح الـشيخ ١٩٨٨ ؛ عبـد الله ١٩٩٠) . يـضاف إلى ذلـك أن النزاع بين الأخوين كثيراً ما يوصف بأنـه نـاجم عـن رغبـة فيـصل في الحـد مـن إنفـاق أخيـه وحـل الأزمـة الماليـة في العربيـة الـسعودية. وكـان يعتقـد أن ماليـة الحكومـة هـي الـدافع وراء محـاولات فيصل المتعاقبة لتهميش الملك وتحجيم سـلطاته المختلفـة. ولكـن الأزمـة لم تكـن اقتـصادية وماليـة فحسب، بـل سياسـية واجتماعية أيضاً . ومن دون التقليل مـن حجـم الأزمـة الماليـة، فـإن فهـم هـذه

---

(١) كان ابن سليمان وزير مالية ابن سعود يتأخر أحياناً في الدفع للأمراء حتى بعد موافقة الملك على الصرف. وكثيراً ما كان ابن سليمان يختصم مع سعود حين يطالب الأخير بصرف مزيد من أموال الخزينة.

السنوات المضطربة ينبغي أن يمضي أبعد من الديون السعودية وينظر في الصراعات الداخلية بين أبناء ابن سعود التي اندلعت فور وفاته.

تلت وفاة ابن سعود أزمة سياسية على مستوى القيادة. وأصبحت طريقة تقسيم ميراث ابن سعود بين أبنائه قضية ملحة بين ذريته. وتعين مأسسه تقاسم السلطة بين الامراء الكبار الذين كان لهم دور مباشر في إقامة الدولة. وكان توزيع الأدوار قد تحقق بين سعود وفيصل، ولكن تشكيل مجلس الوزراء قبل شهر من وفاة ابن سعود في عام ١٩٥٣ لم يحل مشكلة تقاسم السلطة بين الملك وولي العهد. وكان يراد المجلس الوزراء أن يكون هيئة تنفيذية للحكم، وكانت له سلطة إصدار القرارات الوزارية، ولكن لم تكن له سلطة مستقلة عن الملك الذي يجب أن يوافق على كل قرارات المجلس.

اعتمد ابن سعود في حياته اعتماداً شديداً على مستشاريه العرب وأفلح في تعيين مجايلين له حكاماً في أقاليم نائية عاملاً في الوقت نفسه على تنمية حلقة محدودة من أبنائه. وبعد تشكيل المجلس اندلعت صراعات داخلية على عضويته ودوره. ولم يكن ابن سعود خلف وراءه سابقة تاريخية يهتدي بها ورثته. فعلى الرغم من أن أناط بعض المسؤوليات بولديه الكبيرين، لم يكن ثمة شك في أن الكلمة الأخيرة كانت له. وقد أنهت وفاته التفاهم الضمني بين ورثته على أن الملك السعودي حاكم مطلق.

جرت المعركة بين الأخوين على الدور الذي ينبغي أن يناط بمجلس الوزراء. وقد ألغى سعود منصب رئيس الوزراء بمرسوم ملكي معززاً بذلك موقعه مَلِكاً ورئيس وزراء في واقع الأمر. وكان سعود يعتبر نفسه ملكاً ورئيس حكومة بينما كان في تصور فيصل وضع مزيد من السلطات في يده هو بصفته ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء. ولو تم حل الصراع على السلطة بين سعود وفيصل لكان بالإمكان إدماج الأمراء في الحكم بسلاسة. وقد انبثقت وزارات عديدة في غضون أقل من عقد: المواصلات (١٩٥٤)، الزراعة والماء (١٩٥٣)، المعارف (١٩٥٣)، البترول والثروات المعدنية (١٩٦٠)، الحج والأوقاف (١٩٦٠)، العمل والشؤون الاجتماعية (١٩٦٢) والإعلام (١٩٦٣). ولكن توسع الجهاز الحكومي البيروقراطي كشف التوتر الكامن بين ورثة ابن سعود.

بدأ سعود يرعى مواقع أبنائه كما فعل والده على حساب أخوته (شامية ١٩٨٦ ٢٤٤). وفي الفترة الواقعة بين ١٩٥٣ و١٩٦٤ كان الهدف من الوزارات الثماني يتمثل، إلى حد ما، في احتواء المطالب المختمرة بالمشاركة السياسية بين أفراد الأسرة الملكية. ولكن في عام ١٩٥٨

وضع سعود نجله فهداً في وزارة الدفاع، ونجله مساعداً في الحرس الملكي، ونجله خالداً في الحرس الوطني، ونجله سعداً في الحرس الخاص (المصدر السابق: ٢٤٥). وبعد تأمين السيطرة على الدفاع عين أخاه طلالاً (ورد ذكره في الفصل السابق: الثالث) في وزارة النقل. كما رقى سعود طبيب والده السوري رشاد فرعون لتولي وزارة الصحة، وعين حجازياً من عائلة تجار عريقة هو محمد علي رضا لتولي وزارة التجارة وعبد الله بالخير لتولي وزارة المواصلات. وبهذا الاصطفاف لم تأخذ تركيبة الحكومة في الاعتبار دعاوى أخوة سعود، والاهم دعاوى فيصل الأكبر بينهم.

في الفترة الواقعة بين ١٩٥٣ و١٩٦٤ بدأت تتبلور ثلاثة مراكز قوى ملكية مجموعة نشأت حول سعود، مؤلفة من ولديه. ومجموعة ثانية التفت حول فيصل، مؤلفة من أخوته غير الأشقاء (محمد والمجموعة التي أصبحت تعرف لاحقاً باسم السبعة السديرية) وأعمامه بقيادة مساعد بن عبد الرحمن وعبد الله بن عبد الرحمن (كلاهما من أخوة ابن سعود). وبدأت تتشكل مجموعة ثالثة من أبناء ابن سعود الأصغر سناً نسبياً (ولدوا في حوالي الثلاثينيات) وخاصة طلالاً الذي كان أقرباؤه من جهة أمة خارج الجزيرة العربية، وفواز وعبد المحسن (غوز ١٩٩٠: ٦٠؛ أبير Abir ١٩٨٨: ٩٢). وكشفت هذه الائتلافات الحكمة من ممارسات ابن سعود الزوجية التي نوقشت في الفصل السابق. فإن خطابية الأصل الأبوي وُضِعت على المحك النهائي في البداية خلال عهد سعود. وفي محاولة من الأمراء الشباب لاحتلال موقع لهم بعد وفاة والدهم، تذبذبوا في ولائهم بين كتلة سعود وكتلة فيصل. وتعاونوا في البداية مع سعود لكنهم كانوا مستعدين أيضاً لتحويل ولائهم إلى فيصل عندما وعد بالاستماع إلى مطالبهم. ومورست اللعبة بحذر حتى بدأوا يبتعدون عن الاثنين معاً.

وبعد أن أحاط طلال نفسه بمجموعة ناشئة من السعوديين المتعلمين الذين نسبوا إلى مختلف الوزارات الجديدة، فاجأ الملك في ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ عندما اقترح تشكيل مجلس وطني يكون هيئة استشارية لا تشريعية (يزرائيلي ١٩٩٧: ١١٢). وقُدم المقترح إلى الملك حين كان فيصل خارج العربية السعودية، ربما لأن طلالاً كان يتوقع أن يعترض فيصل عليه. وكان رد سعود اللجوء إلى «العلماء» في محاولة للتهرب من مواجهة مباشرة. وأحال طلب طلال على العلماء لإبداء الرأي في ما إذا كان المجلس الوطني مؤسسة شرعية في الإسلام (شامية ١٩٨٦: ٢٥٠).

كان عدة موظفين حجازيين ونجديين وراء المقترح، مثل محمد علي رضا وعبد العزيز معمر وعبد الله الطريقي. وكان طلال يتوقع أن يكون المجلس الوطني الخطوة الأولى نحو قيام ملكية

دستورية. وعندما لم يلق المطلب استجابة أصبح طلال أكثر راديكالية بعد إبعاده من الحكومة في عام ١٩٦١. وانتقل إلى القاهرة وبيروت حيث أعلن تشكيل مجموعة ملكية معارضة باسم «الأمراء والأحرار». وكانت المجموعة تضم طلالاً وأشقاءه مع لفيف من السعوديين المتعلمين، الذين تأثروا بالاتجاهات السياسية الرائجة وقتذاك في العالم العربي، وخاصة الناصرية. وكان مطلب «الأمراء الأحرار» الرئيسي يدور حول إقامة مَلَكية دستورية في العربية السعودية. وتابعت الصحافة المصرية واللبنانية باهتمام نشاطاتهم التي كانت تنطلق من فندق «سانت جورج» في بيروت وهو معلم سياحي دولي كوزموبوليتي ارتبط منذ زمن طويل بمغتربين عرب معارضين من كل الاتجاهات. وكان فندق «سانت جورج» بعيداً عن حياة غالبية السعوديين في أوائل الستينيات حين لم يكن قد بدأ تعليم الإناث.

وفي حين كان الأمراء يخوضون معركة ضارية من أجل تقاسم السلطة ومأسستها، فإن قطاعاً ضيقاً فقط من المجتمع السعودي بدأ يعيش تحولاً اجتماعياً يرتبط بالصناعة النفطية في المنطقة الشرقية وما حققته من ثروة جديدة. وفي الفترة الواقعة بين ١٩٥٠ و١٩٦٠ بدأت تظهر فئة صغيرة من التكنوقراط المحليين ذوي المؤهلات. وتبلورت مجموعة متعلمة حول الملك وولي العهد وغيرهما من الأمراء الكبار. وعاد الرعيل الأول من السعوديين ذوي التعليم النظامي من الجامعات التي درسوا فيها خارج البلاد، وعينوا في الوزارات المختلفة التي استحدثت خلال ذلك العقد. كما رُقي بعض السعوديين إلى رتب عسكرية في الجيش بعد سنوات من التدريب في مصر. وأتاحت الثروة النفطية، مقترنة بتوسع جهاز الدولة الإداري، توظيف مثل هؤلاء الأفراد في الخدمة المدنية ليحلوا جزئياً محل العرب من موظفي ابن سعود. وتأثر البعض من هؤلاء الموظفين المحليين بالأيديولوجيات السياسية الرائجة وقتذاك في العالم العربي، ارتباطاً بنسخة جمال عبد الناصر من القومية العربية.

كانت حياة عبد الله الطريقي (وُلد عام ١٩٢٥) تعبر عن التغيرات الاجتماعية التي بدأت تجري في العربية السعودية وتداعياتها السياسية (داغويد Duguid ١٩٧٠: ١٩٧). إذ كان الطريقي رحل في شبابه عن واحته النجدية زلفي لنيل الشهادة الثانوية في الكويت (الشيخ ١٩٨٨: ٣٦٨). وفي ما بعد كان الشطر الأعظم من تعليمه العالي المبكر في مصر حيث نال شهادة بكالوريوس في العلوم من «جامعة فؤاد». وعاد إلى العربية السعودية للعمل في الجهاز الإداري الفتي مع وزارة المال برعاية وزير المال عبد الله بن سليمان. وعمل في البداية مترجماً

لابن سعود في تعامله مع مسؤولي «آرامكو» . وضمن منحة من خزينة الملك لدراسة الجيولوجيا في القاهرة وتكساس حيث تزوج من أميركية طلقها لاحقاً في العربية السعودية . ولدى عودته عين مدير البترول والمعادن . وخلال عهد الملك سعود أصبح وزير النفط في عام ١٩٦٠ عند استحداث وزارة البترول والمعادن (الشيخ ١٩٨٨ : ٣٦٨ ؛ براون ١٩٩٩ : ١٥١) . وبتأثير الأجواء السياسية العربية في الخمسينيات، وخاصة الناصرية، حمل الطريقي على «آرامكو» مطالباً بتأميمها . ويزعم أن مصدر عدائه كان التعصب الذي عاناه عندما لم يسمح له في الخمسينيات بدخول كامب الموظفين الكبار برغم أن درجته الوظيفية كانت تؤهله لذلك (براون ١٩٩٩ : ١٥٣) .

شارك الطريقي في مؤتمر البترول العربي الأول الذي انعقد في القاهرة عام ١٩٥٩ (داغويد ١٩٧٠ : ٢٠٧)، واقترح في هذا الملتقى أن يعاد التفاوض دورياً بشأن جميع الاتفاقيات النفطية عندما لا تعود هذه مناسبة لأحد الطرفين . وجادل الطريقي بأن التفاوض حول جميع الامتيازات النفطية مع البلدان العربية جرى في وقت كانت هذه البلدان تحت الاحتلال الأجنبي أو أشد تخلفاً في هذه القضايا من أن تدرك بالكامل أهمية الاتفاقيات وتعقيداتها (المصدر السابق : ٢٠٦) .

كما كان الطريقي وراء تأسيس منظمة تضم البلدان المنتجة للنفط . فقد نشأت منظمة البلدان المصدرة للنفط («أوبك») في أيلول/ سبتمبر ١٩٦٠ . وكانت الخلفية التي انبثق عليها هذا المنتدى، الفائض النفطي بعد الحرب العالمية الثانية الذي لم يفعل الكثير لزيادة العائدات النفطية للبلدان المنتجة . وفي محاولة لمنع انهيار أسعار النفط انهياراً كاملاً عمدت شركات النفط إلى خفض الإنتاج الذي أثر بدوره في اقتصادات البلدان التي تعتمد على النفط . وكان في تصور الطريقي أن تقوم «أوبك» بدور قيادي في استقرار الأسواق حائلة دون الهدر الاقتصادي ومحافظة على هذا المورد الطبيعي الناضب (داغوايد ١٩٧٠ : ٢٠٩) . وحين كان الطريقي وزير البترول محضت العربية السعودية دعمها الكامل للمنظمة . ولكن «أوبك» أخفقت خلال الستينيات في التأثير في أسعار النفط لأن العديد من البلدان النفطية لم تكن تمارس سيطرة يعتد بها على ثرواتها الطبيعية بموجب الامتيازات النفطية التي وقعت مع شركات النفط الأجنبية في عقود سابقة . وأصبحت «أوبك» أداة بأيدي الشركات النفطية (لونغ ١٩٩٧ : ٦٦ ـ ٦٨ ؛ داغويد ١٩٧٠ : ٢٠٩) .

أراء الطريقي الراديكالية أفقدته حظوته لدى فيصل؛ راعية الأول. وأقدم فيصل على إعفاء الطريقي من منصبه في مجلس الوزراء عام ١٩٦٢. وكان أحد أسباب عزله مشاعر الطريقي القومية المتعاظمة ونظرته الليبرالية (داغوايد ١٩٧٠: ٢١٠). وعندما انتهت حياة الطريقي المهنية في العربية السعودية، انتقل إلى بيروت حيث أسس شركة استشارات نفطية مستقلة لدعم مخصصة الشهري البالغ ٢٠٠٠ دولار شهرياً كانت تدفع وقتذاك لجميع الوزراء السابقين (المصدر السابق: ٢١١). ولم تتحقق تماماً أمنية الطريقي في رؤية النفط تحت السيطرة السعودية الكاملة إلا في الثمانينيات. وكانت العربية السعودية تملكت ٢٥ في المئة من «آرامكو» عام ١٩٧٣، وازدادت هذه النسبة إلى ٦٠ في المئة عام ١٩٧٤. وأصبحت «آرامكو» في الثمانينات «آرامكو السعودية» عندما آلت ملكيتها كاملة إلى العربية السعودية (لونغ ١٩٩٧: ٦٧).

تأثر الطريقي وآخرون بغليان العالم العربي في الخمسينيات والستينيات التي صاغت تطلعات مجموعة صغيرة من المتعلمين في العربية السعودية. وأدى ضياع فلسطين في عام ١٩٤٨، وأزمة السويس في عام ١٩٥٦، إلى ظهور اتجاهات راديكالية بين قلة من العاملين في «آرامكو السعودية»، تبدت في سلسلة من التظاهرات والقلاقل والإضرابات في عامي ١٩٥٣ و١٩٥٦[1]. وكان الحدث الأهم انقلاب ١٩٥٢ في مصر الذي شكل سابقة لإطاحة «ضباط أحرار» بأنظمة ملكية لا في بلدان أخرى من العالم العربي (على سبيل المثال كان للعراق واليمن وليبيا ضباطها الأحرار ذوو النشأة المحلية في الأعوام ١٩٥٨ و١٩٦٢ و١٩٦٩ على التوالي) فحسب، بل في العربية السعودية أيضاً. ففي عام ١٩٥٥، اكتشف مخطط أعده ضباط سعوديون تدربوا في مصر لإسقاط سعود قبل أيام من موعد الانقلاب، الأمر الذي اهتزت له الأسرة الملكية السعودية محملة سعوداً، شخصياً، المسؤولية عن المحاولة الانقلابية الفاشلة.

يضاف إلى ذلك أن «الأمراء الأحرار» الشباب بقيادة طلال حين كانوا يناضلون من أجل السلطة من داخل حكومة ما بعد ابن سعود، خلعوا على هذا النضال خطابية القومية العربية والاشتراكية والمَلَكية الدستورية، التي كانت خطابية رائجة وقتذاك. وبقيت القومية العربية

(١) لا توجد إلا معلومات مشتتة في الأعمال التي تتناول العربية السعودية، عن الإضرابات التي أعلنها عمال «آرامكو» في ١٩٥٣ و١٩٥٦. أنظر أبير Abir ١٩٨٨؛ وبوكان Buchan ١٩٨٢.

الناصرية مصدر إلهامهم. وفي أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات، أخذت مفردات سياسية جديدة تظهر في العربية السعودية، هي لغة «الانقلابات» و«الثورات»، التي كانت بعيدة كلها عن السياق الاجتماعي للجزيرة العربية حينذاك. وإذ كان الجيش السعودي لم يزل فتياً غير قادر بعد على تدريب ضباطه، عدا عن إنجاب «ضباط أحرار»، فقد كان للعربية السعودية «أمراء أحرار» من صنع محلي. وفي أوائل الستينيات لم يكن هناك شح في هؤلاء الأمراء.

يبين أحد المرويات الشفهية عن المجاهيل التي كانت تحف بعهد الملك سعود، هجس الملك بمثل هذه اللغة السياسية الجديدة. وطبقاً لهذا المروي:

كان الملك سعود في مجلسه ذات عصر. عكر الهدوء صوت شاحنات تعمل في موقع بناء قريب. سأل الملك خادمه عن الضوضاء. قال الخادم للملك إنه صوت «قلابي» (شاحنة تقلب آلياً محتوياتها). سمع الملك كلمة «قلابي» خطأً وخلط بينها وبين كلمة «انقلاب». وفجأة وثب الملك مذعوراً وغادر إلى مقره الخاص. وعاد عندما زال ذعره.

(من المرويات الشفهية).

ولكن في سنوات عهد سعود المضطربة، كان من الصعب تخيل معارضة منظمة. وبرغم أن خطاب الانقلابات والثورة كان يطارد سعوداً، فإن هذا الخطاب كان متداولاً بين أفراد يعبرون عن آراء «معارضة» بحكم تعرضهم لتأثيرات السياسة العربية وتعليمهم. وبقي الأمير طلال وعبد الله الطريقي وناصر السعيد (الذي ذكر في الفصل السابق)، من بين آخرين، أصواتاً مشتتة، لكنها مع ذلك جعلت عهد سعود الفترة الأشد قلقاً في التاريخ السعودي الحديث. ولم يكن المعارضون الاعتياديون يمثلون مناطقهم الخاصة، عدا عن تمثيل المجتمع السعودي بصفة عامة. ففي الخمسينيات وأوائل الستينيات، لم يكن بالإمكان تمثيل المصالح الحجازية والنجدية، على سبيل المثال، من دون رعاية ملكية. وأصبح حجازيون ونجديون أفراداً محسوبين على كل من فيصل وسعود على التوالي، ولكن سيكون من غير المعقول التصور أن الناس في هذه المناطق كانوا ينظرون إلى الناشطين السياسيين على أنهم ممثلوهم.

وغالبية أولئك الذين يمكن أن يسموا «ناشطين سياسيين» لم يكونوا ينتمون إلى مجموعات قبلية كبيرة. وفي الحقيقة أن نشاطيتهم كانت مدفوعة برغبة في تجاوز هامشيتهم في مجتمع كان لم يزل يحدد مكانه الأفراد ومنجزاتهم من منطلقات قبلية قديمة. فلا تدريب ضباط الجيش

السعودي (في الغالب من منطقة الحجاز الأدنى وعسير) في الأكاديميات العسكرية المصرية، ولا الشهادات العليا من جامعات عربية وغربية شهيرة، كانت ترتقي بالأفراد إلى مراتب اجتماعية عليا. ومن كانوا يُوَظَّفون في الوزرات السعودية المختلفة بقوا خدماً مدنيين (مع التشديد على كلمة خدم). وعلى حد تعبير أحد المرافبين، فقد كان بين موظفي الخدمة المدنية أفراد يمثلون «رجلاً جديدا» في العربية السعودية (داغويد ١٩٧٠)؛ شخصاً عصامياً متعلماً ليس لديه الامتياز الذي يأتي مع النَّسَب، ولكنه على قدر من التعليم الذي توجد حاجة ماسة إليه في مجتمع تعوزه الكوادر ذات التعليم النظامي والإعداد التقني.

وفي الوقت الذي كانت توجد فيه فوارق ثقافية واجتماعية واقتصادية بين المناطق، فإن هذه الفوارق لم يكن لها أي مغزى سياسي. وباستثناء الأمير طلال وحاشيته الملكية، فإن الأصوات المعارضة كانت تنطلق من السعوديين حديثي التعليم في مجتمع لا يزال يعتز بالنسب والأصل القبلي. وكان من الأدلة على ذلك حياة ناصر السعيد السياسية. فبرغم أن هذا المعارض كان ينتمي إلى بني تميم في حائل، وهي واحة ترتبط بالإمارة الرشيدية المنافسة (ضمت إلى دائرة السلطة السعودية في عام ١٩٢١)، فإن خطابيته السياسية أخفقت في إلهام قبيلة شمر المعروفة بمعارضتها للهيمنة السعودية منذ القرن الثامن عشر. وبدا أن أنساب شمر مثلها مثل مجموعات قبلية أخرى، وجدت موقعاً مريحاً لها في الحرس الوطني السعودي، وهو قوة شبه عسكرية ظلت قائمة بعد تمرد «الأخوان» في عام ١٩٢٧. وكان الحرس الوطني السعودي، من حيث الأساس، قوة قبلية استوعبت قطاعاً كبيراً من المجتمع السعودي، لا سيما أولئك المرتبطين تاريخياً بالبداوة[١].

خلا عهد سعود، غالبية السعوديين لا يزالون بعيدين كل البعد عن خطابية المعارضة السياسية التي أصبحت رائجة في العالم العربي. ولاقى المعارضون من عمال «آرامكو» صعوبة في كسب أتباع بين الأيدي العاملة، عدا عن كسبهم من قاعدة واسعة خارج معسكرات الشركة. ويشهد تعليق أحد هؤلاء العمال الأوائل على ما كانوا يشعرون به من «خجل من طلب أجور أعلى أو طعام أفضل في مطاعمهم المحلية»، على الصعوبات التي كان يواجهها بعض أعضاء

---

(١) التطور اللاحق للحرس الوطني وتحديثه يناقش في كوردسمان Cordesman ١٩٩٧.

«القيادة» المسيسة. وفي الوقت الذي اكتشفت فيه محاولة انقلابية عام ١٩٥٥ وحدثت إضرابات في عام ١٩٥٦، لم يكن هناك تأييد ملحوظ على مستوى القاعدة بين السكان السعوديين. وقد أسفرت الإضرابات بالفعل عن تحسين ظروف العمل في «آرامكو» واعتماد مشاريع تدريب أجدى، ولكن هذه بقيت محصورة داخل حدود المعسكرات.

ومع وجود «الأمراء الأحرار» في الخلفية، واصل سعود وفيصل صراعهما على السلطة حتى عام ١٩٦٢عندما شكل فيصل حكومة في غياب الملك الذي سافر إلى الخارج للعلاج[1]. وعين فيصل في الحكومة أخوية غير الشقيقين فهداً وسلطان اللذين كانا من حلفائه الوثيقين. واستبعدت حكومة فيصل أبناء سعود. ووعد فيصل بخطة إصلاحية من عشر نقاط تضمنت إعداد قانون أساسي وإلغاء الرق وإقامة مجلس قضائي (غوز ١٩٩٠: ٦١؛ أبير ١٩٨٨: ٩٤).

لدى عودة سعود من الخارج رفض صيغة فيصل الجديدة وهدد باستنفار الحرس الملكي ضد أخيه، وأمر فيصل باستنفار الحرس الوطني ضد الملك. وبتحكيم العلماء وضغط أفراد كبار من الأسرة الملكية رضخ سعود ووافق على التنازل في ٢٨ آذار/ مارس ١٩٦٤، وغادر العربية السعودية إلى القاهرة وتوفي في اليونان عام ١٩٦٩. وبتنازله عن العرش، انتهت سنوات الاضطراب بين ١٩٥٣ و١٩٦٤. كما أنهى تنازل سعود معارضة طلال و«الأمراء الأحرار» التي كانت معارضة قصيرة العمر.

العربية السعودية والعالم العربي في الخمسينيات

في أوائل الخمسينيات، شهد العالم العربي سقوط الملكية في مصر التي أقام ابن سعود في الأربعينيات علاقات ودية معها لمواجهة نفوذ الهاشميين؛ أعداء السعوديين التاريخيين، في العراق والأردن. وأعلن «الضباط الأحرار» المصريون بقيادة جمال عبد الناصر، مصر جمهورية في عام ١٩٥٢. وآثر سعود الإبقاء على مظاهر الصداقة فوقع معاهدة دفاع مشترك مع عبد الناصر في عام ١٩٥٥. وكانت هذه المبادرة موجهة بالدرجة الرئيسية ضد العراق الهاشمي الذي انضم إلى «حلف بغداد» في ائتلاف مع بريطانيا وإيران وباكستان كان الغرض منه توفير

---

(١) في الخمسينيات وأوائل الستينيات، سافر فيصل وسعود إلى الخارج للعلاج الطبي. وتزامن غيابهما مع الأجواء السياسية المضطربة التي عمت البلاد.

مساعدة عسكرية لبلدان تعتبر ذات أهمية حيوية لـ «المصالح الغربية». وبينما كان الصراع السياسي الداخلي في الأسرة الملكية يتصاعد، لم يحتضن سعود خطابية عبد الناصر في القومية العربية فحسب، بل شعر بنفسه مُلزَماً بقبول تحالفه الناشئ مع الاتحاد السوفياتي. كما أرسل سعود أميرين إلى العاصمة التشيكية براغ بحثاً عن مصادر تسليح جديدة (شامية ١٩٨٦: ٢٦١؛ سفران ١٩٨٥: ٧٩). وفي عام ١٩٥٤، تفاوض سعود، على الضد من إرادة «آرامكو»، لعقد اتفاق مع بارون النقل البحري اليوناني؛ أرسطو أوناسيس، على نقل النفط السعودي مستعدياً بذلك شركة النفط التي كانت حتى ذلك الوقت تسيطر سيطرة تامة على أثمن موارد العربية السعودية، ومواردها الاقتصادي الوحيد. وكان سعود وعبد الناصر حليفين غير متوقعين نظراً إلى أصولهما المتباينة وتوجهيهما السياسيين المتعارضين، لكنهما اتفقا على معارضة الهاشميين في العراق والأردن، كل لأسبابه المختلفة عن أسباب الآخر. وكان سعود لم يزل مهدداً من جانب الهاشميين الذين ضمن نَسَبهم في العالم العربي نوعاً من الشرعية لم يكن سعود يتمتع بها.

فوجئ غالبية السعوديين عندما دعم سعود إعلان عبد الناصر تأميم قناة السويس الذي أدى إلى أزمة السويس في عام ١٩٥٦، حين كانت «آرامكو» لم تزل تسيطر سيطرة كاملة على النفط السعودي. وضمت بريطانيا وفرنسا قواهما العسكرية ضد مصر عندما أغلقت القناة وأعلنت ملكيتها لهذا الممر المائي الحيوي. وقطعت العربية السعودية علاقتها الدبلوماسية مع بريطانيا في أعقاب الأزمة. وكان نفوذ بريطانيا في العربية السعودية انحسر إلى أدنى مستوياته.

كانت العلاقات البريطانية ـ السعودية متوترة بسبب النزاع الحدودي على البريمي مع أبو ظبي وعُمان قبل وفاة ابن سعود في عام ١٩٥٣ (بيترسن Peterson ١٩٧٦). دعمت بريطانيا، التي كانت القوة الخارجية الرئيسية في أبو ظبي وعمان وقتذاك، دعاواهما بالحق في الواحة ضد دعاوى العربية السعودية. ووقف سعود إلى جانب الإمام غالب في الداخل العماني ضد سلطان مسقط؛ سعيد بن تيمور، في وقت كانت عمان لم تزل تحكم بوصفها بلدين منفصلين. وسحق تمرد الإمام في عام ١٩٥٩ على أيدي قوات السلطان المدعومة من بريطانيا. وسمح سعود للإمام غالب وأفراد حاشيته بالإقامة في الظهران منتظراً اللحظة المناسبة لقلب تسلسل الأحداث

(فاسيلييف ١٩٩٨ : ٣٤٥ ـ ٣٤٨ ؛ ولكنسن Wilkinson ١٩٨٧ : ٢٨٦ ـ ٢٩٥) . وطوال عقد الخمسينيات، واصل سعود دعم التمرد القبلي في عُمان ضد السلطان سعيد بن تيمور المدعوم من بريطانيا .

وفي محاولة للحؤول دون دخول المملكتين الهاشميتين في اتحاد يهدد الأسرة الملكية السعودية، دعم سعود، مع عبد الناصر، التظاهرات التي خرجت في الأردن عام ١٩٥٦ ضد «حلف بغداد» . فبقي الملك حسين خارج الحلف .

تكلل تحالف سعود المبكر مع عبد الناصر بدعوة بعثة عسكرية مصرية لتدريب السعوديين . وقد كان هذا خطأً لأن سعوداً علم في ما بعد أن التثقيف المصري أسفر عن محاولة انقلابية في عام ١٩٥٥ بقيادة سعودي اسمه عبد الرحمن الشمراوي و١٢ ضابطاً أرسلوا إلى مصر للتدريب (سفران ١٩٨٥ : ٨١) .

ولكن التحالف مع مصر ظل قائماً ووصل عبد الناصر إلى الظهران أولاً ثم إلى الرياض في أيلول/ سبتمبر ١٩٥٦ في زيارة رسمية لبحث إقامة اتحاد يضم مصر وسوريا والعربية السعودية . ولاقى عبد الناصر تأييداً شعبياً قرع نواقيس الإنذار بين الأسرة الملكية السعودية، وخاصة سعوداً وفيصلاً (شامية ١٩٨٦ : ٢٦٥) . وبعد هذه الزيارة أدرك سعود أن تحالفه مع عبد الناصر كان يخفي وراءه اختلافات كبيرة لا يمكن إبقاؤها مستورة أجلاً غير مسمى . وكان عبد الناصر يشن حملة قوية ضد جماعة «الأخوان المسلمين» المصريين التي كانت لها صلات وثيقة مع العربية السعودية . كما أن خطابية عبد الناصر في القومية العربية ومعاداة الأمبريالية سرعان ما أماطتا اللثام عن التوترات الكامنة تحت السطح بين زعامته وزعامة سعود . وبحلول عام ١٩٥٨ن تبددت المظاهر التي كانت توحي بوجود تحالف سعودي ـ مصري، واعترى العلاقات جفاءٌ بعد إعلان الوحدة بين سوريا ومصر في شباط/ فبراير من ذلك العام وتسببت دسائس سعود في إحراج الأسرة الملكية . وكشف في الصحافة اللبنانية أن سعوداً أعطى ضابط المخابرات السوري عبد الحميد السراج شيكاً بمبلغ ٩ , ١ مليون جنيه استرليني لاغتيال عبد الناصر (شامية ١٩٨٦ : ٢٦٧) . ونظر أخوة سعود إلى هذه الواقعة على أنها بالغة الضرر بسمعة البلد ومصداقيته . وجرت محاولته الفاشلة لاغتيال عبد الناصر عندما كانت شعبية هذا الأخير في مد متعاظم في العالم العربي بعد أزمة السويس عام ١٩٥٦ .

قام سعود بزيارة بغداد في عام ١٩٥٧ ، وكانت تلك أول زيارة يقوم بها عاهل سعودي للعراق الهاشمي . ورحب فيصل الثاني ملك العراق بالملك السعودي ، وتطلع الاثنان إلى علاقة جديدة تتجاوز عداوات الماضي . وبدأ سعود ينظر إلى المملكة الهاشمية في العراق على أنها قوة مضادة في مواجهة عبد الناصر . ولم تدم الصداقة مع العراق طويلاً نظراً إلى سقوط الهاشميين في تموز/ يوليو ١٩٥٨ على أيدي العقيد الركن عبد السلام عارف والزعيم الركن عبد الكريم قاسم ، اللذين كانا لم يزالا شخصيتين مجهولتين على الأقل في نظر سعود (تريب Tripp ٢٠٠٠ : ١٤٩) . واتضح لاحقاً أن الانقلاب نال في البداية دعم مجموعات مختلفة من «الضباط الأحرار» والبعثيين والشيوعيين .

انتقل النزاع والتنافس بين سعود وعبد الناصر إلى اليمن عندما أطاح ضباط مدعوم من مصر هو عبد الله السلال بالإمام بدر في أيلول/ سبتمبر ١٩٦٢ (شامية ١٩٨٦ : ٢٧٣) ، وأصبحت الجمهورية العربية اليمنية أول نظام حكم غير ملكي في الجزيرة العربية (غوز ١٩٩٠ : ٥٧) ، وشكلت بصفتها هذه تهديداً أمنياً كبيراً للعربية السعودية . وكان هم العربية السعودية الرئيسي ضمان إنهاء الوجود العسكري المصري الذي قدر بنحو ٢٠ الف جندي في عام ١٩٦٣ (المصدر السابق : ٥٧) .

تحول النزاع بين الملكيين اليمنيين (أنصار الإمام) والجمهوريين ، إلى معركة بالوكالة بين العربية السعودية ومصر (دريش Dresch ٢٠٠٠ : ٨٩) . وقدمت العربية السعودية دعمها للملكيين من دون أن تتمكن من مضاهاة ما كان المصريون يقدمونه للجمهوريين . واغتنم ثلاثة طيارين سعوديين الفرصة ، وقادوا طائراتهم إلى القاهرة احتجاجاً . وقام سعود على الفور بمنع الضباط والطيارين السعوديين من استخدام الطائرات (شامية ١٩٨٦ : ٢٧٣) . وقطعت العربية السعودية علاقاتها الدبلوماسية مع مصر في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٢ (غوز ١٩٩٠ : ٦٠) . وخلع سعود في عام ١٩٦٤ قبل انتهاء الثورة والحرب الأهلية اليمنية . وبقيت العلاقات السعودية ـ المصرية متوترة طوال أوائل الستينيات (ديتال Detalle ٢٠٠٠) .

في عالم عربي يتسيده عبد الناصر ومصر ، بقي سعود شخصية هامشية في السياسة الإقليمية . وكانت مناوراته وتقاربه مع عبد الناصر مدفوعة أساساً برغبته في احتواء الهاشميين في العراق . وفي الخمسينيات كان العنصر الأشد ثباتاً في السياسة الخارجية السعودية الهجس

من النظامين الملكيين الهاشميين اللذين أقامتهما بريطانيا في بلدين جارين. وحتى القضية الفلسطينية التي استحوذت على اهتمام العرب، غدت ثانوية عند سعود، تماماً كما كانت عند والده.

العربية السعودية والولايات المتحدة في الخمسينيات وأوائل الستينيات

برغم توقيع العربية السعودية على الامتياز النفطي مع شركة أميركية في عام ١٩٣٣، لم تتطور العلاقات السعودية ـ الأميركية إلا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. وإبان الحرب، كانت «آرامكو» هي «الولايات المتحدة» من وجهة نظر العربية السعودية. وكما ورد ذكره في الفصل السابق (الثالث)، فإن «آرامكو» كانت مسؤولة عن تيسير الاتصال بين الولايات المتحدة والعربية السعودية[١].

بعد الحرب العالمية الثانية، سعت الولايات المتحدة إلى إزاحة بريطانيا بوصفها القوة المهيمنة، وخاصة عندما تحول النفط من منتوج تجاري إلى سلعة استراتيجية بالغة الأهمية (فاسيلييف ١٩٩٨: ٣٢٤). وفي حين أن الولايات المتحدة لم تكن تعتمد على النفط السعودي بعد الحرب، فإنها اعتبرت نفط الشرق الأوسط، بما فيه نفط العربية السعودية، مورداً أساسياً لإعادة بناء اقتصادات أوروبا المدمرة. ومن منظور الولايات المتحدة، بات الوصول إلى نفط الشرق الأوسط يعتبر ذا أهمية حاسمة لنجاح «مشروع مارشال» وإعادة بناء أوروبا (أندرسن Anderson ١٩٨١: ١٦٢). وينبغي النظر إلى اهتمام أميركا بالعربية السعودية ونفطها في إطار حرصها على صيانة موقعها كقوة عظمى بعد الحرب العالمية الثانية.

بالإضافة إلى البعد الأوروبي، بدأت الولايات المتحدة تبدي قلقها من خطر الشيوعية[٢]. وكانت واشنطن على اقتناع بأن «الاتحاد السوفياتي يبدو مصمماً على تهديم البناء الذي أقامته بريطانيا العظمى لتتمكن القوة والنفوذ الروسيان من اجتياح تركيا بلا معوقات والوصول عبر الدردنيل إلى البحر المتوسط، وعبر إيران والخليج الفارسي إلى المحيط الهندي» (المصدر السابق: ١٦٨).

---

(١) دور «آرامكو» في لفت انتباه واشنطن إلى العربية السعودية، يناقش في أندرسن Anderson ١٩٨١.

(٢) حصار برلين في ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ وتفجير السوفيات للقنبلة الذرية في عام ١٩٤٩ وسقوط الصين في يد الشيوعية في العام نفسه، كانت وراء مخاوف واشنطن. انظر أندرسن ١٨١.

تلك كانت خلفية العلاقات السعودية ـ الأميركية في الخمسينيات. وكان «مبدأ أيزنهاور» يقوم على الافتراض القائل بنشوء فراغ في الشرق الأوسط بعد هزيمة فرنسا وبريطانيا في حرب السويس عام ١٩٥٦. ووعد المبدأ بنشر قوات أميركية لحماية الدول المهددة بالشيوعية (فاسيلييف ١٩٩٨: ٣٥١). وفي عام ١٩٥٧، طلب أيزنهاور من الكونغرس الموافقة على استخدام القوات العسكرية الأميركية «لمساعدة أي دولة في الشرق الأوسط تطلب مثل هذه المساعدة لمواجهة عدوان أي دولة واقعة تحت هيمنة الشيوعية الدولية» (غرايسون Grayson ١٩٨٢: ٨٩).

وفي محاولة لمواجهة تهديد عبد الناصر والشيوعية، زار سعود واشنطن في عام ١٩٥٧ بعد التوقف في القاهرة حيث اجتمع مع عبد الناصر وعدة زعماء عرب آخرين معارضين لـ«مبدأ ايزنهاور». وفي واشنطن تلقى سعود وعداً بمساعدات عسكرية ودعم اقتصادي بقيمة ١٨٠ مليون دولار. وحصل على التزام من الأميركيين بتزويد العربية السعودية بمعدات أرضية للسلاح الجوي وأخرى بحرية وتدريب الطيارين السعوديين وإرسال خبراء تقنيين (فاسيلييف ١٩٩٨: ٣٥٢). وبالمقابل، وعد سعود الأميركيين بتعليق كل المساعدات إلى مصر، ووقع اتفاقيتين خلال زيارته تمنحان الولايات المتحدة حق استخدام قاعدة الظهران خمس سنوات إضافية، وتقضيان بأن تقدم أميركا مساعدات عسكرية إضافية لتعزيز القوات المسلحة السعودية (غرايسون ١٩٨٢: ٩٠). وأنهي حق استخدام قاعدة الظهران الجوية في عام ١٩٦٢).

كان على سعود أن يخفف من شدة تحمسه لـ«مبدأ ايزنهاور» بعدما جعل عبد الناصر اعتراضاته واضحة. وفي طريق عودته من الولايات المتحدة توقف سعود في القاهرة لإطلاع عبد الناصر وتليين اعتراضاته على «مبدأ ايزنهاور». ولكن سعوداً فشل في مهمته هذه (المصدر السابق: ٩٠).

عندما عاد سعود إلى الرياض أعلن ولي العهد فيصل «أن آراء العربية السعودية متفقة اتفاقاً تاماً مع آراء مصر حول جميع القضايا» (فاسيلييف ١٩٩٨: ٣٥٢). ولكن الإعلان لم يخف الخلاف المتفاقم بين مصر والعربية السعودية، وخاصة بعد أن ازداد تقارب الأخيرة مع الولايات المتحدة والنظام الملكي الهاشمي في العراق.

أخذ فيصل يقوم بدور هام في كسب الدعم الأميركي حتى قبل أن يصبح ملكاً في عام ١٩٦٤. وفي عام ١٩٦٢، بدأت الطائرات المصرية سلسلة من الغارات اليومية على الحدود السعودية مع اليمن. وقامت الطائرات الأميركية المرابطة في الظهران بطلعات استعراضية

لتحذير المصريين (سفران ١٩٨٥ : ٩٦ ؛ غوز ١٩٩٠ : ٦٠). وطلب فيصل مساعدة الولايات المتحدة بعد إعلان التعبئة العامة ضد اليمن. سارعت الولايات المتحدة إلى إرسال سفن وطائرات حربية إلى العربية السعودية، كما وافقت على إقامة نظام دفاع جوي على امتداد الحدود اليمنية قرب نجران. وفي شباط/ فبراير ١٩٦٣ بدأت مناورات مشتركة بين قوات مظلية أميركية وسعودية قرب جدة، انضم إليها ١٠٠ مظلي أميركي أرسلوا من ألمانيا (فاسيلييف ١٩٩٨ : ٣٧٢). ولكن أميركا فسرت «الحماية» الأميركية حينذاك بأنها مقتصرة على حقول النفط. وكان صمت الرئيس جون كنيدي يقوم على رغبة الولايات المتحدة في العمل مع عبد الناصر. ويبدو أن الإدارة الأميركية كانت «ترمم علاقاتها مع عبد الناصر معتبرة إياه ثقلاً محلياً تقدمياً غير شيوعي مضاداً للتوسعات السوفياتية» (غوز ١٩٩٠ : ٦٠).

في عام ١٩٦٣، استأنف فيصل العلاقات مع بريطانيا التي وعدت بتحديث الحرس الوطني السعودي وتطويره. وفي حزيران/ يونيو ١٩٦٣ وصلت بعثة عسكرية بريطانية إلى العربية السعودية للمساعدة في تدريب الحرس الوطني، مع عدد من الطائرات والطيارين وصواريخ أرض ـ جو (غوز ١٩٩٠ : ٦٢). وكانت هذه محاولة من جانب السعوديين لإيجاد دعم بديل بعد الإحساس بإحجام أميركا. ولا بد من أن تكون العربية السعودية شعرت بالقلق من رد الولايات المتحدة؛ القوة العظمى الحليفة والضامن النهائي لأمنها (المصدر السابق: ٦٠)، وخاصة بعد اعتراف إدارة كنيدي بالجمهورية اليمنية في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٢.

ولكن فيصلاً كان يدرك أن بناء علاقة وثيقة مع الولايات المتحدة سيوفر حماية ضد الشيوعية والاتجاهات الثورية العربية في الستينيات. وتمخضت مناورات فيصل الدبلوماسية عن رادع أميركي فاعل ضد غزو مصري مباشر للعربية السعودية أو غارات تستهدف المنشآت النفطية، ولكنها لم تلجم الهجمات المصرية في المناطق الحدودية والجهود النشطة بهدف التخريب، ولا منعت الولايات المتحدة من الاعتراف بالنظام الجمهوري في اليمن (سفران ١٩٨٥ : ١١١). وكانت العلاقات السعودية ـ الأميركية اعتراها التوتر في أوائل الستينيات عندما رفض فيصل مقترح كنيدي بإنهاء الدعم للملكيين اليمنيين. وأصر فيصل على انسحاب القوات المصرية شرطاً مسبقاً لتعليق الدعم الذي يقدمه إلى الملكيين اليمنيين. وبقيت العلاقة مع الولايات المتحدة متوترة في ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣ برغم أن فيصلاً ازداد قرباً فيما بعد من الولايات المتحدة في محاولة لتقوية بلده ضد أخطار القومية العربية والاشتراكية. كما أن فيصلاً، بوصفه

ولي العهد ورئيس مجلس الوزراء ، رأى في الولايات المتحدة القوة العظمى الرئيسية القادرة على ضمان أمن المملكة ضد النفوذ السوفياتي المتنامي في الشرق الأوسط .

عهد الملك فيصل (١٩٦٤ ـ ١٩٧٥)

ارتبط عهد الملك فيصل (وُلد عام ١٩٠٦) بزيادة مطردة في عائدات النفط (انظر الجدول رقم٢) . وأتاح هذا إحالة الأزمة المالية السابقة التي شهدتها الحكومة السعودية على رفوف التاريخ . ففي الفترة الواقعة بين ١٩٦٥ و١٩٧٥ ازداد إجمال الناتج المحلي السعودي من ١٠,٤ بلايين ريال فقد إلى ١٦٤, ٥٣ بليون ريال . وبحلول عام ١٩٧٤ ، بلغت عائدات الحكومة من صادرات النفط مستوى لا سابق له قُدر بـ ١١٠ بلايين ريال

جدول رقم ٢

حجم الصادرات النفطية وإجمالي الناتج المحلي: ١٩٦٥ ـ ١٩٧٥

السنة	حجم الصادرات النفطية (بليون ريال سعودي)	إجمالي الناتج المحلي
١٩٦٥	٢٢,٢	١٠,٤
١٩٦٦	٢٦,٥	١١,٤
١٩٦٧	٢٨,٤	١٣,١٤
١٩٦٨	٣١,٥	١٤,٦
١٩٦٩	٤٤,١	١٥,٩
١٩٧٠	٤٩,٧	١٧,٤
١٩٧١	١٤٦,٥	٢٨,٢

١٩٧٢	٧٨,٥	٤٠,٥
١٩٧٣	٩٨,٩	٩٩,٣
١٩٧٤	١١٠,٦	١٣٩,٦
١٩٧٥	٩٢,٢	١٦٤,٥

المصدر السابق: صندوق النقد الدولي ١٩٩٩: ٧٩٨ ـ ٧٩٩.

ورث فيصل من أخيه بلداً ذا بنية تحتية مادية ناقصة التطور على نحو لافت. وفي حين أن الوزارات تكاثرت في عهد سعود، فإن عملها كان يعاق بميزانيات متقلبة ومحدودة تمنح اعتماداتها كعطايا ملكية. وخلال الشهر الأول من عهد فيصل، اختار أخاه غير الشقيق خالداً لأن يكون ولي العهد، وعين سلطاناً وزيراً للدفاع والطيران، وهو منصب ما زال يتبوأه، وأكد فيصل تعيين محمد زكي يماني محل الطريقي في وزارة النفط (الشيخ ١٩٨٨: ٣٧٩ ـ ٤٠٠). وقرر فيصل عزل الطريقي بسبب «آرائه الراديكالية» حول قضايا تتعلق بشركة «آرامكو» والنفط السعودي، إذ كان الطريقي يطالب بزيادة السيطرة السعودية على هذا المورد الحيوي، وراودته لاحقاً حتى فكرة تأميم «آرامكو».

وبرغم تأسيس هيئة تخطيط في عهد سعود، لم تنفذ مشاريع جدية. وفي عام ١٩٦٥ اكتسب التخطيط صفة رسمية باستحداث هيئة التخطيط المركزي التي أصبحت وزارة التخطيط في عام ١٩٧٥. وبدأ عمر الخطط الخمسية بالمبادرة الأولى في هذا المضمار للفترة من ١٩٧٠ إلى ١٩٧٥ز وكانت الخطة الأولى تقضي بزيادة إجمالي الناتج المحلي بنسبة ٩,٨ في المئة سنوياً. وكانت اعتمادات الميزانية المقررة للسنوات الخمس ٩,٢ بلايين دولار، ٤٥ في المئة منها تُنفَق على مشاريع استثمارية. وتركز الإنفاق المخطط على الدفاع والتعليم والنقل والخدمات. ومع تعاظم عائدات النفط ازدادت اعتمادات الميزانية إلى نحو ٢٧ بليون دولار لفترة السنوات الخمس في حين بلغت المصروفات الفعلية من الميزانية ٢١ بليون دولار.

كان يراد لخطة الخمسية الأولى أن تسفر عن تشييد وتطوير بنية تحتية مادية بضمنها شق الطرق وبناء المطارات والموانئ وتوسيع شبكات الكهرباء والهاتف والاتصالات بصفة عامة.

وتضاعفت الخدمات الاجتماعية والمستشفيات والمراكز الطبية عدة مرات وبدأت تصل إلى قطاع أوسع من السكان.

كان التعليم الابتدائي غائباً من الناحية العملية في بعض المناطق، وكان سعوديون عديدون من عائلات معروفة في نجد والأحساء والحجاز يرسلون أبناءهم إلى مدارس داخلية في مصر ولبنان. وبقي تعليم البنات غير معروف في وسط العربية السعودية وعسير. وإذ تسلح فيصل بصادرات نفطية متزايدة باطراد، جعل تعليم البنات أولوية.

وازداد الإنفاق على التعليم إلى مستوى سنوي يقرب من ١٠ في المئة من الميزانية. وخلال عهد سعود افتتحت جامعة جديدة سميت باسمه في عام ١٩٥٧. وقام فيصل لاحقاً بتغيير اسمها إلى «جامعة الرياض» وأعد خططاً من أجل فتح مزيد من المعاهد تعبيراً عن التزامه بقضية التعليم. وأنشئت معاهد للتدريب المهني والتعليم العالي بالإضافة إلى أكثر من ١٢٥ مدرسة ابتدائية وثانوية للبنات. وافتتحت جامعة البترول والمعادن في الظهران عام ١٩٦٩. وأقيم معهدان للتعليم العالي الإسلامي برعاية فيصل هما «الجامعة الإسلامية» (تأسست عام ١٩٦١) و«جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية» (تأسست عام ١٩٧٤) في المدينة. وفي المنطقة الشرقية افتتحت «جامعة الملك فيصل» عام ١٩٧٥ (السلوم ١٩٩٥: ٦٥ ـ ٧٢). وبدأت هذه الجامعات تخرج أول دفعة من السعوديين المؤهلين نظامياً ومحلياً. واستنزف انتشار معاهد التعليم العالي طاقة وزارة المعارف (استحدثت عام ١٩٥٣ وأسفر عن غياب التنسيق والاتصالات. وفي عام ١٩٧٥ أصبح قسم من هذه الوزارة هيئة حكومية منفصلة هي وزارة التعليم العالي بإشراف فريق أميركي من خبراء التربية (المصدر السابق: ٦٣).

إن تشجيع فيصل للتعليم بصفة عامة، وتعليم الإناث على الأخص، جعل اسمه مرادفاً للتحديث. ويبرز فيصل بوصفه «تحديثياً» تمثلت إصلاحاته في الكتابات التاريخية السعودية بالارتباط مع «النهضة». وتدعمت رغبته في تطوير القاعدة الاقتصادية بأكبر زيادة على الإطلاق في أسعار النفط نتيجة المقاطعة النفطية في عام ١٩٧٣. وفي عام ١٩٧٥، ساهمت عائدات النفط بأكثر من ٧٥ في المئة من إيرادات الحكومة. وأتاحت الزيادة المفاجئة في عائدات النفط توسع جهاز الدولة وبيروقراطيتها. وليس من المبالغة وصف السبعينيات بأنها كانت حقبة توطيد أركان الدولة التي قامت في عام ١٩٣٢. وفي حين أن الأسرة الملكية جزءاً من المشهد السياسي

في الجزيرة العربية منذ الثلاثينيات، فإن «الدولة» بشكلها الحديث كانت تطوراً لاحقاً ارتبط بالفورة النفطية إبان السبعينيات.

انطلقت إصلاحات فيصل الاقتصادية والاجتماعية والإدارية في أجواء من النزعة السياسية المحافظة، إذ صرف النظر عن الوعد الذي قدم عام ١٩٦٢ بتشكيل «مجلس شورى» مع تنازل سعود عن العرش في عام ١٩٦٤. يضاف إلى ذلك أن مجلس الوزراء الذي قاد الصراع السياسي في الفترة الممتدة من ١٩٥٣ إلى ١٩٦٤ وقع تحت سيطرة فيصل الكاملة بعد اضطلاعه بدور الملك ورئيس مجلس الوزراء. وأعاد فيصل دمج المسؤوليتين على نحو مماثل لما كان يريده سعود. وعمد إلى مأسسة دمج المنصبين بعدما ضمن تعيين أشد الأمراء الكبار ولاء له في الوزارات الحساسة وهي الداخلية (نايف) والدفاع (سلطان). وعين محمد زكي يماني وزيراً للنفط الذي بقي في منصبه هذا حتى عام ١٩٨٦. وكانت أكبر مساهمات فيصل في توطيد أركان الدولة السعودية، نابعة من توزيع وظائف الدولة على أخوته غير الأشقاء ليدمج بذلك فروعاً هامة من الأسرة الملكية بجهاز الدولة.

بعد إبعاد أبناء سعود عن الخدمة في الدولة، قام فيصل أيضاً تبعزيز نظرة والده الضبابية إلى قضية الوراثة في إطار الأسرة. وقد اختار أخاه خالداً ولياً للعهد. وعلى الرغم من عدم احترام القدم حسب العمر، لم يكن هناك شك في أن الخلافة يجب أن تبقى محصورة بأبناء ابن سعود بدلاً من أحفاده، الذين كان بعضهم بعمر أعمامهم (إن لم يكونوا أكبر سناً). وفي حين واصل سعود المخلوع تهديد هذه الصيغة من منفاه في مصر بتشجيع من عبد الناصر، فإن هذا التهديد لم يعد واقعياً بعد وفاته في عام ١٩٦٩. وبدا أن أبناء سعود سلموا بتهميشهم سياسياً. كما أن المجموعة المرتبطة بطلال بن عبد العزيز فشلت في تحدي صيغة فيصل الجديدة نظراً إلى بقاء طلال في المنفى. ولم يكن لـ «الأمراء الأحرار» ورؤيتهم في إقامة ملكية دستورية، حظ من النجاح بين الأمراء الكبار الآخرين. وعملياً، لم يكونوا يتمتعون بأي تأييد على مستوى القواعد. وأثبت خطابهم في «الملكية الدستورية» و«القومية العربية» و«الاشتراكية» كونه غريباً عن الغالبية من الأسرة الملكية وعامة الشعب على السواء.

اقترنت نزعة فيصل السياسية المحافظة برؤية تذهب إلى أن العربية السعودية يمكن أن تستورد المعارف التكنولوجية وتحقق التحديث الاقتصادي مع البقاء أمينة على الإسلام الحق.

وفي الوقت الذي تلقى فيصل تربية إسلامية في سن مبكرة بتأثير «آل الشيخ» ؛ أقربائه من ناحية أمه، فإن خطابيته الإسلامية تقدمت إلى موقع الصدارة بوصفها من حيث الأساس خطاباً مضاداً للاتجاهات السياسية العربية التي كانت رائجة وقتذاك ارتباطاً بالقومية العربية في نسختيها الناصرية والبعثية. وكان ينظر إلى القومية العربية بزعامة جمال عبد الناصر على أنها تهديد مباشر لبقاء الفئة الحاكمة السعودية. وكانت الخلفية تدخل عبد الناصر في اليمن. يضاف إلى ذلك أن خطابية أيديولوجيي البعث، مثل ميشيل عفلق، إبان الستينيات، في «الوحدة والحرية والاشتراكية» والدعوة إلى «أمة عربية واحدة ذات رسالة واحدة»، أصبحت شديدة الخطر بعد إقامة أنظمة حكم بعثية في العراق (١٩٦٣) وسوريا (١٩٦٣ ثم «الحركة التصحيحية) عام ١٩٧٠). واعتمد فيصل خطاب التحديث في إطار إسلامي. وبدأ يصور في الإعلام السعودي على أنه الملك المسلم الأصيل[١]. واختفى سعود «الفاسد» من مخيلة الرأي العام بينما جرى تشجيع فقدان الذاكرة التاريخية بشأن عهده.

كان من نشأ في الرياض في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات سيتخيل أن خليفة ابن سعود هو فيصل، التحديثي المسلم، إذ نادراً ما كان يرد ذكر سعود في كتب التاريخ المدرسية. وفي حين كان المعنيون بتقديم تاريخ متسلسل لـ«العربية السعودية الحديثة» من المعلمين العرب (المصريين في الغالب) يذكرون اسم سعود بشكل عابر، فإنهم كانوا يخصصون حصصاً عديدة لمناقشة الفترة المجيدة في ظل ابن سعود وفيصل. ولم تعد صور سعود تعلق في مكاتب المعلمين والدوائر الحكومية والمطارات والمؤسسات العامة الأخرى. وأعيدت تسمية الجامعة التي حملت اسمه إلى «جامعة الرياض». واقتصرت ذكرى سعود على أفراد ذريته المباشرة الذين كان عليهم أن يقبلوا بمكانة من الدرجة الثانية بين أفراد الأسرة الملكية. واستمر أهل الرياض يمرون بقصره المهجور؛ «قصر الناصرية» الشهير، الذي ترك يتداعى إلى خربة بينما كانت قصص بذخه ومحظياته وفسوقه تزدهر بين جدران منازلهم.

برعاية فيصل، وفي إطار إصلاحاته الإدارية، تم رسمياً إدماج العلماء. واستحدثت وزارة العدل في عام ١٩٧٠. وأصبحت أكثرية العلماء موظفة في الدولة، إذ كان يراد إضفاء طابع

---

(١) صور فيصل يصلي أصبحت رموزاً لورعه وسياسته الإسلامية. وأكسبته مشاركته في المقاطعة النفطية عام ١٩٧٣ ورغبته في الصلاة في المسجد الأقصى في القدس الشعبية لا سابق لها في العالمين العربي والإسلامي.

نظامي على الصيغة غير الرسمية التي كانت جزءاً من «تحالف مقدس» فضفاض (وصف في الفصل الثاني). وتزامن ذلك مع التحديث والتنمية المتعاظمين اللذين بدآ يؤثران في أساسيات الحياة. وكان تعليم الإناث وإدخال تكنولوجيا اتصالات جديدة (مثل محطة التلفزيون في الرياض) وتوافد العمال الأجانب لا إلى المنطقة الشرقية وحدها بل إلى مناطق أخرى أيضاً من البلاد، مصدر مشاكل خطيرة للملك. ولم يتمكن الملك من الشروع في تنفيذ برنامج واسع لتعليم البنات إلا بعد طمأنة العلماء إلى أن البنات سيتلقين تربية دينية متينة بإدارة وزارة منفصلة (وزارة تعليم البنات بإشراف العلماء إشرافاً مباشراً عليها). كما أن محطة البث التلفزيوني لم تُفتَتح إلا بعد إخماد المتظاهرين الذي أسفر عن إطلاق النار على قائدهم ابن أخي الملك؛ الأمير خالد بن مساعد بن عبد العزيز في عام ١٩٦٥. وتحول هذا إلى مأساة لا للأمير فحسب بل وللملك نفسه. ففي عام ١٩٧٥، تعرض الملك للاغتيال على يد أخي الضحية، وهو أمير اسمه فيصل أيضاً.

أثبتت الابتكارات التكنولوجية أنها باهظة الثمن في مجتمع كان لم يزل يعارض طائفة كاملة من التجديدات بتأثير المذهب الوهابي. وكان فيصل سعى إلى إدماج العلماء فجعلهم جزءاً من الدولة وعمل على مكافأة الأكثر اعتدالاً بينهم من المستعدين لتزكية إصلاحاته مقابل تنازلات. فبدأت علومهم الدينية تدرس رسمياً مع افتتاح الجامعات الإسلامية التي أخذت تحل تدريجياً محل مراكز التعليم غير الرسمية حول مدرسة المسجد. ومنذ السبعينيات، تضاعف عدد الطلاب في مثل هذه المعاهد أكثر من ثلاث مرات. وكانت التنازلات تقدم للعلماء مقابل فتاوى تزكي وتشرعِن تقريباً كل جانب من جوانب الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي. وفي حين أن هذا التفسير لا يشكك في تقوى الملك شخصياً، فإنه يسلط الضوء على السياق التاريخي الذي أصبح فيه تمسكه الشخصي بالدين استراتيجيا سياسية لمواجهة سلسلة من التهديدات الداخلية والخارجية.

في حين ساهم «المطاوعة» في توسع ابن سعود في الجزيرة العربية في المراحل المبكرة، فإن عائدات النفط مكنت فيصلاً، لا من زيادة أعدادهم فحسب بل وتوسيع الامتيازات التي منحها للأرسخ علماً بينهم، الذين ارتقى بهم علمهم ونَسَبهم وورعهم إلى مراتب أعلى. وكرس فيصل نظاماً كان والده أقامه، وإن بصورة غير رسمية. وأبعد الأشد تزمتاً بين العلماء وحرموا من امتياز التحول إلى موظفين في الدولة في وقت كان العمل في القطاع العام إحدى الفرص التي

أتاحتها «الطفرة النفطية» في السبعينيات. وباستثناء المواجهة التي اندلعت عام ١٩٦٥ بين فيصل والعلماء حول الطبيعة الإسلامية للبث التلفزيوني، فإنه نال تأييد غالبية العلماء الذين ضمن تأهيلهم الرسمي في الجامعات الدينية الحكومية ورواتبهم المنتظمة امتثالاً منهم يطمع به غالبية الملوك الحاكمين في ظل خطابية إسلامية.

أتاحت عائدات النفط للدولة السعودية أن تعزز آلية قديمة هي الدور التوزيعي للسلطة المركزية في الجزيرة العربية. فقبل الحقبة النفطية كان ابن سعود يتلقى دعماً مالياً خارجياً كبير الشبه بالريوع النفطية التي استخدمها لمكافأة من بايعوه. وعندما فرض ضرائب الحج رسمياً كان يجبيها من الحجاج المحليين والأجانب لاستخدامها في توثيق تحالفات سياسية مع شيوخ قبائل محليين. وكانت الحال دائماً ان تتولى فئة (الحجاج الأجانب والتجار المحليون) تمويل علاقات سياسية في مجتمع بلا قاعدة ضريبية واسعة. وفي الحالة النادرة التي يقوم فيها سكان واحة ما بدفع ضرائب إلى خزينة الدولة، فإن هذه كان يعاد توزيعها على مجموعات لم يكن الوصول إليها سهلاً لغرض الجباية. وكان الاقتصاد التوزيعي الذي يقف وراء المركزية السياسية في الجزيرة العربية قائماً قبل الثروة النفطية. فالفائض المتحقق من مجموعة نتيجة دفعها الزكاة أو الغزو كان دائماً يعاد توزيعه جزئياً على مجموعات أخرى مع الاحتفاظ بجزء آخر لإعالة أسر رئاسية وقوتها العسكرية. وكان الباقي دائماً يُستخدم لشراء الولاء.

الجديد في الوضع في أوائل السبعينيات كان يتعلق بحجم الفائض وتنوع المكافآت. يضاف إلى ذلك أن العائدات النفطية جعلت من الممكن لدائرة محدودة من «دافعي الضرائب» السابقين (مثل الحجاج الأجانب والعائلات التجارية العريقة والفلاحين المعدمين) أن تتخلص من عبء الضرائب الخاصة لأنه لم يعد من الضروري أن تفرض الدولة ضرائب على هذه الفئات. ومع النفط فقدت العائلات التجارية المحلية كل ما يمت بصلة إلى قوتها التساومية السابقة إزاء الدولة، وهي قوة ينبغي عدم تضخيمها لأن التجار كانوا على الدوام مصدراً من بين مصادر أخرى لتعزيز السلطة المركزية في الجزيرة العربية[١]، وكانت أموال الدعم من البريطانيين والعثمانيين قبلهم

(١) حول دور التجار في تكوين الدولة في الجزيرة العربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، انظر فتاح ١٩٩٧. وللقرن العشرين انظر تشودري Chaudhry ١٩٩٧. ولكن الكاتبين على السواء يضخمان دور «الطبقات المركنتالية» في الجزيرة العربية في الأزمنة ما قبل الحديثة. والحديثة.

أوجدت كيانات سياسية دامت زمناً طويلاً. إن فكرة الحاكم بوصفه مانحاً ومعيلاً لم تكن جديدة في سياق الجزيرة العربية، ولم يفعل النفط سوى ترسيخ ما كان أصلاً أساس الحكم وهو «الكرم».

أتاحت العائدات النفطية لهذا الكرم أن يتخطى وليمة اللحم والأَرُزّ المعهودة والهدايا التي كانت تُعطى في المناسبات من ألبسة وتمور وأسلحة. ففي عهد فيصل أصبحت الدولة مصدر الرعاية المادية والعلاج الطبي والمساكن الجديدة ووثائق السفر والأوراق الرسمية وشهادات الميلاد والوفاة والتعليم في المدارس ومقاعد الدراسة في الجامعات والبعثات الدراسية إلى الولايات المتحدة وقطعة الأرض للإنتاج الزراعي ومواقع البناء والهدايا النقدية في الأعراس والنكبات. كانت القائمة طويلة. والأهم أن الدولة باتت الحارس الذي يسهر على وجود المواطنين كافة، وتغلغل نفوذها في كل نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

ولج السعوديون، الاعتياديون منهم والملكيون، عصر العمولات، وهي مدفوعات إضافية خفية تصاحب العقود على جميع المشاريع التنموية، فضلاً عن انتعاش قطاع البناء والإنفاق العسكري. وكانت الدولة تدفع إلى مواطنيها مباشرة بعدما أصبحت رب العمل الأكبر، وكذلك بصورة غير مباشرة في شكل خدمات وعمولات ومشاريع لتوزيع الأراضي[1]. وبدأت العربية السعودية تنجب رجال أعمالها الخاصين، الذين كان بعضهم من ذرية ابن سعود مباشرة. والأمراء الذين استبعدوا من جهاز الدولة السياسي أو لم تكن عندهم طموحات سياسية، وجدوا لهم موقعاً اقتصادياً مجزياً بمكافآته المادية. وكان هذا تطوراً جديداً في العربية السعودية. ويزعم أن ابن سعود نصح أبناءه قبل وفاته بأن «لا تنافسوا التجار حتى لا ينافسوكم» (شامية ١٩٨٦). ولكن سعة الفرص الاقتصادية والمالية في أواخر السبعينيات جعلت من الصعب اتباع مثل هذه النصيحة. وكان الأمراء الذين يعملون وزراء والأمراء الذين لا مكان لهم في إدارة فيصل السياسية، أول من اغتنموا الفرص الاقتصادية الجديدة، وأصبحوا مقاولين ثانويين للدولة يتلقون بهذه الصفة عمولات ضخمة على مشاريع يبيعون فيها مواد مختلفة للدولة.

---

(١) ارتبط عهد فيصل أيضاً بتتجير الأراضي وإعادة توزيعها. واقترنت إعادة توزيع الأراضي بتوطين البدو نتيجة مشاريع تنموية كانت موجهة إليهم. لمزيد من التفاصيل انظر فابيتي Fabietti ١٩٨٤؛ وفيرنيا Fernea ١٩٨٧.

وأتاحت العائدات النفطية إمكانية تعزيز أسرة ملكية متلاحمة توحدها الآن مصالح اقتصادية حقيقية بدلاً من أواصر نَسَبية وقرابية مبهمة. وكان التضامن الملكي بين أبناء ابن سعود يحتاج إلى أكثر من خطابية الأصل: كان الضعف اعتراهم بأواصر خؤولة تقسيمية بعد وفاته مباشرة، وكان الصراع بين سعود وفيصل و«الأمراء الأحرار» دليلاً على ائتلاف هش انهار في عام ١٩٥٣، ولم يكن بالإمكان احتواء تداعيات الانهيار من دون التضحية بعرش سعود. وابتداء من السبعينيات، كان تضخيم الثروات الخاصة وراء تلاحم أفراد الأسرة الملكية لا الأواصر القرابية[1]. وإذ أفادت غالبية الأمراء من العمولات، تضاءلت أكثر فأكثر جاذبية الاستغراق في رؤى مثالية للكيان السياسي من دون مخاطر جدية تهدد بقاء الأسرة الملكية برمتها.

لم يكن نبلاء القبائل العريقة قادرين بسهولة على تحدي سلطة تتوطد أركانها بعائدات النفط. وكان جرى أصلاً إدماج شيوخ القبائل وأمراء سابقين في البداية عن طريق المصاهرة (في الثلاثينيات والأربعينيات) ثم بالمنافع الاقتصادية (في أوائل السبعينيات). وبدلاً من أن يصبحوا حلفاء، تحولوا إلى فئة «طفيلية» يعتمد بقاؤها اعتماداً شديداً على العطايا الملكية. وإذ كان هؤلاء الشيوخ أبناء خؤوله بعض الأمراء، فإنهم فقدوا استقلالهم وقوتهم التساومية مع الدولة. وتولى الأمراء إدارة نظام للمحسوبية لا يشمل أبناء خؤولتهم فحسب، بل أفراد قبائل اعتياديين أيضاً (الرشيد ١٩٩١: ٢٥٤). واتسعت المخصصات الشهرية الحكومية لتشمل دائرة أكبر من آل سعود وأبناء خؤولتهم. وكان شيوخ قبائل في مناطق نائية، مثل طربجل والجوف في الشمال وأبها ونجران في الجنوب الغربي، يحصلون على منافع من وكالات حكومية. وأخذت دائرة أقرب من شيوخ القبائل ترافق الأمراء خلال رحلات الصيد في العربية السعودية أولاً، ثم في مناطق أخرى من العالم العربي. كما كانوا يرافقون الأمراء في جولات أوروبية منتظمة كجزء من الحاشية الملكية. وكان الأكثر ملكية بينهم يمنح مكانة «الخوي»، أو ما يشبه الأخوة بين شريكين غير متكافئين. وكانت عطايا نقدية منتظمة، تعبيراً عن مكارم الخزائن الملكية الخاصة/العامة، تستكمل المنافع المباشرة (الرشيد ١٩٩١: ٢٥٤ - ٢٥٨).

---

(١) خلال السبعينيات لم يستخدم الأمراء السعوديون أسماءهم لإقامة مشاريع تجارية واستثمارية. واستمر هذا التقليد حتى الوقت الحاضر. وعمد أبناء فيصل وغيرهم من الأمراء إلى تمويه ملكية ما لديهم من شركات. وكانوا في هذه الناحية، يختلفون عن العائلات التجارية الاعتيادية التي ارتبطت أسماؤها بشركاتها التجارية مثل الجفالي والراجحي وبن لادن وغيرهم.

وبات سعوديون اعتياديون متلقي مكافآت توزع عليهم كدعومات حكومية ورواتب لعملهم في جهاز الدولة الإداري والجيش والحرس الوطني. كما أصبح الأمراء يستقبلون في مجالسهم اليومية «خويتهم» وغيرهم من الضيوف الاعتياديين الذين يقدمون عرائض يلتمسون فيها «معونة» أو يلبون «شرهة» (هبة نقدية سنوية).

الموجة الأولى من البيروقراطيين والتكنوقراد والمهنيين والتجار، لم تكن لديها قوة تساومية: كان هؤلاء منقسمين على أساس الدين والقبيلة واللهجة والعائلة والعطايا الموزعة توزيعاً غير متساو. ولم يكن من السهل للثروة والتعليم أن يتغلبا على الفوارق الاجتماعية والمناطقية. وفي حين أن أنماط الحياة، وبخاصة النزعة الاستهلاكية، وحدت السعوديين المتعلمين حديثاً، فلا المصلحة الاقتصادية ولا التعليم أتاحا إمكانية نشوء فئة متجانسة. وبقي المهنيون السعوديون معتمدين على دولة تجزئهم من خلال توزيع الثروة توزيعاً غير متكافئ.

ظلت الولاءات للعائلة والقبيلة والمنطقة آليات تقسيمية كبيرة في السبعينيات وكان الحظر الاجتماعي على الزواج الأباعدي يبين الانقسامات الاجتماعية داخل البلد والحواجز التي كانت لم تزل قائمة. فالنجديات لم يكن بمقدورهن الزواج من رجال حجازيين أو حساويين أو من عسير. وفي نجد نفسها، كانت المجموعات القبلية لا تعطي بناتها إلى «الحضريين»؛ أي سكان المدن والواحات غير القبليين. وفي الحجاز كانت البنات ذوات الأصل الشريفي لا يتزوجن من حجازيين اعتياديين ولا من رجال مجموعات قبلية نجدية نبيلة.

واقترنت القيود على زواج البنات باتجاه من الزيجات الأباعدية بين الرجال. فالرجال الذين ينتمون إلى العائلات القبلية النبيلة، والمهنيون السعوديون وحتى الأمراء أخذوا يتزوجون من نساء بلدان عربية مجاورة، وخاصة مصر ولبنان وسوريا. وبالإضافة إلى الزواج من بنت عم/خال من الدرجة الأولى، كان الأمراء ونبلاء القبائل يبحثون عن زوجة ثانية أو ثالثة من أسر نخبوية معروفة في العالم العربي[1].

كان السعوديون، بعد دراستهم في الخارج، يعودون في أحيان كثرة ومعهم زوجات غير سعوديات: الطريقي كان واحداً منهم. وكانت هذه الزيجات نتاج القيود الداخلية التي تمنع الزواج من خارج القبيلة والديرة، والثروة الجديدة التي جعلت الرجل السعودي خطيباً جذاباً

---

(١) من بين أمراء آخرين، صاهر طلال بن عبد العزيز ومساعد بن عبد العزيز العائلتين النخبويتين اللبنانيتين الصلح والكعكي على التوالي.

عند النساء العربيات. وتسببت الثروة النفطية في تضخيم مهر المرأة السعودية الذي بات فوق طاقة الرجال ذوي المداخيل المحدودة (يماني ١٩٩٨).

دفع العدد المتزايد لهذه الزيجات الأباعدية، الحكومة السعودية إلى التحرك في منتصف السبعينيات، وأصبح من الضروري أن يحصل الرجل السعودي على موافقة وزارة الداخلية قبل الزواج من امرأة غير سعودية. كما خُطِر في ذلك الوقت زواجُ النساء السعوديات من رجال غير سعوديين، وهم فئة تشمل العرب المسلمين والمسلمين غير العرب (المصدر السابق: ١٦٤). واقترن منع الزواج من غير السعوديين بالإحجام عن ترشيح النساء على بعثات تمكنهن من السفر للدراسة في الخارج.

لم يفعل التعليم والنفط الكثير في عهد فيصل لتغيير التراتبيات والعنعنات الاجتماعية القديمة بين الفئات المختلفة التي تشكل النسيج السكاني في العربية السعودية. وفي السبعينيات، بدأ المجتمع السعودي ينغمر من نزعة استهلاكية. وكانت القضايا الحقيقية عند السعوديين كافة تتمثل في كيف يمكن الاستهلاك من دون فقدان الأصالة التي حُدّدت بمفردات إسلامية منذ بداية عهد فيصل.

فيصل والعالم العربي

استمر تدخل السعودية في حرب اليمن عام ١٩٦٢، التي بدأت في عهد الملك سعود، بعد تتويج فيصل ملكاً في عام ١٩٦٤. وقام عبد الناصر بزيارة جدة في ٢٤ آب/ أغسطس ١٩٦٥ واعداً بانسحاب القوات المصرية من اليمن بحلول تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٦. وبموجب بنود «اتفاقية جدة» وعد فيصل بوقف كل المساعدات للملكيين اليمنيين (غوز ١٩٩٠: ٦٨). وتوقف التدخلان السعودي والمصري في اليمن رسمياً باندلاع الحرب العربية - الإسرائيلية في حزيران/ يونيو ١٩٦٧ (دريش ٢٠٠٠: ١١٤)، حيث وجه عبد الناصر قواته واهتمامه نحو نزاع أشد خطورة.

كانت الحرب العربية - الإسرائيلية عام ١٩٦٧ قصيرة جداً بالمقارنة مع نزاعات مسلحة لاحقة اندلعت في المنطقة. وقد أرسلت وحدة سعودية في ٣٠٠٠ جندي إلى جنوب الأردن خلال الحرب. وتمركزت القوات السعودية بعيداً عن الجبهة، ولكن على مقربة كافية من العاصمة لدعم الملك حسين. ولعل فيلاً رأى في الأردن دولة عازلة بين السعودية وإسرائيل (فاسيلييف ١٩٩٨: ٣٨٤). وفي غضون ستة أيام، فقدت مصر كلاًّ من سيناء وغزة، وفقد الأردن مدينة القدس

والضفة الغربية، وفقدت سوريا هضبة الجولان، وفقد عبد الناصر شرعية دعواه بزعامة العرب برغم بقاء شعبيته على حالها.

كانت ردود الأفعال السعودية على الحرب معتدلة مقارنة مع المناطق الأخرى من العالم العربي. ومع ذلك، خرجت تظاهرات معادية للأمريكيين في الحجاز والعاصمة الرياض. ولكن الأنباء تحدثت عن تظاهرات كبيرة في المنطقة الشرقية، وخاصة في القطيف والخبر والدمام. وهاجم طلاب «جامعة البترول والمعادن» التابعة لشركة «آرامكو»، منشآت الشركة والقاعدة الجوية الأميركية والقنصلية الأميركية (أبير ١٩٨٨ : ١١١).

في آب/ أغسطس ١٩٦٧، بعد الهزيمة المهينة، أعلن الزعماء العرب، بمن فيهم فيصل، في الخرطوم، اللاءات الثلاث الشهيرة: «لا اعتراف، لا مفاوضات، لا صلح». يضاف إلى ذلك أن «مؤتمر الخرطوم» يتسم بأهميته في النزاع العربي ـ الإسرائيلي من جانب آخر هو التزام العربية السعودية والكويت وليبيا؛ الدول النفطية الرئيسية وقتذاك، بتمويل «دول المواجهة العربية» يومها: مصر وسوريا والأردن (شامية ١٩٨٦ : ٢٧٤). وحذرت العربية السعودية من أنها لم تبدأ بالدفع إلا بعد أن يكون المصريون أكملوا انسحابهم من اليمن (فاسيلييف ١٩٩٨ : ٢٧٧). وبعد «قمة الخرطوم» أصبحت العربية السعودية مصدر رؤوس أموال ومَصدَر مساعدات مالية الدول المواجهة مع إسرائيل (المصدر السابق: ٣٨٤). لقد نقل النفط السعودي العربية السعودية من الهامش إلى مركز السياسة العربية.

في اجتماع جانبي، قرر فيصل وعبد الناصر أن يتركا اليمن لليمنيين قبل نهاية عام ١٩٦٧. وإذ لم تكن لدى عبد الناصر أوراق يساوم بها في الخرطوم، فقد خرج فيصل منها ظافراً. وبالنسبة إلى العربية السعودية، لم تعد الناصرية وعبد الناصر المندحر يشكلان تهديداً حقيقياً لها. وتوجه فيصل نحو التفاهم مع عبد الناصر الذي اعتراه الضعف حتى وفاته في أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠. وبغياب عبد الناصر عن الساحة العربية، بات الآن بإمكان العربية السعودية أن تتطلع إلى القيام بدور مركزي يتناسب مع ثرواتها النفطية. كانت مصر دأبت على إجهاض رغبتها في الزعامة في العالمين العربي والإسلامي على أساس تراثها الإسلامي ودعوى حماية الأماكن المقدسة في مكة والمدينة، وقد أتاحت هزيمة مصر فرصة هامة لتحقيق هذا الطموح.

في عهد فيصل، عاد العراق إلى البروز بوصفه مصدر قلق للعربية السعودية بعد استيلاء حزب البعث على السلطة في عام ١٩٦٨. وفي حين هيمنت الناصرية على السياسة العربية إبان الخمسينيات، ففي أواخر الستينيات كان البعث بنسختيه السورية والعراقية يُعَدُّ تهديداً للعربية السعودية. وعملت القومية العربية، بطبعتها البعثية الآن، على إضعاف شرعية الفئة السعودية الحاكمة. وما من شيء كان مرفوضاً عند فيصل أكثر من خطاب الوحدة العربية والاشتراكية. وكان لا بد لدعاوى الوحدة، على أساس الثقافة العلمانية والتاريخ والحضارة، من أن تعد لا إسلامية بنظر فيصل. وكانت مغامرة العراق تجاه الكويت في عام ١٩٦١ لا تزال ماثلة في ذاكرة فيصل الذي لم يتمكن من التعبير عن فرحه باستيلاء البعثيين بقيادة أحمد حسن البكر وصدام حسين على السلطة في تموز/ يوليو ١٩٦٨ (تريب Tripp ٢٠٠٠).

وفي حين كانت القاهرة مركز النشاطات المعادية للسعودية في الخمسينيات وأوائل الستينيات، فإن بغداد أصبحت في أواخر الستينيات محرك البعثيين السعوديين والمعارضين الشيعة، لا سميا من المنطقة الشرقية التي تتركز فيها الصناعة النفطية. وشمح للبعثيين السعوديين بتشغيل إذاعة موجهة إلى العربية السعودية من بغداد. وأصدر المعارضون مطبوعاً باسم «صوت الطليعة» أصبحت له شعبية بين اليساريين والبعثيين على السواء (أبير ١٩٨٨: ١١٢).

في عام ١٩٦٩ واجه فيصل مؤامرة داخلية كبيرة للإطاحة به[1]: أعد ضباط من الجيش والشرطة وطيارون مع مجموعة صغيرة من المدنيين، مخططاً للقيام بانقلاب اكتشف في حزيران/ يونيو وقمع على الفور (بوكان Buchan ١٩٨٢: ١١٥). شعر فيصل بالقلق بعدما اتضح أن طياره الخاص مع داود الرميحي، وهو ضابط في «قاعدة الظهران» العسكرية، ويوسف الطويل من جدة، كانوا وراء مخطط لاغتياله في أول رحلة جوية له (شامية ١٩٨٦: ٢٧٩؛

---

(١) اضطرب العالم العربي بسلسلة من الأحداث في عام ١٩٦٩. فقد أطاح الجيش بأنظمة الحكم في ليبيا والسودان والصومال. وبدأ البريطانيون الذين كانوا، حتى ذلك الوقت، حماة الدول الخليجية الصغيرة، يسحبون قواتهم من المنطقة. وتملكت العربية السعودية مخاوف من تصاعد نشاطات الجامعات الماركسية والبعثية لا سيما في اليمن الجنوبي، ولم تكن مخاوفها مبررة. لمزيد من التفاصيل أنظر أبير ١٩٨٨: ١١٤.

بوكـان ١٩٨٢ : ١١٦ ؛ كوردسمـان Cordesman ١٩٨٤ : ١٣٧ ـ ١٤٠) . وأعقـب ذلـك حملـة اعتقالات واسعة، وهرب عدد من السعوديين يشتبه بمشاركتهم في المؤامرة إلى مصر ولبنان. وقدر أنه حتى نهاية عام ١٩٦٩ اعتقلت السلطات السعودية نحو ألفي معارض ومشبوه (أبير ١٩٨٨ : ١١٤) . ولم يعد غالبية من غادروا البلاد إلا بعد مصرع فيصل عندما أصدر خلفيته الملك خالد عفواً عن جميع المعارضين السياسيين الذين غادروا العربية السعودية إلى بلدان مجاورة في الخمسينيات والستينيات.

دعم فيصل القضية الفلسطينية وكسا دعمه بخطابية إسلامية. وكانت رغبته أن يصلي في القدس، ثالثة المقدسات الإسلامية بعد مكة والمدينة. وفي عام ١٩٦٩ حضر فيصل القمة العربية في الرباط حيث أصبحت منظمة التحرير الفلسطينية (التي شكلت عام ١٩٦٤) الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني. وكان الدعم المالي السعودي للمنظمة عاملاً حاسماً في وضع البلاد في مركز السياسة العربية. وانضمت العربية السعودية إلى بلدان عربية أخرى في محاولة استغلال فصائل منضوية تحت مظلة المنظمة. وأسفرت العلاقة الوثيقة مع فضائل من منظمة التحرير الفلسطينية عن تحويل مبالغ ضخمة من العربية السعودية إلى معسكرات التدريب الفلسطينية في لبنان وسوريا والأردن (فاسيلييف ١٩٩٨ : ٣٨٧) .

في الستينيات، راودت فيصلاً فكرة تشكيل منظمة إسلامية في محاولة لتوسيع نطاق السياسة الإقليمية لتضم دولاً إسلامية غير عربية مثل إيران وباكستان بهدف تمييع النفوذ المصري. ونالت جهوده الدبلوماسية دعم إيران والأردن (غوز ١٩٩٠ : ٦٩) . وارتبط فيصل بفكرة الوحدة الإسلامية، لا سيما عندما حاول إحياء منظمة «مؤتمر العالم الإسلامي» غير الحكومية (سندي Sindi ١٩٨٠ : ١٨٤) . وكانت وراء فكرة فيصل في الوحدة الإسلامية ثلاثة أهداف هي تنمية التعاون الحكومي بين الدول الإسلامية، ومواجهة التهديدات السوفياتية والاتجاهات الشيوعية في العالم العربي، وتعبئة البلدان الإسلامية للنضال ضد إسرائيل (سندي ١٩٨٠ : ١٨٩) . وفي أيار/ مايو ١٩٦٢ ، رعى فيصل مؤتمراً في مكة كان غرضه الرئيسي إيجاد سبل مكافحة النزعة الراديكالية والعلمانية في العالمين العربي والإسلامي وأعلن المؤتمر أن من يبتعدون عن الإسلام ويشوهون دعوته باسم القومية هم في الحقيقة ألد أعداء العرب الذين تتواشج أمجادهم مع أمجاد الإسلام (المصدر السابق : ١٨٦) . وكان النفور من القومية والاتجاهات العلمانية لا يهيمن على سياسة فيصل فحسب، بل على كتب التاريخ المدرسة المقررة

وطنياً في الدول السعودية أيضاً، كما سنبين لاحقاً في هذا الكتاب. وتمخض «مؤتمر مكة» عن تأسيس «رابطة العالم الإسلامي» التي اتخذت من مكة مقراً لها (بسكاتوري Piscatori ١٩٨٣).

بعد إحراق المسجد الأقصى في القدس عام ١٩٦٩، دعا العاهل الأردني الملك حسين إلى مؤتمر قمة عربية، واقترح فيصل قمة إسلامية، ربما للإمعان في إضعاف عبد الناصر. وفي عام ١٩٧٠، اجتمع وزراء خارجية ٢٣ بلداً إسلامياً في جدة لتشكيل الأمانة العامة للرابطة الإسلامية برعاية العربية السعودية (فاسيلييف ١٩٩٨: ٣٨٧). واتفق وزراء الخارجية على الاجتماع سنوياً لتعزيز التعاون بين الدول الإسلامية وإرساء الدعائم المؤسسية للوحدة الإسلامية (سندي ١٩٨٠: ١٩١). وفي الاجتماعات اللاحقة، اقترحت دول إسلامية تأسيس وكالة أنباء دولية وإقامة مراكز ثقافية إسلامية حول العالم. وبدأت العربية السعودية موافقتها على تمويل مثل هذه المبادرات.

في اجتماع ثان عقد عام ١٩٧٢، قرر المؤتمر إقامة «صندوق الجهاد» ضد إسرائيل. وشجب المؤتمر إسرائيل لضمها القسم العربي من القدس (فاسيلييف ١٩٩٨: ٣٨٨). وعلى امتداد السبعينيات، أصبحت رابطة العالم الإسلامي ومنظمة المؤتمر الإسلامي التي تأسست في الفترة نفسها، منبراً توسع العربية السعودية نفوذها في العالم الإسلامي من خلاله. واستغل السعوديون موقعهم بوصفهم أوصياء الأماكن المقدسة، وثروتهم النفطية، لتعزيز وجودهم في العالم الإسلامي الأوسع. وفي السبعينيات أيضاً، بدا أن الارتباط بهذا العالم الإسلامي يوفر حماية ضد التهديدات العلمانية والاشتراكية من داخل العالم العربي (بسكاتوري ١٩٨٣؛ فريزر Fraser ١٩٩٧).

أما على المستوى الدولي، فقد بلغت شعبية فيصل في العالم العربي مستوى لم يمنح ذات يوم لملوك سعوديين. ولئن عد سعود مصدر تآمر في الخمسينيات وأوائل الستينيات، فإن فيصلاً أصبح، في السبعينيات، رمز السياسة الإسلامية، لا في العالم العربي فحسب، بل بين المسلمين في أفريقيا وآسيا أيضاً. لقد توجه فيصل إلى الإسلام لإيجاد بديل أصيل عن القومية العربية (فاسيلييف ١٩٩٨: ٣٨٥). وبدأت العربية السعودية حملة لدعم التربية الإسلامية وبناء مراكز دينية ومساجد في الخارج (بسكاتوري ١٩٨٣). وأفادت عدة بلدان إسلامية في أفريقيا وآسيا من المساعدات السعودية التي كانت توزَّع في إطار التزام البلاد بنشر الإسلام وتقوية البلدان الإسلامية. وفي عام ١٩٧٤، ساهم فيصل بـ ١٠,٢ ملايين دولار في صندوق التضامن الإسلامي،

كما كان وراء تأسيس «بنك التنمية الإسلامي» الذي اتخذ من جدة مقراً دائماً له (سندي ١٩٨٠ : ١٩٥ ـ ١٩٦ ؛ بسكاتوري ١٩٨٣ : ٤٧).

كانت لمشاركة مصر والمصالحة مع قيادتها في نهاية المطاف، أهميتها في إطار السياسة الإسلامية التي اتبعها فيصل نظراً إلى ثقل مصر في العالم العربي. وأصبح هذا ممكناً بعد وفاة عبد الناصر. ونشأت علاقة حميمة مع الرئيس المصري أنور السادات الذي طرد المستشارين العسكريين السوفيات في عام ١٩٧٢ وسعى إلى التحالف مع الولايات المتحدة ونبذ الاستراتيجيات الوحدوية العربية والخطابية الثورية (فريزر ١٩٩٧ : ٢٢١). وبدأت العربية السعودية تنظر إلى مصر على أنها حليف لا تهديد، ومنحت مصر معونات مالية كبيرة واستمرت في استيراد الأيدي العاملة المصرية. كما مهد فيصل طريق العلاقة الوثيقة التي بدأت تقيمها مع الولايات المتحدة في السبعينيات. وكان ينتظر من المساعدات المالية السعودية أن تنتهي اعتماد مصر على الاتحاد السوفياتي.

بدا أن فيصلاً نجح في إنقاذ العربية السعودية من قلاقلها السياسية الداخلية التي تزامنت مع غليان العالم العربي. ففي الداخل أعاد الملك الثقة بالاقتصاد السعودي وتمكن حتى من تنفيذ خطة مبرمجة للتحديث الاقتصادي والاجتماعي. وفي حين يُذكر فيصل لإصلاحاته الاجتماعية والاقتصادية، فإنه يُذكَر أيضاً لتنكيله بالأصوات المعارضة في العربية السعودية التي كانت تضم في الستينيات ناصريين وقوميين عرباً وبعثيين واشتراكيين وحتى شيوعيين. وبحلول عقد السبعينيات، شدد فيصل إجراءاته الأمنية الداخلية ونجح في قمع جماعات معارضة مختلفة لم تُشفَ قط من آثار القوة الغاشمة التي استخدمت ضدها في مرحلة مبكرة للغاية من تطورها السياسي. وأسدل الستار على ما كان يُسمى «المعارضة العلمانية» في العربية السعودية.

على المستوى الأقليمي، نجح فيصل في دفع تهديد الأنظمة الثورية في العالم العربي عن العربية السعودية. وضمنت «دبلوماسية الكواليس» بقاء الدولة السعودية على خلفية مواجهات عربية ـ إسرائيلية خطيرة وخطابية ثورية. وبقيت مصر الناصرية منافس العربية السعودية الرئيسي في العالم العربي.

حتى ذلك الوقت، لم يكن لدور العربية لسعودية بوصفها حامية الحرمين إلا أهمية رمزية. وفي السياسة الدولية والعربية بقيت هذه الوصاية غير ذات أهمية حتى وجدت سنداً لها في

الثروة النفطية الجديدة إبان السبعينيات. ولكن فيصلاً قام في الستينيات بترويج خطابية إسلامية في محاولة مستميتة لمواجهة أيديولوجيات علمانية واشتراكية خطرة في العالم العربي كانت لها أصداؤها بين قطاعات من المجتمع السعودي.

وإذ توافرت لخصوم فيصل بين معارضي الستينيات أدلة كثيرة تحت تصرفهم، أشار هؤلاء إلى نزعته المحافظة وحكمه الفردي المطلق. وبدد تخلفه عن إصدار القانون الأساسي وتشكيل مجلس الشورى اللذين وعد بهما خلال نضاله ضد أخيه سعود، أسطورة حكمه التقدمي. ولكن لا ريب في أن توطيد أركان الدولة السعودية التي نشأت عام ١٩٣٢، وحتى بقاءها خلال سنوات الغليان في العالم العربي إبان الستينيات، كانا ثمرة جهوده. وتطور نجاح فيصل في تحقيق استقرار السياسة الداخلية السعودية وشعبيته في العالم الإسلامي، على خلفية ثروة جديدة بدأ يمتلكها. وأتاحت الزيادة الحادة في أسعار النفط في أوائل السبعينيات للعربية السعودية أن تصبح لاعباً كبيراً، لا إقليمياً فحسب بل دولياً أيضاً. كما أن الثروة الجديدة أفقدت «المعارضة العلمانية» جاذبيتها في العربية السعودية، كما سنرى في الفصل التالي (الخامس).

الفصل الخامس

من الرخاء إلى التقشف: ١٩٧٣ ـ ١٩٩٠

الحظر النفطي الذي فرضته العربية السعودية وبلدان عربية نفطية أخرى لفترة قصيرة على الولايات المتحدة وأوروبا دعماً لحرب مصر مع إسرائيل في عام ١٩٧٣، لفت انتباه العالم إلى العربية السعودية. فالحظر أدى إلى زيادة درامية في أسعار النفط أتاحت للعربية السعودية أن تتمتع برخاء لا سابق له عمل على تيسير عملية التحديث الداخلية وتعزيز قدرة النظام على توسيع الخدمات وإحكام سيطرة الدولة على السكان وإيجاد اعتماد على مواردها. وأمكن الآن تنفيذ إصلاحات فيصل الاقتصادية والاجتماعية التي انطلقت في أوائل الستينيات، وحتى توسيعها بعائداته المتنامية.

ولكن ثروة السبعينيات الجديدة زادت انكشاف النظام السعودي ودفعت قيادته إلى البحث عن «رعاة» لحمايته ضد التهديدات الداخلية والخارجية. واستمرت العربية السعودية في التطلع إلى الولايات المتحدة للقيام بدور الحامي وضامن أمنها. وإذ كانت للعربية السعودية علاقة وثيقة مع الولايات المتحدة منذ الحرب العالمية الثانية، فإن هذه العلاقة غدت «مُثقَلَة» بصورة متزايدة في السبعينيات. وكانت العلاقة مع الولايات المتحدة أصبحت أشد إلحاحاً بعد تدفق الثروة الجديدة في بلد يفتقر إلى الموارد البشرية والتكنولوجية لضمان آمنة. وكانت لدى العربية السعودية الموارد المالية لشراء الأمن ولكن لقاء ثمن باهظ جداً.

في الوقت الذي اقترن ازدهار السبعينيات بإحساس بالانكشاف، فإن هذا الإحساس أصبح مبالغاً به في منتصف الثمانينيات عندما سجلت أسعار النفط هبوطاً حاداً أدى إلى انخفاض خطير في العائدات السعودية. وازداد إحساس العربية السعودية بانعدام الأمن بتأثير التطورات الإقليمية في الثمانينيات (الثورة الإيرانية في عام ١٩٧٩، والغزو السوفياتي لأفغانستان في عام ١٩٧٩ والحرب الإيرانية ـ العراقية في الثمانينيات). وإذ انتقلت بؤرة التوتر في الثمانينيات من البحر المتوسط إلى منطقة الخليج، وقعت العربية السعودية في غمرة انعدام الاستقرار المتزايد. وأثار حصار المسجد الحرام في مكة (١٩٧٩) وتحركات الشيعة (١٩٧٩ ـ ١٩٨٠) تحديات داخلية خطيرة أقنعت النظام بموقعه المحفوف بالأخطار في منطقة متفجرة.

خلال رخاء السبعينيات وتقشف الثمانينيات على السواء، بدا أن موضوعة واحدة استحوذت على السياسة السعودية تتمثل بانكشاف عميق الجذور كان نفسه نتاج عوامل سكانية/ اقتصادية (تضافر عدد صغير من السكان ومساحة إقليمية شاسعة وثروة طائلة) وعوامل تنموية (تضافر موارد بشرية ضعيفة واعتماد على الأيدي العاملة الأجنبية) ومسؤوليات الجغرافيا التي جعلت العربية السعودية حامية الحرمين وفرضت الجغرافيا على العربية السعودية مسؤوليات معينة في العالمين العربي والإسلامي، وجعلت شراكتها مع قوة خارجية مثل الولايات المتحدة حتى أكثر إشكالية.

الرخاء: المقاطعة النفطية (١٩٧٣)

قبل عام ١٩٧٣ يبدو أن خطابية الحكومة السعودية، وبخاصة خطابية فيصل، طمأنت المجتمع الدولي إلى «عدم الخلط بين النفط والسياسة»؛ بمعنى أن العربية السعودية لن تستخدم مواردها النفطية لحمل الغرب على الضغط على إسرائيل للانسحاب من الأراضي الفلسطينية. وكانت العربية السعودية تصر في البيانات الصحافية على أنها لا تعتزم استخدام النفط سلاحاً في النزاع العربي ـ الإسرائيلي (الصويان ١٩٨٠). ولكن برغم الخطاب الرسمي، كان النفط والسياسة يرتبطان ارتباطاً لا فكاك منه (غولاب Golub ١٩٨٥: ١٥). وعندما بدأت أسعار النفط بالارتفاع في أوائل السبعينيات، دعت العربية السعودية إلى خفض الأسعار لتعزيز العلاقة مع الولايات المتحدة: استخدمت النفط وسيلة لتحقيق غاية سياسية.

في تموز/ يوليو ١٩٧٣ رفعت منظمة البلدان المصدرة للنفط (أوبك) سعر النفط بنسبة ١١,٩ في المئة (غرايسون ١٩٨٢: ١١٠). وأدى اندلاع الحرب المصرية ـ الإسرائيلية في تشرين الأول/ أكتوبر إلى زيادات إضافية في أسعار النفط. وفي الأشهر التي سبقت حرب تشرين/ أكتوبر بدأت العربية السعودية تحذر من استخدام النفط سلاحاً في حال اندلاع حرب جديدة مع إسرائيل. وفي ٣١ آب/ أغسطس ١٩٧٣ أعلن فيصل أنه لا يستطيع الاستمرار في شحن النفط إذا واصلت الولايات المتحدة علاقاتها الودية مع إسرائيل (المصدر السابق). ومرت هذه التحذيرات من دون أن تكترث بها الولايات المتحدة وأوروبا (بيك Peck ١٩٨٠: ٢٤٠)[١]. وفي

(١) في السبعينيات، كانت الأعمال الأكاديمية الأميركية عن العربية السعودية محدودة للغاية. وتشير إحصائية إلى أن ٦ كتب فقط من أصل ١٢٠ كتاباً و١٩ مقالة فقط من أصل ٥٥٠٠ مقالة، أتت على ذكر المملكة. لمزيد من التفاصيل، انظر لونغ Long ١٩٨٥: ١.

تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣ بدا الغرب وكأنه فوجئ عندما انضمت العربية السعودية إلى بلدان عربية نفطية أخرى، وأعلنت حظراً على شحن النفط إلى البلدان التي تدعم إسرائيل.

تجدر الإشارة إلى أن العربية السعودية لم تتصدر الحملة من أجل فرض المقاطعة النفطية وخفض الإنتاج، ولا هي كانت تريد أو حتى تتوقع الزيادات الهائلة في أسعار النفط التي أسفرت عنها المقاطعة (غولاب ١٩٨٥ : ٨). وأخرت العربية السعودية التزامها بالمقاطعة مع البلدان العربية النفطية الأخرى حتى لم يعد بمقدورها «التأخير والتأخير بأمل أن ينتهي النزاع من دون أن تضطر إلى لعب الورقة النفطية» (المصدر السابق: ١٠).

بعد نجاح الهجوم المباغت على إسرائيل في ٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣، بدأت مصر تواجه مصاعب عسكرية كان مرجحاً لها أن تقلب النجاحات الأولى. وعند هذا المنعطف قررت العربية السعودية التخلي عن «لعبة الانتظار» وفرض حظر على الغرب (غولاب ١٩٨٥). ووجدت العربية السعودية نفسها واقعة تحت ضغط يدفعها إلى الاستجابة للدعوة التي أطلقتها منظمة التحرير الفلسطينية في ٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣ بحض الدول العربية النفطية على استخدام ثرواتها سلاحاً في المعركة (غرايسون ١٩٨٢ : ٨٢).

واجتمع عشرة وزراء نفط عرب في الكويت في ١٧ تشرين الأول/ أكتوبر حيث اتفقوا على خفض إنتاج النفط بنسبة ٥ في المئة كل شهر حتى تسوية النزاع في الشرق الأوسط، كما اتفقوا على رفع أسعار النفط بنسبة ١٧ في المئة (المصدر السابق: ١١١). وفي تشرين الأول/ أكتوبر مضت العربية السعودية أبعد من القرار الذي اتخذ في الكويت بإعلان خفض الإنتاج بنسبة ١٠ في المئة مع فرض حظر تام على شحن النفط إلى الولايات المتحدة (المصدر السابق). وتزامن هذا مع «الجسر الجوي» العسكري الذي أقامته الولايات المتحدة لتعويض إسرائيل عن خسائرها في السلاح. وأعلنت العربية السعودية أنها ستخفض إمدادات النفط إلى جميع الدول التي تتخذ موقفاً مؤيداً لإسرائيل (فاسيلييف ١٩٩٨ : ٣٩٣). وأسفر القرار السعودي استخدام «سلاح النفط» ضد الغرب، عن دفع العربية السعودية إلى مركز السياسة العربية على حساب مصر التي أصبحت حتى أكثر اعتماداً على العربية السعودية والغرب بعد حرب ١٩٧٣ (فريزر ١٩٩٩٧ : ٢٢٢).

وحتى بعد أن اتخذ القرار باستخدام الورقة النفطية، عمدت العربية السعودية إلى تأخير المقاطعة. ومر أسبوعان قبل زيادة الخفض الابتدائي في صادرات النفط من ٢ إلى ٢٥ في المئة. ويجادل غولاب بأن مماطلات فيصل المتكررة وإحجامه الواضح عن زج المملكة في أول نزاع لها

مع الولايات المتحدة تشير، على ما يبدو، إلى أن الهدف من الخطوات السعودية كان تفادي رفع الأسعار لأن هذا كان من شأنه أن يزيد استعداء الولايات المتحدة (غولاب ١٩٨٥ : ١٢ ٢).

وحين فرض الحظر النفطي أخيراً، فإنه هز المجتمع الدولي حيث ارتفع سعر النفط بنسبة تقرب من ٧٠ في المئة (سفران ١٩٨٥ : ١٦١). وكانت أوروبا واليابان بصفة خاصة تعتمدان على نفط الشرق الأوسط منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وكان تهديد المقاطعة وارتفاع أسعار النفط أكبر عليهما منه على الولايات المتحدة. وكان من المتوقع أن تتسبب أزمة النفط وزيادة أسعاره في تعطيل الاقتصادات الأوروبية، وتؤدي في النهاية إلى ركود اقتصادي عالمي.

لقد جرى التهويل بآثار المقاطعة النفطية على الاقتصادات الغربية في الإعلامين العربي والغربي على السواء وقتذاك. فالحظر استمر أقل من ستة أشهر ولم يُفرَض إلا جزئياً. وانخفض إنتاج النفط الخام خلال الأشهر الستة من الحظر بنسبة ٤,٥ في المئة فقط (سفران ١٩٨٥ : ١٦٠). وكانت الولايات المتحدة تستورد نحو ٥٠٠ ألف برميل يومياً من النفط السعودي أو زهاء ٣ في المئة من إجمالي الاستهلاك الأميركي. وعند احتساب الخفوضات وإجراءات الحظر على شحن النفط التي اتخذتها الدول العربية الأخرى يكون النقص الذي تعرضت له الولايات المتحدة نحو ١٢ في المئة من إجمالي الإمدادات التي تتلقاها (غرايسون ١٩٨٢ : ١١٢).

بدأ يُنظَر إلى العربية السعودية والدول العربية النفطية الأخرى على أنها تهدد المصالح الغربية. وأصبحت صورة «الشيخ النفطي الجشع» هي السائدة في الولايات المتحدة والغرب عموماً. وردت العربية السعودية على التقارير التي ذكرت أن الولايات المتحدة قد تستخدم وسائل عسكرية لكسر المقاطعة النفطية، بالتحذير من أن العربية السعودية في حال الاضطرار ستخفض إنتاجها النفطي بنسبة ٨٠ في المئة، وإذا لجأت الولايات المتحدة إلى العمل العسكري فسيجري تفجير حقول النفط (المصدر السابق : ١١٢). وفي الأجواء المشحونة للأشهر الأخيرة من عام ١٩٧٣ هددت الولايات المتحدة بتعليق شحنات الغذاء إلى البلدان العربية.

في العربية السعودية تمخضت المقاطعة النفطية عن زيادة درامية في العائدات النفطية أتاحت لفيصل أن يطلق عملية التحول الاقتصادي التي بادر إليها وزيادة إنفاق حكومته على البنية التحتية. ففي عام ١٩٧٢، كان إجمالي الناتج المحلي السعودي ٥ , ٤ بليون ريال. وفي عام ١٩٧٣ بلغ مستوى لا سابق له هو ٣, ٩٩ بليون ريال (صندوق النقد الدولي ١٩٩٩ : ٧٩٨).

وولجت العربية السعودية حقبة الرخاء، وأتاحت ثروتها الجديدة لفيصل إمكانية تسريع برنامج التحديث الداخلي، وبدأ عهده يرتبط في المخيلة الشعبية بـ«النهضة». وفي حين كان فيصل مصمماً على تحديث الاقتصاد وبناء بنية تحتية كانت لم تزل غير موجودة عملياً في الستينيات، فإنه أصبح الآن قادراً على زيادة الإنفاق الحكومي في الخطة الخمسية الأولى (ورد ذكرها في الفصل السابق). وقام بتوسيع التعليم والخدمات الصحية وتحسين مرافق النقل والاتصالات وتنفيذ مشاريع لتوطين البدو، والأهم زيادة القدرات العسكرية السعودية بشراء السلاح من الولايات المتحدة.

أوجدت الثروة الجديدة تناقضاً بلا حل في الطريقة التي بدأ الآخرون ينظرون بها إلى العربية السعودية من الخارج. فإن بلداً ذا سكان قليلي العدد ومبعثرين، يتلكأ متخلفاً من حيث الكفاءات والمهارات ويعتمد اعتماداً كاملاً على الأيدي العاملة الأجنبية، بدأ يتحكم بموارد جديدة هائلة يستخدمها لإملاء السياسة والتأثير في الرأي الدولي. يضاف إلى ذلك أن فيصلاً عمد أصلاً إلى تسويق البلد بوصفه حامي المقدسات الإسلامية ونصير قضايا المسلمين، لا سيما القضية الفلسطينية، التي ظل يربطها بأهمية القدس دينياً. ولكن العربية السعودية لم تكن حتى ذلك الوقت شفعت هذه الخطابية بأي فعل هام .وقد سنحت الفرصة في عام ١٩٧٣ عندما استخدم فيصل مورده الحيوي الوحيد في خدمة القضية الفلسطينية. وبالمقاطعة النفطية، تبدى التزام العربية السعودية بالقضايا الإسلامية والعربية على المستوى الدولي.

وبصرف النظر عما إذا كان للحظر النفطي تأثير حقيقي أو مبالغ فيه على الاقتصادات الغربية، فإن أهميته الرمزية للعرب بصفة عامة والعربية السعودية على الأخص، كانت أهمية بالغة. فقد استُخدم النفط لأول مرة سلاحاً ممكناً في النزاع العربي ـ الإسرائيلي. وكانت إجراءات قطع النفط السابقة خلال أزمة السويس عام ١٩٥٦ والحرب العربية ـ الإسرائيلية عام ١٩٦٧ لا يُعتمد بها ـ قطع إمدادات النفط وقتذاك أخفق في لفت انتباه الإعلام العالمي بسبب الفائض النفطي إبان الستينيات ـ أو في إثارة أزمة اقتصادية عالمية مماثلة للأزمة التي حدثت عام ١٩٧٣ (بيك ١٩٨٠ : ٢٣٤). ومنذ السبعينيات لم تبخل الفصائل الفلسطينية الثورية والأنظمة العربية الراديكالية بتوجيه النداءات الداعية إلى «تجربة الورقة النفطية مجدداً». وكانت هذه الدعوات تشكل أحلام الجماهير العربية التي كانت غالبيتها لم تشف بعد من صدمة

يونيو/حزيران ١٩٦٧ المهينة. ولكن النظام السعودي كان معنياً أكثر بالحفاظ على سيطرته على سكانه، وبقي غير مستعد لإضعاف علاقاته الاقتصادية والعسكرية المديدة مع الولايات المتحدة وأوروبا الغربية.

لقد فشل الحظر النفطي كسلاح في استعادة القدس تحت السيادة العربية. ولكن صورة العربية السعودية في العالمين الإسلامي والعربي تغيرت تغيراً جذرياً. وأصبح البلد، وفيصل بصفة خاصة، رمزاً للتحدي بنظر الكثير من المسلمين. وأكد الحظر النفطي موقع المملكة المحوري بين البلدان النفطية، ووضَعَها في مواجهة مباشرة مع الولايات المتحدة لأول مرة، وفرض عليها دوراً قيادياً لا سابق له في العالم العربي (سفران ١٩٨٥: ١٧٦). يضاف إلى ذلك أن العربية السعودية أصبحت اللاعب الحاسم في الدبلوماسية النفطية الدولية (فريزر ١٩٩٧: ٢٢٢). وبعد ترويج الخطابية الإسلامية واستثمار دور العربية السعودية بوصفها حامية المقدسات الإسلامية، كان على فيصل أن يحافظ على هوية بلده الإسلامية بالانضمام إلى المقاطعة النفطية (المصدر السابق: ٢٢٤). وفي حين رفعت الأزمة النفطية مكانة العربية السعودية وعززت نفوذها، فإنها أوجدت أيضاً شبكة أوسع من المسؤوليات: «إذا كانت الأزمة النفطية ساعدت على نقل العربية السعودية إلى موقع متنفذ على نحو غير مسبوق في النظام العربي، فإنها أيضاً وضعت النظام الملكي في مركز النزاعات التي قوضت هذا النظام» (المصدر السابق: ٢٢٤: ٢٢٥). وهذا الموضع الجديد هو الذي فاقم إحساس العربية السعودية بالانكشاف واعتمادها المتزايد على علاقتها مع الولايات المتحدة.

مواطن الانكشاف: العلاقات السعودية ـ الأميركية في السبعينيات

سيتصور المرء أن بلداً تضاعفت موارده الاقتصادية في غضون فترة قصيرة جداً من الزمن، سيخرج منتصراً لأنه في وضع يمكنه من تحويل ثروته الاقتصادية إلى نفوذ سياسي وإعلاء مكانته على الساحة الدولية. وبعد الحظر النفطي برزت العربية السعودية فعلاً بصورة مضخمة عن نفسها؛ صورة نالت تزكية وشعبية داخلياً وإقليمياً ودولياً. ولكن إحساساً أعمق بالانكشاف اقترن بهذه الصورة المضخمة. وكان هذا بادياً في علاقة البلد بالولايات المتحدة واعتمادها المتزايد على الإمكانات العسكرية الأميركية لقاء ثمن باهظ جداً.

كانت المواجهة المكشوفة التي دخلتها العربية السعودية مع الولايات المتحدة خلال الأزمة النفطية، خبرة قصيرة الأمد. وكانت هذه المواجهة تختلف عن النزاع السابق حول الاعتراف بالنظام الجمهوري في اليمن عام ١٩٦٢[١]. ففي السبعينيات، كانت خطابية المواجهة بشأن الأزمة النفطية والنزاع العربي ـ الإسرائيلي تخفي شراكة كانت تتطور وراء الكواليس. وكانت الولايات المتحدة حتى ذلك الحين تعتبر إسرائيل وشاه إيران حليفيها الرئيسيين في الشرق الأوسط. والمفارقة، أنه بعد الأزمة النفطية برزت العربية السعودية بوصفها حليفاً محتملاً آخر.

في السبعينيات، أقامت إيران والعربية السعودية تحالفاً غير مكتوب بينهما لتطويق الدول العربية العلمانية والراديكالية، بما يتطابق مع المصالح الأميركية (فريزر ١٩٩٧). وبحلول عام ١٩٧٤، بدا أن العربية السعودية عادت إلى الصفقة القديمة مع الولايات المتحدة. وكانت الصفقة تكمن في انكشاف العربية السعودية. فالعلاقات مع الولايات المتحدة كانت تقوم على التزام العربية السعودية بانتهاج سياسة نفطية معتدلة تضمن انخفاض أسعار النفط لصالح الولايات المتحدة وأوروبا. وبالمقابل، تعمل الولايات المتحدة على إحلال سلام شامل في الشرق الأوسط وضمان تطور العربية السعودية اقتصادياً وعسكرياً والتكفل بالأمن الإقليمي (غولاب ١٩٨٥). وبقيت هذه الأهداف الثلاثة المبرر الأساسي وراء رغبة العربية السعودية في الحفاظ على علاقة ودية مع الولايات المتحدة.

وكلما بدا السعوديون معتمدين على هذه الشراكة مع الولايات المتحدة، زادت هذه العلاقة إشكالية بسبب أن أميركا شكلت بشكل لا يقبل اللبس، في عام ١٩٧٣، الحليف الرئيسي لإسرائيل التي تهدد أمن العديد من البلدان العربية. وكان هذا انتهاكاً للهدف الأول من الصفقة السعودية ـ الأميركية، وهو العمل من أجل سلام عادل في الشرق الأوسط. لم يكن بمقدور العربية السعودية أن تقيم تحالفاً سافراً مع الولايات المتحدة من دون أن تثير عداء (لفظياً وحقيقياً) من جانب عدة دول عربية مجاورة. ففي السبعينيات، كانت ليبيا وسوريا والعراق واليمن الجنوبي تولد خطابية معادية للامبريالية موجهة مباشرة ضد الولايات المتحدة بالدرجة الرئيسية. وبنظر هذه الأنظمة، فإن ارتباط بلد مسلم ذي ثروة نفطية ضخمة بالامبريالية الأميركية التي تدعم التوسع الصهيوني على حساب العالم العربي، كان مرفوضاً. وأثارت العلاقة

(١) دار نزاع سابق مع الولايات المتحدة حول اليمن في أوائل الستينيات. للاطلاع على تاريخ موجز للخلافات السعودية ـ الأميركية، انظر: هاليداي Halliday ١٩٨٢: ١٢٨.

السعودية ـ الأميركية غضبَ الأنظمة الثورية وكراهية الجماهير العربية في أواخر السبعينيات. وزاد انكشاف العربية السعودية لتهجمات هذه الأنظمة الثورية حتى أكثر من ضرورة توجه البلاد إلى الولايات المتحدة طلباً للحماية وشراء كميات ضخمة من الأسلحة من المصدر نفسه. وإذ كانت غالبية هذه الأنظمة متحالفة مع الاتحاد السوفياتي الشيوعي، فقد بدا أنه ليس لدى العربية السعودية من خيار سوى الاستمرار في تنمية شراكة حذرة لكنها ثابتة مع الولايات المتحدة.

بقي انكشاف العربية السعودية، متضافراً مع التناقضات الكامنة وراء ارتباطاتها بالولايات المتحدة، سمة دائمة من سمات هذه العلاقة. وكان ذلك لأنه «على الرغم من أن قوتها المالية وطابعها الديني يتيحان لها أشكالاً مؤكدة من النفوذ في العالم العربي وأبعد، فإن العربية السعودية بلد شديد الضعف من نواح أساسية معينة» (هاليداي Halliday ١٩٨٢ : ١٢٧). وكان الضعف يتجلى سكانياً واجتماعياً وعسكرياً واقتصادياً (المصدر السابق). والعربية السعودية، بما هي كذلك، لم تكن قادرة على التأثير تأثيراً جدياً في سياسة الولايات المتحدة تجاه إسرائيل، حتى بعد المقاطعة النفطية.

وفي الوقت الذي انضم فيصل على مضض إلى المقاطعة النفطية العربية في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣، فإنه كان مصمماً على إنهاء الأزمة النفطية لطمأنة واشنطن إلى نياته الطيبة. وفي آذار/ مارس ١٩٧٤ كان التهديد السعودي بالانسحاب من «أوبك» حاسماً في إقناع الأعضاء الآخرين في المنظمة الذين حضروا اجتماعها في فيينا بإبقاء أسعار النفط منخفضة. ووافق أعضاء «أوبك» على تجميد الأسعار ثلاثة أشهر عند ١١,٦٥ دولاراً للبرميل. وأعلنت العربية السعودية لاحقاً أنها ستزيد إنتاجها من النفط مليون برميل يومياً معوضة بذلك النقص النفطي السابق في الغرب (غرايسون ١٩٨٢ : ١١٤).

كوفئ ضغط العربية السعودية من أجل إبقاء أسعار النفط منخفضة بتوقيع عدة اتفاقيات اقتصادية عسكرية مع الولايات المتحدة. وفي نيسان/ أبريل١٩٧٤ وقع وزير الدفاع السعودي الأمير سلطان عقداً لشراء ما قيمته نحو ٢٧٠ مليون دولار من الصواريخ ومعدات عسكرية أخرى ذات صلة (غرايسون ١٩٨٢ : ١١٥). وفي الشهر نفسه، وقع الأمير عبد الله، قائد الحرس الوطني، اتفاقية حتى أكبر تنص على تقديم الولايات المتحدة مساعدتها في تحديث هذه القوة

شبه العسكرية بقيمة ٣٣٥ مليون دولار (المصدر السابق). وأعدت اللجنة الأميركية-السعودية المشتركة للتعاون الاقتصادي، عقوداً بقيمة ٦٥٠ مليون دولار. وفي عام ١٩٧٨ استوردت العربية السعودية ما قيمته نحو ٤,٤ بلايين دولار من البضائع الأميركية، وبذلك أصبحت سابع أكبر سوق للصادرات الأميركية (هاليداي ١٩٨٢: ١٣٢)، كما أصبحت الولايات المتحدة سوقاً للاستثمارات السعودية. وبحلول عام ١٩٧٩، وظفت ٣٥ بليون دولار في سندات الحكومة الأميركية و٢٤ بليون دولار في استثمارات أميركية أخرى (المصدر السابق).

كان التعاون العسكري أحد الأهداف الرئيسية وراء بناء علاقة وثيقة مع الولايات المتحدة. وفي عام ١٩٧٦، استحدث سلاح الهندسة الأميركي فرقة خاصة بالشرق الأوسط شاركت في برنامج إنشائي ضخم من ضمنه إقامة «ثلاث مدن» عسكرية في العربية السعودية هي الباطن (قرب الحدود العراقية)، وخميس مشيط (قرب الحدود اليمنية)، وتبوك (قرب الحدود الأردنية) (المصدر السابق: ١٣٧). وكانت مواقعها تعكس إحساس العربية السعودية بانعدام الأمن ونظرتها إلى جيرانها «المثيرين للمتاعب». يضاف إلى ذلك، أن العربية السعودية اشترت في الفترة الواقعة بين ١٩٧١ و١٩٨٠ معدات عسكرية تزيد قيمتها على ٣٤ بليون دولار (المصدر السابق). وأعقب هذه المشتريات امتلاك طائرات حربية متطورة (مقاتلات من طراز اف - ٥ وأف - ١٥)[1]. وأشاع توافر معدات عسكرية متقدمة إحساساً كاذباً بالأمن، وبات واضحاً في عام ١٩٧٧ أنه لو توقفت العربية السعودية عن تلقي مزيد من المعدات العسكرية لاحتاجت الكوادر العسكرية الموجودة إلى ست سنوات كي تتمكن من استخدام التكنولوجيا المشتراة في ذلك الوقت (المصدر السابق: ١٤١).

رحل الملك فيصل في عام ١٩٧٥، قبل أن تتطور اللجان العسكرية والاقتصادية السعودية-الأميركية المختلفة إلى شراكة مكتملة النضج. وكان اغتياله في ٢٥ آذار/ مارس ابن أخيه الأمير فيصل بن مساعد بن عبد العزيز. وبعد كثر من التكهنات بشأن دوافع القاتل، أبلغت الحكومة مواطنيها أن الاغتيال كان «عملاً فرديا». وتذكرت غالبية السعوديين أخا القاتل، الأمير خالد

---

(١) كانت طائرات «أف - ١٥» التي بيعت للعربية السعودية تفتقر إلى معدات وأجهزة طيران هامة، الأمر الذي جعل من المتعذر تحديثها لاحقاً لتنفيذ مهمات قتالية. انظر لونغ ١٩٨٥: ٦٠؛ وكوردسمان ١٩٨٤: ٢٠٥ - ٢٠٧.

الذي قاد في عام ١٩٦٥ تظاهرة ضد فتح المحطة التلفزيونية أسفرت عن مقتله برصاص الشرطة السعودية. وفي الوقت الذي لم تقدم الحكومة تفسيراً لاغتيال الملك، طلع السعوديون بتأويلاتهم الخاصة (الشمراني ١٩٩٨: ٣٢ ـ ٥٣). وعلق البعض على الصلات التي تربط بين حادثي ١٩٦٥ و١٩٧٥ بينما راجت شائعات عما يحاك من «مؤامرات أميركية وصهيونية» ضد المسلمين. وصُوِّر اغتياله في المخيلة الشعبية على أنه انتقام الغرب من المقاطعة النفطية عام ١٩٧٣.

كان الاغتيال عملاً ثأرياً شخصياً، وحدث في وقت بدأت العربية السعودية تعيش التوتر بين خطاب الأصالة الإسلامية الذي روجه الملك فيصل وبين التحول المادي والتكنولوجي المتزايد ارتباطاً بالثروة النفطية. وأسفر تناقض آخر عن تنابذ هذه الخطابية الإسلامية مع الاعتماد المتزايد على التكنولوجيا الأميركية والخبراء العسكريين الأميركيين لتدريب القوات ولتحقيق التنمية الاقتصادية بصفة عامة. وبعد التوثق من أن القاتل، الأمير فيصل، كان بكامل قواه العقلية، أحل علماء الرياض قطع رأسه. ونفذ حكم الإعدام في الساحة العامة في الرياض بعد صلاة الظهر يوم الجمعة (المصدر السابق: ١٧ ـ ٣١).

عهد الملك خالد (١٩٧٥ ـ ١٩٨٢)

تُوّج خالد (وُلد عام ١٩١٢) ملكاً في غضون ثلاثة أيام بعد موت فيصل. وسمي أخوه غير الشقيق فهد ولياً للعهد. وخلال السنوات الثماني من عهد خالد (١٩٧٥ ـ ١٩٨٢) بدأ التناقض يتبدى بين خطابية فيصل الإسلامية من جهة والرخاء والنزعة المادية المتعاظمة في المجتمع السعودي من الجهة الثانية.

ولعل عهد الملك خالد كان سيخلو من الأحداث المثيرة لولا عوامل خارجية عدة كانت لها تداعياتها في العربية السعودية. أولاً، إن الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ مارست تأثيرها في التطورات السياسية الداخلية وألهمت نشاطية إسلامية في العديد من البلدان العربية ومنها العربية السعودية. ثانياً، عمل الغزو السوفياتي لأفغانستان على تهويل المخاوف السعودية من الشيوعية وتوفير المبرر وراء الشركة المتينة مع الولايات المتحدة. ثالثاً، وضعت الحرب الإيرانية ـ العراقية في الثمانينيات نزاعاً إقليمياً على مقربة من الحدود السعودية. وتعاظم خطر هذا النزاع على العربية السعودية، ولا سيما عندما أخذت جمهورية إيران الإسلامية تنتقد وتفضح

بانتظام التناقض الكامن من اساس العلاقات الامريكية: تعرض النظام السعودي لتهجمات بلد مسلم آخر له قدرات اجتماعية وعسكرية كبيرة تفوق قدرات العربية السعودية. وبدا أن مواطن انكشاف العربية السعودية ازدادت تفاقماً في وقت كانت البلاد لم تزل تتمتع بفترة من الرخاء. وسنبدأ بالمشهد الداخلي:

في الوقت الذي كانت الابتكارات التكنولوجية في عهد فيصل تنال من حين إلى آخر تزكية كبار العلماء، فإن الثروة المفرطة وفساد الفئة الحاكمة وتغير المشهد العام في العربية السعودية واتساع التربية الدينية في الجامعات التي فتحها الملك فيصل في أوائل السبعينيات، تسببت، مجتمعة، في عودة «الأخوان». إذ كان فيصل مسؤولاً عن إشاعة نظرة إسلامية إلى العالم مع انتهاج سياسة خارجية إسلامية، ولكن الاثنتين عملتا ضد شراكته المتنامية مع الولايات المتحدة، وجعلتا سلوك أفراد الأسرة الملكية، البعيد عن الإسلام، قضية أكثر إشكالية. لقد كانت سياسته الإسلامية سيفاً ذا حدين: فهي عززت موقع العربية السعودية داخلياً ودولياً، لكنها استثارت انتقادات كلما لاح ما يُعَدُّ انتهاكاً للمثل الإسلامي الأعلى.

خلال موسم الحج في ٢٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٩، كان حصار جهيمان بن محمد العتيبي ومحمد بن عبد الله القحطاني مع العديد من الأتباع السعوديين وغير السعوديين في المسجد الكبير في مكة، المظهر الأسطع لما كان يعتمل من توتر في العربية السعودية. وكان قائد العملية جهيمان واعظاً نشطاً غامر بإبداء آرائة حول الحاكم الإسلامي العادل والعلاقات مع «القوى الكافرة» والنزعة المادية والفساد والعلاقة بين العلماء والسلطة (بوكان ١٩٨٢: ١٢٢). وأعلن أن زعيم الحركة الروحي، القحطاني، هو «المهدي الحقيقي» المنتظر، مطالباً بعزل الأسرة الملكية الفاسدة. وحين قام بتنظيم عملية الاعتصام كان كسب نحو ٢٠٠ شخص من الأتباع (بوكان ١٩٨٢: ١٢٢)، وتفيد تقارير أخرى أن عددهم كان بين ٤٠٠ و٥٠٠ (أبير ١٩٨٨: ١٥١). وضمت المجموعة زوجات وأطفالاً كانوا يشاركون في الحج خلال موسم ١٩٧٩ الذي صادف وقوعه في سنة ١٤٠٠ هجرية في التقويم الإسلامي. وكانت الغالبية من متمردي جهيمان طلاباً في «الجامعة الإسلامية» في المدينة حيث كان نفوذ جماعة «الأخوان المسلمين» المصرية قوياً. وكان فيصل، في محاولته إضعاف عبد الناصر في الستينيات، رحب بأعضاء جماعة «الأخوان» الذين أخذوا ينشطون في العديد من الجامعات الدينية السعودية المفتوحة حديثاً.

كـان جهيمـان وأتباعـه يمثلـون انتفاضـة إسـلامية احتجاجاً على مـا كـانوا يـسمونه التحلـل الديني والأخلاقي وانحطـاط الحكـام الـسعوديين (الياسـيني ١٩٨٥ : ١٢٤ ؛ الرشـيد ١٩٩٧ : ٧٦ ؛ أيـوبي ١٩٩١ : ٩٩ ـ ١٠٤ ؛ بوكـان ١٩٨٢ : ١٢٠ ـ ١٢٤). وكانـت هـذه أول مـرة تعرضـت فيهـا الأسرة الملكية الـسعودية لهجوم سـافر بـسبب إسـاءة الـسلوك الفـردي والفـساد منـذ عهـد ابـن سعود[١].

تبدى هذا التوتر على ثلاثة مستويات: كيفيـة التوفيـق بـين الثـروة المفاجئـة والـضخمة فـضلاً عـن التحـديث الاقتـصادي المتـسارع مـن جهـة والتمـسك بالإسـلام مـن الجهـة الأخـرى، وعـدم الانسجام بين العقيدة الدينية والسياسة الملكيـة، وانكـشاف العائلـة الملكيـة للـهجوم مـنم جانـب «الأخـوان الجـدد»: ورثـة مـن تمـردوا علـى ابـن سـعود في الفـترة الواقعـة بـين ١٩٢٧ و١٩٢٩. وجيهمـان نفـسه ولـد في مـستوطنة سـجير الأخوانيـة في القـصيم (بوكـان ١٩٨٢ : ١٢١، أبـير ١٩٨٨ : ١٥٠).

عمـدت الحكومـة إلى اسـتنفار العلمـاء، وأصـدرت إدارة البحـوث العلميـة والإفتـاء برئاسـة الشيخ عبد العزيز بن باز فتوى تدعم الفئة الحاكمة وتجيز التدخل العـسكري في الحـرم المقـدس. وأنهى الحصار بعد قتـل «المهدي» المعلـن وأسـر قائـد الحركـة العـسكري ومنظرهـا مـع ١٧٠ مـن الأتباع (الرشيد ١٩٩٧ : ٧٦). وتطلب سحق التمرد أسـبوعين، وأسـفر عـن سـقوط العديـد مـن القتلى بين المتمردين. وفي ٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٩ خرج آخـر المتمـردين مـن المـسجد الحرام[٢].

كانـت رسـالة المتمـردين الـسياسية طغى عليهـا إعلانهـم أن زعـيم الحركـة الروحـي محمـد القحطـاني هـو «المهـدي المنتظـر»، الـذي كـان مفهومـاً خلافيـاً في الإسـلام الـسني. واسـتثمرت الحكومة هذا الخلاف للنيل من المتمردين ومن أعلن نفسه «مهـديهم» (القحطـاني ١٩٨٨ : ٨٣). وشـرع كبـار العلمـاء في إجـراء منـاظرة لاهوتيـة حـول صـفات المهـدي الحقيقـي طامـسين بـذلك

---

(١) في عام ١٩٢٧ انتقد العلماء ابن سعود لإكثاره من الزواج. انظر الفصل الثاني.

(٢) أنهي حصار المسجد بمساعدة قوات أردنية ومستشارين أميركيين وفرنسيين. لمزيد من التفاصيل، انظر أبو ذر ١٩٨٠ : ١٦١ ـ ١٦٥.

المعارضة السياسية التي كانت في أساس التمرد. وخلص العلماء إلى أن القحطاني لا يمكن أن يكون المهدي المنتظر حقاً مبررين بذلك إخماد الحركة بوحشية داخل المسجد، وهو حرم مقدس منع سفك الدماء فيه حتى قبل ظهور الإسلام. وما إذا كان القحطاني هو «المهدي» أو لم يكن، فذلك خارج موضوع هذا الكتاب. وما له صلة بالموضوع هنا هو كيف أن المناظرة اللاهوتية بين العلماء السعوديين ساعدت الحكومة في صرف الانتباه بعيداً عن حجم المعارضة السياسية التي كانت في أساس حصار المسجد. ولكن الفئة الحاكمة والسعوديين الاعتياديين على السواء، أدركوا أن التمرد لم يكن حول «مهدي» مزيف أو حقيقي، بل كان حول تطور أسفر عن نتائج اجتماعية متناقضة وتوترات لم تكن تتوقعها حكومة رفعت لواء التحديث في مجرى توفير أرضية جديدة للشرعية. فلقد كان حصار المسجد جزءاً لا ينفصل من التحديث المادي إبان السبعينيات، وهو كان يقظة سياسية استندت إلى خطابية دينية أصبحت أكثر تمفصلاً برعاية مراكز العلوم الدينية وفي ظل التربية والتعليم. وكان جهيمان يتميز عن فيصل الدويش، المتمرد الأخواني في عام ١٩٢٧، بتربيته الدينية وعلمه اللاهوتي اللذين تطوراً خلال فترة مديدة من الدراسة في جامعة إسلامية فتحتها الدولة السعودية.

التوترات الاجتماعية نفسها التي أدت إلى حصار المسجد أخذت تتبدى في المنطقة الشرقية حيث يعيش غالبية الشيعة السعوديين. وكان معظم الشيعة في العربية السعودية يعملون في حقول النفط ولكنهم كانوا يواجهون أشكالاً مختلفة من التمييز[1]. وحقيقة أن المذهب الوهابي وصم الشيعة بالزندقة، لم تفعل سوى مفاقمة التمييز الذي يكمن في واقع أن غالبية الشيعة كانوا فلاحين في مجتمع ينظر باحتقار إلى مهنة كهذه. وكان الشيعة يتعرضون للتميز لا لأنهم شيعة فحسب، بل لأنهم يشكلون طائفة تعد «شذوذا» في الجزيرة العربية (الرشيد ١٩٩٨: ١٣١).

وظهر تناقض آخر في السبعينيات، إذ كانت الصناعة النفطية تتركز في منطقة الشيعة حيث يساهمون بالقسم الأعظم من الأيدي العاملة شبه الماهرة وغير الماهرة ولم يترجم هذا إلى فرص اقتصادية وتعليمية واجتماعية أفضل للسكان. فخارج معسكرات «آرامكو» لم تجن غالبية الشيعة فائدة من التوسع في الخدمات الصحية والاجتماعية. وهم كانوا ممنوعين من مهن معينة

(١) حول التمييز ضد الشيعة انظر الحسن، كانون الثاني/ يناير ١٩٩٣.

مثل الجيش ومؤسسات التعليم، كما كانوا ممنوعين من إقامة مجالس العزاء بمناسبة عاشوراء في العلن ومن بناء مساجدهم الخاصة. وبرعاية فيصل، أصدر العلماء الوهابيون عدة فتاوى تدين الشيعة. وذهب بعض العلماء إلى حد الإعلان أن اللحم المذبوح على أيدي جزارين شيعة غير صالح لاستهلاك المسلمين. ولم تفعل الدولة شيئاً يُذكَر لإسكات الآراء الدينية المتطرفة ضد الشيعة (الحسن ١٩٩٣).

حوَّل نجاح الثورة الإيرانية في عام ١٩٧٩ العديد من الناشطين الشيعة إلى متمردين «إسلاميين». وفي عام ١٩٧٩، نزل الشيعة إلى الشوارع بمناسبة عاشوراء التي ينعون فيها عادة مقتل شهيديهم الحسن والحسين، وهي ممارسة حظرتها الدولة واقتصرت على المجال الخاص منذ ضم الأحساء إلى دائرة السلطة السعودية في عام ١٩١٣. وأرسلت الحكومة ٢٠ ألفاً من أفراد الحرس الوطني لتفريق المشاركين في مراسم العزاء.

في عام ١٩٨٠، نظم الشيعة تظاهرة كبيرة وسلسلة من الإضرابات في القطيف احتفالاً بالذكرى الأولى لعودة الخميني إلى إيران. وأصبح هذا مناسبة للتعبير عن الاستياء من وضعهم كمواطنين من الدرجة الثانية في العربية السعودية. وقام أفراد الحرس الوطني بتفريق المتظاهرين قاتلين العديد من المشاركين. ويتذكر الشيعة هذا الحدث بوصفه «انتفاضة المنطقة الشرقية» (الشيخ، الدخيل والزاير ١٩٨١). وبدأت «منظمة الثورة الإسلامية» الشيعية السرية التي تمثل الطائفة في المنطقة الشرقية، تبرز بوصفها المتنَفَّس السياسي للطائفة بعد الأحداث العفوية في ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ (الرشيد ١٩٩٨: ١٢٢). وكان أعضاء المنظمة من طلاب «جامعة البترول والمعادن» (الدمام) وعمال الحقول النفطية. وبدأت المنظمة تبث من إذاعات إيرانية في محاولة للوصول إلى أفراد الطائفة في العربية السعودية، وفتح مكتب إعلامي في طهران لتنسيق النشاطات السياسية[1]. وأدرك الملك خالد الطبيعة المتفجرة لهذه المعارضة الجديدة التي اكتسبت زخماً نتيجة الخطابية المعادية للسعودية التي اعتمدتها جمهورية إيران الإسلامية. وبعد سلسلة من المواجهات الدموية مع الشيعة انتقلت قيادتهم إلى المنفى.

بعد اضطرابات ١٩٧٩ و١٩٨٠ اعتمدت الحكومة السعودية معالجة برغماتية ووعدت بسلسلة من الإصلاحات الاقتصادية. واعترف المسؤولون الذين زاروا المنطقة بعد هذه الأحداث

---

(١) مقابلة مع حمزة الحسن، كانون الثاني/ يناير ١٩٩٣.

مباشرة، علماً بما تعانيه الطائفة من حرمان اجتماعي واقتصادي، واعدين بتحسين التعليم والخدمات الصحية والبنى التحتية الاقتصادية للمدن الشيعية. ولكن هذه الإجراءات المحدودة في أهدافها أخفقت في تهدئة الشيعة. ولم تتحقق مصالحة كانت هشة إلا في عام ١٩٩٣، وبضغط حرب الخليج عام ١٩٩١ (الرشيد ١٩٩٨).

كان حصار المسجد في مكة والتحركات الشيعية، مظاهر للتوترات التي كانت تعتمل تحت السطح خلال عهد الملك فيصل وتبدت خلال عهد الملك خالد. وكانت القلاقل الأولى تمثل نقمة بعض العلماء الوهابيين على التحول المادي للمجتمع السعودي وخطر فقدان القيم الإسلامية. وسلط تمرد جهيمان الضوء على التناقض بين الخطابية والهوية الإسلاميتين للدولة السعودية وعلاقاتها المديدة مع الغرب. وانبثقت المعارضة الشيعية نتيجة التوزيع غير المتساوي للثروة النفطية التي تُنتج في المنطقة الشرقية منذ عام ١٩٣٨. وكانت الاضطرابات حصيلة نجاح الثورة الإيرانية التي بدأت قيادتها تهاجم العربية السعودية بسبب الفساد والتحالف مع الغرب، وفي المقام الأول أنها طعنت في دعوى القيادة السعودية بحماية الحرمين في مكة والمدينة. وقد حدث حصار المسجد والتحركات الشيعية في وقت بدأت الخطابية السياسية الإسلامية تضعف الاتجاهات السياسية اليسارية والقومية السابقة في العالم العربي.

على مستوى الفئة الحاكمة، اتسم عهد الملك خالد بالاستقرار الناجم عن توزيع فيصل للمهام والمناصب الوزارية توزيعاً متماسكاً على كبار الأمراء. وفي عهد الملك خالد الذي استمر ثماني سنوات، توطد موقع المجموعة التي كثيراً ما يشار إليها في الأدبيات الغربية على أنها مجموعة «السبعة السديرية»، كونهم أبناء أم سديرية، ليصبحوا قوة سياسية بين الفئة الحاكمة السعودية. وكانت المجموعة تضم فهداً (ولي العهد في عهد خالد) وسلطان (النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران) ونايفاً (وزير الداخلية) وسلمان (أمير الرياض) وعبد الرحمن (نائب وزير الدفاع والطيران منذ عام ١٩٦٢) وأحمد (نائب وزير الداخلية) وتركياً (نائب وزير الدفاع حتى عام ١٩٧٨). واستأثرت هذه المجموعة بالمناصب الحكومية الحساسة وتحديداً الدفاع والداخلية. وفي عام ١٩٨٢، توفي خالد بعد مرض لم يمهله طويلاً. وبوفاته جرى تأكيد الأخوة السديرية في مناصبهم الوزارية في عهد الملك فهد.

في فترة الملك خالد، تولى ولي العهد فهد مسؤوليات أكبر بينما أصبح خالد شخصية مراسيمية. وعزي هذا إلى صراع على السلطة داخل الأسرة الملكية السعودية في فهد وأخوته

الأشقاء من جهة. وخالد وأخوة آخرين غير أشقاء من الجهة الثانية وخاصة عبد الله قائد الحرس الوطني. ولكن هذا الصراع الذي نشب في أواخر السبعينيات لا يقارن بالصراع بين فيصل وسعود في الستينيات. وبدا أن خالداً وفهداً يتعايشان على نحو لا يهدد بقاء الفئة الحاكمة. ولم يُسهم اعتلال صحة خالد في تقوية موقعه داخل الأسرة الملكية، وأقر بدوره التشريفي ملكاً مراسيمياً وترك تصريف شؤون الدولة واتخاذ القرارات الكبيرة لأخيه فهد.

جدول رقم٣

حجم الصادرات النفطية وإجمالي الناتج المحلي: ١٩٨٢ ـ ١٩٩٧

(بلايين الريالات السعودية)

السنة	حجم الصادرات النفطية	إجمالي الناتج المحلي
١٩٨٢	٨٠,٦	٤١٥,٢
١٩٨٣	٥٦,٥	٣٧٢
١٩٨٤	٤٧,٩	٣٥١,٤
١٩٨٥	٣٥,٢	٣١٣,٩
١٩٨٦	٥٢,٦	٢٧١
١٩٨٧	٤٣,٥	٢٧٥,٤
١٩٨٨	٥٥,٤	٢٨٥,١
١٩٨٩	٥٦,١	٣١٠,٨
١٩٩٠	٤٧	٣٩١,٩
١٩٩١	٩٦,٦	٤٤٢
١٩٩٢	١٠٣,٧	٤٦١,٤
١٩٩٣	١٠١,٣	٤٤٣,٨
١٩٩٤	٩٩,٩	٤٥٠,٣
١٩٩٥	١٠٠	٤٧٠,٧
١٩٩٦	١٠ ,٣	٥١١,٣٣
١٩٩٧	٩٩,٦	٥٤٧,٤١

المصدر: صندوق النقد الدولي ١٩٩٩: ٧٩٨ ـ ٧٩٩.

ورث ولي العهد فهد (ولد عام ١٩٢١) العرش بعد وفاة خالد في عام ١٩٨٢ . كان الانتقال سلساً لأن فهداً كان أصلاً تولى ممارسة سلطات واسعة خلال السنوات الأخيرة من حكم خالد . وأحكم الملك مع أخوته الأشقاء الستة سيطرتهم على المناصب الحكومية الحساسة وخاصة الدفاع والداخلية . وأصبح أخوهم غير الشقيق عبد الله قائد الحرس الوطني ، وولي العهد والنائب الأول لرئيس مجلس الوزراء . وفي عام ١٩٨٦ ، خلع الملك فهد على نفسه لقباً جديداً هو «خادم الحرمين» .

تزامنت سنوات فهد الأولى على العرش مع هبوط حاد في أسعار النفط التي بلغت أدنى مستوياتها في عام ١٩٨٦ ، إذ انخفض سعر النفط من ٣٢ دولاراً للبرميل إلى ١٥ دولاراً في أوائل الثمانينيات متسبباً في تناقص عائدات النفط السعودية بنسبة تزيد على ٣٠ في المئة . وفي غضون ستة أشهر ، بين كانون الثاني/ يناير وتموز/ يوليو ١٩٨٦ ، انخفضت أسعار النفط من ٢٦ دولاراً للبرميل إلى ٨ دولارات للبرميل (بيركس Birks وسيكومب Seccombe وسنكلير Sinclair ١٩٨٨ : ٢٧٢) . ففي عام ١٩٨٢ بلغ إجمالي الناتج المحلي السعودي مستوى لا سابق له زاد على ٤٠٠ بليون ريال سعودي ، بينما انخفض في عام ١٩٨٦ إلى ٢٧١ بليوناً (انظر الجدول رقم ٣) .

لم يعد بالإمكان اعتبار الرخاء الذي عرف في عهدي فيصل وخالد من المسلمات في وقت كانت الحكومة السعودية تحاول التكيف مع هبوط أسعار النفط الذي أماط اللثام عن ضعف الاقتصاد القائم على سلعة واحدة . وكثيراً ما كانت سنوات فهد الأولى على العرش توصف بأنها عهد التقشف ، على النقيض من سنوات الرخاء في عهدي فيصل وخالد .

في الثمانينيات ، اعتُبر تحديث البنية التحتية للبلاد بوتيرة أبطأ ضرورياً نتيجة عجوزات متعاقبة في الميزانية . وكانت العربية السعودية تواجه عجز الميزانية بالسحب من الاحتياطات والاقتراض من الاقتصاد المحلي (غوز ١٩٩٤ : ١٤٨) . وأوقفت مشاريع مفرطة في الطموح أو صرف النظر عنها في مواجهة مجاهيل اقتصادية متزايدة . وخفضت خطة التنمية الرابعة (١٩٨٥ - ١٩٩٠) الإنفاق على الهياكل الارتكازية ، وحولت مزيداً من المواد المالية نحو تنمية الموارد الاقتصادية والبشرية وبلغ متوسط النمو الحقيقي لإجمالي الناتج المحلي ١,٤ في المئة سنوياً

وهي نسبة تقل بكثير عن الـ٤ في المئة المتوقعة. وانخفض الإنفاق على المشاريع الإنشائية الاستعراضية بنسبة ٨,٥ في المئة. وصُرف النظر عن مشاريع بناء مصفاة نفطية في القصيم ومطار دولي جديد في المنطقة الشرقية (فاسيلييف ١٩٩٨ : ٤٥٣). وبقيت عمارات مكتبية عالية أُنجز بناؤها في المدن الكبيرة شاغرة تعكس هبوط الطلب وانخفاض العائدات وتباطؤ النمو الاقتصادي. وكان قطاع البناء الأشد تضرراً بين قطاعات الاقتصاد، كما انعكس ذلك في انخفاض عدد العمال الأجانب المستخدمين فيه (بيركس وسيكومب وسنكلير ١٩٨٨ : ٢٦٨).

ولكن الحكومة لم تكن تريد خفض الإنفاق على الخدمات العامة والرعاية الاجتماعية للسكان الذين اعتادوا المستشفيات المجانية والتعليم المجاني والمنافع الاجتماعية. وفي حين واصلت الحكومة دعم الزراعة، فإن أجور الكهرباء والغاز ارتفعت في عام ١٩٨٥ بنسبة ٧٠ في المئة لأول مرة منذ عام ١٩٧٢ (فاسيلييف ١٩٩٨ : ٤٥٤). وبدأ السعوديون الاعتياديون يبدون تذمراً من دفع فاتورات غاز وهاتف وكهرباء باهظة. ومع انحسار السيولة النقدية لم تكن إلا قلة من السعوديين قادرة على قضاء إجازات تَرَفية في الخارج أو دفع أثمان سلع استهلاكية كانت تُغرق السوق. ويتذكر السعوديون الثمانينيات بأنها عقد تقشف غريب على الجيل الذي ازدهر خلال الطفرة النفطية في أواخر السبعينيات.

ولم يكن بمقدور الحكومة أن تفكر في فرض ضرائب على السكان وقت انخفاض العائدات النفطية خوفاً من العاقبة. وبقيت فكرة أن يدفع المواطن ضريبة فكرة مرفوضة بين السكان الذين اعتادوا تلقي الإعانات من الدولة بدلاً من المساهمة في الخزينة العامة. وفي محاولة مستميتة لزيادة العائدات، أعلنت الحكومة نيتها فرض ضريبة دخل على العمال الأجانب، وهو قرار تعين إلغاؤه عندما هدد وافدون ذوو مهارات عالية بالاستقالة. وبدلاً من ذلك، فُرضت رسوم أعلى على الإقامة وتأشيرات الخروج لتحقيق موارد مالية إضافية. وطوال عقد الثمانينيات قدر أن نحو ٣٠ في المئة من سكان العربية السعودية كانوا من الأجانب بينما كان الوافدون يشكلون ٦٠ في المئة من القوى العاملة (كوردسمان ١٩٩٧ : ٧١).

بدأت العربية السعودية تشعر بضغط النمو السكاني العالي بمعدل ولادات يقدر بنسبة ٦٨, ٣ في المئة ومعدل خصوبة متوسطة ٤٨, ٦ أطفال لكل امرأة (المصدر السابق : ٣١). كان سكانها في تلك الفترة، وما زالوا، من أسرع السكان نمواً في العالم. وإذا استمر معدل الولادات على هذا

المستوى فالمتوقع أن يبلغ عدد سكانها ٢٢ مليوناً نسمة في أوائل القرن الحادي والعشرين (المصدر السابق: ٣٤). وتقل أعمار نحو ٥٠ في المئة من السكان عن السادسة عشرة بما يجعلهم من أكثر السكان شباباً.

واستنزف عدد التلاميذ والطلاب في المدارس والجامعات طاقة النظام التعليمي على استيعاب الطلاب، جاهداً في الوقت نفسه من أجل الحفاظ على مستوى تعليمي معقول. واستمر طلاب التعليم العالي في تلقي منح شهرية سخية (تبلغ ٣٠٠ دولار شهريا) صدر القرار بدفعها في السبعينيات كحافز لزيادة عدد المسجلين في معاهد التعليم العالي (موسى ٢٠٠٠: ٢٤). وتزايد الضغط على الخدمات العامة والبنية التحتية مع تنامي الطلب على العمل في اقتصاد لم يتطور بما فيه الكفاية لاستيعاب العدد المتزايد من السعوديين المتعلمين الشباب الطامحين إلى تأمين وظائف برواتب عالية.

بقيت الحكومة أكبر رب عمل مستخدمة ما يربو على ٤٠ في المئة من القوى العاملة. واستوعبت الصناعة والبناء والنفط ٢٥ في المئة من الأيدي العاملة بينما كانت الخدمات توفر فرصاً لـ ٣٠ في المئة. وكانت ٥ في المئة فقط من القوى العاملة منخرطة في الزراعة.

هذه النسب تخفي حقيقة أن الأيدي العاملة النشيطة اقتصاديا تضم جالية كبيرة من الوافدين تتألف من عاملين غربيين وعرب وآسيويين يُقدر أن عددهم بلغ في الثمانينيات ٤ ملايين وافد (كوردسمان ١٩٩٧). وفي عام ١٩٨٥، قدر أن غير السعوديين كانوا يشكلون أكثر من ٧١ في المئة من القوى العاملة في السعودية (بيركس وسيكومب وسنكلير ١٩٨٨: ٢٦٧). وكانت غالبيتهم تعمل في ثلاثة قطاعات اقتصادية هي البناء والصناعة والخدمات العامة. وفي عام ١٩٨٥ ظل العمال العرب الأكبر عدداً بين العمال الأجانب، حيث قدر عددهم بـ١٢, ١ مليون عامل يليهم ١, ١ مليون عامل من جنوب آسيا (المصدر السابق: ٢٧٤). كانت غالبية العرب من مصر ولبنان وفلسطين وسوريا والأردن مع أقلية صغيرة من شمال أفريقيا، بينما كانت الفئة الأكبر والأقدم بين العمال العرب من اليمنيين الذين تسبب طردهم جماعياً من المملكة عام ١٩٩٠ في مشاكل اقتصادية خطيرة في اليمن[1].

---

(١) منذ الثمانينيات حاولت العربية السعودية تقليل اعتمادها على العمال العرب والاستعاضة عنهم بعمال من جنوب آسيا. ولكن هذه الاستراتيجيا لم تكن ممكنة في بعض القطاعات (مثل التعليم). حول العمال اليمنيين في العربية السعودية وازمة الخليج في التسعينيات، انظر أوكروهليك وكونج Okruhlik and Conge ١٩٩٧.

شجع هبوط العائدات السعودية في الثمانينات، الحكومة على ترويج خطابية «السعودة»، في برنامج يهدف إلى الاستعاضة تدريجياً عن الأجانب بسعوديين مؤهلين بما لديهم من تحصيل علمي وتأهيل ومهارات. وكان هذا هدفاً معلناً من أهداف الخطة الخمسية الرابعة (١٩٨٥ ـ ١٩٩٠). كان الاعتماد على الأيدي العاملة الأجنبية عد منذ زمن طويل «شراً لا بد منه» في الفترة الانتقالية. ولكن «السعودة» ظلت محدودة. وكان نقص المرشحين المحليين للأعمال ذات المهارات العالية مع امتناع السعوديين عن ممارسة الأعمال اليدوية، يعني استمرار البلاد في الاعتماد على الخبرات الغربية للصناعات المتخصصة والأيدي العاملة الآسيوية للبناء وغيره من الأعمال غير الماهرة واليدوية. وارتفع عدد تراخيص العمل الممنوحة للأجانب من ٥٢٣ ألف ترخيص في عام ١٩٧٧ إلى ذروة بلغت أولاً ٦٨٧ ألف ترخيص في عام ١٩٧٩. وبعد انخفاضها بقدر طفيف في عام ١٩٨٠ ازدادت بنسبة ١٦ في المئة عام ١٩٨١ أعقبتها زيادات صغيرة لاحقة في عامي ١٩٨٢ و١٩٨٣ إلى ذروة جديدة بـ ٧٩٠ ألف ترخيص. ولم ينخفض عدد التراخيص الممنوحة بنسبة ٥ في المئة إلا في عام ١٩٨٤ (بيركس وسيكومب وسنكلير ١٩٨٨: ٢٦٩). واقترن برنامج «السعودة» بقيود أشد صرامة على الهجرة وإبعاد المهاجرين غير الشرعيين أو غير المسجلين. وخلال عامي ١٩٨٥ و١٩٨٦ ارتفع عدد المهاجرين المبعدين إلى ٣٠٠ ألف شخص بالمقارنة مع ٨٨ ألفاً في عام ١٩٧٧ (المصدر السابق: ٢٧٠). وفي منتصف الثمانينيات شهدت العربية السعودية رحيل أكثر من ٣٦٠ ألف شخص من عمال جنوب شرق آسيا (المصدر السابق: ٢٧٢). وفي حين أن الأجانب العاملين في قطاع البناء (يقدر عددهم بـ ٦٠٠, ٢١٠, ١ في عام ١٩٨٥) كانوا أول المغادرين، فقد استمر اعتماد العربية السعودية على الأيدي العاملة الآسيوية في قطاع الخدمات (يقدر عددهم بـ ٥٥٠, ٨٥٩ عاملاً في عام ١٩٨٥) (المصدر السابق: ٢٧٥).

في عقد الثمانينيات، بقيت مشاركة المرأة السعودية في الاقتصاد مشاركة محدودة وسط مناقشات حول ما إذا كان عملها سيزيد اعتماد البلاد على الأيدي العاملة الأجنبية. وخلال هذه الفترة، تولت نساء سعوديات بالفعل وظائف في المصارف التي أنشئت حديثاً للنساء فقط وفي الخدمات والتعليم. وقام أفراد النخبة الثرية بتوظيف رؤوس أموال في استثمارات صغيرة تقتصر على النساء. وانتشرت المتاجر والمراكز الرياضية وصالونات التجميل ذات الملكية والإدارة

النسائية في الأسواق الشهيرة في الرياض وجدة. وقدر أن ٨٤٧, ١١ امرأة كن في عام ١٩٨٠ يتلقين رواتب من الحكومة لعملهن بالدرجة الرئيسية في مجالات التعليم والصحة والجهاز الإداري والخدمات الاجتماعية (بحري ١٩٨٢ : ٥٠٥). وكانت هناك حتى مناقشات حول السماح للمرأة بقيادة السيارة لتسهيل حركتها وتقليل اعتمادها على سائق أجنبي في تنقلها : ترف كانت بعض العائلات السعودية ستفضل الاستغناء عنه في زمن ارتفاع تكاليف المعيشة وتناقص النقود المتاحة[1].

بدأت نقاشات حول حق المرأة في العمل تظهر في الصحافة السعودية في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات. ودافعت الصحافية سهيلة زين العابدين عن فرض تحديدات صارمة على الأعمال التي ينبغي السماح للمرأة بمزاولتها داعية إلى إعداد مناهج مدرسية خاصة للنساء. وأثار هذا رداً من صحافية أخرى هي خيرية السقاف التي دعت إلى تعليم المرأة وتوسيع فرص عملها إلى النشاط الاقتصادي الأكبر (بحري ١٩٨٢ : ٥٠٥).

لقد أخفق غموض الآفاق الاقتصادية في أواخر الثمانينيات في تغيير المواقف وتخفيف القيود الاجتماعية والثقافية على مشاركة المرأة مشاركة كاملة في الاقتصاد. وفي الحقيقة أن تنامي دور المرأة وظهورها في المجال العام أديا إلى تشديد الضوابط وشحذ اليقظة من جانب الشرطة الدينية. وفي الثمانينيات، كان من الشائع أن يقوم «المطاوعة» بدهم مرافق خدمية للنساء فقط بحثاً عن «تصرفات لا أخلاقية» وتحطيم الدمى البلاستيكية التي تُعرَض، بلا رأس : آخر صرعات الموضة في واجهات المتاجر. ومنع استيراد الدمى استجابة لانتقادات الدوائر الدينية. وفي حين أن الكثير من المراقبين كانوا يتوقعون توسيع الحريات في عهد فهد الذي اعتُبر ملكاً تقدمياً، فإن الضائقة الاقتصادية لم تكن كافية لتخفيف القيود المفروضة على المراة أو زيادة دورها في الاقتصاد. وقد جرى السكوت على سيدات الأعمال اللواتي حققن نجاحاً باهراً ولكنهن واصلن الاعتماد على أقاربهن في كل تعاملاتهن مع الأجهزة الإدارية الرسمية. وبقيت بعض الاستثمارات النسائية تعمل وسط إحباط وخوف من تعرضها ذات يوم للإغلاق.

كان سكان المدن حديثو التحضر هم الذي شعروا بوطأة الفرص المحدودة، وارتفاع تكاليف المعيشة. وأخذ الشباب من السعوديين المتعلمين الذي ليست لهم صلات وثيقة بالشبكات

---

(١) انظر التركي ١٩٨٦ عن نساء النخبة في جدة في الثمانينيات.

المَلَكية أو الجهاز الإداري، يدركون أن العمل بعد التخرج من الجامعة ليس أمراً مفروغاً منه. واكتشف بعض السعوديين الشباب أن الشهادات الجامعية في الفروع الإنسانية ومن الجامعات الدينية لا تعدهم للعمل في الصناعات البترولية أو الخدمات ذات التخصص العالي. وبدأ الانقسام بين الذين كان تحصيلهم في معاهد التعليم العالي المحلية والذين عادوا بشهادات من جامعات أجنبية، يشكل مصدر سخط واستياء. فالسعوديون المتعلمون محلياً كانوا يُوجَّهون نحو وظائف ذات درجات متدنية في الخدمة المدنية برواتب متواضعة[١]، أما العائدون من جامعات أميركية وأوروبية فاكتسبوا فيها مهارات تقنية ولغوية، فكان الأرجح أن يتولوا وظائف ذات رواتب عالية في وزارات هامة.

في الثمانينيات، بدأ سكان نجد الذين تلكأوا وراء سكان الحجاز في التعليم والمعارف، يلحقون بالركب. وفي حين أن النخبة التجارية الحجازية كانت في السبعينيات أول من اغتنم الفرص الاقتصادية الجديدة برعاية الملك فيصل، فإن النجديين المتعلمين حديثاً أخذوا يطالبون بفرص أوسع في عهد فهد. وفي عام ١٩٨٦ أعفي وزير النفط الحجازي، محمد زكي يماني، من منصبه بعد سنوات عديدة من الخدمة ليقرع عزله نواقيس الإنذار بين النخبة الحجازية التي اعتادت أن تكون لها علاقات وثيقة مع الحكومة بفضل خبراتها الثمينة يوم كانت البلاد ذات موارد بشرية محدودة[٢]. وكان التشغيل في الوزارات المختلفة يعكس التحول نحو أيد عاملة من نجد، المنطقة التي، تاريخياً، كانت أوثق ارتباطاً بقيام حكم آل سعود من أي منطقة أخرى في البلاد. وتسببت الموارد المتناقصة في احتدام المنافسة بين مجموعات في المجتمع السعودي للفوز بعقود وعمولات وعطايا حكومية أخرى.

شهدت الثمانينيات بداية انقسامات اجتماعية واقتصادية حادة، إذ كانت النخبة الثرية تتألف من دائرة محكمة من أفراد الأسرة الملكية ونبلاء القبائل وطبقة من السعوديين المتعلمين الناجحين تجارياً. وكان عموم السكان المتزايدين عدداً، معوقين، برغم ارتفاع مستوياتهم التعليمية، بإمكانيتهم المحدودة في الوصول إلى الدوائر النافذة نتيجة الأصول المحلية أو انعدام

---

(١) عن الموظفين السعوديين في الخدمة المدنية ، انظر هيلر وسفران Heller and Safran ١٩٨٥ .

(٢) عن يماني وآل سعود، انظر القحطاني ١٩٨٨ .

الارتباطات الأسرية أو التهميش الاجتماعي. وكان البدو المتمدنون حديثاً وفلاحو الواحات التقليديون ينتمون إلى هذه الفئة من السعوديين المهمشين سياسياً واقتصاديا. وساهم ارتفاع مستوى التعليم بين هذه الشرائح وتطلعاتها في تعميق وعيها بموقعها المستضعف. وكانت هذه الفئة الأشد تأثراً بوطأة الأزمة الاقتصادية.

لم يكن من المستغرَب أن يستجيب بعض السعوديين الشباب من هذه الفئة للخطباء الداعين إلى شجب الغرب والنزعة المادية والفساد والنزعة الاستهلاكية. وكانت منظمات دينية غير حكومية بدأت تنتشر في أواخر الثمانينيات. وأخذت خطابية إسلامية قوية تروج العودة إلى الأصالة الإسلامية، تجتذب أشخاصاً باتوا مُحبطَين بالتحديث المبتور واللامساواة وفساد الحكم والعلاقات الوثيقة مع الغرب الذي بدأ يُشخص على نحو متزايد بوصفه مصدر الشرور الاجتماعية والاقتصادية. وبالإضافة إلى الغرب، حملت قطاعات من المجتمع السعودي نفسه مسؤولية المشاكل الاجتماعية التي نشأت في ذلك الوقت مثل تعاطي المخدرات والإدمان على الكحول، وهي أمراض اجتماعية لم تُقَر علناً قط في السابق. وبدأ يُشار إلى أفراد النخبة ذوي التعليم الغربي على أنهم ليبراليون/ علمانيون اعتبروا مسيطرين في الإعلام ومناصب حكومية حساسة. وأخذ كتاب ومثقفون سعوديون معروفون يتناولون العلاقة بين الإسلام والتحديث على صفحات الجرائد السعودية. وتضمنت كتابات الشيخ عواد القرني وسعيد الغامدي تهجمات ضد من يسمون ليبراليين اتهموا بإضعاف الأساس الإسلامي للعربية السعودية (الصفدي، غفل من التاريخ: ٧٨؛ فندي ١٩٩٩: ٤٨). وكانت لمثل هذه المناظرات شعبيتها بين الكثير من السعوديين الذين رأوا في الإسلام حلا لمشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية المتزايدة. وبينما كان تأكل نمط الحياة التقليدي يتسارع، انطلقت نقاشات ساخنة حول مستقبل البلاد وتراثها الإسلامي وعلاقاتها مع الغرب في الصحافة والمساجد والندوات والمجالس الخاصة.

في أواخر الثمانينات، ظهر انقسام أوضح بين أنصار العودة إلى التقاليد والأصالة وتطبيق القيم والأخلاق الإسلامية تطبيقاً أشد صرامة من جهة، وبين الطامحين إلى قدر أكبر من الحريات والانفتاح على العالم الخارجي والانغماس في الحداثة من الجهة الثانية. ولم يكن من النادر أن تجد أفراد العائلة السعودية الواحدة منقسمين بين هذين المعسكرين. وكان القريب يُسمى «مطاوعاً» إذا احتضن خطابية الجماعات الإسلامية الجديدة وخطابها. وكان يُعرَف من وعظه

المستمر بين أفراد العائلة واستماعه إلى أشرطة كاسيت دينية ودأبه على شجب الثقافة والموسيقى والسلع الترفية الغربية وفرضه قواعد أخلاقية صارمة بين النساء من أهله. وشهدت الحقبة ظهور جيل جديد من المتعلمين والمجتهدين الذين عينوا أنفسهم «مطاوعة». وكان هؤلاء يتعايشون مع أفراد من عائلاتهم أقل محافظة، منسجمين مع نمط حياة مسترخ وتدين شخصي لا يطالب بالتدخل في حياة الآخرين. كان التسامح والتوتر يمضيان متساوقين داخل العائلات. وكان بعض أفراد الجيل الأقدم الذين أفادوا من الانتعاش النفطي في السبعينيات ينظرون بحيرة إلى النزعة الراديكالية التي استبدت بأطفالهم في الثمانينيات. وفي حين أن هذا الجيل الأكبر لم يشكك ذات يوم في تدينه، فإنه لم يكن يتوقع هذا التطور.

العربية السعودية والسياق الخليجي في الثمانينيات

تزامنت هذه الخلفية من انعدام الآفاق الاجتماعية والاقتصادية الواضحة مع استمرار انخراط العربية السعودية في السياسة العربية الإقليمية. فانضمت على مضض إلى الجهود العربية لعزل مصر بعد توقيع «اتفاقية كامب ديفيد» للسلام مع إسرائيل في عام ١٩٧٨. وأيدت العربية السعودية مع دول عربية أخرى طرد مصر من الجامعة العربية، وقطعت علاقاتها الدبلوماسية والاقتصادية معها. ولكن العربية السعودية لم تكن مستعدة للمضي إلى حد طرد العمال الوافدين المصريين أو وقف الرحلات الجوية (لونغ ١٩٨٥: ١٢١). وبعد عامين على «اتفاقية كامب ديفيد» طغت تطورات أشد إلحاحاً على النزاع العربي ـ الإسرائيلي وعملية السلام في الشرق الأوسط. وبقدر تعلق الأمر بالعربية السعودية فإن النزاع في منطقة الخليج كان الآن أشد خطراً.

كانت مشاغل العربية السعودية الكبرى إبان الثمانينيات، تنصب في منطقة جغرافية أقرب إلى حدودها وأكثر حيوية لمصالحها. ونظرت العربية السعودية إلى تطورين متعاقبين في الخليج على أنهما يشكلان تهديداً لأمنها، هما الثورة الإيرانية (١٩٧٩) والحرب الإيرانية ـ العراقية (١٩٨٠). ونحّى هذان الحدثان النزاعات العربية ـ الإسرائيلية السابقة إلى مرتبة ثانوية من حيث الأهمية. ونشأ تهديد ثالث، بعيد نسبياً لكنه كان مبعث قلق للعربية السعودية، تمثل في الغزو السوفياتي لأفغانستان في عام ١٩٧٩.

وإذ كانت مصر مهمشة مؤقتاً وسطحياً في العالم العربي بعد «اتفاقية كامب ديفيد» فقد سنحت فرصة مؤاتية لتحقيق مطامح سعودية في الزعامة. وتوفرت فرصة أخرى بسقوط شاه

إيران، الذي اعتبرته الولايات المتحدة لفترة طويلة الزعيم الأنسب للقيام بدور الشرطي في الخليج وإبعاد السوفيات عن هذه المنطقة الاستراتيجية ولجم الأنظمة الثورية فيها. وفي الوقت الذي صدمت فيه العربية السعودية بسرعة رحيل الشاه الذي أقامت معه علاقات ودية لكنها متوترة، فإن مخاوفها من إيران ازدادت حدة بقيام نظام حكم إسلامي. وكانت جمهورية إيران الإسلامية تميزت عن النظام السابق باعتماد خطابية معادية للغرب ومهاجمة الدول الإسلامية المتحالفة معه، ومنها العربية السعودية. يضاف إلى ذلك أن إيران كانت تهدف إلى تصدير نموذجها للحكم الإسلامي وتجربتها الثورية إلى بلدان أخرى، وخاصة البلدان التي فيها أقليات شيعية كبيرة[1]. واستهدفت الدعاية الرسمية الإيرانية عدة دول خليجية (لا سيما الكويت والبحرين والعربية السعودية).

كانت الخطابية المعادية للسعودية من جانب النظام الإسلامي في إيران؛ المفجر للتحركات الشيعية في المنطقة الشرقية، جزءاً من التأثير العالمي للثورة الإيرانية. وأقنعت هذه الخطابية الحكومة السعودية بأن إيران ذات قيادة إسلامية تمثل تهديداً خطيراً لأمنها الداخلي. وجاء موسم الحج بألوف الحجاج الإيرانيين الذين اغتنموا هذه المناسبة لتنظيم تظاهرات وترديد شعارات معادية لأميركا شاجبين الحكام المسلمين الذين يتعاونون مع الغرب عموماً والولايات المتحدة بصفة خاصة. وباتت الاشتباكات مع قوات الشرطة والأمن السعودية خلال موسم الحج حوادث سنوية منتظمة طوال عقد الثمانينيات. واندلع اشتباك واسع في عام ١٩٨٥ عندما قتل أكثر من ٤٠٠ شخص بينهم ٢٧٥ إيرانياً (فاسيلييف ١٩٩٨: ٤٧١). وألهب هذا الحادث الخطابية العدائية من جانب القيادة الإيرانية التي قررت مقاطعة مواسم الحج في المستقبل رداً على الحصة القليلة التي حددها السعوديون لعدد حجاجها. وكانت العربية السعودية طبقت نظام الحصص لخفض عدد الحجاج الإيرانيين إلى مستوى تستطيع الشرطة السعودية احتواءه بسهولة من جهة، وكاستراتيجية للتعامل مع العدد المتعاظم من الحجاج المسلمين من الجهة الثانية. واتهمت العربية السعودية إيران باستخدام الحجاج لأغراضها الدعائية. وبقيت العلاقات بين إيران والسعودية حول قضايا الحج علاقات عدائية طوال الثمانينيات[2].

---

(١) عن الأصداء العالمية للثورة الإيرانية، انظر إيسبوسيتو Esposito ١٩٩٠.

(٢) عن قضايا الحج، انظر ليفيريير Leverrier ١٩٩٦.

كانت الحرب الإيرانية ـ العراقية (١٩٨٠ ـ ١٩٨٨) تهديداً خطيراً آخر للعربية السعودية التي نظرت إلى النظام البعثي في العراق والجمهورية الإسلامية في إيران على أنهما خطران يهددان أمنها. يضاف إلى ذلك أن الاثنين اعتبرا أنهما يقومان بدور قيادي هام في المنطقة[١]. وكانت لدى الاثنين مطالب توسعية إقليمية قريبة جغرافياً من العربية السعودية. فالعراق كانت لديه أطماعه القديمة في الكويت بينما كانت إيران تنظر باتجاه البحرين، عدا عن النزاعات الحدودية بين البلدين في منطقة شط العرب. ونظرت العربية السعودية إلى إيران والعراق على أنهما قوتان إقليميتان متزاحمتان، وكذلك خطر كامن على أمنها الداخلي نفسه. ولم تَرُقُ خطابية صدام حسين في القومية العربية للعربية السعودية لأن هذه الخطابية كانت تنتقص من شرعية النظام السعودي. وبالقدر نفسه، كانت الجمهورية الإسلامية في إيران تفضح تحالف العربية السعودية الوثيق مع الولايات المتحدة وتدعو المسلمين بصراحة إلى شجب قيادتها[٢].

ولكن العربية السعودية كانت تفضل دعم العراق البعثي لأنها اعتبرت إيران خطراً أفدح في الثمانينيات نظراً إلى انتقاداتها السافرة ضد ما تعده أنظمة مسلمة محافظة والتزامها بتصدير خبرتها في بناء جمهورية إسلامية إلى بلدان إسلامية أخرى. وكانت تحركات الشيعة السعوديين في عام ١٩٨٠ تذكر دائماً بالتهديد الجديد، لا في العربية السعودية وحدها بل في دول خليجية أخرى لديها أعداد كبيرة من الشيعة وتحديداً الكويت والبحرين. ولم تكن العربية السعودية مشاركة بصورة مباشرة في العمليات العسكرية خلال الحرب الإيرانية ـ العراقية ولكنها قدمت مع دول خليجية أخرى دعماً مالياً هائلاً للعراق. وبلغت المساعدات المالية السعودية للعراق ٢٥,٧ بليون دولار بحسب الملك فهد. وكانت هذه تتألف من مساعدات تجمع بين الهبات والقروض الميسرة والمعدات العسكرية ووسائل النقل والمنتجات الصناعية والمعونات النفطية والقروض التنموية (كيشيشيان Kechichian ١٩٩٣: ٩). وأثارت ديون العراق للعربية

---

(١) بعد «اتفاقية كامب ديفيد» ومقاطعة مصر، بدأ صدام حسين يفكر في القيام بدور الزعامة في العالم العربي.

(٢) على امتداد عقد الثمانينيات، واصل الحجاج الإيرانيون ترديد شعارات معادية لأميركا خلال موسم الحج. وكانت العربية السعودية مستهدفة خلال هذه الأحداث.

السعودية والدول الخليجية الأخرى استياء في العراق متسببة في إشعال نزاع كبير عندما أقدم صدام حسين على غزو الكويت في عام ١٩٩٠ بعد عامين على انتهاء الحرب الإيرانية ـ العراقية (تُناقَش في الفصل التالي: السادس).

وفي محاولة لحشد دول الخليج العربية الأخرى من أجل التفكير في سياسة أمنية مشتركة وقضايا أخرى ذات اهتمام متبادل (مثل التعليم والتعاون الاقتصادي)، كانت العربية السعودية إحدى الدول المُبادِرة إلى تأسيس مجلس التعاون الخليجي في أيار/ مايو ١٩٨١. وبالإضافة إلى العربية السعودية، ضم المجلس كلّاً من الكويت والبحرين وقطر والإمارات العربية المتحدة وعُمان[1]. وفي حين أن التعاون حول القضايا الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية، من بين مسائل أخرى، كان الدافع وراء تأسيس مجلس التعاون الخليجي، فإن أمن دول الخليج العربية والتنسيق العسكري بين أعضائه كانا الشاغلين الرئيسيين للدول المؤسسة. وأصبح هذا الأمن قضية ملحة على الأخص بعد الثورة الإيرانية واندلاع الحرب الإيرانية ـ العراقية. وفي الثمانينيات، تركزت أولويات مجلس التعاون الخليجي على التعاون الإقليمي وإنتاج سياسة عدم انحياز والتضامن الإسلامي وإبقاء الوجود العسكري الأجنبي خارج الخليج (برون Braun ١٩٨٨: ٢٢٥)[2].

كانت دول مجلس التعاون الخليجي تشدد في كل بياناتها العامة المشتركة على التناغم والتعاون والتعاضد مبتعدة عن أفكار «الوحدة أو الاندماج أو التكامل البنيوي» (أنتوني Anthony ١٩٨٤: ٨٤). وينص ميثاق مجلس التعاون الخليجي على أن للمجلس ثلاثة أهداف.

أولاً، رغبة الدول الست الأعضاء في تعزيز أواصرها المشتركة من خلال التنسيق والتعاون والتكامل.

---

(١) استبعدت دول مجلس التعاون الخليجي العراق واليمن من عضوية المجلس لأسباب بديهية. لمزيد من التفاصيل عن قضايا العضوية، انظر بيترسن Peterson ١٩٨٨.

(٢) باستثناء عُمان والبحرين لم تكن لأي من دول مجلس التعاون الخليجي اتفاقيات عسكرية خاصة تمنح تسهيلات في شكل قواعد جوية للولايات المتحدة. وعارضت الكويت في الثمانينيات تقديم أي تنازلات تؤدي إلى تمركز قوات أميركية في منطقة الخليج. لمزيد من التفاصيل انظر ماكدونالد McDonald ١٩٨٤: ١٠٥.

ثانياً، إقامة هذا التعاون في الإطار الأوسع للمصالح العربية والإسلامية، مع التأكيد على ان هذا النظام لا يراد به استبدال هذه المصالح وإنما تعزيزها.

ثالثاً، يدعو الميثاق إلى التعاون في المجالات كافة. ويؤكد هذا الموقف البرغماتية الكامنة في أساس برنامج المجلس منذ ولادته (بيترسن Peterson ١٩٨٨ : ١٠٦).

الأكثر من ذلك، أن الحكومات الست، تفادياً للانتقادات العربية، ابتعدت عن كل خطابية يُستدل منها أن المجلس خطوة نحو إقامة تحالف أمني (برون ١٩٨٨). كما حرص أعضاء المجلس على ألا يبدوا وكأنهم يضعفون الجامعة العربية. ويذهب أنصار مجلس التعاون الخليجي إلا أن ميلاده كان «النتيجة المنطقية لعقد من التحرك الرامي إلى فرض قدر من النظام على عشرات الاتفاقيات والتفاهمات الثنائية والمتعددة الأطراف بين هذه الدول» (أنتوني ١٩٨٤ : ٨٧).

في مجال التعاون العسكري بحثت العربية السعودية مع دول المجلس الأخرى اعتماد استراتيجية دفاع جوي موحدة. وكان العنصر المركزي في هذا المشروع منظومة الإنذار والمراقبة المحمولة جواً (أواكس) التي أقيمت على الساحل الشرقي من العربية السعودية (برون ١٩٨٨ : ٢٥٦). ولكن دول المجلس رفضت مقترحاً لتوحيد التسليح. وأعلن وزير الدفاع السعودي في عام ١٩٨٢ أن توحيد التسليح غير محبذ وخاصة بسبب ما يعنيه من اعتماد مشترك على مصدر تسليح واحد في توريد السلاح وقطع الغيار في حال نشوب أزمة (المصدر السابق : ٢٥٧). واختارت دول مجلس التعاون الخليجي تشكيل قوة انتشار سريع تسمى الآن «درع الجزيرة»، وهي قوة صغيرة تضم وحدات من الدول الست جميعاً تتمركز في مدينة الملك خالد العسكرية شمال شرقي العربية السعودية. كانت هذه القوة في البداية بقيادة سعودية (المصدر السابق : ٢٥٨)، بسبب أن القدرات العسكرية التي تملكها العربية السعودية تفوق قدرات الأعضاء المؤسسين الآخرين للمجلس. ونظرت الدول الصغيرة على الأخص إلى المجلس على أنه أداة لبسط الهيمنة السعودية على المنطقة. وفي حين أن مثل هذه الانتقادات لم تظهر في المجال العام، فإنها كثيراً ما كان تتبدى على مستوى القواعد. وكان واضحاً من البداية أن مجلس التعاون الخليجي لن تكتب له حياة سياسية أو عسكرية من دون العربية السعودية بوصفها الدولة العضوة الوحيدة التي لديها قدرات عسكرية حديثة بما فيه الكفاية لإقامة نظام دفاع جوي متكامل على مستوى مجلس التعاوني الخليجي (حميد ١٩٨٦ : ٩٦)، فضلاً عن حضورها

السياسي ونفوذها الاقتصادي اللذين كانا دالة لسيطرتها على الحرمين واحتياطاتها البترولية الضخمة.

أصبح أمن العربية السعودية هاجساً ملحاً بصورة متزايدة في منتصف الثمانينيات. فالعربية السعودية كانت بعيدة جغرافياً عن مسرح القتال بين إيران والعراق، ولكن العمليات العسكرية في مياه الخليج كانت تهدد أمن حقولها النفطية. وفي عام ١٩٨٤ ضربت الصواريخ الإيرانية سفن شحن وناقلات كويتية وسعودية خارج منطقة العمليات عندما كانت في طريقها إلى موانئ سعودية وكويتية أو منطلقة منها (برون ١٩٨٨: ٢٦٩). وقد امتنعت العربية السعودية عن الرد العسكري، واكتفت بدلاً من ذلك بأن زادت مساهمتها المالية في المجهود الحربي العراقي، وهو إجراء ألقي عبئاً إضافياً على عائداتها المتناقصة في أواخر الثمانينيات. وعندما انتهت الحرب الإيرانية ـ العراقية في آب/ أغسطس ١٩٨٨ شعرت العربية السعودية بالارتياح لرؤية إيران وقد اعتراها الضعف، ولكنها أخذت تنظر بتوجس متزايد إلى النظام العراقي. وبرغم الخطابية الانتصارية فإن العراق خرج من الحرب مثقلاً بديون ضخمة واقتصاد مستنزَف. وتابعت العربية السعودية بارتياب دعاوى صدام حسين بزعامة العالم العربي.

بالإضافة إلى زعزعة الاستقرار الإقليمي نتيجة الحرب الإيرانية ـ العراقية، أرسل الغزو السوفياتي لأفغانستان في عام ١٩٧٩ وتدعيم الحكم الشيوعي، إشارات إنذار إلى العربية السعودية التي دائماً اعتبرت الاتحاد السوفياتي والشيوعية عدوَي الإسلام وخطراً على أمنها. وأكد غزو قوة عظمى شيوعية لبلد مسلم مخاوفَ العربية السعودية التي ردت بتقديم دعم مالي لـ«المجاهدين الأفغان» وسمحت لمواطنيها بالانضمام إلى معسكرات تدريبهم في باكستان كمتطوعين وأنصار.

ولكن دعم العربية السعودية للمقاومة الأفغانية أصبح إشكالياً عندما عاد المتطوعون السعوديون إلى الوطن بعد رحيل السوفيات عن أفغانستان في عام ١٩٨٩، حيث وجه العديد من هؤلاء الناشطين اهتمامهم نحو حكومتهم نفسها. وعمل تدريبهم العسكري وتثقيفهم مع المقاومة الأفغانية على تهيئتهم للانخراط في السياسة الإسلامية لدى عودتهم، وكانوا أقاموا شبكات وصداقات وثيقة بقيت موضع اعتزاز بعد انتهاء الحرب. وهذه الشبكات، مقترنة

بانعدام فرص العمل، فاقمت استياء من يسمون «الأفغان السعوديين» الذين كانوا يتوقعون أن يلقوا ما يستحقونه من احترام لدى عودتهم إلى البلد تقديراً لجهودهم.

العلاقات السعودية ـ الأميركية في الثمانينيات

أضعف سقوط الشاه السريع وتخلف الولايات المتحدة عن إنقاذ حليفها الوثيق مصداقية الولايات المتحدة. وبدأت العربية السعودية تعتبر أن أميركا غير مستعدة لإنقاذ أصدقائها الحميمين أو أنها عاجزة عن إنقاذهم. وتساءلت القيادة السعودية إن كانت الولايات المتحدة ستعامل النظام السعودي معاملة مماثلة في ظروف مشابهة (لونغ ١٩٨٥ : ١٢٣). كما تضررت مصداقية الولايات المتحدة بالغزو السوفياتي لأفغانستان، الذي أحيا خطر الشيوعية. وأثار هذا الغزو مخاوف في واشنطن من تحرك سوفياتي محتمل في الخليج، خاصة إذا لم تكن هناك قوات تقليدية للوقوف بوجه مثل هذا التحرك. وظهرت المخاوف نفسها في العربية السعودية. وفي كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٩ شكلت الولايات المتحدة «قوات الانتشار السريع» تحسباً لمثل هذا السيناريو بينما قامت العربية السعودية بتكثيف اتصالاتها الوثيقة مع واشنطن في بحث مستميت عن التزامات لحماية حقولها النفطية[1].

أرسلت إدارة الرئيس الأميركي جيمي كارتر إشارات حازمة بأنه في حال وقوع تجاوز سوفياتي «ستُستخدَم القوات العسكرية الأميركية للسيطرة على منطقة الخليج، وأن أي اعتداء على الخليج سيُعَدُّ اعتداءً على المصالح الحيوية للولايات المتحدة». وأصبح هذا يُعرف بأنه «مبدأ كارتر» (ماكدونالد Mc Donald ١٩٨٤ : ١٠٠ ـ ١٠١).

كانت العربية السعودية، دائماً، تريد حماية عسكرية أميركية، ولكن عندما قُدم لها هذا العرض في أوائل الثمانينيات رفضت السماح لقوات قتالية أميركية بالمرابطة في أراضيها، إذ اعتبر أن ذلك منم الخطورة بحيث لا يمكن القبول به (غرايسون ١٩٨٢ : ١٤٢). وفي نيسان/

---

(١) كانت قوة الانتشار السريع الأميركية تتألف في البداية من ثلاثة ألوية من مشاة البحرية (المارينز) يضم كل منها ٥٥٠٠ رجل، كان من المقرر أن تكون جاهزة بحلول عام ١٩٨٣. وارتبطت هذه القوة بالدعم الأميركي «من وراء الأفق»، ولكنها كانت مع ذلك تحتاج إلى تسهيلات جوية وبحرية. لمزيد من التفاصيل انظر ماكدونالد ١٩٨٤.

أبريل ١٩٨٠ قال وزير الخارجية الأمير سعود الفيصل إن إقامة قواعد عسكرية أميركية ليس من شأنه إلا تهديد البلد المضيف (المصدر السابق). ولكن تردد أن العربية السعودية دعمت إعلان «مبدأ كارتر» (ماكدونالد ١٩٨٤ : ١٠١).

اختبرت العربية السعودية استحقاقات ارتباطها بالولايات المتحدة من خلال السعي إلى مزيد من مشتريات السلاح متوجهة في الوقت نفسه نحو تنويع مصادره. وإزاء التهديد السوفياتي على الأعتاب، أضعف اندلاع الحرب الإيرانية ـ العراقية ما لدى العربية السعودية من قوة تساومية وخاصة في ما يتعلق بشراكتها مع الولايات المتحدة. وبعثت بطلب عاجل إلى واشنطن أن ترسل أربع طائرات أواكس في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٠ لمساعدة الدفاعات الجوية السعودية ضد هجوم إيراني محتمل. وكان بيع طائرات الأواكس للعربية السعودية في عام ١٩٨٢ محاولة لاستعادة مصداقية الولايات المتحدة كشريك أمني يمكن التعويل عليه، واستعادة ثقة السعوديين بالتزام الولايات المتحدة بالأمن الإقليمي في الخليج (كوردسمان ١٩٨٤ : ٢٦٩ـ ٢٩٩ ؛ لونغ ١٩٨٥ : ٦٣).

في الثمانينيات، أخذت العربية السعودية تصبح بصورة متزايدة شريكاً للولايات المتحدة التي كانت المملكة تعتمد عليها للتزود بكميات ضخمة من السلاح ولتحقيق التنمية الاقتصادية، وفي المقام الأول ضمان الأمن. واعتبرت صفقة الأواكس ضرورية لحماية حقول النفط السعودية ضد إيران والبلدان التي كان للاتحاد السوفياتي وجود عسكري فيها (مثل اليمن الجنوبي). وفي عهد إدارة ريغان، صور الاتحاد السوفياتي على أنه الخطر الرئيسي في منطقة الخليج. وتحرك ريغان لتحسين مصداقية أميركا بإعلان التزام قوي بحماية الحكومات الصديقة ومنها العربية السعودية[١].

كانت مواطن انكشاف العربية السعودية في الثمانينيات وراء محاولات فهد (أولاً بصفته ولي العهد ثم الملك) لتعزيز العلاقات مع الولايات المتحدة خلال إدارة ريغان: «سعى فهد أكثر من أي حاكم سعودي آخر إلى إقامة علاقة خاصة مع الولايات المتحدة، وكان القوة المحركة

(١) كانت سياسة ريغان الجديدة معروفة بسعيها إلى تحقيق «اتفاق استراتيجي» يؤكد الشراكة مع الحكومات الصديقة. انظر ماكدونالد ١٩٨٤ : ١٠٢.

لتمتين العلاقات العسكرية والسياسية والاقتصادية» (لونغ ١٩٨٥ : ١١٩). وفي مواجهة انعدام الاستقرار في الخليج نتيجة الإطاحة بالشاه واندلاع الحرب الإيرانية ـ العراقية، سعت العربية السعودية إلى دعم الولايات المتحدة لحمايتها ضد ما كانت تعتبره تهديداً من النظام الإسلامي في طهران وتهديداً محتملاً من الاتحاد السوفياتي. ولكن إزاء الأجواء السياسية في منطقة الخليج التي غلبت عليها خطابية إسلامية ثورية صادرة عن إيران بأصداء مثيرة للقلق في العربية السعودية والخليج، بدت الشراكة السعودية ـ الأميركية أكثر توتراً وإشكالية من أي وقت مضى. وبانتهاء الثمانينيات، شعر النظام السعودي بعداء قطاعات واسعة من المجتمع انتقدت ارتباطه الوثيق بالولايات المتحدة. وأطلقت إشارات الإنذار المبكر خلال حصار المسجد في عام ١٩٧٩. وعلى امتداد الثمانينيات، لم يكن لدى العربية السعودية من خيار سوى انتهاج سياسة تقوم على «توازن المخاطر» والسير في أقل الطرق خطراً. وطلبت البلاد مساعدات عسكرية كبيرة من الولايات المتحدة ولكنها استمرت في تصوير نفسها بلداً إسلامياً غير منحاز يقاوم محاولات الولايات المتحدة إقامة قواعد جوية عسكرية على أرضه. كانت العربية السعودية تتوهم أن هذه المقاومة ستخفي علاقتها الحميمة مع الولايات المتحدة التي تطورت منذ الحرب العالمية الثانية، وكانت المعدات العسكرية الأميركية والمستشارون العسكريون الأميركيون مصدر تذكير دائم باعتماد البلاد على الولايات المتحدة في أمنها وإحساسها العميق بالانكشاف على تهديد داخلي وخارجي.

كانت العربية السعودية تفضل ما أصبح معروفاً بأنه دعم عسكري أميركي من «وراء الأفق»، يكون رادعاً ضد زعزعة الاستقرار (برون ١٩٨٨ ؛ لونغ ١٩٨٥). وكانت إدارة ريغان تصر على حياد الولايات المتحدة خلال الحرب الإيرانية ـ العراقية، ولكنها وجدت نفسها منجرة إلى تخطيط استراتيجيات أمنية لمنطقة الخليج. وأعلنت الولايات المتحدة أنها لن تدخل في مواجهة عسكرية في الخليج من دون دعوة صريحة وتأكيد بوضع حقوق إنزال وتسهيلات أخرى تحت تصرفها (برون ١٩٨٨ : ٢٦٠)، ولكن العربية السعودية ظلت تمانع عندما كان الأمر يتعلق بمنح تسهيلات قواعد جوية عسكرية للولايات المتحدة، إذ كان من شأن هذا أن يستثير مزيداً من الانتقادات من إيران وبلدان إسلامية أخرى. كان السعوديون ضد التدخل الخارجي في

الخليج إلا في حال الضرورة القصوى، ولكن الثمن السياسي للأسلحة الأميركية كان باهظاً، حتى وإن أبقى الأميركيون وجودهم الظاهر في حدوده الدنيا (ماكدونالد ١٩٨٤: ١٠٩).

بحلول عام ١٩٩٠، لم يعد بإمكان الأميركيين أن يبقوا «متوارين عن الأنظار» في العربية السعودية. كان غزو العراق للكويت في آب/ أغسطس ١٩٩٠ قد غير الوضع تغييراً دراميأ حين لم تعد العربية السعودية قادرة على إخفاء اعتمادها على الولايات المتحدة لحماية أمنها، واضطرت إلى دعوة القوات الأميركية للدفاع عن أراضيها، وهو قرار بدد خرافة عدم انحياز السعودية وسياستها الإسلامية واعتمادَها على نفسها.

الفصل السادس

حرب الخليج الثانية وآثارها: ١٩٩٠ ـ ٢٠٠٠

واجهت الحكومة السعودية تحديين كبيرين في عقد التسعينيات: أثبت غزو صدام حسين للكويت في ٢ آب/ أغسطس ١٩٩٠ كونه إشكالياً لا للكويتيين وحدهم بل وجيرانهم السعوديين أيضاً[١]. وكانت الحرب حدثاً لا سابق له من ناحية أن العربية السعودية، لأول مرة، شعرت بأن خطراً داهماً يهددها بغزو دولة عربية مجاورة لها (الرشيد ١٩٩٦: ٣٦١). وبرغم أن «ضم» العراقيين للعربية السعودية كان مستبعداً للغاية، فلم يكن بمقدور الحكومة السعودية والولايات المتحدة أن تسقطا من الحساب احتمال وقوع عمل عسكري قرب حقول النفط الحيوية في المنطقة الشرقية. وأصبح تحرير الكويت أولوية للسعوديين لا لإعادة الأسرة الحاكمة الكويتية من منفاها إلى الحكم فحسب، بل لإبعاد الجيش العراقي عن حدودهم المباشرة أيضاً. وتحولت العربية السعودية إلى الأرض التي انطلق منها تحرير الكويت. وكان هذا التحرير يعتمد على معونة القوات الأميركية تحت مظلة ائتلاف متعدد الجنسيات. كان هذا التطور الهام وراء المشكلة الثانية التي واجهت الملك فهداً وهي تنامي قوة المعارضة الإسلامية فور انتهاء حرب الخليج. وكانت أسباب المعارضة الإسلامية تعود إلى زمن أبعد من حرب الخليج، ولكن الحرب نفسها كانت عاملاً مساعداً استخدمته المعارضة للتعبير عن استيائها العام من الحكومة بشأن قضايا هامة.

في السبعينيات والثمانينيات كانت العربية السعودية تُنفق من ١٤ إلى ٢٤ بليون دولار سنوياً على الدفاع (كوردسمان ١٩٩٧: ١٠٥)، وبلغ هذا الإنفاق ٣٦ في المئة من الميزانية عام ١٩٨٨ و٢٠ في المئة من إجمالي الناتج المحلي طوال عقد الثمانينيات. وبلغت واردات السلاح ما قيمته ٥٢,٤ بليون دولار خلال الفترة الواقعة بين ١٩٨٥ و١٩٩٢ (المصدر السابق: ١٠٧). وقدر تعداد القوات المسلحة السعودية بنحو ١٦٢,٥٠٠ رجل من ضمنها القوات النظامية

---

(١) أنظر كوردسمان Cordesman ١٩٩٧.

والحرس الوطني[1]. ولكن هذه لم تكن تضاهي جيش صدام (المصدر نفسه: ٩٨). وبات واضحاً فور احتلال الكويت، أن العربية السعودية لا تستطيع أن تواجه القوات العراقية بمفردها برغم إنفاق البلاد الضخم على التسلح. وفي غضون أيام، نصح الملك فهد بأن يطلب حماية الولايات المتحدة. وسارعت واشنطن إلى إرسال قوات جوية وقوات بحرية إضافية إلى العربية السعودية ومنطقة الخليج، ووصل أكثر من ٥٠٠ ألف جندي أميركي في ما بعد.

اثارت حرب الخليج أزمة تتعلق بالشرعية داخل الفئة السعودية الحاكمة. فلقد أدت الحرب، في المقام الأول، إلى وضع حق الحكومة في الحكم موضع تساؤل جدي بعدما أساءت إدارة الاقتصاد وأسرفت في الإنفاق على منظومة دفاعية غير فاعلة. ولم يكن بالإمكان الثقة بقوات الدفاع السعودية خلال أزمة الخليج لأن العربية السعودية ما كان بمقدورها الوقوف بوجه العراق في أي حال من الأحوال.

كان أحد القرارات الكبرى التي تعين على الحكومة السعودية أن تتخذها بعد احتلال الكويت، يتعلق بكيفية تبرير «دعوة» قوات أجنبية للدفاع عن الأراضي السعودية ضد غزو محتمل يقوم به صدام حسين. وفي ٩ آب/ أغسطس ١٩٩٠ أدان الملك فهد الغزو العراقي، وقال إن الوجود العسكري الأميركي في العربية السعودية إجراء ضروري ومؤقت، كما ناشد الدول العربية أن تمد يد العون (أبير ١٩٩٣: ١٧٤)، وكشفت دعوة قوات أجنبية تعليل جدوى الإنفاق العسكري واعتماد العربية السعودية على الولايات المتحدة. وشارك عدد صغير من القوات المصرية والسورية والمغربية في إطار القوة متعددة الجنسيات التي كانت تتألف بالدرجة الرئيسية من قوات أميركية تستكملها قوات بريطانية وفرنسية وإيطالية أصغر حجماً. أمهل صدام حسين حتى ١٧ كانون الثاني/ يناير ١٩٩١ لسحب قواته من الكويت، وفي غضون ذلك بدأت قوات التحالف تصل إلى العربية السعودية. وبينما كان المجتمع الدولي منهمكاً في إعداد بنود العقوبات الاقتصادية التي تفرض ضد العراق والحشد العسكري الأميركي يجري بخطى حثيثة في الخليج، كانت العربية السعودية مقبلة على فترة من النقاش المحتدم في أوساط الرأي العام. وشهد خريف ١٩٩٠ نقاشات لم يعهد لها نظير كانت في الماضي تقتصر على المجالس

---

(١) حول الدفاع والأمن في العربية السعودية إبان الثمانينيات، انظر سفران Safran ١٩٨٥.

الخاصة. كان الجدال يدور حول قضايا متعددة بعضها يرتبط ارتباطاً مباشراً بحرب الخليج، وبعضها الآخر يتعلق بأساس النظام السياسي السعودي ذاته وشرعية الفئة الحاكمة.

كان من أشد القضايا التهاباً وجود القوات الأميركية على أرض السعودية واعتماد العربية السعودية على الولايات المتحدة لضمان أمنها. وفي حين كان السعوديون يدركون علاقة بلدهم الحميمة بالولايات المتحدة، لم يكن كثيرون منهم يتوقعون وصول مثل هذه القوى البشرية العسكرية الهائلة. وبنظر العديد من السعوديين، كان هذا بمثابة امتهان سببه سوء تدبير الحكم. وفي الوقت الذي قبلت الغالبية الدعم العسكري الأميركي بوصفه استراتيجيا لازمة، فإن أقلية كبيرة عدته انتهاكاً للمبادئ الإسلامية. ولكن السعوديين لم يفكروا ذات يوم في الدفاع عن أنفسهم ضد أي شيء بحجم التهديد الذي كان يمثله صدام.

كانت أشد الانتقادات حدة ضد الحكومة حول هذه القضية، من صفوف علماء الدين الشباب. واستخدم خطباء المساجد مواعظهم بعد صلاة الجمعة لانتقاد قرار الحكومة دعوة الأميركيين «الكافرين» للدفاع عن أرض الإسلام. وتركز الجدال على مسائل متعددة: هل من المشروع للسعوديين أن يلجأوا إلى غير المسلمين لمقاتلة مسلمين؟ هل يمكن أن تُعتبر الحكومة التي تلجأ إلى مثل هذه الإجراءات حكومة إسلامية مشروعة؟

وفي أيلول/ سبتمبر ١٩٩٠، أنزل الدكتور صفر الحوالي، عميد الكلية الإسلامية في «جامعة أم القرى» في مكة، واحداً من أشرطته الأشد انتقاداً. وخلص تفسيره للأزمة السياسية إلى أن العدو الحقيقي ليس العراق بل الغرب. وتلى ذلك نشر كراسات وكتيبات تعلق على أزمة الخليج والعلاقات بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامي (الرشيد ١٩٩٧، فندي ١٩٩٩). ووجدت آراء الحوالي تعبيرها في رسالة إلى المرجع الديني الأعلى الشيخ عبد العزيز بن باز (توفي عام ١٩٩٩)؛ رئيس هيئة كبار العلماء وإدارة البحوث العلمية والإفتاء (الحوالي ١٩٩١). طلب الحوالي من ابن باز في هذه الرسالة أن يجيب عن عدة اسئلة. وكان أحد الأسئلة يتعلق بوجود قوات أجنبية على الأرض السعودية. كان تأويل الحوالي أن هذا التطور مظهر من مظاهر اعتماد السعودية، حكومة ومجتمعاً، بصورة متزايدة على الغرب. وذهب إلى أن حرب الخليج أكدت هذه التبعية وعمقتها بإقامة علاقات عسكرية أقوى مع الولايات المتحدة، وأن حرب الخليج وفرت الفرصة للهيمنة والتدخل الأجنبيين. وإذ كان واضحاً أن الحوالي لم يكن من

مؤيدي النظام العراقي، فإنه شكك مع ذلك في شرعية اللجوء إلى «شر أكبر من صدام هو الولايات المتحدة» لتحرير الكويت.

عالم إسلامي آخر هو سلمان العودة؛ عضو الهيئة التدريسية في «جامعة الإمام محمد بن سعود» في الرياض، برز بين حلقة صغيرة من الخطباء والعلماء الذين استخدموا خلفية حرب الخليج لإشاعة تذمرهم وتشديد انتقادهم للحكومة السعودية. وكانت خطب الحوالي بعد صلاة الجمعة ومحاضراته تُسجَّل ويجري تداولها في العربية السعودية خلال حرب الخليج لا سيما تلك التي تشجب الغرب وتدخله خلال الأزمة. وكان يطرح في خطبه نظاماً أخلاقياً إسلامياً تسوده أحكام الشريعة. واعترض العودة، مثله مثل الحوالي، على استخدام قوات غير مسلمة لمحاربة جيش صدام، وانتقد عدم كفاءة الحكم الذي أدى برأيه إلى تزايد الاعتماد على الغرب، وهو اعتماد ينال من وحدة المسلمين.

كان الحوالي والعودة من البارزين في الجدال داخل العربية السعودية حول الإسلام والحداثة والغرب. وأتاحت حرب الخليج فرصة لتغطية نشاطاتهما وأفكارهما تغطية أوسع بفضل توافد ١٥٠٠ صحافي ومراسل أجنبي حاولت الحكومة السعودية احتواءهم بلا جدوى (ولسن وغراهام Wilson and Graham ١٩٩٤ : ٦٣). لم تفعل حرب الخليج سوى تشديد ما كان يختمر أصلاً في المجتمع السعودي، وهو الاستقطاب المتزايد حول قضايا تتعلق بتحديث البلاد تحديثاً متسارعاً والعلاقات الوثيقة مع الغرب وتعارض هذه العلاقة المتينة مع الإسلام.

وبرغم الاستياء المتعاظم بين الإسلاميين، فإن حرب الخليج أشاعت جواً من «الانفتاح» شجع بعض السعوديين على التعبير عن تطلعاتهم إلى حريات وليبرالية أوسع [(١)]. وكانت تظاهرة النساء ضد منع المرأة من قيادة السيارة في الرياض تعبيراً عن الآمال الصاعدة لقطاع من المجتمع السعودي رأى في حرب الخليج فرصة للضغط على الحكم من أجل الإصلاح. وفي ٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٠ خرقت ٤٥ امرأة من النخبة المتعلمة هذا الحظر عندما قدن سياراتهن إلى وسط مدينة الرياض. وقد لاحظهن أفراد الشرطة و«المطاوعة» الذين أمروا باعتقالهن. ونقلن

---

(١) خلال أزمة الخليج قامت الحكومة السعودية بتشجيع هذا الانفتاح في محاولة يائسة لتمييع انتقادات الإعلام الغربي لنظامها السياسي وحكومتها.

إلى أقرب مركز شرطة لاستجوابهن ثم أخلي سبيلهن بكفالة أولياء أمورهن من الرجال. وجُمّدت النساء من وظائفهن (دوماتو Doumato ١٩٩٢؛ فندي ١٩٩٩). ومن المشكوك فيه أن هؤلاء النساء اخترن الوقت المناسب لمثل هذا التحدي العلني. ولعلهن توهمن أنه إزاء وجود ٥٠٠ ألف عسكري أميركي من الرجال والنساء في البلد مع مئات الصحافيين والإعلاميين، ستتجاوب الحكومة وتلغي منع المرأة من قيادة السيارة. لقد كن مخطئات، وخسرن المعركة من أجل الحق في قيادة السيارة. ولكن لا ريب في أنهن سيكن ماثلات بقوة في المخيلة التاريخية بوصفهن المبادرات إلى عمل من أعمال التحدي النسوي العلني في العربية السعودية.

أكد الحادث مخاوف الإسلاميين الذين اعتبروا أن العربية السعودية وتقاليدها وأخلاقها مهددة الآن أكثر من أي وقت مضى. ومضى انتقاد الحكم في السادسة وقاعات المحاضرات الجامعية متساوقاً مع شحذ يقظة الشرطة الدينية. وفي محاولة للحد من الاحتكاك بين هذه القوة وأفراد القطعات الأجنبية، نقلت الحكومة بعض رجال الشرطة الدينية من المنطقة الشرقية حيث كانت تتمركز غالبية القوات الأجنبية إلى الحجاز ومناطق أخرى من البلاد. ووجه الأبرز بين مسؤولي الشرطة الدينية رسائل إلى الملك ووزير الداخلية وأمير الرياض طالبين إنزال العقاب الصارم بسائقات السيارات. ولم يتردد بعض «المطاوعة» في وصفهن بـ«العاهرات الشيوعيات» (فندي ١٩٩٩). ولم يفعل حادث السائقات شيئاً لكبح صعود المد الإسلامي، بل إنه في الحقيقة أكد ظنون الإسلاميين بأن العربية السعودية سائرة الآن نحو تغيرات خطيرة تتجاهل مطالبهم وأمانيهم. وبرأيهم أن هذا التحول ليس من شأنه إلا أن يتسارع نتيجة وجود القوات الأجنبية والاعتماد المتزايد على الولايات المتحدة.

ردود الفعل السعودية على حرب الخليج ١٩٩٠

في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٠ لم يكن هناك ما يشير إلى أن صدام حسين على وشك سحب القوات العراقية من الكويت. وبات من الأرجح أن تدفع القوات الأجنبية المحتشدة في المنطقة الشرقية إلى معركة لتحرير الكويت[1]. وأصبح تأكيد الحكم السعودي لشرعية قراره دعوة قوات أجنبية من أجل الدفاع عن البلد، أشد إلحاحاً. وفي كانون الثاني/ يناير ١٩٩١

(١) عن حرب الخليج وتحرير الكويت انظر فريدمان Friedman ١٩٩١.

أصدر الشيخ عبد العزيز بن باز ؛ أبرز المراجع الدينية في البلاد ، فتوى تجيز الجهاد ضد صدام حسين حتى إذا تطلب ذلك مساعدة «كافرين» . ولكن هذه الفتوى لم تفعل الكثير لإسكات الأصوات المعارضة التي كانت تتصاعد منذ آب/ أغسطس ١٩٩٠ . واندلعت الحرب ضد صدام، كما كان متوقَّعاً ، بعد ساعات قليلة على انتهاء المهلة . ولكن لا الانتصار الخاطف الذي حققته قوات التحالف ولا الهزيمة المهينة التي مُني بها العراقيون أديا إلى نهاية الأزمة السياسية الداخلية في العربية السعودية .

خلال الأشهر الأولى من عام ١٩٩١ دخل الحكم عصر المذكرات والرسائل المفتوحة التي تخاطب الملك وتدعو إلى إصلاحات عامة . وحملت الرسالة الأولى التي سميت «المذكرة العلمانية» تمييزاً لها عن مذكرة لاحقة ، تواقيع ٤٣ شخصية عامة بينها وزراء سابقون ورجال أعمال مرموقون وكتاب وأساتذة جامعيون (أبو حمد ١٩٩٢ : ٥٩) . واقترح الموقعون عشرة إصلاحات . واشتملت مطالبهم على تشكيل مجلس شورى يضم النخبة من صانعي الرأي ذوي المؤهلات والمعرفة وإحياء المجالس البلدية وتحديد النظام القضائي والالتزام بالمساواة التامة بين المواطنين وتوسيع حرية الإعلام لنصرة الخير على الشر وإصلاح هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتوسيع مشاركة المرأة في الحياة العامة في إطار الشريعة (أبو حمد ١٩٩٢ : ٦٠) .

عُرضت هذه المطالب بعد مقدمة طويلة أعلن فيها الولاء للحكم والأسرة الملكية . ولم يشكل الموقعون على المذكرة جماعة منظمة ذات برنامج سياسي واضح ، ولا كانوا يمثلون اتجاهاً «علمانياً» في المجتمع السعودي . ولكن مطالبهم كانت تعكس استياء عاماً من قضايا معينة مثل اللامساواة أمام القانون وقصور السلطة القضائية ودور المرأة المحدود . ولعل شجبهم السلطات المفرطة التي يتمتع بها «المطاوعة» في المذكرة كان السبب في ياقطة «العلمانيين» لتمييزهم عن اتجاهات لاحقة . ولكن من الخطأ إطلاق صفة «العلمانية» على المذكرة . فحقيقة أنهم ليسوا علماء دين ، لا تعني بالضرورة أنهم علمانيون . والمفارقة أن الصحافيين الغربيين والإسلاميين على السواء استخدموا تسمية «العلمانيين» في أوائل التسعينيات لوصف أشخاص كانوا يطالبون بالإصلاح من خارج الدوائر الإسلامية . وقد وصف غازي القصيبي (السفير السعودي فيبريطانيا سابقاً ووزير المياه حالياً) ، من بين آخرين ، بأنه علماني ، وهي تسمية دفعت القصيبي إلى تأليف كتاب يدافع فيه عن نفسه (القصيبي ١٩٩١) .

في أيار/ مايو ١٩٩١ وجهت رسالة من نوع آخر؛ ما يسمى «المذكرة الدينية»، إلى الملك فهد. وحملت المذكرة تواقيع ٥٢ إسلامياً بينهم صفر الحوالي وعائض القرني وناصر العمر وسلمان العودة (أبو حمد ١٩٩٢: ٦١؛ دكميجيان Dekmejian ١٩٩٤: ١٨٩). وطالب الموقعون بإصلاحات عديدة في إطار إسلامي. وكانت هذه الإصلاحات تغطي مجالات عدة: دور العلماء والخطباء، القوانين والأنظمة، القضاء والمحاكم، الإدارة العامة، الاقتصاد والمال، المؤسسات الاجتماعية، الجيش، الإعلام والسياسة الخارجية. وكانت الإصلاحات المقترحة تعني أن الحكم لا يطبق الشريعة في هذه المجالات العشرة، مطالبة بـ«أسلمة» السياسة في العربية السعودية. وفي حين طالبت «المذكرة العلمانية» بضبط دور الشرطة الدينية، فإن رسالة الإسلاميين طلبت من الحكومة رفع القيود على رجال الدين والعلماء والخطباء. كما طالبت مذكرة الإسلاميين بأن يقوم العلماء بدور أكبر من سائر الأجهزة الحكومية، بما فيها الوزارات والسفارات.

أصبحت النقاط العشر التي طرحت في مذكرة أيار/ مايو الخلفية التي انطلقت منها مذكرة أطول بعنوان «مذكرة النصيحة»، وهي كراس قدم إلى عبد العزيز بن باز في أيلول/ سبتمبر ١٩٩٢ بتواقيع أكثر من مئة إسلامي. وأكدت المذكرة مجدداً النقاط العشر التي طرحت في رسالة الإسلاميين مع التوسع في موضوعات متعددة (فندي ١٩٩٩: ٥٠ ـ ٦٠). وأثارت المذكرة الاعتراض القائل إن خطباء المساجد لا يتعاملون إلا مع قضايا أخلاقية عامة وإنهم ممنوعون من مناقشة السياسة والشؤون الراهنة (مذكرة النصيحة، غفل من التاريخ: ١١). ومن الواضح أن هذا كان رداً على لجم خطب صفر الحوالي وسلمان العودة التي تنتقد حرب الخليج. وكان الاثنان استخدما المسجد وقاعة المحاضرات لتعبير عن اعتراضاتهما على دعوة قوات أجنبية.

طالبت المذكرة باحترام حقوق الإنسان كما تحددها الشريعة. واعتبر القضاء المستقل آلية لتطبيق الشريعة على نحو لا ينتقص من حقوق المسلمين. وجادلت المذكرة بأن توقيف الأفراد لا يجوز إلا بتخويل قاض مسلم مطالبة بمنع كل أشكال التعذيب وجمع المعلومات والاعتقال («مذكرة النصيحة»، غفل من التاريخ: ٤٩).

وتذهب المذكرة إلى أن على الإعلام السعودي أن ينشر مبادئ الإسلام ويسمح بحرية التعبير عن الرأي في الشؤون الراهنة وحول سلوك الحكام وتأمين سلامة الرأي العام من فساد

المؤثرات الغربية. وانتقدت المذكرة تسخير الإعلام على أيدي سعوديين وصفوا بأنهم يشوهون صورة الإسلام ومبادئه. وتعرض الإعلام للانتقاد على ترويجه سير ورسائل «ممثلين ومغنين» تلهي أعمالهم الفنية شباب العربية السعودية عن أداء واجباتهم ومسؤولياتهم الدينية («مذكرة النصيحة»، غُفل من التاريخ: ٨٤ ـ ٨٥). ويتعين أن يُمنَع ظهور النساء حاسرات الرأس على شاشات التلفزيون لمواجهة الاتجاهات الغربية في الإفساد وعدم الاحتشام.

ودعت المذكرة إلى بناء جيش إسلامي قوي في العربية السعودية تبقى روحه حية بالدعوة إلى الجهاد. وبحسب أصحاب المذكرة، فإن حرب الخليج الثانية كشفت الضعف العام للقوات المسلحة، وإن إسراف الحكم في الإنفاق على الدفاع فشل في تأمين قدرة العربية السعودية على الدفاع عن نفسها في ساعات الشدة، وعندما تطلب الموقف مساعدة خارجية كان على الحكم أن يتوجه إلى جيوش إسلامية أخرى (فندي ١٩٩ : ٥٨). واقترحت المذكرة زيادة حجم الجيش وشمول السعوديين كافة بالتدريب العسكري.

وعلى الحكومة، كما ذهبت المذكرة، أن تنتهج سياسة خارجية إسلامية وتبدي التزاماً أقوى بالقضايا الإسلامية. وانتقدت امتناع الحكومة عن دعم الإسلاميين الجزائريين والسودانيين. وشجب تغريب السفارات السعودية الذي يتبدى في توظيف أعداد متزايدة من النساء، بوصفه لا إسلامياً («مذكرة النصيحة»، غُفل من التاريخ: ٩٢).

وتضمنت المذكرة باباً حول الاقتصاد كان واضحاً فيه أن أصحابها ينتقدون التفاوت المتزايد في الثروة الذي بات ظاهراً في العربية السعودية. وطالبت بإنفاق مزيد من الموارد المالية على الرعاية الاجتماعية والتعليم والصحة بدلاً من الإنفاق الحالي على مساعدة أنظمة وحكومات لا تتقيد بتعاليم الإسلام. ويتعين اعتماد النشاط المصرفي الإسلامي حيث تسود الأنظمة المصرفية الغربية. وانتقدت المذكرة العمولات وإنفاق الدوائر الحكومية حيث لا توجد وسيلة لممارسة المحاسبة.

باختصار، دعت «مذكرة النصيحة» إلى إصلاحات واسعة للمجتمع والسياسة والحكم في العربية السعودية. وكانت لهجة المذكرة لاذعة في نقد الحكم الذي حمل مسؤولية السماح بإضعاف أحكام الشريعة في البلاد. ونادت المذكرة بالعودة إلى نظام أخلاقي إسلامي يكون أساس الحكم، وشددت على توسيع دور العلماء في الحكم. ويرى أحد المصادر أن المذكرة كانت

تمثل سعي الإسلاميين إلى الاستيلاء على السلطة. فهم طالبوا بتغييرات بنيوية كان من شأنها أن تسفر عن تجريد الأسرة الملكة والنخبة الاقتصادية من قدر كبير من السلطة (دكميجيان ١٩٩٤ : ٦٣٧). وكان الإسلاميون يراهنون على أن مطالبتهم بتشكيل مجلس شورى مستقل للمساهمة في رسم السياسات الداخلية والخارجية ستترجم إلى مشاركة العلماء مشاركة أكبر في صنع القرارات السياسية.

اكتسب «مذكرة النصيحة» أهمية أكبر بعد نشرها خارج العربية السعودية، متسببة في إحراج الحكم[١]. وطالبت الحكومة باعتذار من العلماء. واستنكر ابن باز نشر المذكرة لا مضمونها، واحتج بأن إسداء النصح لحاكم الأمة الإسلامية واجب ينبغي أن يحترمه العلماء ويمارسون ولكن ما كان ينبغي أن تذاع هذه النصيحة، فإن نشر المذكرة يمكن أن يثير فتنة، وكان ينبغي تداول محتواها بين المؤهلين لممارسة فعل النصح[٢] فقط.

بدلاً من تعزيز العلاقات بين الدولة والمجتمع، كشفت حرب الخليج الأساس الهش الذي تقوم عليه هذه العلاقة. لقد رد المجتمع السعودي على التهديد الخارجي الناجم عن غزو صدام للكويت، لا بتجديد بيعته للحكم والفئة الحاكمة، بل بإطلاق سلسلة من الآراء المعارضة التي أضعفت شرعية الحكم في وقت كان بأمس الحاجة فيه إلى هذه الشرعية. وفجرت الحرب ردود أفعال متعددة بين السعوديين الذين صبوا جام غضبهم على حكومتهم وعلاقتها المبهمة مع الغرب بدلاً من الجيش العراقي الغازي. وأصبح الوضع السياسي الداخلي في العربية السعودية موضع نقاش وانتقاد. وخلال الحرب، أخفقت الحكومة في تعبئة السكان وراء سياساتها. وعندما انتهت حرب تحرير الكويت تعين على الحكومة السعودية أن تتعامل مع انقسام عميق بدأ الآن يبعدها عن قاعدتها. والقاعدة نفسها بدت أشد استقطاباً. وأصبحت لغة جديدة للمعارضة السياسية ويافطات مثل «العلمانيين والإسلاميين» جزءاً من القاموس السياسي لغالبية السعوديين. ودفعت المطالب المتزايدة التغيير الحكومة إلى إعداد برنامج للإصلاح في محاولة لاحتواء المد المتصاعد من الانتقادات.

---

(١) وزعت نسخ من «مذكرة النصيحة» في العربية السعودية والخارج، لا سيما في لندن، بعد تشكيل «لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية» في العاصمة البريطانية.

(٢) حول مفهوم النصيحة والنقد في الإسلام انظر أسد Asad ١٩٩٣ : ٢٠٠ ـ ٢٣٦.

في مواجهة مظاهر عامة من الاستياء مثل المذكرات الموجهة مباشرة إلى الملك والخطب العامة التي تنقد الحكم والأشرطة المتداولة على نحو متسارع بين السكان في البلاد والمذكرات التي تحمل تواقيع مئات العلماء، استنفرت الدولة جهازها للتعامل مع التحدي الجديد. وكانت الخطوة الأولى التي اتخذها الملك في محاولة لتهدئة أصوات المعارضة واحتوائها، الإعلان في آذار/ مارس ١٩٩٢ عن ثلاثة إصلاحات هامة: القانون الأساسي للحكم وقانون مجلس الشورى وقانون المناطق[1].

يتألف القانون الأساسي للحكم من عدة فصول، كل فصل منها يتناول جانباً من الحكم (أبا نامي Aba Namay ١٩٩٣). وبعد الإشارة إلى أن العربية السعودية دولة عربية إسلامية ذات سيادة، يمضي القانون الأساسي إلى تحديد نظام الحكم بوصفه نظاماً ملكياً. وتنص المادة الخامسة على انتقال الحكم إلى أبناء الملك المؤسس عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، وإلى أبناء أبنائه. ويبايع الأكثر استقامة بينهم بموجب مبادئ القرآن الكريم والسنة النبوية. وللملك اختيار ولي العهد وإعفاؤه من واجباته بمرسوم ملكي. ويرث ولي العهد سلطات الملك في حال وفاته حتى تعلن البيعة. وتنص المادة السادسة على مبايعة المواطنين للملك بامتثال وطاعة، في السراء والضراء، في الأفراح والأتراح. وهذا رد واضح على أزمة الخليج والمعارضة التي انطلقت في أعقابها. ويُفسر التركيز على الأسرة الملكية هنا بأنه تكريس لحق آل سعود في الحكم في وقت نجحت أصوات المعارضة في إشاعة أجواء لم يعد بالإمكان فيها اعتبار ذلك من المسلمات.

ويستحضر القانون الأساسي للحكم دور الأسرة بوصفه نواة المجتمع السعودي، ويشدد على ضرورة تنشئة أفراد الأسرة بتعاليم الإسلام. ويقر بسعي الدولة إلى إعلاء القيم الإسلامية والعربية وتوفير الظروف الملائمة لتطوير الموارد والطاقات. ويرى أنه في حين تعتبر الأسرة ذات دور حاسم لتعزيز الوحدة الوطنية فإن الدولة تكون مسؤولة عن منع الشقاق والفتنة.

وتجري الإشارة إلى القضايا الاقتصادية والمالية ارتباطاً باحتمال فرض ضرائب حيث تقتضي الضرورة. وتنص إحدى المواد على فرض الضرائب والرسوم على أساس من العدل، وفقط إذا ما

---

(١) للإطلاع على نص مجتزأ للإصلاحات، انظر بولوك Bulloch ١٩٩٢.

استدعت الحاجة فرضها . ويؤكد القانون الأساسي أن الموارد الاقتصادية ملك الدولة، وأن المال له قدسيته، وتكون الدولة مسؤولة عن حماية الملكية الخاصة التي تُحظَر مصادرتها العامة.

وحول حقوق الدولة وواجباتها، يشدد القانون الأساسي على مسؤولية الحكم عن حماية الإسلام وصيانة الأماكن المقدسة في البلاد . كما أن حقوق الإنسان وحمايتها بموجب الشريعة أيضاً من مسؤولية الدولة. وتتولى الدولة توفير العمل والتعليم والخدمات الصحية وتطوير القوات المسلحة لأغراض الدفاع . ويضمن القانون إمكانية الوصول إلى بلاط الملك وبلاط ولي العهد للتقدم بشكوى أو مظلمة.

ويحدد القانون الأساسي أن القضاء يبقى مستقلاً، ولكن تعيين القضاة وإنهاء خدماتهم يكونان بإرادة ملكية، وذلك عامل هام في الحفاظ على سيطرة الدولة على المؤسسة الدينية. وينص القانون على أن لا رقابة على القضاة إلا عندما يخالف القضاة أنفسهم أحكام الشريعة. ويتمتع المواطنون والمقيمون في العربية السعودية بحق اللجوء إلى القضاء على قدم المساواة.

ويتعلق واحد من أهم جوانب القانون الأساسي، بتشكيل مجلس الشورى. وتنص المادة الثامنة والستون على أن القانون يحدد كيف يشكل المجلس، وكيف يمارس صلاحياته، وكيف يتم اختيار أعضائه. وللملك أن يدعو مجلس الشورى ومجلس الوزراء (استُحدث في عام ١٩٥٣) إلى الانعقاد في اجتماعات مشتركة. وكان تشكيل مجلس الشورى استجابة مباشرة للمطالب التي رفعت في المذكرات آنفة الذكر.

يعلن قانون مجلس الشورى تشكيل مجلس من ستين عضواً (رفع عددهم إلى تسعين عضواً في عام ١٩٩٧) ورئيس يُعيَّنون جميعاً بقرار من الملك الذي يختارهم من العلماء وأهل العلم والمعرفة. وتحدد واجبات الأعضاء بمرسوم ملكي. ويجب أن يكون العضو معروفاً بكونه مواطناً سعودياً صالحاً وكفؤاً يزيد عمره على الثلاثين. ويتمتع المجلس بصلاحية تفسير القوانين ودراسة التقارير التي يرفعها إليه الوزراء ودوائر الدولية. وتتطلب أي قضية لكي ينظر فيها المجلس، تواقيع عشرة أعضاء من أعضائه، ويتعين أن تنال المقترحات موافقة ثلاثين عضواً على الأقل قبل أن تحال إلى الملك للبت فيها.

تولى رئاسة المجلس لدى تشكيله وزير العدل السابق الشيخ محمد بن إبراهيم بن جبير. وكان نائب الرئيس عبد الله عمر ناصيف؛ الأمين العام السابق لرابطة العالم الإسلامي التي

اتخذت من مكة مقراً لها. وكان ٣٣ من الأعضاء الستين الذين عينهم الملك من حملة شهادات الدكتوراه، وتسعة منهم فقط من المتخصصين بالشريعة، بينما كان ١١ آخرون من حملة شهادات الماجستير في فروع مختلفة. وكان الأعضاء الآخرون من حملة الدبلوم. وكان التحصيل العلمي للأعضاء يعكس رغبة الحكم في تعزيز تحالفه مع النخبة المهنية، إذ كان التكنوقراط وأصحاب الاختصاصات في مجالات غير التربية الدينية ممثلين تمثيلاً مضخماً في مجلس الشورى الأول. وكان ما يربو على ٦٠ في المئة من الأعضاء درسوا في جامعات غربية (دكميجيان ١٩٩٤؛ الرشيد ١٩٩٧؛ فندي ١٩٩٩). وعكست الأصول المحلية للأعضاء هيمنة المنطقة الوسطى في الحكم. وبرغم اختيار أعضاء المجلس من بين «أهل العلم والمعرفة» في نجد والحجاز وعسير والأحساء، فإن النجديين شغلوا نحو ٤٠ في المئة من المقاعد. وهذا لا يكرس هيمنة آل سعود فحسب، بل هيمنة أنصارهم التقليديين في هذه المنطقة أيضاً.

بالإضافة إلى القانون الأساسي للحكم وقانون مجلس الشورى، طبق إصلاح ثالث يتعلق بحكم الأقاليم. وكان قانون المناطق معنياً بإصلاح الحكم المحلي. فقبل عام ١٩٩٢ لم تكن لدى العربية السعودية إدارة محلية واضحة. وكان أمير المنطقة وعلاقته بالملك يحددان العلاقة بالحكومة المركزية. وقد حدد القانون الجديد واجبات الحكام الإقليميين مؤكداً دور وزير الداخلية في الإشراف على الإدارة الإقليمية. ونص القانون على تقسيم أقاليم المملكة الأربعة عشر إلى محافظات قسمت بدورها إلى مناطق ووحدات أصغر. كما نص على تشكيل مجالس إقليمية تضم في عضويتها الأمير الحاكم ونائبه وممثلين محليين آخرين عن الوزارات، وعشرة مواطنين محليين على الأقل من ذوي الكفاءات والخبرة يعينهم الملك ويتولى الأمير/ الحاكم مسؤولية الحفاظ على الأمن والنظام وتنفيذ الأحكام القضائية وضمان حقوق الأفراد وحرياتهم. كما يكون الأمير الإقليمي مسؤولاً عن الرعاية الاجتماعية والتنمية الاقتصادية. ويبحث الأمير شؤون منطقته مع الوزراء. أما المجالس الإقليمية فإن القانون ينيط بها صلاحية تحديد الأولويات في خطط الإنفاق والتنمية. وللمجالس صلاحية المراجعة والمشورة واقتراح الإصلاحات في المناطق، وتحسين الخدمات العامة بعد تحديد الاحتياجات.

كان يراد بقانون المناطق مكافحة الفساد على المستوى الإقليمي وتشديد الرقابة على الأمور المالية. ويُقال إن هذا الإصلاح الإقليمي، بما يمنحه من شبه استقلال ذاتي مركز للمناطق

الحضرية الرئيسية، يمثل تقسيماً عمودياً للوظائف في الإدارة. فإن المجلس المحلي المؤلف من عشرة أعضاء من السكان المحليين المعنيين والأمير المعين بدرجة وزير، يكون مسؤولاً أمام وزارة الداخلية، وبالتالي فهو يميل إلى الخضوع لسيطرة سلطة تمارس من المركز، أي الملك، المرجع الأخير للسلطة (أبا نامي ١٩٩٣)[١].

مضت إصلاحات الحكومة متساوقة مع تشديد سيطرة الدولة من خلال استخدام العنف ضد من يشتبه بأنهم من المعارضين. واستُنفِرَت وزارة الداخلية والأجهزة الأمنية لاحتواء أي تحرك يُعَدُّ تهديداً لأمن الدولة. وتضمن هذا مزيداً من الرقابة على النقاشات العامة وخطباء المساجد ومواعظهم وحظر تداول أدبيات المعارضة وأشرطتها التي تحوي رسائل تعد مناهضة للحكم أو تنتقد الفئة الحاكمة. وأشارت التقارير بعد إعلان الإصلاحات إلى استخدام الاعتقالات والترويع ضد من يشتبه بأنهم من الإسلاميين والمشاركين في إصدار بيانات تنتقد الحكم[٢]وشهدت العربية السعودية، في الفترة الممتدة من ١٩٩٢ إلى ١٩٩٤، حملة من أشرس الحملات ضد المعارضين الإسلاميين. واعتقل خلال هذه الفترة الحوالي والعودة بعد دعوتهما إلى تطبيق الشريعة تطبيقها أشد صرامة وانتقادهما السافر للأسرة الملكية. وفي عام ١٩٩٤، اعترف وزير الداخلية الأمير نايف باعتقال ١١٠ مواطنين سعوديين لقيامهم بأعمال ضد الأمن القومي (ميدل إيست إنترناشيونال Middle East International ٢٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٤). وأعطت مصادر المعارضة رقماً مضخماً زاد على الألف معتقل. وأظهر تصريح نايف سعة الحملة ومدى ما تواجهه الحكومة من صعوبة في إنكار وجود معارضة في البلد. وأصبح من الصعب الاستمرار بسياسة الحكم السابقة في النفي والتزام الصمت في فترة ما بعد حرب الخليج.

بالإضافة إلى البطش المباشر ضد أعضاء المعارضة الإسلامية الذين كانوا يجاهرون برأيهم، عبأت الحكومة إعلامها الرسمي لتشويه سمعة المعارضة. وأخذت تظهر مقالات تثني على الاعتدال الديني في الصحافة الرسمية. وكتب محرر الشؤون الدينية في إحدى المطبوعات، أن

---

(١) للإطلاع على تقويم للإصلاحات انظر أيشو Ishow ١٩٩٧؛ وأغيت Agate ١٩٩٧.

(٢) تقارير منظمة العفو الدولية في التسعينيات سلطت الضوء على زيادة حالات التعذيب والاعتقال في العربية السعودية فور انتهاء حرب الخليج، ونشر آخر هذه التقارير في عام ٢٠٠٠.

التطرف يعني الوقوف في أبعد نقطة عن المركز وهو يشير رمزياً إلى ابتعاد مماثل في الدين والفكر فضلاً عن ابتعاد في السلوك. فالإسلام يوصي بالاعتدال والتوازن في كل شيء، في الإيمان وفي السلوك وفي التشريع. والغلو مستقبح بحيث لا يمكن للطبيعة البشرية الاعتيادية أن تتحمله أو تطيقه (سعودي غازيت Saudi Gazette ٨ تموز/ يوليو ١٩٩٤). وفي حين أن الكاتب لم يذكر جماعات من المتطرفين، فقد كان واضحاً أنه كان يصف وينتقد أجواء عامة في البلاد شاعت بعد حرب الخليج. وتزايد ظهور هذا النمط من الخطابية في المطبوعات الرسمية والخطابات التي يلقيها المسؤولون. وإذ لم ترد في الإعلام الخاضع لرقابة الدولة، عادة، إشارات مباشرة إلى مطالب المعارضة، فإن رسائل مبهمة تدين الغلو والغلاة أخذت تسود إلى الصحافة السعودية. وكان الرد الصريح والمباشر على هذه المطالب (كتلك التي تضمنتها المذكرتان آنفتا الذكر» ينطوي على إقرار ضمني بوجودها ومشروعيتها.

وكانت أعمال مثقفين سعوديين وعرب تنشر برعاية الدولة، تمثل ميداناً آخر حاولت الحكومة النيل من المعارضة فيه. وصدر كتيب بعنوان قراءة صريحة لمذكرة النصيحة (رضوان، غُفل من التاريخ) بعد فترة قصيرة على حرب الخليج، وشن صاحبه هجوماً على رسالة الإسلاميين الرئيسية في «مذكرة النصيحة». وأكد الكتيب الهوية الإسلامية للدولة السعودية بتعداد المشاريع الإسلامية التي ترعاها الحكومة في الداخل والخارج. وقدم المؤلف تفاصيل عن الإنفاق السعودي على المساعدات الإسلامية وتأسيس منظمات خيرية إسلامية في الخارج وتمويل التربية الإسلامية. وكان هدف الكاتب الطعن في اتهامات أطلقت في المذكرة الأصلية بأن الدولة السعودية لا تدعم القضايا الإسلامية وأن أجهزتها السياسية والقانونية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية بحاجة إلى إصلاحات جذرية. وكانت مثل هذه المطبوعات تشير إلى أنه بعد توقف الحرب بدأت حرب كلامية في بلد لم يعتد مثل هذه المساجلات العامة حول مواضيع حساسة وتكاد تكون محرمة، بينها طبيعة الحكم السعودي وشرعيته. لقد كان احتدام النقاش العام إحدى النتائج الحقيقية لحرب الخليج.

أعادت حرب الخليج ذكرى المعارضة في المنفى مع اختلاف هام. ففي حين أن معارضة المنفي إبان الستينيات والسبعينيات استندت إلى أيديولوجيات انبثقت في العالم العربي[1]، كانت معارضة التسعينيات في الغالب رداً محلياً بخطابية إسلامية قوية. وقبل ثلاثة عقود، كان المعارضون السعوديون وجدوا ملاذاً لهم في بلدان عربية مجاورة تتعاطف مع مطالبهم وتطلعاتهم، والمفارقة أن المعارضة الإسلامية اللاحقة اختارت المنفى في الغرب، الهدف الرئيسي لانتقاداتها. وتلك هي قصة «لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية» في العربية السعودية.

شكلت اللجنة في البداية داخل العربية السعودية في أيار/ مايو ١٩٩٣، وشارك ستة سعوديين في توقيع رسالة أعلنت تأسيس المنظمة (الرشيد ١٩٩٦). وضمنت المجموعة وأستاذين جامعيين وقاضياً متقاعداً وعلماء دين. وأعلن الأعضاء في وثيقة التأسيس أن هدفهم العام رفع الظلم وإحقاق حقوق الأفراد وفق مبادئ الشريعة. ولم يرد في هذه الرسالة الأولى أي نقد للحكومة أو الفئة الحاكمة. واستند الموقعون إلى آيات قرآنية وعدة أحاديث نبوية في دعوتهم المواطنين إلى تزويد اللجنة بالمعلومات عن حالات وتقع فيها ظلم. وفي بلاغ ثان (وقعه خمسة من أعضاء اللجنة بعدما حجب أحد الموقعين الأوائل دعمه بضغط من الحكومة، على ما يُزعم)، أكدت المجموعة مجدداً أن برنامجها نابع من الشريعة وأن مقصدها ليس تشكيل حزب سياسي، كما ورد خطأ في وسائل الإعلام. ودحض أعضاء المجموعة الاتهامات بتشجيعهم «الفرقة والفوضى»، مصرين على أن هدفهم هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كواجب إسلامي («لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية» ١٩٩٤: ١٩ ـ ٢٦).

وفي حين أن ستة سعوديين فقط وضعوا أسماءهم على الوثيقة الأولى، فإن المنظمة اعتمدت على العديد من الناشطين، لا سيما من المهنيين ذوي التوجه الإسلامي (فندي ١٩٩٩: ١١٩). وأصبح اثنان من الناشطين القوة المحركة بعد توقف اللجنة عن العمل في العربية السعودية. وعين محمد المسعري (ابن عبد الله المسعري، وهو قاض متقاعد وقع رسالة اللجنة الأولى) ناطقاً

(١) وقائع هذه المعارضة نوقشت في الفصلين الرابع والخامس. مجلة المعارضة صوت الطليعة وثقت تطور المعارضة في هذه الفترة. انظر صوت الطليعة ١٩٧٣ ـ ١٩٧٦.

باسمها بعدما أثبت جدارة متميزة في تعامله مع الإعلام الغربي (المصدر السابق: ١٢١). وكانت الشخصية الثانية سعد الفقيه الذي قام بدور هام في المراحل الأولى، ثم لاحقاً عندما نقلت اللجنة مقرها إلى لندن في عام ١٩٩٤. وفي حين كان المؤسسون من علماء الدين فإن هذين الناشطين كانا من المهنيين، حيث إن المسعري أستاذ في الفيزياء والفقيه طبيب.

حُظر نشاط اللجنة على الفور في العربية السعودية، الأمر الذي كان يعكس ما تمثله هذه الحركة من تهديد خطير بنظر الحكم. وشجب أعلى مرجع ديني هو هيئة كبار العلماء، تنظيم اللجنة بوصفه غير شرعي في بلد يحكم بموجب مبادئ الإسلام. وسجن بعض أعضاء اللجنة بمن فيهم الناطق باسمها محمد المسعري، ثم أخلي سبيلهم لاحقاً. وظهر المسعري في ما بعد في لندن حيث فتح مع الفقيه مقر «لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية» في نيسان/ أبريل ١٩٩٤. وبإقامة اللجنة في لندن، بدأت مرحلة جديدة من المعارضة الإسلامية. واعتمدت اللجنة اعتماداً كبيراً على حرية الوصول إلى وسائل إعلام غربية وعربية لإطلاق حملتها. وأقامت مؤقعها الخاص على شبكة الانترنت وشرعت في استخدام تكنولوجيا الاتصالات بما فيها أجهزة الفاكس والبريد الإلكتروني للاتصال بأنصارها في العربية السعودية والخارج. وتصاعدت حدة رسائلها ولغتها في نقد الحكومة والفئة الحاكمة.

تشير قراءة مطبوعات اللجنة المختلفة من كراسات وكتيبات ورسائل فاكس وبيانات، كلها صدرت في لندن، إلى عدد من السمات. ففي رسالة التعريف التي أعلنت تشكيل اللجنة في المنفي، قدمت اللجنة صورة مزدوجة لغرضها وعملها. وقد وضعت الصورة الأولى هذه المنظمة في دائرة المنظمات الإنسانية بينما وضعتها الصورة الثانية في دائرة الإسلام بوصفه الإطار لكل أعمالها ودوافعها. وشددت اللجنة على أن فهمها للحقوق الإنسانية الشرعية نابع من الإسلام وليس من صيغ رائجة أخرى يعتقد أنها غير شرعية ـ في إشارة ماكرة إلى التصورات الغربية لهذا المفهوم، برغم أن بيان اللجنة لم يحدد مباشرة هذه التصورات البديلة. ولكن اللجنة امتنعت عن القول ما هي هذه الحقوق الشرعية الإسلامية التي اعتبر أن تحديدها من مسؤولية «أهل المعرفة»، في إشارة إلى العلماء. وفي بيان لاحق، أكدت اللجنة مجدداً أنها ليست حزباً سياسياً له أهداف سياسية. وقد حددت هذه الخطابية موقع اللجنة في دائرة بعيدة عن الفهم العلماني للعمل السياسي. والأكثر من ذلك، أن اللجنة أضافت أن تركيزها على قضايا مثل الاعتقادات وانتهاك

حقوق الإنسان والتعذيب ينبغي ألا يفهم على أنه تجاوز على اختصاص القضاء والمحاكم ومجلس المظالم. وكانت مثل هذه البيانات تحدد مجالاً معيناً لنشاط المنظمة يرتبط بفهمها لما هو وجائز ومحبذ في الإسلام. كما حرصت اللجنة على عدم استعداء الغالبية من العلماء السعوديين وعلى ألا ينظر إليها بوصفها مصدر مرجعية بديلة.

وفي الوقت الذي ذهب أعضاء اللجنة إلى أنها منظمة إنسانية إسلامية، فإنهم كانوا يطلقون تصريحات لا يمكن أن توصف إلا بأنها سياسية. وكانت عدة بيانات أصدرتها اللجنة مكرسة لانتقاد الملك وأفراد الأسرة الملكية. وفي إحدى المقابلات وصف الناطق باسم اللجنة؛ المسعري، أفراد الأسرة الملكية بأنهم «ديناصورات» ينبغي أن تنقرض. وأعلن أن الحكم هو الملكية والدولة والأسرة والمافيا. وعلى الغرار نفسه، أعلن رئيس اللجنة الفقيه أن زعماء الدولة الإسلامية ينبغي أن يكونوا منتخبين ومسؤولين، بما يعني أن آل سعود لا ينتمون إلى هذه الفئة (الرشيد ١٩٩٦: ١٩).

واعتمدت اللجنة في كل حملتها لغة الإصلاح لا الثورة. ودعت في بيانات عديدة إلى قضاء مستقل واقتصاد توزع الثروة فيه توزيعاً متساوياً، وإلى سياسة خارجية أكثر التزاماً بالقضايا الإسلامية، وجيش قوي قادر على الذود عن البلاد في المحن. وبرأي اللجنة، فإن العلماء السعوديين أصبحوا مدافعين عن الدولة. وكان هذا إشارة إلى الوضع الذي واصلت فيه المؤسسة الدينية، وخاصة هيئة كبار العلماء، إصدار الفتاوي التي تدعم سياسات الحكومة. ولم يبتعد برنامج اللجنة الإصلاحي عن البرنامج المقترح في «مذكرة النصيحة» التي ورد ذكرها آنفاً.

استمرت «لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية» في الإصرار على أن النقد وإسداء المشورة نابعان من مبدأ إسلامي هام هو مبدأ النصيحة التي هي من واجب كل مسلم. ولكن هذه النصيحة لا يمكن أن تكون سرية في العالم الحديث. والوضع في العربية السعودية، كما ترى اللجنة، يتطلب أن يكون النقد علنياً من خلال تثبيت حق التجمع وحرية التعبير (المسعري ١٩٩٧: ٨١). وفي رسالة مفتوحة إلى هيئة كبار العلماء طالبت اللجنة بـ:

أن تقولوا كلمة الحق في هذه الدولة، في كيانها وكافة أنظمتها. وبالأخص في نظامها الاقتصادي وفي موقفها من الدعوة والدعاة والمصلحين وفي ولائها وبرائها كما يظهر في سياستها الخارجية. وأعلموا أن الأمة قد تعلمت وعرفت أن حكامنا يوالون أعداء الله ويظاهرون على

المسلمين كما فعلوا مع الشيوعيين في اليمن ... والأمة تعلم كذلك أن حكامنا يحاربون الدعوة بمنع الدعاة وفصلهم وسجنهم والتضييق عليهم، ويحاصرون كلمة الحق ... والأمة تعلم أن الحكام قد عبثوا بأموال الأمة وسرقوا خيراتها.

(«لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية» ١٩٩٤: ٦٨).

وانتقد المسعري امتثال العلماء واصفاً صمتهم على قضايا سياسية هامة بأنه بمثابة موتهم. وبرأيه، فإن العربية السعودية أصبحت مقبرة العلماء (المسعري ١٩٩٥: ١٥٦). كان المسعري يشجع العلماء على الخروج من صمتهم وخوض مناظرة حول شرعية الحكم الذي انتقص من مبدئيتهم الفكرية وقصرهم على مراقبة الأخلاق العامة وإصدار بيانات تأييد تكلف الحكومة بضعة ملايين (المصدر السابق: ١٥٧). وعمد لاحقاً إلى التفريق بين العلماء الصادقين الذين عُرفوا في ما بعد بكونهم «علماء الصحوة»، والعلماء الذين «باعوا دينهم وإيمانهم»، حيث الأولون دفعوا ثمناً باهظاً بتعرضهم للسجن والتعذيب بينما انتفع الأخيرون من دورهم المريح في تزكية سياسة الحكم.

وبالإضافة إلى انتقاد العلماء التقليديين، أصبحت اللجنة مصدر معلومات عن فساد الحكم وانتهاك حقوق الإنسان وتعذيب المعارضين في البلاد وسَجنهم. وكانت اللجنة تتابع محنة علماء كبار كانوا يجاهرون برأيهم وخاصة سجن العودة والحوالي. وقامت بإشاعة قضيتهم من خلال نشر المنشورات وتوزيعها وتسليط الضوء على رسائلهما ودعواتهما. وأصبحت الحقوق رسالة إخبارية منتظمة تطلع متلقيها على قضايا بينها تغييب المعارضين وسوء الإدارة في شؤون الحج والضائقة الاقتصادية وفشل الخدمات العامة. وفي غضون عام من تأسيسها في لندن، أصبحت اللجنة مصدر رأي بشأن الأحوال العامة وأوجه التقصير فيها، والحياة الخاصة للأمراء وفضائحهم وفسادهم. وما ساعد اللجنة في هذه العملية إتقان مؤسسيها تكنولوجيا الاتصالات الحديثة. ولكن اللجنة سرعان ما واجهت تحدي المعارضة في صفوفها ذاتها.

في آذار/ مارس ١٩٩٦، واجهت اللجنة انشقاقاً خطيراً في صفوفها. وأعلن المسعري في بيان له أن اللجنة قررت إنهاء دور الفقيه مقدماً عدة أسباب لذلك: أولاً، ذهب إلى أن الفقه رفض نشر بعض الأدبيات التي كانت لاذعة في انتقادها الفئة الحاكمة. ثانياً، قال إن الفقيه أجرى اتصالاً مع ولي العهد الأمير عبد الله من دون أن يخوض في التفاصيل حول طبيعة هذا اللقاء.

وأشار المسعري، بطريقة غير مباشرة، إلى أن الحكم تمكن من شراء الفقيه. ثالثاً، زعم المسعري أن الفقيه الذي كان مسؤولاً عن مالية اللجنة رفض أن يدفع فواتير المحامين في قضية طلب المسعري اللجوء في بريطانيا(١). وأماطت هذه الاتهامات العلنية اللثام عن وجود خلاف عميق بين الفقيه والمسعري، لا في القضايا المالية فحسب بل خلافات أكبر أيضاً. وفُسِّر النزاع بأنه يعكس خلافات حول المبادئ. وحاول المسعري مد جسور إلى مجموعات إسلامية أخرى في لندن مثل جماعة عمر بكري وتنظيم «المهاجرون»، بينما جاهد الفقيه لإقناع زميله بقصر اهتمام اللجنة على العربية السعودية (فندي ١٩٩٩: ١٤٦).

هذه القصة يؤكدها الفقيه الذي زعم أن الخلاف مع المسعري يتعلق بحقيقة أن الأخير أخذ يمد جسوراً مع الفرع البريطاني لحزب التحرير وعمر بكري الذي وصفه الفقيه بأنه «شيخ جاهل». كما علق الفقيه على «صِدَام شخصيتين» مختلفتين بينه وبين المسعري الذي وُصف بأنه رجل واسع العلم ذو شخصية لامعة (مقابلة، آذار/ مارس ١٩٩٩). وامتدح الفقيه معارف مسعري العامة وقدرته على التواصل مع الصحافة خلال الأيام الأولى في لندن عندما أسهمت هذه الصفات في تعزيز صورة اللجنة، ولكن «ألمعيته» أصبحت عبئاً على المنظمة (المصدر السابق).

عندما بادر الفقيه إلى تأسيس «حركة الإصلاح الإسلامي في الجزيرة العربية» عام ١٩٩٦، بات واضحاً من بياناته أنه لا يعتزم تحويل منظمته إلى حركة معارضة إسلامية عامة، وهو تطور حاول المسعري تحقيقه منذ انتقاله إلى المنفى في لندن. ولعل الفقيه كان يتعاطف مع جماعات إسلامية أخرى في العاصمة البريطانية، ولكن لا شيء في رسائله الإخبارية ومطبوعاته يشير إلى أن هذه سياسة تتبعها «حركة الإصلاح الإسلامي في الجزيرة العربية» بحماسة.

ألحق الانشقاق في «لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية» ضرراً بالمنظمة أفقدها مصداقيتها في العربية السعودية والخارج. وأصبحت بيانات المسعري غير منتظمة، ثم اختفت تماماً في عام ١٩٩٦. ووجه الناطق الأنشط باسم اللجنة اهتمامه إلى كتابة كراسات مطولة توثق نشوء

---

(١) خاض المسعري معركة في المحاكم البريطانية ضد قرار الحكومة البريطانية إبعادَه إلى جمهورية الدومينيكان، وكسب القضية للبقاء في بريطانيا بعد تحمل نفقات قانونية باهظة أخذت من مالية «لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية».

المعارضة الإسلامية في العربية السعودية منذ حرب الخليج. وبعد عام ١٩٩٦ استمر الفقيه، الذي بات الآن رئيس «حركة الإصلاح الإسلامي في الجزيرة العربية»، في إصدار نشرات أسبوعية بعنوان الإصلاح. ولم تكن محتويات الإصلاح تختلف عن المطبوع السابق الذي كانت تصدره «لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية» باسم الحقوق. وكانت الرسالة الإخبارية التي تصدرها الحركة بصفحة واحدة تجمع بين التعليق على أحداث راهنة في العربية السعودية، وتسليط الضوء على المظالم وانتهاكات حقوق الإنسان. وكانت تقدم تفسيرات منهجية للتطورات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وفي أواخر التسعينيات بدا أن «حركة الإصلاح الإسلامي في الجزيرة العربية» كانت أشد المنظمات الإسلامية العاملة خارج العربية السعودية فاعلية. وكان موقعها على الإنترنت ورسالتها الإخبارية باللغة العربية، ومطبوعاها الشهريان الخاصان (Arabia Unveiledالجزيرة العربية بلا قناع وArabia in the Medie **الجزيرة العربية في الإعلام**)، بالإضافة إلى عدة كتيبات بقلم الفقيه، تنم عن مستوى عال من التخطيط والجهد من لدن رئيس الحركة ومساعديه الالكترونيين ذوي المهارات العالية.

كانت «حركة الإصلاح الإسلامي في الجزيرة العربية» تعتمد اعتماداً كبيراً على محتوى «مذكرة النصحية»، وسعت إلى دعم الإصلاحات التي طالبت بها هذه الوثيقة الهامة. وكان الفقيه يعتبر الحركة منبراً إعلامياً للمعارضة الإسلامية بعد حرب الخليج. وكان يصر على أن الحركة ليست منظمة مستقلة ذات نظرة جديدة. واستمر في دعم الإصلاح وتأييده في إطار إسلامي كفيل بمنح العلماء دوراً أكبر في العربية السعودية. وكان ينظر إلى نفسه بوصفه ممثلاً للعلماء الذين رفضوا دعم السياسات السعودية خلال حرب الخليج، وهو موقف أدى إلى سجن العديد من خطباء المساجد وعلماء الدين.

ودعمت «حركة الإصلاح الإسلامي في الجزيرة العربية» جماعة «العلماء الشباب»، التي كانت مجموعة ذات بنية تنظيمية فضفاضة. وأشار أحد كرّاسات الفقيه بعنوان زلزال آل سعود، إلى ارتباطه بهذه المجموعة وتأييده للانتقادات التي وجهتها الجماعة خلال حرب الخليج. وقدم الكراس تقريراً عن المعارضة الإسلامية أكد دوره في صوغ مذكرة العلماء الأولى و«مذكرة النصيحة» وتشكيل «لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية في العربية السعودية». وبحسب الفقيه، فإن جماعة «العلماء الشباب» تطورات إلى مصدر إلهام كبير لأنهم كانوا يلقون خطبهم في

الجامعات الدينية والمساجد. واستمر أعضاء المجموعة في احترام أساتذتهم من جيل العلماء الأكبر برغم اختلافهم مع تفسيرات الأخيرين وتحليلاتهم. وأتاحت هذه الحقيقة درجة من التسامح الذي أبدته الحكومة تبددت لاحقاً مع الانتقادات الصريحة لسياسات الحكم خلال حرب الخليج.

واصلت الحركة، مثلها مثل اللجنة، شن حملة ضد آل سعود. وفي كتيب بقلم الفقيه، كيف يفكر آل سعود: دراسة نفسية، صُوِّرت الأسرة الحاكمة على أنها بلا شرعية (الفقيه، غُفل من التاريخ). وذهب الفقيه إلى أن حكمهم المطلق وغطرستهم وأسلوبهم الشخصي في الحكم أوجدت ظروفاً خاصة ذات مردود عكسي. يضاف إلى ذلك أن الفقيه سلط الضوء على عقدة الدونية لدى آل سعود في علاقاتهم مع الغرب، واعتمادهم التام على المال لحل المشاكل. وعلى حد تعبيره، فإن «الدولار أصبح هو الحل ـ الشعور بأن المال يتغلب على أكبر المعضلات، ويحل أعقد المشاكل وبذلك أشد الصعاب. ولذا، فالسياسة وتصريف شؤون الدولة والنجاح على المستويات الإقليمية والعالمية والسيطرة على الأوضاع المحلية، كل ذلك رهن بتوفير المال» (المصدر السابق: ٤١ ـ ٤٧).

وبرغم انتقادات الفقيه للأسرة الملكية، فإنه كان متردداً بشأن مستقبل البلاد من دون زعامة آل سعود. وقال «لستُ مستعداً للقول إننا بحاجة إلى اقتلاع الشجرة (آل سعود) من التربة لأنه ليس هناك بديل في الوقت الحاضر في العربية السعودية. العلماء وحدهم القادرون على إدارة شؤون الحكم خلال الفترة الانتقالية، وإلا فإننا سنعود إلى فترة أمراء الحرب» (مقابلة، آذار/ مارس ١٩٩٩)». وتشير عبارة «أمراء الحرب» هنا إلى شيوخ القبائل الذين رفضهم الفقيه كزعامة بديلة.

من الصعب الحكم في ما إذا كان هذا القول يعني أن الفقيه خلص في أواخر التسعينيات إلى أن آل سعود يمكن أن يستمروا في الحكم بالاستناد إلى مرجعية العلماء شريطة أن يضم هؤلاء مجموعة «العلماء الشباب». وكان الفقه يرى فوضى ضاربة الأطناب وحرباً أهلية في وضع لا يعود إلى سعود يمسكون فيه بدفة الحكم وزعم أن السعوديين لن يتبعوا المسعري أو الفقيه بل سيتبعون العلماء الذين يستطيعون إحلال السلام والنظام (المصدر السابق). ولم يكن الفقيه ينظر إلى نفسه على أنه صاحب طموحات سياسية شخصية، بل كان يعتبر نفسه أداة لدعم قضية الإصلاح الإسلامي وإشاعته باسم الخبراء وعلماء الدين.

وتذكر طروحات الفقيه حول الحكم الإسلامي بالمفهوم الشيعي لولاية الفقيه، بمعنى حكم العلماء. ولكن الفقيه لم يحدد بصراحة قط نقاط الالتقاء بين الاثنين. وبحسب وثيقة البرنامج السياسي لـ«حركة الإصلاح الإسلامي في الجزيرة العربية»، فإن مجلس الشورى الحالي لا يعكس مطالب الإسلاميين، حيث يتشكل مجلس الشورى باختيار الأعضاء وفق إجماع «الأمة الإسلامية» وانتخاب هؤلاء الأعضاء. وينبغي أن يكون أحد واجبات المجلس الإشراف على الإنفاق العام ومحاسبة الحكام («حركة الإصلاح الإسلامي في الجزيرة العربية»، غُفل من التاريخ). وتنطوي هذه الرؤية على قلب للأدوار الحالية حيث الملك هو الذي يعين الأعضاء الذين لهم سلطة محدودة. ويطالب برنامج الحركة السياسي بأن يصبح مجلس الشورى سلطة سياسية أعلى من الملك وأفراد الفئة الحاكمة الذين يخضعون لمحاسبة المجلس. ويستدعي مطلب الحركة بأن يكون للعلماء دور أكبر في تقرير الشؤون السياسية السعودية الداخلية والخارجية، إعادة النظر بالحلف السعودي - الوهابي لعام ١٧٤٤. فخلال السنوات المئة الماضية من تاريخ السعودية، فهم هذا الحلف على أنه يعني توزيعاً واضحاً للأدوار بين آل سعود والعلماء، حيث الأولون يستأثرون بالقرارات السياسية بينما يكون الأخيرون مسؤولين عن الشؤون الدينية. وكانت رسالة الحركة تطعن في هذا الفهم للحلف بدعوتها إلى مشاركة العلماء مشاركة مباشرة في العملية السياسية والشؤون الاجتماعية. إذ لم يعد الإسلاميون يقبلون بدور العلماء المحدود كحماة للأخلاق العامة في المملكة. وكان هذا الدور أنيط بهم بعد هزيمة «الأخوان» على يد ابن سعود في الثلاثينيات، وعمد الملك فيصل إلى مأسسته في السبعينيات. ومع خضوع التعليم لإشراف الدولة أصبح العلماء أكثر صراحة ومجاهرة في مطالبتهم بدور أكبر في السياسة.

بالإضافة إلى «لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية» و«حركة الإصلاح الإسلامي في الجزيرة العربية»، واجهت العربية السعودية تحدي معارضة ذات طابع عالمي أوسع، من الجماعة المرتبطة بأسامة بن لادن (وُلد عام ١٩٥٧)، والمعروفة باسم «لجنة النصيحة والإصلاح». وينتمي ابن لادن إلى عائلة حضرمية الأصل حققت ثروتها في قطاع البناء في العربية السعودية. بدأت حياة ابن لادن السياسية في أفغانستان حيث دعم حركة المقاومة الإسلامية في نضالها ضد الجيش السوفياتي. واستخدم ثروته الشخصية لرعاية المتطوعين السعوديين والعرب المستعدين للانضمام إلى المقاومة الأفغانية، وفتح العديد من دور الضيافة ومعسكرات التدريب داخل

أفغانستان لاستقبال هؤلاء المتطوعين، أشهرها معسكر «القاعدة» الذي أقيم في عام ١٩٨٨. ولاقت هذه النشاطات في البداية قبول العربية السعودية، ولكنها أصبحت مصدر تهديد بعد حرب الخليج. وعارض ابن لادن، مثله مثل إسلاميين آخرين في العربية السعودية، دعوة القوات الأميركية، وأذاع انتقاده للقرار السعودي على الملأ. وأسقطت العربية السعودية عنه الجنسية في عام ١٩٩٤. ومنذ ذلك الوقت صعد انتقاداته للسعودية وتحالفها الوثيق مع الولايات المتحدة. ويعتقد أن «لجنة النصيحة والإصلاح» أصبحت مظلة للجماعات الإسلامية الراديكالية التي تضم سعوديين وغير سعوديين (فندي ١٩٩٩). واستناداً إلى أحد كراسات «حركة الإصلاح الإسلامي في الجزيرة العربية»، فإن لابن لادن دائرتين من الأتباع: الأولى نواة مغلقة من المريدين الذين يرتبطون به من خلال تسلسل قيادي ويتلقون أوامره كما في منظمة سرية. والأرجح أن غالبية هؤلاء الأتباع في أفغانستان، ولكن آخرين منهم في العربية السعودية وربما في بلدان إسلامية أخرى. وتتألف الدائرة الأخرى، الأوسع، من أشخاص ليسوا جزءاً من التنظيم السري لكنهم من المؤازرين. وكانوا ينظرون إلى ابن لادن على أنه «العراب»؛ بمعنى الأب الروحي، ويعتبرون أنفسهم ملزمين بتنفيذ بعض أوامره العامة («حركة الإصلاح الإسلامي»، غفل من التاريخ). ويصعب تقدير حجم منظمة مثل «لجنة النصيحة والإصلاح». وكانت الولايات المتحدة أعلنت ابن لادن إرهابياً دولياً. ففي ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ دمرت طائرتان مخطوفتان مركز التجارة العالمي في نيويورك وارتطمت ثالثة بمبنى البنتاغون في واشنطن. وأعلنت الولايات المتحدة على الفور أن ابن لادن هو المتهم الرئيسي. وبرغم الأعداد الكبيرة من التقارير الإعلامية والمعلومات اللاحقة عن ابن لادن وشبكته، يبدو أن توافر أدلة دامغة يبقى بعيد المنال في هذه المرحلة. ويعتقد أن ابن لادن الذي وصف بأنه «عراب الإرهاب» (صحيفة ذي إندبندنت The Independent ١٥ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١) و«أخطر المطلوبين في العالم» (ذي إندبندنت ١٦ أيلول/سبتمبر)، كان لم يزل في أفغانستان بحماية نظام طالبان. وكانت العربية السعودية قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع طالبان في أيلول/ سبتمبر٢٠٠١.

بعد عشر سنوات على حرب الخليج، يبدو أن المعارضة الإسلامية في الداخل والخارج نجحت في الاستحواذ على مخيلة السعوديين وغيرهم بفضل التغطية الإعلامية الدولية الواسعة. ومنذ منتصف التسعينيات لم يصبح مقر «حركة الإصلاح الإسلامي» في شمال لندن، وقبلها

«لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية»، مركزاً للناشطية الإسلامية فحسب، بل مصدر معلومات عن بلد غير معروف بانفتاحه وشفافيته. وعمل ممثلو المعارضة بوصفهم ناشطين ومصادر معلومات عن الشؤون السياسية الداخلية. وكانت منظمات حقوق الإنسان الغربية والصحافيون والأكاديميون يتوافدون على مكاتب المنظمتين بحثاً عما يساعدهم في سبر السياسة السعودية والمجتمع السعودي. وبالإضافة إلى بث رسالتها، انخرطت المعارضة بنشاط في نشر المعرفة عن العربية السعودية، وهي حقيقة كثيراً ما يجري تجاهلها في الأعمال التي تتناول تطور الناشطية الإسلامية في المنفى. وكان هذا من نتائج وجود المعارضة في الغرب. ومما له أهمية بالغة لنشاطاتها، قدرتها على استخدام أشكال جديدة من تكنولوجيا المعلومات.

إن التحول الوظيفي لتكنولوجيا المعلومات من التعليم والتسلية إلى تجسيد المقاومة السياسية وتيسيرها، كان لافتاً في العربية السعودية. فالطالب الجامعي الذي تتوافر الكومبيوترات في متناول يده لا يستطيع استخدامها لبناء نماذجه الرياضية فحسب، بل يمكن أن يتلقى من خلالها رسائل وأن يتواصل مع جماعات سياسية في وقت فراغه حتى من دون أن يغادر مبنى الجامعة التي يدرس فيها. وأدى هذا إلى تكوين فرد من نمط جديد، قادر على التعبير عن آرائه السياسية ضد السلطة المركزية بمنأى عن رقابة الدولة. ويميل توافر هذه التكنولوجيات الجديدة إلى تمكين المواطنين من التسلح بقدرات لم يكونوا يمتلكونها من قبل. والسؤال في هذه المرحلة هو ما إذا هذا الإمكان حقيقياً أو وهمياً. وفي حين أن من السابق لأوانه إعطاء إجابة مؤكدة ـ لم تسمح العربية السعودية بدخول الإنترنت على نطاق واسع إلا في عام ١٩٩٩ (منظمة مراقبة حقوق الإنسان Human Rights Watch ١٩٩٩ : ٥١) ـ فإن الشبان السعوديين يستطيعون أن ينموا وعياً بهذا الإمكان المتاح لهم وسينمون مثل هذا الوعي. ذلك أن الوصول إلى المعلومات والقدرة على تبادل الأخبار ومناقشتها، هي من الثمار الحقيقية لتكنولوجيا الاتصالات الجديدة. وأصبحت هذه التكنولوجيات الجديدة منافذ ذات كفاءة عالية للاحتجاج السياسي، ولكن التغيير السياسي ليس بديهياً بالقدر نفسه (الرشيد ١٩٩٩ : ١٦٠). وكانت الحصيلة الكبرى لهذا الاحتجاج السياسي الجديد حتى الآن، هي تسيس المواطنين تسييساً تأخر زمناً طويلاً في ظل الرخاء النفطي والرعاية الاجتماعية السخية ورقابة الدولة. ولكن من المبكر الخروج باستنتاجات والتنبؤ بالمستقبل السياسي للعربية السعودية على أساس توافر أجهزة الفاكس والبريد الإلكتروني والإنترنت وصحون التقاط البث الفضائي على نطاق واسع.

ومن الصعب، بالقدر نفسه، الحكم في ما إذا كانت المعارضة الإسلامية ستتحول إلى حركة جماهيرية في المستقبل. الواضح من الطرح السابق أن المعارضة يمكن أن تكون منظمة ويمكن أن تدعي أن لها مؤازرين بين علماء دين كبار ومهنيين اعتياديين. ومن الواضح أيضاً أن بناء معارضة في الخارج كان يحظى بدعم مالي من أشخاص في العربية السعودية برغم الصعوبة في اكتشاف المصادر. ويمكن للمعارف اللاهوتية لدى العلماء الشباب، متضافرة مع المهارات التنظيمية لدى جيل شاب من السعوديين المتعلمين الذين يتعاطفون مع آرائهم، أن تخلق وضعاً متفجراً في العربية السعودية. وتستمر الخطابية الدينية في إلهام جيل ناشئ تبقى آفاق أمنة ورخائه الاقتصاديين غامضة، بينما يحاول الحكم إزالة آثار الديون الناجمة عن الأزمة الاقتصادية في الثمانينات وحرب الخليج(١).

لا إصلاحات الدولة ولا تشكيل مجلس الشورى في أوائل التسعينيات كانت كافية لإسكات أصوات المعارضة الإسلامية. وإذا ما سنحت الفرصة المناسبة فإن هذه الأصوات يمكن أن تعلو من جديد. وقد شهدت البلاد عدة هجمات إرهابية كان وقوعها حدثاً نادراً لزمن طويل في العربية السعودية. ففي عام ١٩٩٦ وقعت تفجيرات قرب البعثة العسكرية الأميركية في الرياض وفي أبراج الخبر أسفرت عن مقتل العديد من الأميركيين. ونُسب الهجومان الإرهابيان إلى أسامة بن لادن. وفي تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٠ قام بخطف طائرة سعودية على متنها ٩٠ مسافراً في رحلة من جدة إلى لندن، سعوديان هما فيصل البلوي وعائض الفريدي (كلاهما من قبيلة بلي الحجازية) اللذان طلبا اللجوء في العراق (صحيفة القدس العربي، ٢٤ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٠). وكانت غالبية مطالبهما تتعلق بتحسين خدمات الرعاية الاجتماعية ومستوى المدارس والمستشفيات. وليس واضحاً ما إذا كان الخاطفان ينتميان إلى جماعة إسلامية. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٠ قُتل مواطن بريطاني، اشتُبه خطأً أنه أميركي، في اعتداء إرهابي في الرياض. ونُسب هذا الحادث إلى مجموعات من الوافدين تتعاطى تجارة المخدرات والكحول في المملكة (القدس العربي، ٩ أيار/ مايو ٢٠٠١). ويمكن للأمراض الاجتماعية مترافقة مع نزاعات محتملة على الخلافة والمجاهيل الاقتصادية، أن تثير في المستقبل استياءً قد يتبدى في أشكال سياسية إسلامية.

---

(١) عن تطلعات الشباب السعودي، انظر يماني ٢٠٠٠.

برغم ما بدا من انحسار التهديد الإسلامي في عام ٢٠٠٠، فإن وراثة العرش تبقى موضع تكهنات. ويمكن لاندلاع صراع على السلطة داخل الأسرة الملكية أن يوقظ سخط الإسلاميين ويهدد بزعزعة استقرار العربية السعودية.

ويمكن لنشوب صراع سافر على الخلافة بعد رحيل الملك فهد الذي يعاني من اعتلال صحته، أن يؤدي بسهولة إلى انبعاث المعارضة الإسلامية الآن وقد اكتسبت مهارات هامة في التعامل مع الإعلام وأصبح لديها شبكات تنظيمية للدعم وإطلاق حملات ضد الحكم. ومنذ عام ١٩٩٨، كثيراً ما كُشف في الصحافة أن الأسرة الملكية الحاكمة ارجأت تولي ولي العهد الأمير عبد الله (وُلد عام ١٩٢٣) كل السلطات برغم الحقيقة الماثلة في أن الملك فهداً لم يعد يسيطر على الحكم بسبب تردي وضعه الصحي (القدس العربي، حزيران/ يونيو ١٩٩٨). ولعل الأسرة الملكية تتردد في إعلان عبد الله ملكاً لعدم وجود إجماع بين أفرادها أنفسهم. ومنذ منتصف التسعينيات، أخذ ولي العهد الأمير عبد الله على عاتقه تمثيل الملك في مهمات الحكم المختلفة، لكنه لم يعلن ملكاً بصورة رسمية حتى الآن. وما زال الملك فهد يظهر على شاشة التلفزيون السعودي بعد قضاء إجازات في ماربيلا وقيامه بزيارة مدن أخرى في العربية السعودية. ويظهر الملك جالساً على كرسي متحرك يستقبل المهنئين في مطار الرياض. ويصطف أفراد الأسرة الملكية والعلماء وضباط الجيش لتقبيل يده أو منكبه أو أنفه حسب الرتبة والمكانة. وفي ٢٣ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٠، على سبيل المثال، خلال الاحتفال بالعيد الوطني السعودي، بث التلفزيون عودة الملك من زيارة إلى جدة.

وفي الوقت الذي تسري شائعات كثيرة بأن أشقاء فهد (سلطان وسلمان وعبد الرحمن ونايفاً وتركياً وأحمد) يخططون لتجاوز عبد الله إلى الخلافة، لا يبدو أن هناك اتفاقاً على مَن ينبغي أن يرث العرش. وحقيقة عدم وجود سابقة تاريخية بتنازل ملك سعودي عن العرش «لأسباب صحية»، جعلت نهاية القرن العشرين فترة زاخرة بالتكهنات بمستقبل السياسة الملكية. ولن يرتدع أشقاء فهد بمبدأ «الأقدمية» لأن هذا المبدأ لم يحترم قط احتراماً كاملاً في السابق. وما قد يشكل كابحاً هو إمكانية وقوع انشقاق بين أفراد الأسرة الملكية في حال أنهم تجاوزوا عبد الله تماماً واختاروا ملكاً ممن يسمون «السبعة السديرية» (هندرسن Henderson؛

كيشيشيان ٢٠٠١). وما سيجعل الخلافة حتى أشد تعقيداً هو الإمكانية المتمثلة في أن الأسرة الملكية، نظراً إلى أعمار الجيل الثاني (فهد وأخوته)، يمكن أن تختار ملكاً من صفوف الجيل الثالث (أحفاد ابن سعود). ويبدو هذا السيناريو مستبعداً لغياب المرشح الواضح بسبب حجم المجموعة الملكية من الجيل الثالث. وفي الوقت الذي تبقى السياسة الملكية سراً من الأسرار العليا، فإن صحفاً أجنبية تحدثت عن تشكيل «مجلس للأسرة الملكية» مهمته بحث «قضايا العائلة والخلافة». وبينما تجري هذه النقاشات وراء أبواب مغلقة، ينتظر السعوديون الملك الذي سيقودهم في القرن الحادي والعشرين. ويبقى أن نرى إن كانوا ينتظرون بصمت.

الفصل السابع

مرويات الدولة، مرويات الشعب

برغم ما للدولة السعودية من حضور كبير الآن بفضل البنية التحتية التي شيدتها، فإن علاقاتها مع شعبها وتاريخها تبقى علاقات خلافية. ولهذا السبب، فإن تمثيلات الماضي المدعومة من الدولة، كما تتبدى في المدونات التاريخيه الرسمية والخطابية السياسية والمهرجانات، تصنع ذاكرة تاريخية تعمل على فرض الطاعة للفئة الحاكمة. والثروة النفطية لم تمكن الدولة من دفع عجلة التحديث الاقتصادي فحسب، بل أوجدت أيضاً مرويات تاريخية تروج نوعاً جديداً من الشرعية. وفي حين أن الدولة تسيطر على البنية التحتية والموارد المادية للبلاد، فقد بات من الهام بصورة متزايدة أن تمد هذه السيطرة إلى المجال الرمزي للأفكار ورؤى الماضي والحاضر والمستقبل.

النهضة الاقتصادية نفسها ابتعاد كبير عن الأنماط السابقة والتطور السابق. وتقدم المرويات التاريخية الرسمية تفسيراً للتحول السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي تحقق في السنوات المئة الماضية في ظل الفئة السعودية الحاكمة والأهم من ذلك، أن المرويات المتعلقة بالماضي تصنع إطاراً توضع فيه، جنباً إلى جنب، العربية السعودية والشعب والحكومة. وتستبعد المرويات الرسمية الحقائق الخلافية والتأويلات المتنافسة إلى حد أنها تصنع رؤية للماضي بصورها وخطابيتها ورموزها الخاصة. هذا الفصل يتناول كيف تؤدي سيطرة الدولة على الأفكار، إلى الامتثال وتوسيع هيمنة الفئة الحاكمة. كما أنه يبين أن سيطرة الدولة على المخيلة العامة لا يمكن أن تكون ناجحة نجاحاً مطلقاً. إن مرويات الدولة تستحث رؤى بديلة وخطابات مضادة تبقى راسخة في المخيلة التاريخية للشعب في العربية السعودية.

التاري الرسمي

تكرس المرويات التاريخية للدولة السعودية تمثيلات معينة للماضي تهدف إلى ربط الحكام والمحكومين ببعضهم بعضاً. وهذه المرويات ليست معنية بالدقة التاريخية أو الحقائق، بل بفرض الطاعة للحكام. وتصور المرويات الرسمية الفئة الحاكمة على أنها قوة مهيمنة في تاريخ البلاد.

وأصبح التاريخ الرسمي الوسط الذي يجري تحقيق هذا من خلاله. إن كتب التاريخ المدرسية التي تُعَدُّ برعاية وزارة المعارف تتضمن أقوالاً عن الماضي تشكل مخيلة السعوديين الشباب وتكون وعياً بهويتهم الوطنية. ويبين تحليل مضمون هذه الكتب المقرَّرة، أن هذه الهوية الوطنية تتذبذب بين سياق إسلامي عام وبُعد محلي[1].

وبما أن تدريس التاريخ الإسلامي المبكر يشكل جزءاً كبيراً من المناهج الدراسية، فإن التلاميذ يدرسون العصر الذهبي للحضارة الإسلامية. ويؤشر ظهور الإسلام بداية الزمن التاريخي للتلاميذ السعوديين. ويبدأ البعد المحلي بتدريس التاريخ السعودي ـ الوهابي. ويرتبط تاريخ البلاد المحلي ارتباطاً وثيقاً بنشوء الحركة الإصلاحية الوهابية في القرن الثامن عشر وتبني آل سعود لها.

هذا ما تبينه كتب التاريخ المدرسية المقررة رسمياً بطبعتها في عام ١٩٩٣[2]. وبرعاية وزارة المعارف، كتب الباحث السعودي الكبير عبد الله العثيمين؛ أستاذ التاريخ في «جامعة الملك سعود»، عدة أجزاء تشكل القسم الأعظم من مناهج التاريخ. ومضمون الكتب المدرسية المقررة صيغة مجتزأة من أفكاره عن التاريخ السعودي الحديث، كانت نشرت بمزيد من تفصيل في مجال آخر (العثيمين ١٩٩٥، ١٩٩٧). وبرغم أن الكتب المدرسية تجنح إلى التبسيط، فإنها مع ذلك تؤكد من جديد سرداً تاريخياً أصبح سائداً في العربية السعودية[3].

---

(١) شكل مشروع كتابة تاريخ العربية السعودية دائماً، جزءاً من سياسة ابن سعود لتوطيد أركان الدولة. وكتب العديد من موظفيه العرب مذكرات ودراسات تتناول غزواته في الجزيرة العربية: فؤاد حمزة (١٩٣٦) وحافظ وهبة (١٩٦٤) وخير الدين الزركلي (١٩٧٢) من بين آخرين، ينتمون إلى هذه الفئة من الكتابة التاريخية المقبولة من الدولة. وفي الخمسينيات، ساهم مسؤولون مثقفون من «آرامكو» في هذه الكتابة التاريخية التي أيضاً نالت موافقة الدولة وكانت أعمال المستعرب رينتز Rentz (١٩٤٨) والجيولوجي تويتشل Twitchell (١٩٥٨) من أولى المحاولات لكتابة نوع من التاريخ السعودي الذي يمجد دور الدولة. وابتداء من السبعينيات، أخذ يظهر جيل جديد من المؤرخين المدعومين من الدولة، بفضل الثروة النفطية التي أتاحت إعداد باحثين محليين في الداخل والخارج.

(٢) الأعمال الرئيسية التي رجعت إليها هذه الدراسة **هي السيرة النبوية وتاريخ الدولة الإسلامية** (الشعفي وحلمي ١٩٩٣) وتاريخ الحضارة الإسلامية (الشعفي وحلمي ١٩٩٢) وتاريخ المملكة العربية السعودية (العثيمين ١٩٩٣). وتدرس هذه الأعمال في السنوات الثلاث الأخيرة من المرحلة الثانوية.

(٣) للاطلاع على تحليل كامل لمنهج التاريخ المقرر في المدارس، انظر الرشيد ١٩٩٦.

تدريس التاريخ بُعِدُّ التلميذ لفهم ظهور الإسلام وسُنة الرسول وقيام الدولة الإسلامية الأولى وحياة الخلفاء المسلمين وفترة الحروب الصليبية والامبراطورية العثمانية. ويقدم التاريخ الإسلامي على أنه سلسلة متعاقبة من الوقائع كل منها يؤدي إلى تعزيز قوة الإسلام والمسلمين وازدهار الحضارة الإسلامية بكل مظاهرها الفنية والفكرية والعلمية والعسكرية. ويتخلل هذه التمثيلات للتاريخ الإسلامي إحساس بالحنين إلى الماضي التليد. فهي تركز على الأمة الإسلامية «المثالية» كما كانت في زمن الرسول.

ويتداخل الاحتفاء بالتاريخ الإسلامي مع مناقشة عدد من العوامل التي أدت إلى الضعف. أولاً، تشدد النصوص التاريخية على أن التاريخ الإسلامي ابتلى بقضية الخلافة. واستناداً إلى النصوص، فإن مشكلة الخلافة أسفرت عن تفشي الطائفية. ويسلط السرد التاريخي الضوء على طبيعة الطوائف السلبية والتقسيمية بوصفها «فِرَقاً منحرفة». وتضم هذه الفرق الصابئية والخوارج والباطنية والإسماعيلية. ويلتزم النص جانب الصمت عن الانقسام الأول حول مجيء الخليفة الأول أبي بكر على حساب على بن أبي طالب ابن عم النبي. ولهذا الخلاف أهميته لأنه أسفر عن نشوء الإسلام الشيعي ولكن النصوص تميل إلى تجاهله. ولإسقاط الشيعة من التاريخ مغزاه. إذ لا يرد ذكر للشيعة بوصفهم طائفة أو للمعتقدات والممارسات الدينية الشيعية. وفي حين أن النصوص تذكر التلاميذ بطوائف ثانوية لا يعتمد بعدد أفرادها في العالم الحديث، فإنها تغفل الطائفة التي كثير من الأتباع الأحياء في العربية السعودية وأماكن أخرى. ويبقى التلاميذ السعوديون جاهلين بأصول ومعتقدات البعض من مواطنيهم وجيرانهم.

ثانياً، تؤكد النصوص الطبيعة التقسيمية للعصبية القبلية. وفي هذه المرويات، ثمة رفض قاطع للهوية القبلية تسنده أدلة من القرآن والحديث. وتذهب النصوص إلى أن القبلية تؤدي إلى التعصب على أساس رابطة الدم. وتنبغي الاستعاضة عن الولاء القرابي بالولاء للدين. ونتائج هذا الخطاب بالغة الأثر نظراً إلى أن المجتمع السعودي كان لزمن طويل منظماً على أسس قبلية، والتضامن القرابي واحد من أهم محاور التنظيم الاجتماعي. وهذا الخطاب يدعو إلى التحول من الوعي القبلي إلى الوعي الإسلامي.

بالإضافة إلى رفض الطائفية والقبلية، تشجب النصوص الأفكار العلمانية مثل القومية العربية. وفي حين أن اللغة العربية والشعر العربي موضع احتفاء في منهاج اللغة العربية، فإن

كتب التاريخ تؤكد مجدداً رأي المرجع الديني الأكبر في البلاد، الشيخ عبد العزيز بن باز[1]، الذي وصف القومية العربية بأنها «جاهلية ملحدة»، غرضها الرئيسي محاربة الإسلام وتدمير تعاليمه وأحكامه، وقد اعتمدها الكثير من العرب، وهم أعداء الإسلام. وهذا ما يبتهج له الملحدون ويشجعون عليه. إنها حركة ضالة وباطلة (الشعفي وحلمي ١٩٩٣ : ٨٩). وتشدد كتب التاريخ السعودي على أن القومية العربية أوروبية المنشأ، يهودية الدوافع، تؤدي إلى النزاع والانقسام والشوفينية. وهي تتناقض مع روح الإسلام (المصدر السابق). وتصور القومية على أنها مؤامرة مدعومة من الغرب والصهيونية لتقويض وحدة المسلمين. واستخدم خطابية الإلحاد يشكك في شرعية عدد من الدول العربية المجاورة. وتعلن النصوص أن القومية حركة غير شرعية. وهذه الأحكام تشكل الرأي العام وتشجع النفور من الآخرين: «الزنادقة».

من الحركات الأخرى التي لها عواقب مماثلة في خطورتها، الشيوعية. وهي توصف بأنها حركة تؤدي إلى عبودية الفرد للنزعة المادية والتخلي عن الصفات الروحية والأخلاقية. وعلى الغرار نفسه، يؤدي «التغريب» إلى فقدان المُثُل والممارسات الإسلامية. وسياسياً، فإن التغريب يشجع على إدخال أنظمة سياسية غربية وأحزاب سياسية وبرلمانات بما ينال من التلاحم والإجماع الاجتماعي. والتغريب يؤدي إلى تفشي البؤس والمعاناة بين المسلمين (الشعفي وحلمي ١٩٩٣ : ٩٣). واجتماعياً، يُصوَّر التغريب على أنه يضعف السلوك الإسلامي. وهو يؤدي إلى التخالط بين الجنسين وفتح الأندية الليلية واختفاء الحجاب وتشجيع الربا والاحتفال بأعياد غير إسلامية مثل ميلاد المسيح وعيد الأم وعيد العمال. كما أنه يؤدي إلى النطق بلغات أوروبية على حساب اللغة الأصلية، وتسجيل الطلاب في مدارس تبشيرية (المصدر السابق).

وتتوقف النصوص عند الجانب السلبي لاستخدام العامية في إشارة إلى الحركة التي تدعو إلى الاستعاضة عن العربية الفصحى باللهجة الدارجة. وتوصف هذه بأنها قوة داخلية تهدف إلى تدمير التراث الفكري واللغوي للأمة الإسلامية، وتُضعف قدرة الناس على فهم رسائل القرآن والأدب العربي الكلاسيكي وتقديرها (الشعفي وحلمي ١٩٩٣ : ٩١).

يُدرس التاريخ الإسلامي في المدارس السعودية بإحساس قوي بالغيبية. فهذا التاريخ مبنى بوصفه حتمياً، وهو يسرد قصة حضارة سِمتُها الإنجاز والنجاح، قوضتها أعمال وأفكار أولئك

---

(١) جرى التعبير عن آراء الشيخ ابن باز حول القومية العربية في فتاوى ومباحث مختلفة عن الموضوع.

الذين تخلوا عن روح الإسلام الحق. وتُعَدُّ الطائفية والقبلية والقومية والشيوعية والتغريب مسؤولة عن التفسخ الاجتماعي. وبحسب كتب التاريخ المدرسية، فإن الركود أصبح مصير الأمة الإسلامية بتأثير مثل هذه القوى: تخلى الناس عن دينهم باحثين عن مفاهيم غريبة. وتشير النصوص إلى الضرورة الملحة لإعادة الأمة إلى «جادة الصواب».

عند هذا المنعطف، تقدم الحركة الوهابية وتأسيس الدولة السعودية ـ الوهابية الأولى (١٧٤٤ ـ ١٨١٨). وتصبح الوهابية والدولة السعودية آلية تصحيحية تعيد الأمة إلى الصراط المستقيم. وعند هذه النقطة الحساسة أيضاً، ينتقل التلاميذ السعوديون من التاريخ الإسلامي العام إلى التاريخ المحلي لبلدهم.

في السنة الأخيرة من المدرسة، يدرس التلاميذ تاريخاً شاملاً يتناول صعود الحركة الوهابية والدول السعودية الثلاث. ومنطلق التاريخ الوهابي والسعودي هو «حالة الفوضى» التي كانت تضرب أطنابها بين مسلمي الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر (العثيمين ١٩٩٣: ٩).

وعن جغرافية الجزيرة العربية، تقدم النصوص أربع مناطق هي الحجاز والجنوب الغربي والشرق ونجد. وتؤكد أن سكان هذه المناطق كانوا يعيشون حالة من الانحطاط الأخلاقي والفكري والديني والسياسي. وبعد تعريف موجز بالقادة الإقليميين المحليين، تصف النصوص الأوضاع السياسية بأنها كانت تتسم بالصراع والنزاع والتفكك. وطبقاً للسرد الرسمي، فإن التعايش بين المجموعات المحلية المختلفة كان غائباً وبقي حالة منشودة. ويوصف الاقتصاد بالتنوع حيث يجمع بين حياة البداوة والزراعة والتجارة. كما يرد ذكر عائدات الحج. ولكن الازدهار الاقتصادي لم يكن يُعتَدُّ به نظراً إلى انعدام الاستقرار السياسي وسيادة الصراعات والنزاعات والمنافسة بين حكام محليين جشعين. وكان هذا أيضاً مآل التعليم الذي يوصف بأنه كان غائباً من الناحية العملية في مجتمع متوحش. وباستثناء المدن الرئيسية في الحجاز ووسط الجزيرة العربية حيث كان الخبراء الدينيون المحليون يدرسون مبادئ الإسلام، فإن غالبية السكان بقوا جاهلين بحسب النصوص.

السمة التي تنال النصيب الأكبر من التشديد لدى سكان الجزيرة العربية، كانت انتشار «البِدَع» و«الخرافات» التي تُعَدُّ خارجة عن الإسلام الحق. وترسم النصوص صورة لهؤلاء السكان بوصفهم ضحايا الظلم والخرافات. ويؤدي نقاش الحقبة السابقة على ظهور الدولة

الوهابية ـ السعودية، إلى الاستنتاج أن جميع المناطق التي أصبحت في ما بعد جزءاً من العربية السعودية، كانت بحاجة إلى إصلاح ديني لإلغاء العناصر المنافية للإسلام، وإلى إصلاح سياسي لتوحيد البلاد والقبائل من أجل الأمن والاستقرار (المصدر السابق: ١٢).

وطبقاً للنصوص، فإن المنطقة الأكثر جنوحاً إلى دعم الإصلاح كانت نجداً بسبب موقعها الجغرافي بعيداً عن السيطرة العثمانية. وكان ظهور الحركة الوهابية في نجد «حدثاً طبيعياً» في منطقة كتب لها أن تقوم بدور قيادي. وتوصف نجد لا بوصفها المركز الجغرافي للجزيرة العربية فحسب، بل قلبها الديني والسياسي أيضاً. وبصفتها هذه، فإن لنجد أهمية بالغة لا في الماضي فحسب بل في الحاضر والمستقبل أيضاً.

تصنع المرويات التاريخية السعودية ذكريات سكان منقسمين بالحروب وانعدام الاستقرار والصراع تمهيداً للدور الكبير الذي لعبته الدعوة الوهابية وتبني السعوديين لها في القرن الثامن عشر. وتؤكد المرويات الدور القيادي للزعامة الدينية ـ السياسية النجدية في إنقاذ باقي الجزيرة العربية من حالة «الفوضى والجهل» السابقة. وتبقى مثل هذه المرويات سطحية لدى التعامل مع الفترة السابقة للحقبة الوهابية ـ السعودية. وتنشغل المرويات بتوصيفات سلبية للسياسة المحلية والمجتمع المحلي. وتوضع هذه الصور السلبية في تعارض مع الاستقرار الذي أشاعته الدعوة الوهابية وتبني الزعامة السعودية لها. وتصبح الحركة الوهابية هي المتسيدة كأيديولوجيا كانت في صميم إشاعة النظام والاستقرار. وتصور على أنها رد حتمي على أزمة ملحة وشاملة. ويعالج تفوق نجد دينياً وسياسياً على المناطق الأخرى معالجة واسعة في السرد. ويترتب على ذلك أن المناطق الأخرى ينبغي أن تقدر إنقاذها من وهدة الجهل بفضل مجهود النخبة السياسية السعودية التي تبنت الوهابية ونشرت رسالتها.

بعد تثبيت الصعود الحتمي للحركة الوهابية، تقدم النصوص المحاولة الأولى لتحقيق الوحدة تحت راية السعوديين في منتصف القرن الثامن عشر. ويوصف الحلف الذي قام بين محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود في عام ١٧٤٤ بأنه لحظة حاسمة في تاريخ الجزيرة العربية. ويكمن في أساس الحلف توزيع للأدوار: آل سعود يوصَفون بأنهم الذراع العسكرية والسياسية للمصلح الديني، ولولا جهودهم لطال أمد الجاهلية العربية الثانية على حساب الدين والتلاحم الاجتماعي.

يُكرس قسم كبير من السرد التاريخي لتكوين الدولة الحالية. ويوصف هذا تحت موضوعة التوحيد. وتُصور عملية التوحيد على أنها استعادة حق آل سعود التاريخي في حكم المناطق التي كانت ملك أجدادهم منذ القرن الثامن عشر. ومن الهام أن يلاحظ أن كلمة «التوحيد» لا «الغزو» تُستخدَم لوصف الحملات العسكرية في الجزيرة العربية بعد استيلاء ابن سعود على الرياض في عام ١٩٠٢. ويشدد السرد التاريخي على استيلاء ابن سعود على المدينة بوصفه قصة بطولة اجترحها ابن سعود وأربعون رجلاً[١]. ويروي أحد الكتب المدرسية هذه الأسطورة واصفاً دخول ابن سعود ورجاله منزل الحاكم ليجدوا زوجته التي قالت لهم إن الحاكم في قصر المصمك مع حاميته. وانتظروا حتى الصباح، وعندما ظهر الحاكم انقض عليه ابن سعود ورجاله. وقتل حاكم الرياض، وهب سكان الرياض لتحية حاكمهم الجديد. وهكذا نجح عبد العزيز في محاولته الأولى توحيد البلاد (العثيمين ١٩٩٣: ٧٢ ـ ٧٣).

يغفل السرد التاريخي الرسمي أن يستطلع المقاومة التي أبدتها قبائل ومناطق مختلفة. وتسطر معارك ابن سعود ضد أعدائه في تسجيه للوقائع من دون تفسير لنتائجها ومغزاها. وبعد اطلاع التلميذ على سلسلة من المعارك الناجحة، يُلفَت انتباهه إلى منجزات السلطة الجديدة. وتصور النصوص ظهور الدولة على أنه عملية محلية من دون وضعها في سياق دولي أوسع مثل الحرب العالمية الأولى ودور بريطانيا.

ويستعرض فصل تلو آخر عملية «التحديث» في مجالات التعليم والصحة والتكنولوجيا والرعاية الاجتماعية والاتصالات. ويرد هذا تحت عنوان «النهضة» برعاية الملوك السعوديين.

ويبين فصل أخير دور المملكة في العالم العربي المعاصر. وتُصوَّر العربية السعودية على أنها المدافع عن القضايا العربية عموماً، ونصير مصالح الخليج الإقليمية[٢]. كما يُلفَت الانتباه إلى دور العربية السعودية في العالم الإسلامي. ويؤكد النص أن العربية السعودية كانت وراء تأسيس العديد من المنظمات الإسلامية الدولية كمؤشر إلى التزامها بقضايا المسلمين[٣].

---

(١) العثيمين من بين آخرين، يعدد ستين اسماً. انظر العثيمين ١٩٩٥: ٣٥٩ ـ ٣٦١.

(٢) من الأمثلة على ذلك دور العربية السعودية في تأسيس الجامعة العربية ومجلس التعاون الخليجي.

(٣) من الأمثلة على ذلك الرابطة العالمية الإسلامية في مكة، التي ورد ذكرها سابقاً في هذا الكتاب.

السرد التاريخي للكتاب المدرسي يضع السعوديين في سياق إسلامي أوسع. ويجري التشديد على كون العربية السعودية جزءاً من أمة إسلامية. وتُطرح هوية إسلامية عالمية بوصفها إطاراً واسعاً ينبغي أن يوضع فيه السعوديون كأفراد. يلي ذلك تشديد قوي على دور الفئة السعودية الحاكمة في تحقيق الوحدة بين المناطق والسكان الذين كانوا منقسمين. وفي مثل هذه المرويات، يُحرَم التلاميذ من معرفة ماضيهم وتقاليدهم المحلية. ويبنى الماضي بمفردات سلبية. فلا التقليد المحلي ولا الثقافة الفولكلورية موضع احتفاء. ويخرج السعوديون من الصف برؤية للماضي قبل الحقبة السعودية ـ الوهابية على أنه واقع مظلم يتسم بالتجزئة والانقسام. ويؤكد النص أن الخلاص تحقق بمجيء الحركة الإصلاحية الوهابية وتبني الحكام السعوديين لها. ويصور هؤلاء الأخيرون على أنهم المنقذون الذين أفلحوا، في مجرى عملية استرداد حقوق أجدادهم في أراضي الجزيرة العربية، في إنقاذ بقية السكان من حالة الجهل التي كانوا فيها. وفي هذا السرد التاريخي، يُحتفى بالولاء للفئة الحاكمة. وإزاء تجاهل التاريخ الإقليمي المحلي لا يمكن للمرء أن يتوقع نشوء ولاء لارض أو شعب (عطار ١٩٨٨ : ١٥٨).

أصبحت المدرسة هي الحلبة التي يُعاش فيها الانقطاع الثقافي حيث يُطمَس الطابع المحلي والثقافة المحلية. ولا يلقى الطلاب السعوديون تشجيعاً على التماهي مع مواطنيهم. فإن كتب التاريخ المدرسية تشجع على القطيعة مع الهوية المحلية لصالح مثل أعلى عام هو الأمة الإسلامية. كما يستبعد النص أي تماه مع كيان عربي أوسع بسبب تصويره السلبي للقومية العربية[١].

فالذاكرة التاريخية معنية بترويج شرعية الفئة الحاكمة على حساب تكوين هوية وطنية. وكتب التاريخ المدرسية تغفل منجزات الشعب بكل تجلياتها. وفي الوقت الذي يحتفى فيه بالفترة الإسلامية الأولى بوصفها حقبة مثالية من حقب الماضي، يجري تذكير التلاميذ السعوديين بالانحطاط الذي سبق الفترة الوهابية ـ السعودية. ويوضع العصر الإسلامي الذهبي فيتعارض مع ظلام الجاهلية العربية الثانية: عصر الجهل الذي سبق ظهور الحركة الوهابية.

يتردد التصوير السلبي للماضي في دراسات تاريخية أخرى لجوانب محددة من حياة السكان في الجزيرة العربية. ولنأخذ على سبيل المثال تقييم البداوة والقبلية عند مؤرخة سعودية معاصرة، موضي بنت منصور بن عبد العزيز، وهي أيضاً حفيدة ابن سعود. ففي سياق دراسة

---

(١) يتعارض تمثيل القومية العربية تمثيلاً سلبياً في التسعينيات مع تقويم الحركة تقويماً إيجابياً في الستينيات. لمزيد من التفاصيل انظر الشبيطي Athopaiti ١٩٨٧؛ وعطار ١٩٨٨.

تاريخية لمستوطنات «الأخوان» أو «الهجَر»، تؤكد الكاتبة أنه كانت هناك حاجة إلى توجيه طاقة البدو التي كانت حتى ذلك الوقت تُهدّر على الغزوات والسلب والعداوات، نحو أهداف مشروعة أكثر (موضي بنت منصور بن عبد العزيز ١٩٩٣: ٥٣). ويوصَف توطن البدو الذي أعقب إقامة الهجَر الأخوانية في أوائل القرن الثامن عشر بأنه دالة عبقرية ابن سعود باعتباره:

الحاكم الأول في تاريخ شبه الجزيرة الذي تأكد من أن البدوي لا يمكن تعليمه وتحويله إلا إذا استقر في حياته، وأنه لا نظام في حياة فرد من البشر بدون بيت. والبدوي المرتحل، الذي لا يعرف البيت، قد يتحول في لحظة ما معادياً للحكومة المستقرة في الدولة الحديثة. ومن ثم أقدم الإمام الملك عبد العزيز على فكرة التوطين، مصحوبة بالعزم على استبدال العادات والتقاليد والأعراف البدوية بالشريعة الغراء.

(المصدر السابق: ٤٩).

ويُصوَّر تحطيمُ الولاء القبلي على أنه عمل يفرضه الإسلام. وهو يُمارَس بتبرير يغفل الاعتبارات السياسية والاقتصادية بل إنه في الحقيقة يصبح جزءاً من واجب ديني: تطبيق أحكام الشريعة. وفي حين أن مرويات الدولة تدين الأبعاد الاجتماعية والسياسية لحياة البداوة، فإن الدولة لا تني تتغنى بالجوانب الفولكلورية المرتبطة بالقبلية والبداوة الرعوية. وفي مهرجان «الجنادرية» الذي يقام سنوياً برعاية الحرس الوطني، توظف الدولة الكثير في الاحتفال بـ«التراث البدوي». ويؤدي الملك وكبار الأمراء والمسؤولين الآخرين رقصة «العرضة» النجدية. وهي تبث تلفزيونياً إلى جمهور أوسع. ويكون مهرجان «الجنادرية» مناسبة لإلقاء القصائد النِّبْطية في مديح الفئة الحاكمة، وكذلك منبراً لعرض الثقافة البدوية المادية بما في ذلك الخيمة والبعير ودلة القهوة والسيف. وكل عام تجدد الدولة «ولاءها» للتراث القبلي وتبدي التزامها بالحفاظ عليه. ولكن غالبية السعوديين ما زالت تنظر إلى ذلك بارتياب. وعبرت الكاتبة السعودية فوزية أبو خالد ببلاغة عن هذه الريبة في مقالها بعنوان «تراث وتراث» (عريبي ١٩٩٤: ٥٧). ففي تمثيلات الدولة للقبلية لا يُحفَظ إلا الفولكلور.

وكما تُصور القبلية على أنها نقيض النظام الأخلاقي الإسلامي، فإن الهويات المحلية أيضاً ترفض في هذه المدونات التاريخية. وثمة محاولة متعمدة لتمييع طابع المناطق المختلفة باستثناء نجد. ويشدد التاريخ السعودي على دور نجد المركزي في توحيد البلاد، إذ لم تكن نجد مهد

الحركة الإصلاحية الوهابية فحسب، بل موطن آل سعود التقليدي أيضاً. وتصور نجد في الذاكرة التاريخية على أنها المنطقة التي أخذت على عاتقها تحقيق الخلاص.

لا تتطرق مرويات الدولة إلى فترة الملك سعود (١٩٥٣ ـ ١٩٦٤). وما هذا بمستغرَب إزاء الصراع على السلطة الذي ارتبط بهذه الفترة المضطربة من التاريخ المعاصر. وتُحجَب هذه المعرفة عن التلاميذ لصالح سرد معظم يحتفي بـ«الاستقرار» و«التحديث». يضاف إلى ذلك أن مرويات الدولة تعتبر النفط «نعمة» مع ما ينطوي عليه ذلك من افتراض أنه مكافأة على جهود مباركة قامت بها زعامة ورعة. ويُعامَل الامتياز النفطي عام ١٩٣٣ بوصفه دليلاً على حنكة ابن سعود السياسية وبُعد نظره. ولا تظهر في هذا السرد حياة العمال السعوديين الأوائل أو الدور الذي قامت به شركة نفط أميركية. وتُصور «سعودة» «آرامكو» في الثمانينيات على أنها عملية طبيعية بعد تأهيل السعوديين وتوافر الخبرات المحلية. وفي حين تزين عملية نقل الملكية هذه بوصفها تطوراً ارتقائياً، يبقى التلاميذ في جهل بكيف ولماذا حدث ذلك. ويجري تفادي خطابية «التأميم» لأنها تستدعي صور تسييس ونضال ضد شركة أجنبية. وحقيقة أن «سعودة» «آرامكو» لم تخطر بالبال إلا في وقت متأخر جداً هي الأخرى ستصبح إشكالية. فالمرويات الرسمية تُسقط الحقائق الخلافية التي يمكن أن تلقي ظلالاً من الشك على الأجندة السياسية للفئة الحاكمة.

الخطاب السياسي

يميل الخطاب السياسي إلى التكرار في تأكيد الموضوعات الثابتة في دراسات تاريخية لكنها تتناقض أيضاً مع جوانب من هذا التاريخ. ولنأخذ الخطاب الذي ألقاه الملك بعد حرب الخليج عندما أعلن سلسلة من الإصلاحات[1]. استهل الملك خطابه بالتحايا الإسلامية التقليدية ثم مضى إلى تذكير مستمعيه بـ«بواقع تاريخي» راسخ حسب تعبيره، في «حقائق تاريخية». وكان التشديد الرئيسي على كيف وُلدت العربية السعودية في العصر الحديث، مجتمعاً ونظاماً سياسياً.

قال الملك إن الدولة السعودية الأولى قامت في التاريخ الحديث على أساس الإسلام قبل أكثر من قرنين ونصف القرن باتفاق إصلاحيَين هما الإمام محمد بن سعود والشيخ محمد بن

(١) نوقشت الإصلاحات التي أعلنت في هذا الخطاب في الفصل السابق (السادس).

عبد الوهاب «رحمهما الله». وأقيمت هذه الدولة على أساس برنامج واضح في السياسة والحكم والمجتمع. وهذا البرنامج هو العقيدة الإسلامية والشريعة (بالوك Bulloch ١٩٩٢ : ٣٠).

ثم تابع الملك، بسرد عام استحضر ذكريات تاريخية مشتركة عن الطريقة التي تكونت بها المملكة. وحدد الخطاب الفاعلَين التاريخيين الرئيسيين. ويُفتَرَض هنا أن اختيار حوادث التاريخ الرسمي لم يكن عشوائياً من بين وقائع بالغة التنوع والاختلاف، بل كان انتقاؤها بعناية لتثبيت النظرة الرسمية إلى النظام السياسي. واختارت رواية الملك للتاريخ تحالف آل سعود والحركة الإصلاحية الوهابية بوصفه نقطة الانعطاف التي جاءت إيذاناً بظهور العربية السعودية الحديثة. واستعرض الخطاب الفترة التي سبقت قيام الحلف السعودي الوهابي عام ١٧٤٤ بوصفها زمن خوف وانقسام بمعنى حالة طبيعية «هوبزية» Hobbesian عامة تتسم بفوضى أخلاقية واجتماعية. ثم صور الحلف على أنه كان خلاصاً للناس من الانحطاط الاجتماعي والسياسي والديني والأخلاقي، مفضياً إلى حقبة يسودها الأمن والوئام والأخوة والتضامن. ثم انتقل الملك إلى حقبة تاريخية أحدث عهداً هي توحيد العربية السعودية على يد ابن سعود، مؤكداً بقاء آل سعود أمناء للإسلام، عقيدة وشريعة، خلال عهد الملك عبد العزيز الذي بنى العربية السعودية ووحدها على أساس هذا البرنامج برغم الأوضاع التاريخية الصعبة التي واجهها. وبرغم هذه المصاعب عقد العزم على تطبيق المنهج الإسلامي في الحكم والمجتمع (المصر السابق).

وتطرق الملك في خطابة إلى «الوطن والمواطنين». وفي حين أن الخطاب صور الاثنين في إطار إسلامي وعربي عام، فقد كان التشديد الرئيسي على السمات المحددة والفريدة للمجتمع والحكم السعوديين. وطُرحت هذه الخصوصية بوصفها دليلاً على تطور العربية السعودية تطوراً تاريخياً مستقلاً منح البلاد طابعها الحالي. وإذ بقيت البلاد جزءاً من الأمتين الإسلامية والعربية، فإن خطاب الملك استحضر «اختلاف» الأمة السعودية «وتفردها» و«خصوصيتها». ودأب على تذكير مستمعيه بـ«وضع المملكة المميز». وصور هذا الاختلاف على أنه نتاج تفوق «الأعراف والتقاليد السعودية والمجتمع والحضارة» السعودية «المتميزة». وحاول هذا الخطاب أن يحقق هدفين: الأول أن يؤكد أن العربية السعودية جزء من كيان أكبر هو العالمان العربي والإسلامي، الأمر الذي يعني أنها تتبنى قضاياهما وتشاطرهما اهتماماتهما. وبعد تثبيت ذلك، هيأ المستعمين لقبول المبدأ الثاني: مبدأ التطور المنفصل في إطار ذلك الكيان الأوسع. وكانت دلالات

ذلك تدور حول قضية الحكم. ويبدو أن الخصوصية الثقافية تتطلب انفصالاً على مستوى الحكم والسياسة.

أُوليَ دورُ الفرد اهتماماً عابراً في الخطاب. وجاء ذلك في سياق كلام الملك عن تحديث البلاد والتطور اللاحق. وقال إن المواطن السعودي هو الركيزة الأساسية لتقدم «هذا الوطن» وتطوره، وإن الحكم لن يألو جهداً في عمل كل ما من شأنه تأمين هذه السعادة والطمأنينة (بالوك ١٩٩٢ : ٣٠). ولم يكتسب دور الفرد أهمية إلا في نهاية الخطاب عندما قدم الملك توقعات للمستقبل. ولم يكن ذكر المواطنين السعوديين ورد قبل ذلك. وفي الحقيقة أن الأجزاء السابقة من الخطاب ركزت حصراً على الإسلام ودور آل سعود. ولكن مسؤولية المستقبل ألقيت على عاتق الفرد الذي يصبح حينذاك أداة «التقدم والرقي» (الرشيد ١٩٩٦ : ٣٧١ ـ ٣٧١).

الخطاب السياسي والتاريخ المكتوب، كلاهما يشدد على ظلام الفترة التي سبقت الحقبة السعودية ـ الوهابية. ويجري تذكير السعوديين على الدوام بواقعة تاريخية تحقق خلاصهم منها بفضل عاملين تاريخيين كبيرين، هما المصلح الوهابي وآل سعود. وبدا أن هذا التأويل للماضي ينطوي على دعوتين. فهو يُرضي المؤسسة الدينية بما يُنسَب إلى الوهابية من فضل في رسالة حولت المجتمع وأعادته إلى جادة الصواب، ويبُرز دور آل سعود في عملية التحديث. ولكن الخطاب السياسي لمح إلى الطابع العربي للعربية السعودية، وهي قضية كانت تُنحى إلى مرتبة ثانوية في كتب التاريخ المدرسية المقررة. ورأينا كيف تصف كتب التاريخ المدرسية القومية العربية بأنها «جاهلية ملحدة». وبقي التذبذب بين هوية إسلامية وتراث عربي تناقضاً لم يُحَلَّ حتى الآن. وكان الملك فهد ألقى خطابه في وقت أخذت معارضة إسلامية محلية تكتسب زخماً متعاظماً في أعقاب حرب الخليج عام ١٩٩١. ولعل إبراز الطابع العربي للعربية السعودية كان سلاحاً سياسياً ضد المد المتصاعد للاستياء الإسلامي. وفي حين لم يكن بمقدور الملك فهد أن ينتقص من دور الحركة الوهابية في توطيد أركان الدولة السعودية الأولى عام ١٧٤٤، فإن خطابيته «العربية» كانت محاولة لإيجاد حيز في المخيلة العامة تقيم فيه مصادر هوية بديلة. وبلغ تهميش الأساس الإسلامي للدولة ذروته بالاحتفالات المئوية التي ستُبحَث لاحقاً في هذا الفصل.

عمل إغفال التاريخ المحلي مؤخراً في السرد التاريخي الرسمي، على تشجيع مرويات مضادة بأقلام مثقفين سعوديين من المناطق والأقاليم (الرشيد ١٩٩٨). ويحتفي عملهم بالتقاليد والثقافة المحلية. وكان الجزءان اللذان كتبهما الحسن عن تاريخ الشيعة في الأحساء، يؤشران إلى بداية عملية كتابة التاريخ من موقع مهمش ومثل هذه الكتابات تتحدى السرد التاريخي الرسمي. وإذ تحرم المرويات الرسمية شيعة السعودية من احتلال موقع في ذاكرة البلاد التاريخية، كما يتبدى ذلك في إسقاطهم من الكتب المدرسية، فإن الحسن يعيد طائفته إلى الزمن التاريخي بوصفها عاملاً فاعلاً[١]. وهو يعلن أن أهدافه تتمثل في، أولاً، تقديم التاريخ الحقيقي للطائفة الشيعية السعودية وثقافتها وهويتها، التي مُحيت من المروي السعودي وكأن لا وجود لها، وثانياً، تسليط الضوء على التمييز الواقع ضد الشيعة في ظل الحكم السعودي (الحسن ١٩٩٣: الجزء الأول، ص٧).

يقدم عمل الحسن أصول الطائفة الشيعية باعتبار أنها تعود إلى زمن الرسول محمد (ص). وهو يعدد المجموعات القبلية الرئيسية في الأحساء والقطيف والحجاز، ويقر بأن أصول الشيعة القبلية لا يمكن أن تُقتفى بسهولة نظراً إلى أن أفراد الطائفة توطنوا في الواحات والمدن زمناً أطول من باقي السكان. ويذهب الحسن إلى أن التوطن تسبب في إضعاف الولاء القبلي وفقدان الذاكرة بشان النَّسَب. وهو يرفض الادّعاء القاتل إنه بسبب تشابه اللهجة الشيعية مع اللهجة العراقية، فإن الاستنتاج الذي ينبغي الخلوص إليه فوراً هو أن أصل الطائفة من العراق. ويُفسَّر التشابه اللغوي بأنه دليل ارتباطات لاهوتية ودينية حافظ عليها الشيعة السعوديون مع الحوزات العلمية الشيعية في العراق. ويخلص الحسن إلى أن الشيعة جماعة محلية جذورها في العربية السعودية، على الضد من دعوى الخطاب السعودي الرسمي الذي يذهب إلى أن أصول الشيعة من العراق وإيران.

يلخص الحسن تاريخ الشيعة في القرن التاسع عشر، ويسلط الضوء على المحاولات السعودية لإخضاعهم. وهو يحتفي بتطور الطائفة الفكري في حقول الأدب والعلوم الإسلامية.

---

(١) من المصادر الغربية عن شيعة العربية السعودية كواندت Quandt ١٩٨١؛ بوكان Buchan ١٩٨٢؛ غولدبرغ Goldberg ١٩٨٦؛ إيندي Ende ١٩٩٧؛ وكوستاينر Kostiner ١٩٨٧.

يقدم تاريخ الحسن تفسيراً لضم الأحساء إلى السلطة السعودية في حوالي عام ١٩١٣. وفي حين أن كتب التاريخ المدرسية المشار إليها سابقاً، تصف العملية بأنها «توحيد»، فإن الحسن يسميها «احتلالاً»، ويتحدى صحة دعوا ابن سعود أن كل ما كان يفعله هو «استعادة حقوق أجداده التاريخية في هذه الأرض». وكانت الأحساء إقليمياً عثمانياً في القرون: السادس عشر والتاسع عشر والعشرين. ويبين الحسن أنه في القرن التاسع عشر استمر الحكم السعودي في الأحساء ٣١ عاماً فقط، وكان متقطعاً بسبب الثورات المحلية. كما أنه يرفض السرد السعودي الذي يذهب إلى أن سكان الأحساء المحليين «دعوا» السعوديين إلى إنقاذهم من حكم الأتراك[1].

إن عمل الحسن محاولة لإعادة كتابة التاريخ المحلي بوحي من أجندة سياسية. وتتكرر موضوعاته في مطبوعات شيعية أخرى بينها **الجزيرة العربية**[2]. وكانت هذه المجلة توفر منبراً لإبراز موضوعة الهوية المحلية، لا للشيعة فحسب بل هوية جماعات أخرى مثل الحجازيين. وتجادل المجلة بأن الهوية المحلية أضعفتها «سياسة التنجيد»، في إشارة إلى التفوق الذي اكتسبته نجد في السرد الرسمي وفي السياسة على السواء. ويشكك أحد الكتاب في التمثيلات الرسمية لهذا التفوق التي يوصف فيها بأنه إنقاذ بقية الجزيرة العربية من الانحطاط السياسي والأخلاقي. ويدحض تفسيره خرافة هذا التسيد بالتشديد على أن الوحدة الحالية للمنطقة تقوم على ركنين هما «العصبية والنجدية» و«العصبية المذهبية»، وأن ما يُسمى عملية التوحيد استعاضت عن التكافل الاقتصادي والاجتماعي التقليدي بين المناطق المختلفة بتبعية تامة إلى ند وفئتها الحاكمة. وبحسب هذا الكتاب، فإن النجديين يسودون على حساب المناطق الأخرى. وتدور خطابية الكاتب حول اللامساواة السياسية بين نجد والمناطق الأخرى من العربية السعودية (**الجزيرة العربية** ١٩٩٢: الجزء السادس، ١٢ ـ ١٨).

---

(١) يبين الحسن أن الشيعة تمتعوا في ظل الحكم العثماني بحرية أوسع منها في ظل الحكم السعودي.

(٢) أصدرت المعارضة الشيعية السعودية في لندن مجلة شهرية هي الجزيرة العربية. توقفت المجلة عن الصدور في عام ١٩٩٣. لمزيد من التفاصيل انظر الرشيد ١٩٩٨؛ وفندي Fandy ١٩٩٩. ظهرت منذ عام ١٩٩٣ مجلة أكاديمية شيعية سعودية جديدة في لبنان باسم الواحة. موضوعة الهوية الشيعية تتناولها مجلة الواحة ١٩٩٩: الجزء ١٥، ١٥٧ ـ ١٦٢.

وفي محاولة لتأكيد الخصوصية المحلية، تبرز عالمة أنثروبولوجية حجازية أهمية اللباس الملحي الذي كان من سمات الهوية الحجازية (يماني ١٩٩٧). ولكن توطيد أركان الدولة اقترن بإشاعة التجانس في الملبس على حساب الهوية المحلية. وأصبح من الممارسات العامة أن يرتدي الرجال السعوديون الثوب الأبيض الطويل وغطاء الرأس بينما تتحجب النساء كافة بالنقاب الأسود. وتفرض الشرطة الدينية التقيد بقواعد الملبس لأنها تعتبره جزءاً من بناء وفرض نظام أخلاقي إسلامي يقضي بمبدأ الاحتشام المتواضع. ويخفي هذا التماثل في المجال العام تنوعاً محلياً يتبدى في اختلاف الأزياء. واستناداً إلى يماني، فإن البعض ذهب إلى أن حرمان الناس من هويتهم الإثنية من خلال الملبس هو بمثابة تحول يُقارَن بالتغييرات التي فُرضت خلال الفترة الكولونيالية. بكلمات أخرى، أن البعض يشعر بأن مثل هذا التغيير الجذري يؤكد الهيمنة السياسية للنخبة الحاكمة. وفي زمن توحيد المملكة في عام ١٩٣٢، كانت إزالة الفوارق الإثنية إحدى الطرق التي سعت بها النخبة الحاكمة للسيطرة على البلاد الشاسعة. وهكذا، قرر مؤسس المملكة العربية السعودية عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود أن على جميع الذين يخدمون في وظائف حكومية أن يرتدوا اللباس البدوي النجدي: الملبس الذي يشاهد على نطاق واسع في العربية السعودية اليوم (يماني ١٩٩٧: ٥٧ ـ ٥٨).

تتردد هنا هيمنة نجد السياسية والاجتماعية التي يرد ذكرها في كتابات الشيعة السعوديين، ويفسر فرض الطريقة النجدية في الملبس على جميع المناطق، بأنه جانب من التجانس الذي فرضته الفئة الحاكمة على الحجاز. وتفترض يماني أنه كانت هناك، تاريخياً، «هوية إثنية حجازية» متميزة تتبدى في عادات وتقاليد محلية. وإذ تحرم مثل هذه الهوية من التعبير عن نفسها علناً، فإنها تبقى محصورة في المجال الخاص وتتركز على الممارسات الزوجية والمأكولات خلال شهر رمضان (يماني ١٩٩٧).

وبلغة مماثلة، تُبرز دراسة أنثروبولوجية للتطورات الاجتماعية ـ الاقتصادية في عنيزة؛ إحدى المدن الكبيرة في القصيم، أهمية التجارة والزراعة. وتتحدى الدراسة السرد التاريخي السائد عن القبائل المتناحرة في الجزيرة العربية بالنظر إلى وجود بنى تحتية سياسية واقتصادية منظمة. ولا تتمحور الدراسة حول «القبائل»، بل حول التطور الحضري للمدينة وعمليات الإنتاج السياسي والاقتصادي[١]. وتقول كاتبة من عنيزة إن «العملية الملحية لتكوين الدولة في نجد تسبق الدولة

(١) حول مستوطنات حضرية أخرى في نجد. انظر الرشيد ١٩٩١.

العربية السعودية الحالية بعدة قرون ... وبالإضافة إلى الأدوار المعروفة التي قام بها عبد العزيز وآل سعود ، فإن هذه الدراسة تلفت الانتباه إلى أدوار التجار والمجموعات المدينية من نجد في عملية تكوين الدولة» (التركي وكول al – Torki and Cole ١٩٨٩ : ٢٣٣ ـ ٢٣٤).

ينال هذا التحول في مركز التشديد ، من غالبية الخطابية الرسمية عن الدور التاريخي للدولة السعودية في إحلال السلام والنظام أو حتى في صنعهما . ويؤكد المؤلفون في تقويمهم لدور الأمراء المحليين، أنهم «كانوا يوفرون عدداً من الوظائف مثل الدفاع والتوسط والتحكيم، التي ترتبط عادة بالدول. وفي هذا الصدد ، لم يكن الأمراء بمثابة أعيان أو شيوخ قبائل فحسب، بل كانوا أيضاً رؤساء تشكيلات سياسية قائمة في واقع الأمر» (التركي وكول ١٩٨٩ : ٢٣٣). ويتعارض هذا مع الصور التاريخية الرسمية للزعامة المحلية في الحقبة ما قبل الفترة السعودية ـ الوهابية حيث يوصف الأمراء المحليون بالمستغلين الجشعين الذين لا يكفون عن الاحتراب في ما بينهم لتعظيم ثرواتهم على حساب الاستقرار . وهذه الدراسة هي، في جزء منها، رد على ما يُسمى الأنماط السلبية «الاستشراقية» في تمثيل سكان الجزيرة العربية حيث تسوط صورة البدوي الجبار . ويحدث أن هذه الصورة سائدة أيضاً في السرد التاريخي الرسمي للدولة: نعوت تصف البدو بأنهم أوباش جهلة يُعاد إنتاجها في التاريخ الرسمي من دون تقويم جدي لصلاحيتها . ويذهب المؤلفون إلى أنه في عنيزة «كانت الغزوات والحرب سمة بارزة في الفولكلور المحلي، في شكل قصائد بالدرجة الرئيسية. فالنزاعات والعنف هي الأشياء التي تستحوذ على المخيلة الشعبية» (المصدر السابق: ٢٩). هذه الصور السلبية للماضي أدمجت في الحقيقة بالتاريخ الرسمي.

هذا النوع من النشاط الفكري الذي تمثله تفسيرات الحياة الاجتماعية والسياسية، قد يؤشر إلى بداية عملية يُطعَن فيها بالسرد التاريخي الرسمي. إن هذه الأعمال تُضعف السرد الرسمي بتأكيد الخصوصية والثقافة والتقاليد المحلية. وفي الأحساء والحجاز والقصيم، استشار السرد الرسمي دعاوى مضادة بأصالة تقاوم التماثل. ولعل الهوية الوطنية السعودية في سياق أمة إسلامية عامة، تبقى موضع احتفاء في التاريخ الرسمي والخطاب السياسي، ولكن مرويات بديلة تُنتَج لوضع السعوديين في سياق خبرة معيشة. وفي حين أن هذه المرويات البديلة تستند إلى الإسلام، فإنها تضيف بعداً كثيراً ما طُمس في التمثيلات الرسمية، وهو الاحتفاء بالتقاليد

المحلية في الإطار الإسلامي العام. وبخلاف التاريخ الرسمي، فإن هذه المرويات البديلة لا تدين الماضي ولا تُبرز الانحطاط الأخلاقي والاجتماعي المزعوم للأجيال السابقة، بل تحاول أن تسلط الضوء على الشخصية المحلية بالاستناد إلى قراءة الماضي قراءة معقولة أكثر[1].

بالإضافة إلى هذا العمل الأكاديمي الذي قام به علماء ومؤرخون سعوديون ذوو مؤهلات عالية عن المجتمع السعودي، يجري منذ السبعينيات تداول نوع آخر من الأعمال الشعبية المضادة للرواية الرسمية. هذه الأعمال من إنتاج معارضين سعوديين في الخارج وكتاب عرب آخرين برعاية حكومات مناوئة للسياسات السعودية ـ مثل إيران في الثمانينيات، والعراق وليبيا في التسعينيات ـ. وكانت هذه تُنشر سابقاً في لبنان ومصر، ولكن غالبيتها طبعت في عهد أحدث في الغرب، وخاصة في لندن. وفي حين أن الأعمال الأكاديمية محدودة التداول بحكم طبيعتها، فإن المنشورات الشعبية والمجلات الدورية والكتيبات تصل إلى دائرة أوسع من السعوديين الذين يُقبلون على شرائها بلهفة خلال إجازاتهم المنتظمة في الخارج. فهذه الأعمال متاحة بسهولة. ويمكن شراؤها من محلات بيع الجرائد وحتى من أسواق السوبر ماركت في المناطق التي تتركز فيها تجمعات كبيرة من المغتربين العرب في لندن وباريس وغيرهما من المدن الأوروبية الكبيرة. وغالبية هذه المطبوعات ممنوعة في العربية السعودية، لكن السعوديين يجدون طرقاً لأخذها معهم إلى البلد. ويصعب تقدير سعة تداول مطبوع على وجه التحديد، ولكن الأدلة القائمة على ما يُروي، تشير إلى أن من الشائع أن يشتري السعوديون عدة نسخ من مطبوع واحد وينقلوها إلى أصدقائهم في الداخل. ويحرص باعة عرب في بعض أحياء لندن على ترويج هذه الأعمال ولفت انتباه الزبائن المحتملين إلى أحدث المطبوعات.

هذه الأدبيات لا تمثل تقويمات جادة للتاريخ السعودي أو التطور الحالي، لكنها تستجيب لشؤون سياسية واقتصادية راهنة. وهي تتحدى الروايات الرسمية عن الأحداث، وتكشف التناقضات والثغرات في تفسيرات الدولة لها. وعلى سبيل المثال، أن قتل الملك فيصل في عام ١٩٧٥ وحصار المسجد في مكة عام ١٩٧٩ أطلقا العديد من التعليقات والتفسيرات المضادة.

---

(١) لا غرو في أن العديد من علماء الاجتماع السعوديين يكتبون بالإنكليزية ويقيمون في الخارج. ويشترك علماء الاجتماع في هذه الخبرة مع الكثير من الكتاب والأدباء السعوديين الآخرين الذين تُنشر أعمالهم في الخارج. عن الأدبيات والكاتبات السعوديات، انظر عربي ١٩٩٤. للاطلاع على أعمال بديلة صدرت في الخارج، انظر عبد الله ١٩٩٧.

ومن العناوين التي ظهرت في حينه فيصل: القاتل والقتيل (الشمراني ١٩٨٨)، زلزال جهيمان في مكة (القحطاني ١٩٨٧)، وثورة في مكة (أبو ذر ١٩٨٠). ويسلط بعض هذه المطبوعات الضوء على قضايا الفساد بين أفراد الأسرة الملكية وفضائحهم في الداخل والخارج، وينال من صدقية شخصيات سياسية كبيرة (الشمراني ١٩٩٨). ويشكل استحواذ أفراد آل سعود وموظفيهم على الثروة النفطية لأغراض الكسب الشخصي، موضوعة شعبية في الأدبيات المضادة (عبد الله ١٩٩٠؛ القحطاني ١٩٨٨). كما تتوافر بكثرة التكهنات عن النزاعات الداخلية وصراعات الأجنحة بين أفراد الفئة الحاكمة (القحطاني ١٩٨٨؛ الشيخ ١٩٨٨). وفي غالبية الحالات، يستخدم الكتاب أسماء مستعارة، ويمكن التعرف إلى بعض ناشريهم بينما يبقى الكثير من ناشريهم الآخرين غامضين أو وهميين.

مثل هذه المطبوعات يستثمر وجود رغبة ملحة بين السعوديين في البحث عن مصادر بديلة لتفسير الشؤون الراهنة. وحقيقة أن هذه الأعمال ممنوعة في العربية السعودية، تزيد من جاذبيتها. إنها متاحة على نطاق واسع في الخارج، وترهاتها وصورها الجريئة وحتى رسومها الكاريكاتيرية تضيف إلى مرغوبيتها. والكتاب الذين يقدمون رؤى بديلة مهما تكن مفككة أو غير مقنعة، مرشحون إلى أن يكونوا أصحاب شعبية في مجتمع تمخضت رقابة الدولة عن شعارات وخطابية غير معقولة بالقدر نفسه. وهذه الأعمال تهدم الدعاية الرسمية وتقاوم قدرتها على التأثير في المخيلة العامة. وكان التلاعب بهذه المخيلة الشعبية بلغ ذروته باحتفالات الذكرى المئوية في عام ١٩٩٩.

احتفالات الذكرى المئوية: عودة إلى الاستيلاء على الرياض

برغم أن المملكة العربية السعودية تأسست في أيلول/ سبتمبر ١٩٣٢، فإن الحكومة فاجأت مواطنيها والمراقبين في الخارج بقرارها الاحتفال بمرور مئة عام على حكم آل سعود في ٢٢ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٩ (١٤١٩ هـ)، حين كان عمر المملكة ٦٧ عاماً فقط. وكانت البلبلة ناجمة عن حقيقة أن الخيار وقع على استيلاء ابن سعود على الرياض (في التقويم الإسلامي حدث هذا في ٥ شوال ١٣١٩ هـ) ليكون بداية عملية التوحيد التي تكللت بقيام المملكة في عام ١٩٣٢. وفي كانون الثاني/ يناير ١٩٩٩ كانت مرت مئة عام على الاستيلاء على الرياض. وأصبح هذا الحدث أسطورة حشدت الحكومة مواردها حولها للاحتفال بمرور مئة عام على الحكم السعودي.

وفي حين أن الاستيلاء على الرياض كان سائداً على الدوام بوصفه من مرويات التاريخ المكتوب، فإنه لم يكن قط مناسبة احتفالية بوصفه حدثاً وطنياً.

في عام ١٩٥٠ أعلنت احتفالات يوبيلية بمناسبة الاستيلاء على الرياض، لكنها الغيت قبل أسبوع من الموعد المقرر لبدئها. وأوضح نائب وزير الخارجية حينذاك للسفارات الأجنبية المدعوة أن الغاء الاحتفالات كان بسبب اعتراضات أبداها مستشارو الملك الدينيون الذين أعلنوا أن الاحتفالات الوحيدة الجائزة في الإسلام هي عيد الفطر بمناسبة انتهاء شهر رمضان، وعيد الأضحى بمناسبة موسم الحج. وكانت تفسيرات أخرى تتعلق بحقيقة أن الملك كان شديد الحزن لوفاة أخته ولم يكن يرغب في إقامة أفراح (الرشيد ١٩٨٥: ١٨).

وفي الوقت الذي أسفرت فيه ضغوط المستشارين الدينيين عن إلغاء الاحتفالات في عام ١٩٥٠ فإن الضغوط نفسها أخفقت في تحقيق نتيجة مماثلة في عام ١٩٩٩. وقبيل بدء الاحتفالات، تردد أن الشيخ عبد العزيز بن باز أصدر فتوى أعلن فيها أن الاحتفالات «تقليد» يحاكي «الكافرين». وُعدَّت مثل هذه الاحتفالات نوعاً من البِدَع في التراث الإسلامي. وقبل أسبوع من انطلاق الاحتفالات، أُلصقت نسخ من الفتوى على الحيطان ومداخل المساجد في الرياض. وإذ مضت الحكومة قدماً بخططها، تردد أن الأنوار الملونة ومظاهر الزينة الواسعة اختفت من واجهات المتاجر (صحيفة **القدس العربي**، ٤ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٩).

وانعكست روح الاحتفالات بالذكرى المئوية في قصيدة لم تظهر في المطبوعات المحلية المدعومة من وزارة الإعلام فحسب، بل في صحف دولية أيضاً مثل صحيفة **فايننشال تايمز** (٢٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٨). وكان يراد بالقصيدة أن تجسد أفكار ابن سعود ومشاعره حين كان يستعد لاستيلائه الأسطوري على عاصمة «أجداده» مع المخلصين من رجاله. وتوثق القصيدة قتل عجلان؛ الحاكم الذي عينه ابن رشيد في قصر المصمك، وهو حصن مبني من الطين تحول الآن إلى منحف وطني في حي الرياض القديم. تبدأ القصيدة بابن سعود وهو ينعى منفاه في الكويت مبعَداً من قلب الجزيرة العربية وبيته في الرياض الذي سلبه آخرون، وكيف كانت الغربة صعبة عليه وعلى أهله الذين حرمتهم من ملامسة رمل نجد بأياديهم.

وبعد أن يصف ما لقيه من كرم وحفاوة خلال نفي أسرته في الكويت، يُعتقد أن ابن سعود سأل من سيركب معه في رحلته الخطرة.

وصلت الفرقة الغازية ليلاً إلى الرياض وانتظرت أن يظهر عجلان بعد صلاة الصباح الباكر. وفي ذلك الوقت حُسم مصير أمير الرياض الذي انقض عليه ابن سعود ورجاله كما ينقض الأسد على فريسته.

نُفذت عملية الاستيلاء على الرياض. ويتوقف ابن سعود عند الحدث متأملاً فتعود به الذكرى عشرات السنين.لم يكن الاستيلاء على الرياض سوى خطوة على طريق شاق وطويل. وبعد معارك كثيرة عقد ابن سعود العزم على بناء دولة مؤمنة، عزيزة وقوية، العدل سيفها والإيمان درعها.

بهذا التركيز على الاستيلاء على الرياض، كان من الواضح أن الاحتفالات بالذكرى المئوية لم يكن يُقصد بها تعبئة البلاد حول موضوعات وطنية أوسع. وكان يراد من المشهد أن يحتفي بمئة عام من حكم آل سعود الأسرى. وبتحديد أكثر، كانت الاحتفالات تمجيداً لحقبة ابن سعود، وكانت في المقام الأول إشادة بمنجزات رجل واحد بدلاً من منجزات «الشعب» أو «الأمة» المحددين بمفردات إسلامية عمومية ومبهمة. وصور السكان على أنهم متلقو «نعمة»، ويُنتظر منهم أن يجددوا البيعة لمصادر هذه النعمة.

حشدت الدولة موارد ضخمة للاحتفال بالمناسبة. وأتاحت سيطرتها على وسائل الإعلام المطبوعة والمرئية والإلكترونية، تغطية الاحتفالات تغطية لم يعهد لها نظير، في العربية السعودية وفي الخارج على السواء. وتابع السعوديون الاحتفالات على شاشات التلفزيون المحلي بينما شاهدها العالم على القنوات التلفزيونية الفضائية. وأصدرت وزارة الإعلام مئات المنشورات والكتيبات والأدبيات الدعائية التي توثق مراحل «النهضة» خلال السنوات المئة الماضية.

وكان شعار الاحتفالات «مئة عام من التوحيد والبناء». ووُزعت على الضيوف السعوديين والأجانب كتب مصورة صقيلة خاصة تحوي صوراً التقطت لابن سعود في مراحل مختلفة من حياته. وصاحَبَ ذلك إنتاج سيرة مختصرة لحياته على قرص مدمج CD – ROM وعلى أشرطة فيديو. وتولت السفارات السعودية توزيع هذه الكمية الهائلة من الأدبيات في الخارج.

ونشرت الشركات المالية والمصارف والمستشفيات والجامعات والمدارس السعودية ودوائر الدولة المختلفة، بيانات تهنئ بها الأسرة الملكية في الصحف السعودية. والقراء السعوديون

يعرفون هذا النوع من الإعلانات التي كثيراً ما تُنشر خلال عيدي الفطر والأضحى. وكانت الإعلانات بالذكرى المئوية تخاطب الملك وولي العهد وكبار أفراد الأسرة الملكية بكلمات «الامتنان» لمئة عام من الأمن والسلام والاستقرار. وتضمنت الإعلانات أبياتاً شعرية وآيات قرآنية تصدرت صورة ابن سعود في الوسط تحيط بها صور الملك فهد وولي العهد الأمير عبد الله ووزير الداخلية الأمير نايف. وضم أحد الإعلانات سبع صور فوتوغرافية لكبار أفراد الأسرة الملكية بالإضافة إلى الصورة المركزية لابن سعود، مطبوعة على خلفية خريطة لكامل الجزيرة العربية (صحيفة **الشرق الأوسط**، ٢٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٩: ٦). وكانت الخلفية تتألف أحياناً من صورة ابن سعود على صهوة جواد أو على ظهر جمل. وكانت الاحتفالات بالذكرى المئوية مناسبة لتجديد البيعة لأفراد الأسرة الملكية الحالية الذين استثمروا إرث والدهم وذكراه.

كانت الصحف مليئة بالقصائد البطولية، منظومة بالشعرين النبطي والكلاسيكي على السواء. واحتفى الشعراء السعوديون بحياة ابن سعود وغزواته. وكانت القصيدة المكرسة لاستيلاء ابن سعود على الرياض واحدة من بين قطع شعرية عديدة، ولكنها كانت غير معهودة بطريقتها في التقاط روح الاحتفالات: لم تنشر في الصحف السعودية وحدها، بل في صحف دولية ذات انتشار واسع وسمعة عالية أيضاً. وفي الأعمال التاريخية والقصائد الشعرية، تستحضر اللغة المستخدمة صور الفروسية والورع والمهارات العسكرية والبطولة والكرم والشجاعة والعدل والعلم وغيرها من الصفات المنسوبة إلى «المؤسس». وصورة ابن سعود بوصفه «أسد الجزيرة» و«صقر الجزيرة»، تطبعه في الذاكرة باعتباره شخصية استثنائية تُذكر لما تحلت به من صفات أسطورية. وتظهر خصال أخرى من استخدام أوصاف مثل «الإمام» و«الملك»، وبذلك وضع السلطة الملكية في إطار إسلامي.

عرضت مسرحية خاصة بعنوان «ملحمة التوحيد» من تأليف بدر بن عبد المحسن، حفيد ابن سعود، على مسرح في الرياض احتفاء بالمناسبة. ويوظف عنوان الملحمة المعنى المزدوج لكلمة «توحيد»، في توحيد البلاد والتوحيد الديني. وهي تروي قصة رجل وامرأة وأفكارهما عن الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي في الرياض قبل أن يستولى عليها ابن سعود. وتبلغ الملحمة ذروتها بالاستيلاء الدرامي على الرياض مستهلاً حقبة جديدة من الرخاء. وشارك في العمل المسرحي العديد من الفنانين السعوديين الشعبيين مع أكثر من ألف آخرين بأدوار

ثانوية. وتولى مسرحي بريطاني إنتاج العرض الذي سجل على أشرطة كاسيت وفيديو وأقراص مدمجة.

كانت الاحتفالات بالذكرى المئوية تعميداً لنشوء «عبادة سَلَفية» تتمحور حول ابن سعود: عبادة كانت حتى ذلك الوقت مسطرة في التاريخ المكتوب برعاية الدولة. وفي حين كانت الدول في بلدان عربية أخرى منهمكة في تكريس عبادة الشخصية حول رؤساء أحياء، فإن العبادة في العربية السعودية تبجل سَلَفاً راحلاً. وأصبح ابن سعود طوطماً، رمزاً يُنتظَر أن تتمحور حوله الوحدة الوطنية. فهو شخصية رمزية أسبغت عليها طائفة كاملة من المعاني. واسمه يستحضر بداية الزمن التاريخي، كما يرتبط الاسم بالنهضة الحالية وتحول البلاد.

وتُكرَّس عبادة السَّلَف التي أُنشت حول ابن سعود باستعادة مقتنياته، التي يلتقط كل منها جانباً من شخصيته الفذة. إذ أعيدت سيارته الأولى، طائرته الأولى، سيفه الأول، مصحفه الأول، ختمه الملكي الأول وأشياء أخرى، وعُرضت ليراها الجمهور ويقدر عظمته. وأصبحت مقتنيات معروف أنها كانت مُلك ابن سعود أيقونات تمثل صفاته العديدة. مصحفه يمثل ورعه وإيمانه، بينما سيفه يعبر عن شجاعته وعنفوانه، وسيارته وطائرته ترمزان إلى ما أدخله من ابتكارات تكنولوجية. ويكون ابن سعود الوَرِع في هذه الأيقنة تحديثياً أيضاً، ويكون رجل السيف رجل فكر أيضاً.

الكتاب المصور للملك عبد العزيز الذي أصدرته وزارة الإعلام (١٩٩٦) يلتقط كل هذه الصفات في رسوم وصور بورتريه للملك. وتعقب الصور الشخصية لـ«المحارب الشاب» صور «رجل الدولة الحكيم» جالساً على كراسي وثيرة في قصوره يحيط به مستشاروه وأفراد حاشيته. وتستحضر مجموعة خاصة من صور الملك مع أبنائه وأخوته وغيرهم من أفراد الأسرة الملكية، صورة الأب ورب الأسرة الرؤوف (مجلة المجلة كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٩: ١٢ ـ ١٨). ويظهر ابن سعود في إحدى الصور مشاركاً في رقصة «العرضة» في الرياض بين «أبنائه وشعبه». ويظهر في صور أخرى وهو يقيم مآدب باذخة لضيوف أجانب. وتوثق اجتماعاته المبكرة مع ضباط ومبعوثين بريطانيين في صور تليها أخرى لشخص الملك مع زعماء العالم بمن فيهم روزفلت وتشرتشل والعاهل المصري الملك فاروق والعاهل الأردني الملك عبد الله الأول. وتستحث صور ابن سعود في سياقات محلية ودولية مختلفة، إحساساً بخلوده شخصية رمزية في المخيلة الشعبية.

ذُكِرت كلمات ابن سعود وسجلت في أجزاء عدة. ويسطر مطبوع أقواله كما وردت من مصادر أجنبية، وبذلك إضفاء هالة من الاعتراف الدولي بحكمته. ويشير مطبوع صادر عن وزارة الإعلام، إلى ما قاله ابن سعود عن بناء مملكته بسيفه وجهوده الشخصية، داعياً أبناءه إلى الاقتداء به وبذل جهودهم الذاتية والتوجه إلى الميدان واثقين بالنصر متوكلين على الله. (العربية السعودية ١٩٩٨: ٦٨).

كما ذكرت كلماته الأخيرة على فراش الموت التي يشدد فيها لفيصل على أن سعوداً أخوه، ويشدد لسعود على أن فيصلاً أخوه ويؤكد أن لا حول ولا قوة إلا بالله.

في مجتمع تُنسب «الأحاديث» عادة إلى الرسوم محمد (ص) في السنة النبوية، يسبغ تسجيل كلمات ابن سعود عليه معنى من القدسية جرى الاحتفاء به وقت الاحتفال بالذكرى المئوية. وتُذكر نصيحته لأبنائه قبل وفاته لما فيها من حكمة وبصيرة عميقة، وهي تحتفظ بحتها في الوقت الحاضر حيث وراثة العرش موضع تكهنات نظراً إلى تردي صحة الملك فهد في السبعينيات. وتعيد كلمات ابن سعود إلى الأذهان وحدة يعبر عنها الأب في شيخوخته، وينبغي بما هي كذلك أن تحظى باحترام الجيل الحالي. ومن هنا، التشديد على هذا الحديث الخاص في مادة منشورة.

ولولا الاعتراضات المحتملة من المراجع الدينية على تمثيلات الهيئات البشرية لأمكن بناء نصب تذكاري في أحد ميادين الرياض الكبيرة تكريماً للمؤسس. إلا أنه بدلاً من ذلك أصبح قصر المصمك حيث قتل حاكم الرياض في عام ١٩٠٢، هو «الموقع التاريخي»: النصب التذكاري الذي اكتسب مغزى مقدساً. وفي بلد عتبته المقدسة الوحيدة حتى الآن هي المسجد الكبير في مكة، رفع قصر المصمك، وهو موقع مدَنَّس يرتبط بفعل القتل، إلى منزلة المقدس. وفي حين أن غالبية السعوديين مطلعون على الرواية الرسمية عن الاستيلاء على الرياض، فإن بالإمكان تصورها الآن في المخيلة. ذلك أن الباب المؤدي إلى الفناء الداخلي للقصر موسوم بإشارة خاصة في الأدبيات الدعائية تقول إن هذا الباب شهد «المعركة الضارية بين الملك عبد العزيز وعجلان، حيث يمكن مشاهدة مكان الحربة التي انكسر رأسها في الباب» (وزارة المعارف ١٩٩٧).

وبرغم أن عجلان قتل على يد ابن جلوي، ابن عم ابن سعود، فإن مشاركة المؤسس في ما يسمى معركة الرياض، مؤشرة بالأثر الذي خلفته حربة الرماح. ويتركز تفسير الحدث على

تصويره عملاً بطولياً له خلفية من الخوف والتوجس. وفي حين يبقى ابن سعود خارج الصورة بوصفه إحدى الشخصيات على بوابة قصر المصمك، فإن انتباه الزائر يُلفَت إلى الأثر الذي تركته حربته. ويستمر تلغيز أسطورة ابن سعود، فهو يبرز بوصفه طوطماً مبجلاً، خلوده تتكلف به إشارات متواصلة إلى صوره وكلماته وأفعاله ومواقعه التاريخية.

قصر المصمك كان موقعاً من بين عدة مبانٍ تشكل المركز التاريخي للملك عبد العزيز، وهي سلسلة من المباني المرممة في الرياض افتتحها الملك فهد خلال الاحتفالات. وقُدِّرت كلفة الترميمات بـ١٦٦ مليون دولار (فيرمان فاند Firman Fund ١٩٩٩: ٥). ويضم المركز مسجد ابن سعود وقصر المربع والدارة وهي مكتبة أبحاث عامة تحوي من بين أشياء أخرى، مجموعة ابن سعود الخاصة من الكتب، وقاعة الملك عبد العزيز. وأصبحت هذه نُصباً وطنية، تعيد إلى الأذهان باستمرار أن ذكرى ابن سعود يمكن أن تُرسَى في أضرحة متعددة، لكل منها قدسيته.

بالإضافة إلى تكريم الشخصية الطوطمية المركزية، احتفلت مناسبة الذكرى المئوية بحياة ذريته وإنجازاتهم. وتشمل عبادة ابن سعود السَّلَفية شخصيات مبجلة أخرى. إذ ينال أبناؤه اعترافاً بوصفهم مواصلين كباراً لإرث المؤسس. وفي المواد المطبوعة، ترفق صور فوتوغرافية لملوك سابقين بصورة والدهم وإن تكن أصغر حجماً. وعندما تضاف أحياناً صور ملوك آخرين فإن الأضواء تميل إلى التركيز على الملك فهد وأكبر أفراد الأسرة الملكية في الوقت الحاضر. وبرغم عدم ظهور صور قريبات لابن سعود في الأعمال التي نُشرت بمناسبة الذكرى المئوية، فقد اعتُبر أن أخته نورة تستحق مقالة نُشرت في صحيفة سعودية (الشرق الأوسط، شباط/ فبراير ١٩٩٩). وفي مجتمع لا يزال الصوت النسوي فيه مكتوباً في المجال العام، كان مستغرَباً أن الاحتفالات اشتملت على سيرة لحياة هذه الرفيقة الأولى لابن سعود. وأبرزت المقالة مساهمتها واصفة إياها بأنها كانت سنداً دائماً ومصدر إلهام لأخيها (**الشرق الأوسط**، شباط/ فبراير ١٩٩٩).

ساهمت شهادات أجنبية وعربية في تعزيز صدقية السرد. فالطوطم ليس موضع تبجيل شعراء وباحثين سعوديين معاصرين فحسب، بل من جانب مراقبين ومعلقين أجانب أيضاً. وتوضع صدقية عبادة السَّلَف في سياق دولي أوسع، وتُجمَع استشهادات في مديح ابن سعود من مصادر أجنبية معروفة وتُطبَع شعارات تحتفي بإنجازه وحكمته وعبقريته السياسية. وتتخلل

السرد التاريخي مقتبسات من أعمال فيلبي وريحاني وفان دير مولن وبيل ودي غوري، بوصفها شهادات على حياته وجهوده الاستثنائية.

وزُجَّ باحثون عرب وأجانب في الاحتفالات بوصفهم مشاركين في «مؤتمر المملكة العربية السعودية في ١٠٠ عام» الذي عُقد في إطار الاحتفالات. وقد وصف البيان الافتتاحي لهذا الملتقى العلمي غير المسبوق الحدث بالإشارة إلى أن المؤتمر سيُطلع العالم أجمع على «أنجح تجربة في التقدم والحضارة، وأن السر الذي يمكن وراءها هو تمسك هذه الأمة وقيادتها وشعبها بالإسلام. وكان الأساس أرساه الملك عبد العزيز (رحمه الله) وحافظ عليه أبناؤه الميامين حتى عهد خادم الحرمين الملك فهد» (العربية السعودية ١٩٩٩: ٨ ـ ٩).

وكانت للمؤتمر ثمانية أهداف معلنة تقع ضمن ثلاث موضوعات عريضة: أولاً، إبراز أهمية الأساس الإسلامي للمملكة. ثانياً، إبراز جوانب النهضة في عهد ابن سعود وأبنائه. ثالثاً، إبراز دور المملكة خليجياً وإسلامياً وعربياً ودولياً (المصدر السابق: ١٦). وهذه الأهداف ليست جديدة، بل هي تكرار للمحور الرئيسي في المرويات التاريخية الرسمية وإعادة للخطابية التي أحسن إتقانها في التاريخ الرسمي، إذ جرى حشد أكاديميين سعوديين وأجانب. وقدم المؤتمرون ٢٠٠ بحث في أكثر من ٦٠ لجنة على مدى ثلاثة أيام. وتخللت الفعالية الفكرية زيارات للمتحف الوطني وجلسات شعرية ومآدب باذخة واستعراض التراث الوطني. ونظم المؤتمر على غرار المنتديات الأكاديمية الدولية مع اختلاف المحتوى. ففي النسخة السعودية لمؤتمر يعقد في ذكرى مئوية، كان المعروض سرداً تاريخياً صوّانياً في أحاديته. وكانت هذه مناسبة لتثبيت حقيقة تاريخية بدلاً من واقع للمناظرة أو إعادة التفسير. وكان مواطنون سعوديون وضيوف أجانب على السواء مشاركين في تكريس عبادة السلف التي يُغرَس فيها السرد التاريخي الرسمي في اللاوعي ويعاد إنتاجه بدأب. فالدولة ترسم حدود الخطاب والصور والرموز التي تتحول بدورها إلى لغة بحث أكاديمي وعلمي. وتضفي العملية بُعداً «موضوعيا» على الدعاية الرسمية ثم تمنح الخطابية الرسمية قوة خاصة بها.

إن عبادة السَّلَف ابن سعود سائدة في العربية السعودية، وهي تقوم على الإيمان بسلف ملحمي اسمه معهم على جميع السكان. وتشترك الدولة مع السكان في انشغال بالنسب. فمن دون نَسَب، ستكون الدولة خارج فهم مواطنيها الذين برغم عقود من «النهضة» والخطابية

الرسمية لصالح أمة إسلامية عامة، ما زالوا يعتزون بالأصل. والسرد الرسمي متناقض بطريقته في إدانة تماهي الناس مع أنساب في الوقت الذي تثبت نَسَبها هي بوصفه حقيقة تاريخية في الذاكرة الاجتماعية. وهي تطالب مواطنيها بنوع من فقدان الذاكرة التاريخية إزاء أنسابهم في الوقت الذي تخضعهم للاحتفاء بأصلها ذاته، في رحلة تبدأ دائماً بابن سعود، المؤسس. وتمكن قراءة الاحتفالات بالذكرى المئوية كنص هدفه الرئيسي تحديد نَسَب الدولة في وقت كان هذا يبدو موضع شك، بل ويمكن إخضاعه لتأويلات متنازعة. وإذ تتوافر في متناول غالبية السعوديين مصادر معلومات خارج رقابة الدولة، فقد بات من الضروري أن تصوغ الدولة سردها الخاص عن أصولها وتدعو السعوديين أنفسهم إلى المشاركة في بنائه وصيانته. ومشاركتهم، شعراء وأكاديميين وفنانين، شهادة على حقيقة أن النص الرسمي ترسخ بنجاح في لاوعي بعض السعوديين (ولكن ليس جميعهم) إلى حد يمكن معه أن يعاد إنتاجه من دون انحراف أو خيانة. ويشير استيعاب بعض المواطنين السعوديين للخطابية الرسمية استيعاباً لاشعورياً بعد عقود من انكشافهم له، إلى هيمنة قاموس خلافي ومجموعة ألفاظ في مجتمع كانت اللغة دائماً ذات سطوة فيه.

وتتسم عبادة ابن سعود بأهمية مركزية لتعزيز الوحدة الوطنية. فهي الرمز لتعبئة مجتمع منقسم بتنوعه المحلي وولاءاته القبلية. وتقوم عبادة السلف بدور مماثل لدور الخطابية الإسلامية، ويُراد بها تمويه هويات ذات طابع محلي ومصادر ولاء بديلة. وتستثمر المرويات الرسمية تحول المجتمع برعاية ابن سعود، وتدعو هذه المرويات السكان إلى التخلي عن أجدادهم وأصولهم لصالح سلف رمزي كلي القدرة صور على أنه «جد» الأمة الأعلى.

لم تكن احتفالات الذكرى المئوية مؤشراً إلى مئة عام من التاريخ السعودي الحديث فحسب، بل إنها أيضاً أدخلت السعوديين في عبادة السلف. فهي كانت تروي قصة ماضٍ مغَيَّب: حقبة ما قبل ابن سعود حيث كانت الفوضى وانعدام الاستقرار سائدين بين سكان متشظين ومتخلفين. وجاء الانفصال عن ذلك الماضي الأسود بعد الاستيلاء على الرياض في عام ١٩٠٢. وما بين ١٩٠٢ و١٩٣٢، وُصِفت فترة من الانتقال والتوجس بموازاة معارك ابن سعود المختلفة من أجل التوحيد. وقد وُصِفت مرحلة النضج هذه بأنها رحلة من «الظلام» و«الفقر» و«الانحطاط الأخلاقي والاجتماعي والسياسي» إلى «الرخاء» و«الازدهار» و«الأمن» و«الحضارة». وسُجلت

الكلمات المتناقضة في كلمات وصور وأصوات. ومما له أهمية حاسمة لهذا الطقس، دور الجد الأعلى الذي جرى تكريمه وتبجيله قبل الأوان في عام ١٩٩٩ حتى قبل أن يبلغ مُلكه الذكرى المئوية لميلاده. وفي مجتمع معروف بطقوسه واحتفالاته المستفيضة في الأعياد، كان مشهد الذكرى المئوية متميزاً[١]. وإزاء إدانة الوهابيين لعبادة الأولياء وعبادات الأسلاف في مناطق أخرى من العالمين العربي والإسلامي، فإن إقامة الاحتفالات كانت تمثل انتصاراً للأسرة الملكية السعودية على العلماء ومبدئهم. وأكدت الاحتفالات أن الدولة سيدة العالم الرمزي والتأويل التاريخي.

تحدي احتفالات الذكرى المئوية

تمخضت احتفالات الذكرى المئوية مثلها مثل المرويات التاريخية الرسمية، عن خطابات بديلة تُضعف صور هذه المرويات وشعاراتها وخطابيتها السائدة. وفي المقام الأول، فإن هذا الخطاب البديل يضع تفوق ابن سعود وأفراد العائلة الملكية موضع تساؤل، ويشكك في دورهم القيادي في العملية التاريخية. وفي حين أن المرويات البديلة لا يمكن أن تتبدى علناً، فقد جرى التعبير عنها في المجالات الخاصة وفي الخارج. إذ إن رقابة الدولة تمنع أي مناظرة علنية حول شرعية الاحتفالات وتوقيتها ومضمونها، ولكنها لا تستطيع إسكات الناس في حرمات بيوتهم.

تراوحت ردود الفعل على احتفالات الذكرى المئوية من اللامبالاة إلى مظاهر الاشمئزاز. ورفض بعض السعوديين أن يكونوا مشاركين في الاحتفالات، ولم ينشروا بيانات تهنئة أو قصائد في مديح الاستيلاء على الرياض في الصحف المحلية. وآثر آخرون أن يروا فيها مجرد مراسيم مماثلة لما يوصف بأنه «ثلج، مهرجان لا قيمة له، سرعان ما ذاب بلا أثر» (كننداين وبرايس Cannandine and Price ١٩٨٧ : ١).

تمحورت الاعتراضات في الدوائر الإسلامية حول الرأي القائل إن مثل هذه الاحتفالات شكل من أشكال «البِدَع»، مؤكدة من جديد الفتوى الصادرة ضدها، كما ورد ذكره آنفاً. وجرى التعبير عن الرأي القائل إن الاستيلاء على الرياض كان حدثاً ثانوياً في عملية التوحيد وبالتالي

---

(١) باستثناء الأعراس، لا يكترث المجتمع السعودي بإقامة احتفالات كبيرة. وإن مناسبات تُقام باحتفالات في البلدان الإسلامية الأخرى مثل مولود النبي والسنة الهجرية الجديدة، تمر من دون احتفال يُذكَر بها.

لا يستحق كل هذه الفخفخة الاحتفالية. وبدلاً من ذلك، كان من باب أولى أن تحتفل الدولة بمرور ٢٥٠ عاماً على الإصلاح الإسلامي الذي كان له تأثير أعظم في التاريخ الحديث للعربية السعودية. وأعرب بعض الإسلاميين عن الشك إن كان التوحيد سوف يغدو ممكناً لولا رسالة محمد بن عبد الوهاب. وهم يرون أن الاحتفال بالذكرى المئوية سلط الأضواء على حدث وقع لاحقاً في التاريخ، تبقى أهميته ثانوية بالمقارنة مع تأثير الوهابية.

وانتقدت «حركة الإصلاح الإسلامي في الجزيرة العربية» تمجيد ابن سعود الذي صاحب الاحتفالات. وفي إحدى المطبوعات، يوصف ابن سعود بأنه أصبح «معصوماً»، الأمر الذي يستحضر صور «الإمام المعصوم» في التقليد الشيعي. وانطلقت اعتراضات على الطريقة التي تحول بها من خلال عبادة السَّلَف إلى «شخصية مقدسة»: عبد العزيز مفكر، كريم، شجاع، ورع، ذكي، محارب، مستقيم، غفور وعادل. وهذه صفات كثيراً ما ترتبط بالأنبياء. وبعض السعوديين يرونه ملكاً بين ملوك آخرين، في حين يعتبره البعض الآخر مجرماً وخائناً صنعه البريطانيون («حركة الإصلاح الإسلامي»، غُفل من التاريخ: بيان ١٤٧).

وفي حين أن مثل هذه الانتقادات مستحيلة في العربية السعودية، فإنها تجد تعبيرها إلكترونياً ومن خلال جهاز الفاكس. وكانت رسائل المعارضة الإسلامية تُبَث من الخارج، وهي تلامس مشاعر تبقى كامنة تحت ظل الرقابة. وإذا كان الإسلاميون يشيرون إلى الاحتفالات بوصفها بدعة، فإن جوهر الموضوع يكمن في حقيقة أن الاحتفال بالسنوات المئة الماضية لا بد من أن يهمش تاريخاً هاماً في مخيلة الإسلاميين التاريخية: صعود «الحركة الإصلاحية الوهابية» في عام ١٧٤٤. فالإسلاميون يعتبرون هذا حدثاً تاريخياً مناسباً لإقامة احتفالات وطنية به. وتخفي المناظرة حول ما إذا كانت مثل هذه الاحتفالات تشكل بدعة لاإسلامية، انقساماً أعمق في المجتمع السعودي، وصراعاً بين الدولة والشعب حول الوعي التاريخي. إذ لم تعد مرويات الدولة هي السائدة، واخذ يتحداها أفراد هم نتاج التحديث الذي حققته الدولة. والإسلاميون قادرون الآن على إنتاج مروياتهم التاريخية الخاصة بفضل التعليم النظامي والإعداد في جامعات الدولة وفي الخارج. كما أنهم يُنتجون شعرهم الخاص («لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية» ١٩٩٥) وأشرطة الفيديو الخاصة بهم لمواجهة الأعمال الفنية المدعومة من الدولة.

وفي حين أن النقد الإسلامي بقي في إطار المبادئ الإسلامية، فإن آخرين انتقدوا الاحتفالات على أساس طابعها «المبتذَل» ومباهاتها الاستعراضية بشعارات فارغة في فترة من الضائقة

الاقتصادية. فإن هبوط أسعار النفط طوال التسعينيات، والعجوزات المتعاقبة في الميزانية، ما كان لها أن تختار لحظة أسوأ للإنفاق الإضافي، بحسب بعض المصرفيين والتجار السعوديين. وكانت هذه الآراء يُعبر عنها في المجالس الخاصة: كان يجري تبادلها في دوائر مغلقة من الأصدقاء الحميمين والموثوقين. وأشار عدة سعوديين إلى التناقض الذي ينطوي عليه عرض صور كبار الأمراء بعد عقود من منع الحكومة للتماثيل والتصاوير وحتى رسوم الأشكال البشرية.

كان الناس يتبادلون النكات للنيل من شعارات الاحتفالات. وتذهب إحدى النكات التي ظهرت في ذلك الوقت، إلى أن حكومة ابن سعود غيرت عدد رجال ابن سعود الذين ساعدوه في الاستيلاء على الرياض من ٤٠ إلى ٦٠ رجلا: كان هذا تفادياً لتسمية ابن سعود «علي بابا والأربعين حرامي»، وهي قصة معروفة في كل من الثقافتين الشعبيتين العربية والغربية على السواء. وتفضح هذه الفكاهة ممارسة الدولة في تغيير التاريخ لأغراضها الخاصة. ويدرك الكثير من السعوديين تلاعُب الدولة بالحقائق التاريخية. وباستثناء المشاركين في الاحتفالات بصفات مختلفة، فإن غالبية السعوديين بقوا مشاهدين. وإن بحثهم الدائب عن مصادر معلومات بديلة عن ماضيهم وتفسيرات مختلفة لشؤونهم الراهنة، شهادة على حقيقة أن سيطرة الدولة على المخيلة ليست سيطرة مطلقة ولا ناجحة. وقد أسفرت هذه السيطرة حتى الآن عن امتثال مصحوب بمقاومة ضعيفة من النوع المبحوث أعلاه. وتبقى الأصوات المعارضة مبعثرة وتفتقر إلى أي شكل من التنظيم. وفي حين أن هذه هي الحال، فإن الدولة تسعى إلى السيطرة على المخيلة الشعبية وزج السعوديين في بنائها وفق خطابية وصور ورموز محددة تحديداً حسناً.

خلاصة

سيُذكر القرن العشرون بأنه عصر تكوين الدولة في العالم العربي، والعربية السعودية جزء من هذا التاريخ الإقليمي. وبصرف النظر عن الجدالات الشعبية حول خصوصيتها، فإن الدولة الحديثة نشأت بعد انهيار الامبراطورية العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى. وفي حين أن البلاد أفلتت من حقبة السيطرة الاستعمارية المباشرة، فإن تدخل بريطانيا المتزايد في شؤون الخليج أثر، مع ذلك، في عملية تكوين الدولة.

لم تتخلل السنوات المئة الماضية نضالات عنيفة من أجل التحرير، أو انقلابات وثورات، ولكن عملية تكوين الدولة كانت حصيلة معارك دامية وتوسع وغزو في أراض لم تكن مهيأة لأن

«تتوحد» في كيان السياسي واحد. وتعرض هذا التوحيد لانتكاسات متعددة بدءاً بتمرد «الأخوان» في أواخر العشرينيات. وبفضل الثروة النفطية، توطدت أركان الدولة وأصبحت مثل هذه التمردات نادرة. ولكن توترات أخرى ظهرت. وكافحت الدولة والمجتمع، على السواء، للحفاظ على توازن قلق بين التمسك بالإسلام والأصالة والتقاليد، وانخراط متسارع في التحديث. وقد تبدو السياسة السعودية بالية، عفا عليها الزمن، ولكن سماتها وخصائصها الحالية هي بكل تأكيد وليدة الرغبة في التوفيق بين الإسلام والحداثة.

كانت إمارات سابقة انهارت في الجزيرة العربية، ولكن أنماط حكمها وأشكال العلاقات بين الحكام والمحكومين بقيت في الدولة الجديدة. وأصبح رئيس الدولة الجديدة، مثله مثل الأمراء السابقين من قبله، نقطة ارتكاز، ومركز توسط وصنع قرارات وسياسة، ومصدر عطايا وهدايا ومكارم. ولكن، بخلاف الأمراء السابقين، توافرت تحت تصرف الملوك السعوديين موارد ضخمة. واستخدمت هذه الموارد لإطلاق عملية تحديث لا سابق لها في فترة قصيرة من الزمن. وفي الفترة السابقة على الحقبة النفطية، كانت الشرعية تُستَمَدُّ من الإسلام وتطبيق أحكام الشريعة، وقد أخذ هذا يقوم بدور ثانوي بعد اكتشاف النفط في الثلاثينيات. وفي مطلع القرن الحادي والعشرين تعتمد الدولة السعودية على دورها بوصفها حاملة لواء التحديث في سعيها إلى الشرعية. وتستثمر الدولة ما تحقق من تحول مادي في ظل الحكم السعودي. فالفئة الحاكمة تدعي الشرعية لا لأنها حامية النظام الإسلامي فحسب، بل لأنها كانت القوة التي تقف وراء هذا التحول. ويتعزز السيناريو، لا بالعمران المثير للإعجاب وخدمات الرعاية الاجتماعية والمرافق الحديثة فحسب، بل أيضاً بالمرويات التاريخية والدعاية أيضاً. وكانت الدولة السعودية استمدت صدقيتها من حقيقة أن السعوديين، برعايتها، ولجوا العالم الحديث، وأن بلدهم أصبح لاعباً كبيراً في السياقين الدولي والإقليمي.

كانت الدولة السعودية في القرن العشرين دولة قامت على الغزو. وقد نجحت في توطيد أركان السلطة على أساس القوة العسكرية وخطابية نشر الإسلام الحق. وتقدم التوسع العسكري متساوقاً مع برنامج قوي هدفه «أسلمة» السكان، وأخضع أهل نجد والأحساء والحجاز وعسير لهذا البرنامج بإشراف «المطاوعة». وكانت جهود هؤلاء الأخيرين حاسمة. لقد أشاعت تعاليمهم وتوجيهاتهم بين السكان المتوطنين في الواحات والمجموعات القبلية على السواء،

ظروفاً مؤاتية لحكم آل سعود. كان «المطاوعة» وراء تعزيز قوة «الأخوان» القبلية التي غزا ابن سعود بها الجزيرة العربية، وكانت توجيهاتهم بطاعة زعيم الأمة الإسلامية وتلبية دعوته إلى الجهاد ودفع الزكاة له، وفرت الظروف لبناء الدولة بقيادة سعودية.

بعد الغزو، غرست الدولة نفسها في المجتمع. وبفضل تعدد الزوجات تمكنت الفئة الحاكمة من توسيع سيطرتها على منافسين كبار ونبلاء قبليين ودوائر دينية، عندما تحول هؤلاء إلى مانحي زوجات. وأصبحت قطاعات واسعة من المجتمع تعتمد على الدولة/ النَّسَب الحاكم في بقائها. وأقدم آل سعود على ترقية الذين صاهروهم إلى مرتبة النسباء الملكيين، وهي مكانة كانت تموه فقدان استقلاليتهم وقوتهم التساومية. وإذ أصبح الغرماء السابقون أخوال أمراء كبار وملوك لاحقين، فإنهم فقدوا قدرتهم على تحدي الحكم السعودي. وكان البلاط الملكي لا يضم حلفاء حقيقيين فحسب، بل أيضاً خصوماً سابقين تحولوا إلى أقارب من جهة الأم. وبعدما ضمنت الفئة الملكية تبعيتهم لها، عبرت عن مظاهر سلطتها من خلال الولائم والأبهة. ففي الثلاثينيات كان بلاط ابن سعود هو الدولة.

في الفترة الواقعة بين ١٩٣٢ و١٩٥٣ تمكن ابن سعود من التمتع بالعائدات الأولى التي دفعتها شركة «ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا» (سوكال) / «آرامكو» مقابل امتيازها النفطي. وفي حين ظلت البنية التحتية للدولة متخلفة، فإن الفئة الحاكمة بدأت تبتعد عن باقي السكان بحكم سيطرتها على الموارد واستئثارها بالمناصب السياسية الحساسة. وأنيط تصريف شؤون الدولة اليومية بمجموعة من الموظفين العرب، ولكن حلقة ضيقة تضم الملك وأبناءه الكبار كانت تتخذ القرارات السياسية الهامة.

أتاحت الثروة النفطية فرصاً كثيرة، وأدت إلى ظهور بيروقراطيين وموظفين وأصحاب ملايين محليين، وفي الوقت ذاته أوجدت معارضة أيضاً. كانت الخمسينيات والستينيات سنوات اضطراب أهلت السعوديين لخطابية المعارضة والقومية العربية والانقلابات والثورات. وفي حين أخفقت هذه الخطابية في إلهام غالبية السعوديين، فإنها أثرت في حياة حلقة صغيرة ومطامحها. حتى الأسرة الملكية، لم تتمكن من مقاومة القاموس السياسي الذي ازدهر في العالم العربي وقتذاك. وهدد من كانوا يسمون «الأمراء الأحرار» استقرار الدولة عندما تبنوا بعض التطلعات السياسية الرائجة ارتباطاً بالقومية العربية بنسختيها البعثية والناصرية. وهذا، مقترناً بالصراع على الخلافة بين سعود وفيصل، جعل الستينيات من أكثر العقود اضطراباً في تاريخ الدولة.

وفي الوقت الذي بقيت الثورة احتمالاً مستبعَداً، فإن السياسة الداخلية السعودية في الستينيات كانت تعكس غليان العالم العربي. وأنجبت العربية السعودية منفييها ومعارضيها وسجناءها السياسيين. وسعى فيصل إلى إسكات معارضة ظلت مقصورة على شلة صغيرة من الناشطين السياسيين المتأثرين بأيديولوجيات كانت تزدهر في أماكن أخرى من العالم العربي حينذاك. وفي محاولة لإخماد هذه الإيديولوجيات لا سيما القومية العربية، قام فيصل بترويج خطابية الأصالة الإسلامية. وأصبح «التحديث في إطار إسلامي» خلفية إصلاحات فيصل للدولة السعودية وتطوير نظامها التعليمي وما عرفته من تحديث عام إبان السبعينيات. وضمن فيصل امتثال المراجع الدينية التي وافقت على غالبية إصلاحاته. والأكثر من ذلك، أنه عين العديد من أخوته غير الأشقاء الأشد ولاءً في الوزارات الحساسة، واحتفظ بلقب الملك ورئيس مجلس الوزراء على السواء.

في عهد فيصل، بدأت غالبية السعوديين تتمتع بثمار الثروة النفطية. وأصبحت الدولة المصدر الرئيسي لتوفير الخدمات وفرص العمل. كانت الدولة تدفع للمواطنين مباشرة عندما أضحت رب العمل الرئيسي، ولكنها كانت تدفع بصورة غير مباشرة أيضاً من خلال منافع وعمولات مختلفة. وأوجدت الطفرة النفطية في السبعينيات شبكات نسجت حول شخصيات نافذة في الحكم وأمراء في الوزارات المختلفة. وأخذت العربية السعودية تنجب رجال أعمالها الذين كان البعض منهم سليل ابن سعود مباشرة. وطمست الخطوط الفاصلة بين مالية الدولة والثروة الشخصية عندما أخذ بعض الأمراء يستغلون المنصب السياسي للكسب المالي الشخصي.

أقام فيصل علاقة وثيقة مع الولايات المتحدة حتى بعد انضمامه إلى بلدان عربية أخرى منتجة للنفط في فرض المقاطعة النفطية قصيرة العمر عام ١٩٧٣. وبادر الملك إلى ترويج الإسلام بوصفه بديلاً عن القومية العربية، وطلب مساعدة عسكرية من الولايات المتحدة. وكان في ذلك مدفوعاً بإحساس عميق بالانكشاف لم تفعل عائدات النفط المتنامية شيئاً يُذكَر لتخفيفه. ولفتت الثروة انتباه العالم إلى العربية السعودية، كما أنها كشفت التناقص بين دعوة فيصل الإسلامية واعتماده على الولايات المتحدة في توفير الحماية.

أثار تحول البلاد تحولاً مادياً متسارعاً، توترات اجتماعية وسياسية أفلتت من عقالها بالاستيلاء على المسجد الكبير في مكة عام ١٩٧٩، وهو حدث وقع في وقت بدت العربية

السعودية للعالم الخارجي نظاماً ملكياً يسوده الاستقرار. وكشف التمرد في أقدس مقدسات الإسلام، هذه التوترات. وإذ شجب المتمردون الأسرة الملكية لفسادها وشككوا في شرعية حكم آل سعود مستخدمين خطابية إسلامية شديدة اللهجة، فإنهم هددوا أساس الدولة ذاته. وسرعان ما أخمد التمرد، ولكن لم يكن من السهل التعامل مع التوترات التي أفضت إليه. وبدأ المجتمع السعودي يعيش تناقضات ترتبط بجدة الثروة المفرطة والرغبة في مواصلة التمسك بالإسلام والتقاليد والأصالة. ومنيت المصالحة بين القديم والجديد التي كان يعتقد أنها ممكنة في ظل ملوك سابقين، بأولى انتكاسة لها في عام ١٩٧٩.

في الثمانينيات، تصاعدت حدة التوترات الاجتماعية عندما بدأت عائدات النفط السعودية بالتقلب. وهبطت هذه إلى أدنى مستوياتها في عام ١٩٨٦ دافعة الحكم إلى خفض خططه الطموحة في مجال الإنفاق. كما زادت الثمانينيات في انكشاف العربية السعودية عندما أصبح النظام مستهدفاً من جانب جمهورية إيران الإسلامية التي شجبت قيادتها العربية السعودية لتحالفها الوثيق مع الغرب. ولم تفعل الحرب الإيرانية ـ العراقية شيئاً لتخفيف إحساس العربية السعودية بانعدام الأمن.

تزامنت السنوات الأولى من حكم الملك فهد مع «أزمة اقتصادية» غريبة على جيل الطفرة النفطية. وكان هذا الجيل اعتاد الرخاء والخدمات الحكومية ومنافع الرعاية الاجتماعية السخية. ولأول مرة، سعت العربية السعودية إلى تدعيم سياستها في «السعودة» من أجل زيادة فرص العمل لمواطنيها. وبقي فرض ضرائب على السكان وخفض الإعانات والمنافع وتوسيع مشاركة المرأة في الاقتصاد، خيارات بغيضة بسبب عواقبها السياسية والاجتماعية.

أثرت ضائقة أواخر الثمانينيات في بعض السعوديين أكثر من البعض الآخر. واكتشفت المتعلمون المتحضرون حديثاً من سكان المدن، أن مهاراتهم ومستوياتهم التعليمية المكتسبة لا تؤدي تلقائياً إلى تحقيق تطلعاتهم الشخصية. وكانت دون هذه التطلعات عوامل متعددة مثل النمو السكاني بمعدلات مرتفعة والفرص الاقتصادية المحدودة وغياب الاتصال المباشر بمصادر الثروة والتهميش الاجتماعي. وتجاوب بعض السعوديين إيجاباً مع المناظرات التي شجبت النزعة المادية والاستهلاكية والغرب. وانطلقت هذه النقاشات في أوساط جيل جديد من علماء الدين الذين بدأوا يمفصلون توجساتهم حول قضايا هامة تتعلق بأحوال البلاد الاجتماعية والنظام

السياسي والفئة الحاكمة. وأثبتت سياسات الحكم في مجال التربية الدينية ودعمها للحركات الإسلامية في العالم العربي وأماكن أخرى، إشكاليتها عندما واجهت الدولة السعودية على حين غرة تحدياً من جماعاتها الإسلامية نفسها. وفي نهاية الثمانينيات، أصبح المجتمع السعودي مستقطباً بشكل سافر بين من يطمحون إلى قدر أكبر من الحرية والانفتاح ومن يريدون العودة إلى الإسلام الأصيل. وفي حين كانت الهويات القبلية والمحلية هي البارزة في السابق، فإن قاموساً جديداً ظهر في أواخر الثمانينات. وأصبح الغلاة الدينيون والعلمانيون / الليبراليون يافطات شائعة كانت من أعراض انقسام ظاهر في المجتمع السعودي.

ازداد هذا الاستقطاب حدة في التسعينيات. وعجل الغزو العراقي للكويت بتجلى المعارضة الإسلامية في البلاد، وأصبح قرار العربية السعودية السماح بتمركز قوات أميركية في البلاد لتحرير الكويت هدفَ معارضة بقيت شديدة الأرتباط بالخطاب الإسلامي. وفي حين أن مَن يُسمون الليبراليين اغتنموا مناسبة حرب الخليج للتعبير عن أمانيهم في الإصلاح وتشكيل مجلس شورى، فإن الإسلاميين كانوا أشد خطراً على الحكم السعودي. وكان الأخيرون سيطروا على منافذ هامة لإشاعة أفكارهم وانتقاداتهم، لا سيما في قاعات الجامعات الإسلامية ومنابر المساجد. ،اخذ نقد أمراء أفراد والسياسات الرسمية بصفة عامة، ينتشر بسرعة حين شرع الإسلاميون في استخدام أحدث تكنولوجيات الاتصالات بما فيها أشرطة الكاسيت وأجهزة الفاكس والبريد الإلكتروني وإصدار المنشورات والكتيبات. وبضغط من الإسلاميين، أعلن الملك فهد سلسلة من الإصلاحات أهمها تشكيل مجلس شورى معين من ستين عضواً. كما اعتبر من الضروري تأكيد حق آل سعود في الحكم مجدداً في وقت اعترى شرعية الأسرة الملكية ضعف خطير بسبب هجوم الإسلاميين. ولكن الإصلاحات أخفقت في إسكات المعارضة الإسلامية التي هرب أعضاؤها المهاجرون بآرائهم خارج البلاد بعد حملة من الاعتقالات في العربية السعودية. وأثبت التململ السياسي في التسعينيات أن معارضة إسلامية منظمة قادرة على تهديد الاستقرار. وبرغم أن المعارضة الإسلامية تبدو اليوم مشتتة، فإن الظروف التي ساهمت في صعودها وتناميها تبقى كامنة في المجتمع السعودي.

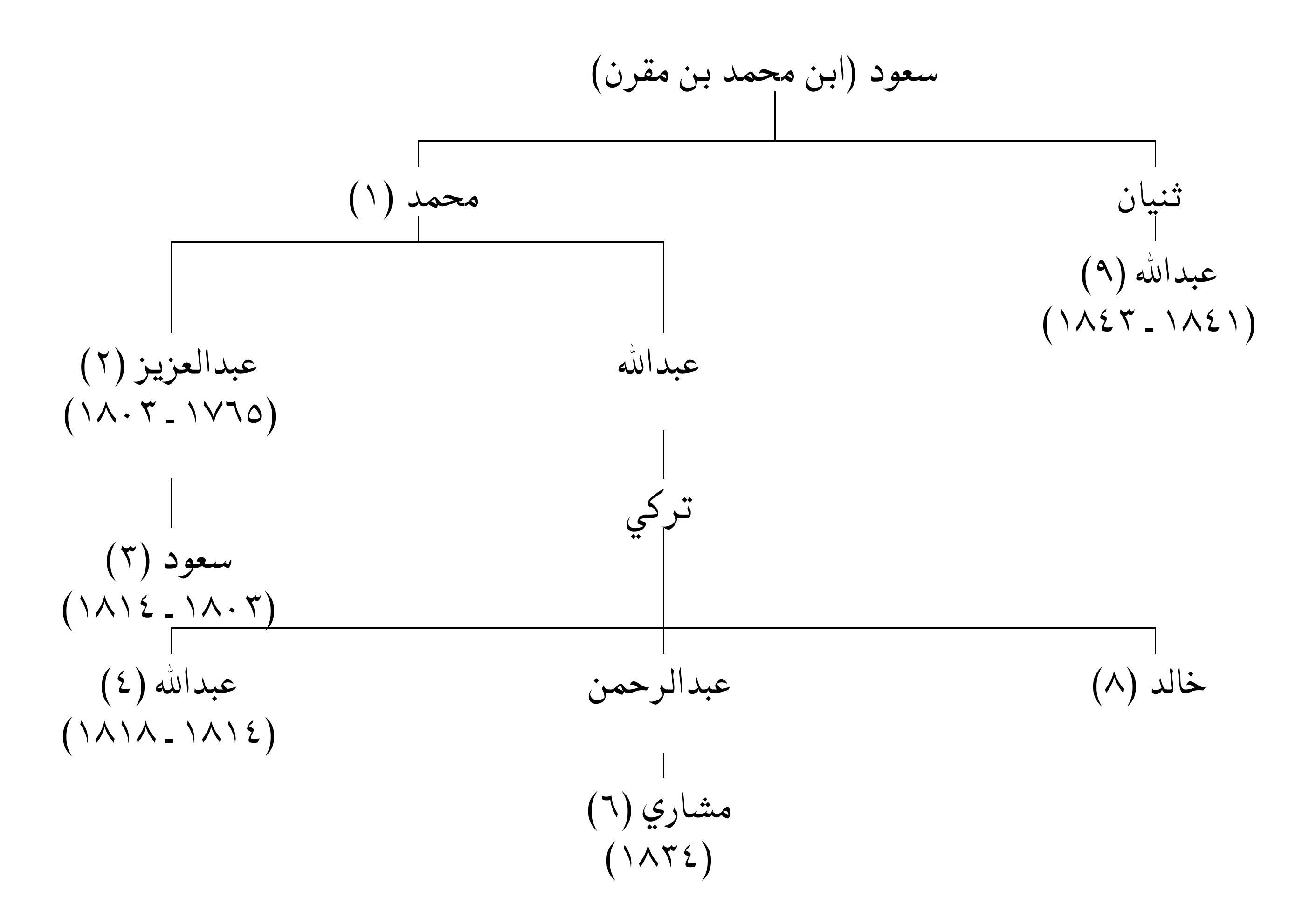
في كانون الثاني/ يناير ١٩٩٩، احتفلت العربية السعودية بالذكرى المئوية لـ «التوحيد والاستقرار والنهضة» بقيادة آل سعود. وبعد أن نجحت هذه القيادة في درء هجوم كبير في أوائل

التسعينيات، دعت السكان والعالم الخارجي إلى الاحتفال بنجاحها. وأصيب الأساس الديني للدولة بضعف خطير نتيجة لترويج مرويات رسمية تمجد دور آل سعود في صنع العربية السعودية والتشديد على هذه المرويات. وأكدت احتفالات الذكرى المئوية القطيعة مع الماضي عندما أعطي تأسيس العربية السعودية تاريخاً خلافياً هو عام ١٩٠٢. فاستناداً إلى المرويات الرسمية، ولدت العربية السعودية بالاستيلاء على الرياض. وفي الواقع أن نشوء الدولة السعودية لا يمكن أن يعزى إلى أي حدث أو تاريخ منفرد، بل الأحرى أنه كان نتيجة تطورات اجتماعية وسياسية على امتداد القرن الماضي. ومن الضروري النظر إلى نشوء هذه الدولة على أنه عملية مستمرة وتصاعدية. فإن الدولة بنية في تطور، وهو أمر لا بد من أن يتواصل في المستقبل.

الملاحق

الملحق رقم (١)[١]

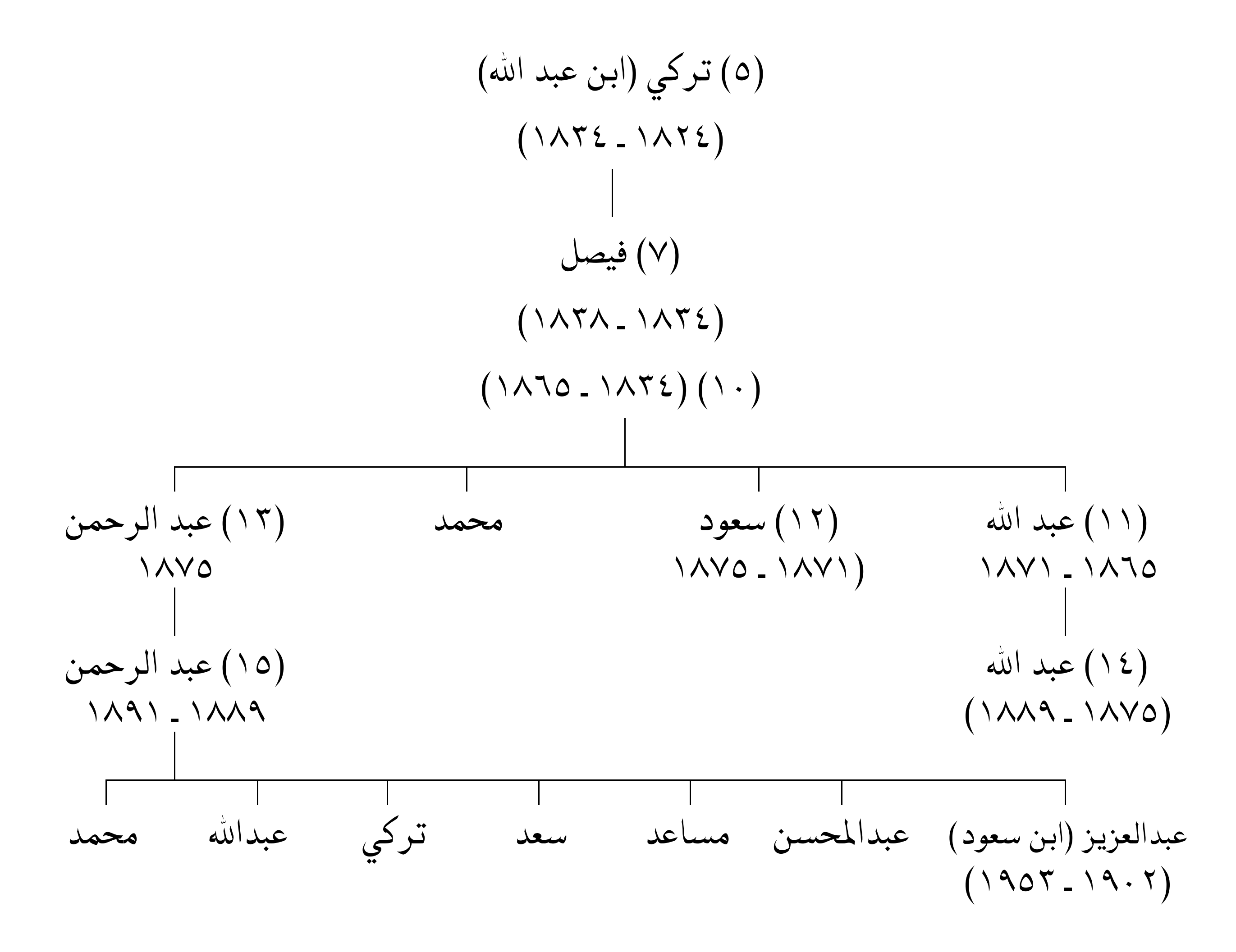
حكام آل سعود في الدرعية (١٧٤٤ ـ ١٨١٨)



(١) للحاكم رقم ٥ انظر الملحق (٢).

الملحق رقم (٢)[1]

حكام آل سعود في الرياض (١٨٢٤ ـ ١٨٩١)



(١) للحاكمين ٦ و٨ انظر الملحق رقم (١).

الملحق رقم (٢)

أبناء ابن سعود (١٩٠٠ ـ ١٩٥٣)

تركي (مواليد ١٩٠٠)

سعود (١٩٠٢)

فيصل (١٩٠٤

محمد (١٩١٠)

خالد (١٩١٢)

ناصر (١٩٢٠)

سعد (١٩٢٠)

فهد (١٩٢٢)

منصور (١٩٢٢)

مساعد (١٩٢٣)

عبد الله (١٩٢٣)

بندر (١٩٢٣)

سلطان (١٩٢٤)

عبد المحسن (١٩٢٥)

مشعل (١٩٢٦)

متعب (١٩٢٨)

عبد الرحمن (١٩٣١)

طلال (١٩٣١)

مشاري (١٩٣٢)

نايف (١٩٣٣)

نواف (١٩٣٣)

بدر (١٩٣٣)

تركي (١٩٣٤)

فواز (١٩٣٤)

عبد الإله (١٩٣٥)

سلمان (١٩٣٦)

أحمد (١٩٤٠)

عبد المجيد (١٩٤٠)

ممدوح (١٩٤٠)

هزلول (١٩٤١)

مشهور (١٩٤٢)

سطام (١٩٤٣)

مقرن ١٩٤٣)

حمود (١٩٤٧)

بيلوغرافيا

لم يكن من الممكن توفير تاريخ النشر ومكانه واسم الناشر لكل المواد العربية المدرجة في هذه القائمة. الكتاب العرب يردون حسب أسمائهم الأخيرة مع إسقاط أل التعريف في النص الإنكليزي. الكراسات السياسية ترد تحت أسماء جماعات أو تنظيمات سياسية.

صحف ومجلات

ذي إيكونومست The Economist

فاينتشال تايمز Financial Times

الحرس الوطني

صحيفة الحياة

مجلة الجزيرة العربية

مجلة المجلة

ميدل إيست إنترناشيونال Middle East International

صحيفة القدس العربي

صحيفة الشرق الأوسط

صوت الطليعة

صحيفة سعودي غازيت Saudi Gazette

مجلة الواحة

اليمامة

مطبوعات سعودية رسمية

المملكة العربية السعودية، ١٩٩٩، مؤتمر المملكة العربية السعودية في مئة عام، مديرية احتفالات الذكرى المئة.

غُفل من التاريخ ، دارة الملك عبد العزيز ، كتاب تعريف .

Saudi Arabia 1996 Le Royaume d ' Arabie Saoudi: guide pratique, Ministry of Information.

1996 Architecture des mosques le mondele Saoudien de construction de maisons de Dieux.

1996 The Pictorial Book of King ' Abd al' – Aziz, Ministry of Information, Foreign Information.

1997 al – Masmak Museum, Ministry of Education.

1998 A Brief Account of the Life of King ' Abd al – ' Aziz (Ibn Saud), Ministry of Information (centennial edition).

1999 A Country and a Citizen for Happy Decent Life ,Ministry of Information .

1999 Directorate of centennial Celebrations .

أعمال أخرى

عبد العزيز، موضي بنت منصور بن عبد العزيز، ١٩٩٣ ، **الهجَر ونتائجها في عصر الملك عبد العزيز**، لندن ، دار الساقي .

عبد الرحيم، ١٩٧٦ ، **الدولة السعودية الأولى** ١٧٤٥ ـ ١٨١٨ ، القاهرة .

عبد الله، ١٩٩٠ ، **البترول والأخلاق**، دار الدوحة .

١٩٩٥ ، العلماء والعرش : ثنائية السلطة في السعودية ، لندن ، دار الرافد .

١٩٩٧ ، وهابي وصاروخ صيني ، دار القصيم .

أبو علية، ١٩٩٦ ، **تاريخ الدولة السعودية الثانية** ١٨٤٠ ـ ١٨٩١ ، الرياض .

أبو ذر، ١٩٨٠ ، **ثورة في رحاب مكة**، دار صوت الطليعة .

١٩٨٢ ، **مناضل من الجزيرة**، دار صوت الطليعة .

أبو حاكمة، ١٩٦٧ ، لمع الشهاب في سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، بيروت .

الألوسي، م.، غُفل من التاريخ ، **تاريخ نجد** ، القاهرة .

البغدادي، عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد ، لندن ، دار الحكمة .

البسام، ١٩٧٨ ، **علماء نجد خلال ستة قرون** ، مكة، النهضة الحديثة .

«لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية» في العربية السعودية، ١٩٩٤، **ماذا تقول «لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية» في الجزيرة العربية**، لندن.

١٩٩٥، ديوان الإصلاح، لندن.

دحلان، ١٩٩٣، **تاريخ أشراف الحجاز، ١٨٤٠ ـ ١٨٨٣**، لندن، دار الساقي.

الدخيل، ١٩٦٦، القول السديد في أخبار إمارة الرشيد.

سليمان بن صالح الدخيل: حياته وأعماله، جمعها م. عجيل، البصرة، مركز دراسات الخليج العربي.

الفقيه، غفل من التاريخ، **كيف يفكر آل سعود دراسة نفسية**، لندن، حركة الإصلاح الإسلامي في الجزيرة العربية.

غفل من التاريخ، **النظام السعودي في ميزان الإسلام**، لندن، حركة الإصلاح الإسلامي في الجزيرة العربية.

غُفل من التاريخ، **زلزال آل سعود: قصة الصحوة الإسلامية في بلاد الحرمين**، لندن، حركة الإصلاح الإسلامي في الجزيرة العربية.

القصيبي، غ.، ١٩٩١، **حتى لا تكون فتنة.**

حمزة، ف.، ١٩٣٦، قلب الجزيرة العربية.

الحربي، ١٩٩٩، **نساء شهيرات من نجد**، الرياض، الدارة.

الحسن، ١٩٩٣، **الشيعة في المملكة العربية السعودية**، مؤسسة البقيع لإحياء التراث، الجزء الأول، العهد التركي (١٨٧١ ـ ١٩١٣)، الجزء الثاني، العهد السعودي (١٩١٣ ـ ١٩٩١).

الحوالي، ص.، ١٩٩١، **كشف الغمة عن علماء الأمة**، دار الحكمة.

ابن بشر، ١٩٣٠، **عنوان المجد في تاريخ نجد**، جزءان، مكة.

ابن غنام، ١٩٧٠، **تاريخ نجد**، حزءان، القاهرة.

ابن عيسى، ١٩٦٦، تاريخ بعض الحوادث في نجد، الرياض.

ابن رشيد ، ١٩٦٦ ، **نبذة تاريخية عن نجد** ، بيروت .

كشك، م.، ١٩٨١ ، **السعوديون والحل الإسلامي**، ماسيشوسيتس.

المسعري، م.، ١٩٩٥ ، الأدلة الشرعية على عدم شرعية الدولة السعودية، لندن، دار الرافد .

١٩٩٧ ، أصل الإسلام وحقيقة التوحيد ، لندن ، دار الرافد .

حركة الإصلاح الإسلامي في الجزيرة العربية، غُفل من التاريخ، البرنامج السياسي، لندن .

غُفل من التاريخ، القضية السعودية بين السائل والمجيب، لندن .

غُفل من التاريخ ، **بيان** ، ١ ـ ٤٧ .

غُفل من التاريخ ، **في مواجهة آل سعود** ، لندن .

غُفل من التاريخ ، **كراس ابن لادن**، لندن .

غُفل من التاريخ ، **مذكرة النصيحة** .

منيف، ١٩٩٣ ، الأخدود

القحطاني، ف.، ١٩٨٧ ، **زلزال جهيمان في مكة**، لندن، صفا .

١٩٨٨ ، صراع الاجنحة في العائلة السعودية، لندن، صفا .

١٩٨٨ ، اليماني وآل سعود ، لندن ، صفا .

رضوان، م.، غُفل من التاريخ ، **قراءة صريحة في مذكرة النصيحة**، لندن، دار الحكمة.

الرشيد ، م.، ١٩٩١ ، السياسة في واحة عربية ـ إمارة آل الرشيد ، دار الساقي، ١٩٩٨ .

الرفاعي، م.، ١٩٩٥ ، المشروع الإصلاحي في السعودية: قصة الحوالي والعودة.

الصفدي، غُفل من التاريخ، قانون الفساد في المملكة العربية السعودية، منشورات اقرأ .

السعيد ، ن.، ١٩٨١ ، **تاريخ آل سعود** ، دار مكة.

آل سعود ، طلال بن عبد العزيز، ١٩٩٩ ، **صور من حياة عبد العزيز**، الطبعة الرابعة، الرياض، دار الشوف.

الشعفي وحلمي، ١٩٩٢، **تاريخ الحضارة الإسلامية**، الرياض، وزارة المعارف.

١٩٩٣، السيرة النبوية وتاريخ الدولة الإسلامية، الرياض، وزارة المعارف.

شامية. ج.، ١٩٨٦، آل سعود : ماضيهم وحاضرهم، لندن.

الشمراني، ١٩٨٨، مملكة الفضائح : أسرار القصور الملكية السعودية، بيروت، دار الإنسان.

١٩٨٨، **فيصل : القاتل والقتيل**، بيروت : دار الإنسان.

شرارة، و.، ١٩٨١، **الأهل والغنيمة**، بيروت.

الشيخ والدخيل والزاير، ١٩٨١، انتفاضة المنطقة الشرقية، منظمة الثورة الإسلامية.

الشيخ، ١٩٨٨، البترول والسياسة في المملكة العربية السعودية، لندن، صفا.

السباعي، ١٩٨٤، **تاريخ مكة**.

تقي، ١٩٨٨، **الوجه الآخر لأحداث مكة**، طهران، كيهان.

العثيمين، ١٩٨١، **نشأة إمارة الرشيد**، الرياض، جامعة الرياض.

١٩٩٣، تاريخ المملكة العربية السعودية، الرياض، وزارة المعارف.

١٩٩٥، تاريخ المملكة العربية السعودية، الرياض، العبيكان.

١٩٩٧، **تاريخ المملكة العربية السعودية**، الرياض، مكتبة الملكة فهد الوطنية.

الياسيني، أيمن، ١٩٨٧، الدين والدولة في المملكة العربية السعودية، لندن، دار الساقي.

الزعارير ،م.، ١٩٩٧، **إمارة الرشيد في حائل**، عمان، بيسان.

الزركلي، ك.، ١٩٧٠، **شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز**، الطبعة الأولى، ٤ أجزاء، بيروت، دار القلم.

١٩٧٢، الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز، بيروت، دار العلم.

الزلفي، م.، **عسير في عهد الملك عبد العزيز**، الرياض، مطابع الفرزدق.

١٩٩٧، إمارة أبي عريش وعلاقتها بالدولة العثمانية، الرياض، مطابع الفرزدق.

Aba Namay, R, 1993, ' Constitutional Reforms: A Systemisation of Saudi Politics Journal of South Asian and Middle Eastern Studies,16/3 : 43 – 88

Abir, M. 1988, Saudi Arabia in the Oil Era. Regime and Elites: Conflict and Collaboration, London, Croom Helm.

1993Saudi Arabia : Government,Society and the Gulf Crisis ,London ,Routledge .

Abu 'Aliya, A. 1969Tarikh al – dawla al – sa' udiyya al – thaniya 1840 – 1891(A history of the second Sa 'udi state,1840 1891) ,Riyadh .

Abu Hamad, A. 1992, Empty Reforms: Saudi Arabia 's New Basic Laws, New York, Human Rights Watch.

Admiralty 1916Handbook of Arabia ,London ,HMSO (Naval Intelligence Division).

Agate, P. 1997, ‘ L'Arabie Saoudite: quel etat et quel (s) droit (s)’,in A. Mahiou (ed), L’ Etat de droit dans le monde Arabe, Paris, CNRS.

Almana,M .1980Arabia Unified : A Portrait of Ibn Saud,London ,Hutchinson Benham .

Amnesty International 2000Saudi Arabia: A Justice System without Justice, London.

al – ' Amr,S .1974The Hijaz under Ottoman Rule 1869 – 1914Saudi Arabia .

Anderson, I. 1981, Aramco, The United States and Saudi Arabia: A Study of the Dynamics of Foreign Oil Policy, Princeton, Princeton University Press.

al - ‘ Angari, H. 1998, The Struggle for Power in Arabia: Ibn Saud, Hussein and Great Britain 1914 – 1924Reading : Ithaca Press.

Anscombe, F. 1997, The Ottoman Gulf: The Creation of Kuwait, Saudi Arabia and Qatar, New York, Columbia University Press.

Anthony, J. 1984, ‘ he Gulf Cooperation Coucil’, In R. Darius, J. Amos and R. Magnus (ed), Gulf Security into the 1980 : Perceptual and Strategic Dimensions, Stanford, Hoober Institution Press.

Arebi, S. 1994, Women and Words in Saudi Arabia: The Politics of Literary Discourse, New York, Columbia University Press.

Asad, T. 1993, Genealogies of Religion: Discipline and Reasons of Power in Christianity and Islam, Baltimore, Johns Hopkins University Press.

Athopaiti, A. 1987, ‘ Analysis of the Treatment of Arab and World History in Saudi Arabian and Egyptian High School Textbooks’, Ph.D. thesis, University of Pittsburgh.

Attar, M. 1988, ‘ Quest for Identity: The Role of the Textbook in Forming the Saudi Arabian Identity’, Ph. D. thesis, University of Oregon.

Ayubi,N .1991Political Islam : Religion and Politics in the Arab World,London ,Routledge .

al- Azmeh,A .1993Islams and Modernity ,London ,Verso .

Bahry, L. 1982, ‘ The New York Saudi Woman: Modernizing in an Islamic Frame – Work, Middel East Journal,36/4 : 502 15

Bang, A. 1996 The Idrisi State in ‘Asir 1906 – 1934 Political, Religions and Personal Prestige as State Building Factors in the Early Twentieth Century, Bergen, Centre for Middle Eastern and Islamic Studies.

Benoist- Mechin,J .1957Arabian Destiny ,London ,Elek Books .

Birks, J., I. Seccombe and C. Sinclair 1988 ‘Labour Migration in the Arab Gulf States: Patterns,Trends ,and Prospects’ ,International Migration ,26/3 : 267 86

Bligh, A. 1984 From Prince to King: Royal Succession in the Haouse of Saudi in the Twentieth Century, New York: New York University Press.

1985 ‘The Saudi Religions Elite (‘ulama) as Participants in the Political System of the Kingdom’,International Journal of Middle East Studies ,17/1 : 37 50

Blunt, A. 1968 A Pilgrimage to Nejd, the Cradle of the Arab Race: A Visit to the Court of the Arab Emir and our Persian Campaign,2 vols ,London : John Murray.

Braun, U. 1988 ‘The Gulf Cooperation Couneil’s Security Role’, in B. Pridham (ed), The Arab Gulf and the Arab World, London, Croom Helm.

Brown, A. 1999 Oil, God, and Gold: The Story of Aramco and the Saudi Kings Boston, Houghton Mifflin.

Buchan,J .1982 ‘Secular and Religious Opposition in Saudi Arabia’, in Niblock (ed).

Bulloch, J. 1992 Reforms of the Saudi Arabian Constitution, London, Gulf Centre for Strategic Studies.

Cannadine, K. and S. Price 1987 Rituals of Royalty: Power and Ceremonial in traditional Society, Cambridge, Cambridge University Press.

Carr,E .1961What is History ? London,Penguin.

Chaudhry, D. 1997 The Price of Wealth: Economies and Institutions in the Middle East, Ithaca, Cornell University Press.

Cook, M. 1988 ‘The Expansion of the First Saudi State: The Case of Washm’, in C. Bosworth, C. Issawi, R. Savory and A. Udovitch (eds), The Islamic World: From Classical to Modern Times, Princeton, Darwin Press.

Corancez, L. 1995The History of the Wahhabis from their Origin until the End of 1809 trans. E. Tabet, Reading: \Garnet.

Cordesman, A. 1984 The Gulf and the Search for Strategic Stability: Saudi Arabia, the Military Balance in the Gulf, and Trends in the Arab-Israeli Military Balance, Boulder, Westview.

1997Saudi Arabia : Guarding the Desert Kingdom,Boulder ,Westview .

Crawford, M. 1982 ‘Civil War, Foreign Intervention, and the Quest for Political Legitimacy: A Nineteenth-century Saudi Qadi’s Dilemma’, International Journal of Middle East Studies, 14 227 48

de Gaury,G .1951Rulers of Mecca ,London ,George Harrap & Co

Dekmejian,H . 1994 ، The Rise of Political Islam in Saudi Arabia', Middle East Journal, 48/4: 627 43

1995 Islam in Revolution: Fundamentalism in the Arab World, New York, Syracuse University Press.

Detalle, R. (ed.) 2000 Tensions in Arabia: The Saudi-Yemeni Fault Line, Baden Baden, Nomos Verlagsgesellschaft.

Dickson,H .1949The Arab of the Desert ,London ,Allen & Unwin.

1956Kuwait and her Neighbours ,London ,Allen & Unwin.

Doughty, C. 1979 Travels in Arabia Deserta, 2 Vols, Cambridge, Cambridge University Press.

Doumato, E. 1992 ،Gender, Monarchy and National Identity in Saudi Arabia', British Journal of Middle Eastern Studies,19/1 : 31 47

2000 Getting God's Ear: Women, Islam and Healing in Saudi Arabia and the Gulf. New York, Columbia University Press.

Dresch,P .2000A History of Mod ern Yemen, Cambridge, Cambridge University Press.

Duguid, S. 1970 ،A Biographical Approach to the Study of Social Change in the Middle East: Abdullah Tariki as a New Man', International Journal of Middle East Studies, 1/1: 195 220

Dunn, M.1995 ،Is the Sky Falling? Saudi Arabia's Economic Problems and Political Stability',Middle East Policy ,3/4 : 29 39

Ende, W.1997 ،The Nakhawila: A Shi،ite Community in Medina, Past and Present', Die Welt des Islams,37/3 : 264 348

Esposito, J. 1990 The Iranian Revolution: Its Global Impact, Miami, Florida International University Press.

Fabietti, U1984 Il Popolo del Deserto I Beduini Shammar del Gran Nafud Arabia Saudita, Laterza, Roma- Bari.

Facey,W .1992Riyadh : The Old City,London ,IMMEL Publishing .

1997Dir ،iyyah and the Frist Saudi State, London, Stacey International.

al-Fahad, A. 2001 ،The ،Imama vs. the ،Iqal: Hadari-Bedouin Conflict and the Formation of the Sa،udi State', paper Presented at the Second Mediterranean Social and Political Research Meeting, March 2001European University Institute ,Florence .

Fandy, M1998 ،Safar al-Hawali: Sa،udi Islamist of Sa،udi Nationalist?', Islam and Christian-Muslim Relations,9/1 : 5-21

1999Saudi Arabia and the Politics of Dissent ,Basingstoke ,Macmillan .

al –Faqih, S. n.d.a Kayfa ufakir al-sa، ud: dirasa nafsiyya (How the Al Sa، udi think: a Psychological study), London, Movement for Islamic Reform in Arabia.

Fattah, H. 1997 The Politics of Regional Trade in Iraq, Arabia and the Gulf, 1745 1900 Albany, State University of New York Press.

Fernea, R. 1987 ، Technological Innovation and Class Development among the Bedouin of Hail', in B. Cannon (ed.), Terroirs et societes au Maghreb et Moyen-Orient, Paris, Maison de l'Orient.

Field, M. 1984 The Merchants: Big Business Families of Saudi Arabia and the Gulf States, New York, Overlook Press.

Firman Fund 1999 ، Saudi Arabia Economic Trends and outlook', http:// tradepotr. Org/ts/countries/saudiarabia/trends.html.

Fraser, C. 1997 ، In Defense of Allah's Realm: Religion and Statecraft in Saudi Foreign Policy Strategy', in S. Rudolf and J.Piscatori (eds.), Transnational Religion and Fading State, Boulder, Westview.

Friedman,N .1991,Desert Victory : The War of Kuwait,Annapolis : Naval Institute Press.

Gause, F.G. III 1990 Sadi -Yemeni Relations: Domestic Structures and Foreign Influence, New York, Columbia University Press.

1994 Oil Monarchies: Domestic and Security Challenges in the Arab Gulf States, New York, Council on Foreign Relations.

2000 , The Persistence of Monarchy in the Arabian Peninsula: A Comparative Analysis, in Kostiner (ed).

2000, ، Saudi Arabia over a Barrel',Foreign Affairs ,79/3 : 80 94

Glubb,J .1960,War in the Desert ,London ,Hodder & Stoughton.

Goldberg, J. 1986 ، The Shi، i Minority in Saudi Arabia', in J. Cole and N. Keddie (eds.), Shi، ism and Social Protest, New York, Yale University Press.

Golub, D. 1985 When Oil and Politics Mix: Saudi Oil Policy, 1973 1985 Harvard, Harvard Middle East Pepers 4.

Grayson,B .1982,Saudi -American Relations, Washington, University Press of Amercia.

Habib, J. 1978 Ibn Saud، s Warrriors of Islal: The Ikhwan of Najd and their Role in the Creation of the Saudi Kingdom,1910 1930,Leiden ,Brill .

Halliday, F. 1982 ، A Curious and Close Liasion: Saudi Arabia's Relations with the United States', in Niblock (ed.).

Hameed, M. 1986 Saudi Arabia, the West and the Security of the Gulf, London: Croom Helm.

Heller, M. and N. Safran 1985 The New Middle Class and Regime Stability in Saudi Arabia, Harvard, Harvard Middle East Papers 3.

Helms,C .1981 The Cohesion of Saudi Arabia ,London ,Croom Helm

Henderson, S. 1994 After King Fahd: Succession in Saudi Arabia, Washington, Washington Institute for Near East Policy,Washington Institute Police Papers 37

Herb, M. 1999 All in the Family: Absolutism, Revolution and Democracy in the Middle East Monarchies, Albany: State University of New York Press.

Hogarth, D. 1904 The Penetration of Arabia, London, Lawrence & Bullen 1917 Hejaz before World War I: A Handbook, Cambridge, Oleander Press, 1922 Arabia, Oxford, Clarendon Press.

Holden,D .and J Johns 1981 The House of Saudi ,London ,Sidgwick .

Howarth, D. 1964 The Desert King: A Life of Ibn Saud, Beirut, Librairie du Liban. Human Rigts Watch 1999 The Internel in the Middle East and North Africa: Free Expression and Censorship, New York.

International Monetary Fund (IMF) 1999 International Statistics Yearbook ,Washington .

Ishow, H. 1997 ‘L’Arabie Saoudite: Les institutions politiques de 1992 Les droits de l’homme et l’etat de droit’, in A.Mahiou (ed.), L’Etat droit dans le monde arabe, Paris, CNRS.

al –Juhany, M. 1983 ‘The History of Najd prior to the Wahhabis: A Study of Social, Political, Economic and Religious Conditions in Najd during three Centuries Preceding the Wahhabi Reform Movement’, Ph. D. thesis, University of Washington.

Kechichian, J. 1986 ‘The Role of the ‘Ulma in the Politics of an Islamic State: The Case of Saudi Arabia’,International Journal of Middle East Studies ,18 53 71

1993 Political Dynamics and Security in the Arabian Peninsula through the 1990 , santa Monica, Rand.

2001 Succession in Saudi Arabia ,New York : Palgrave.

Kishk, M. 1981 Al Sa‘udiyyun wa al-hal al-islami, (The Sa‘udis and the Islamic solution), Massachusetts.

Kostiner, J. 1985 ‘On Instruments and their Designers: The Ikhwan of Najd and the Emergence of the Saudi State’,Middle Eastern Studies ,21 298 323

1987 ‘Shi‘I Unrest in the Gulf’, in M.Kramer (ed.), Shi‘ism, Resistance and Revolution, Colorado, Westview.

1991 ‘Transforming Dualities: Tribe and State Formation in Saudi Arabia’, in P. Khoury and J. Kostiner (eds.), Tribes and State Formation in the Middle East, London, I.B. Tauris.

1993 The Making of Saudi Arabia 1916 1936 Oxford ,Oxford University Press .

Kostiner, J. (ed.) 2000 Middle East Monarchies: The Challenge of Modernity, Boulder, Lynne Rienner.

Lacey,R .1981 The Kingdom ,London ,Hutchinson & Co.

Lackner, H. 1978. A House Built in Sand: A Political Economy of Saudi Arabia, London, Ithaca Press.

Leatherdale, C. 1983. Britain and Saudi Arabia 1925-1939: The Imperial Oasis, London, Frank Cass.

Lees, B. 1978. Who is who in Saudi Arabia, London, Europa.

1980. A Handbook of the Al-Saud, London, Royal Genealogies.

Leverrier, I. 1996. 'L'Arabie Saoudite, le pelerinage et l'Iran', Cahiers d'etudes sur la Mediterranee orientale et le monde turco-iranien, 22: 111-47.

Long, D. 1985. The United States and Saudi Arabia: Ambivalent Allies, Boulder, Westview.

1997. The Kingdom of Saudi Arabia, Gainesville, University of Florida Press.

Lorimer, J. G. 1908. Gazetteer of the Persion Gulf, Oman and Central Arabia, 2 vols., Calcutta, Government Print House.

McDonald, C. 1984. 'Saudi Policy and the Gulf Security', in R.Darius, J.Amos and R.Magnus (eds.), Gulf Security into the 1980s: Perceptual and Strategic Dimensions, Stanford, Hoover Institution Press.

Mcloughlin, L. 1993. Ibn Saud: Founder of a Kingdom. Basingstoke, Macmillan.

Miller, A. 1980. Search for Security: Saudi Arabian Oil and American Foreign Policy 1939-1940, Chapel Hill: University of Nortn Carolina Press.

Monroe, E. 1974. Philby of Arabia, London, Faber & Faber.

Mortel, R. 1991. 'The Origins and Early History of the Husaynid Amirate of Madina to the End of the Ayyubid Period', Studia Islamica, 74: 63-77.

1994. 'The Husaynid Amirate of Madina during the Mamluk Period', Studia Islamica, 80: 97-119.

Mosa, A. 2000. 'Pressures in Saudi Arabia', International Higher Education, 20: 23-5.

Musil, A. 1928. Northern Negd, New York: American Geographical Society.

Niblock, T. 1982a (ed.), State, Society and Economy in Saudi Arabia, London, Croom Helm.

1982b, 'Social Structure and the Development of the Saudi Arabian Political System', in Niblock (ed.).

Ochsenwald, W. 1984. Religion, Society and the State in Arabia: The Hijaz under Ottoman Control 1840-1908, Columbus, Ohio State University Press.

Okruhlik, G. and P.Conge 1997. 'National Autonomy, Labor Migration and Political Crisis: Yemen and Saudi Arabia', Middle East Jurnal, 51/4: 554-65.

Peck, M. 1980. 'The Saudi-American Relationship and King Faisal', in W. Beling (ed.), King Faisal and the Modernisation of Saudi Arabia London, Croom Helm.

Pershit, A. 1979 ،Tribute Relations', in S.Seaton and H.Claessen (eds.), Political Anthropology: The State of Art, The Hague, Mouton.

Peters, F. 1994 Mecca: A Literary History of the Muslim Holy Land, Princetion, Princeton University Press.

Peterson, E. 1988 The Gulf Cooperation Council: Search for Unity in a Dynamic Region, Boulder, Westview.

Peterson,J . 1976 ،Britain and ،،The Oman War'': An Arabian Entanglement', Asian Affairs, 63/3: 285 98

1993 Historical Dictionary of Saudi Arabia ,Metuchen ,Scarecrow Press .

Philby,H .St J .B.1952 Arabian Jubilee ,London ,Hale .

1955 Saudi Arabia ,London ,Benn .

Piscatori, J. 1983 ،Islamic Values and National Interest: The Foreign Policy of Saudi Arabia', in A.Daweesha (ed.), Islam in Foreign Policy, Cambridge, Cambridge University Press.

Quandt, W. 1981 Saudi in the 1980 : Foreign Policy, Security, and Oil, Washington, Brooking Institution.

Al-Rasheed, Madawi, 1996 , ،Saudi Arabia's Islamic Opposition', Current History, 95/597: 16 22

1996, ،God the King and the Nation: Political Rhetoric in Saudi Arabia in the 1990' , Middle East Journal,50/3 : 359 71

1997 ،La Couronne et la turban: l'etat saoudien a la recherche d'une nouvelle legitimite', in B, Kudmani-Darwish and M.Chartouni-Dubarry (eds.), Les Etats arabes face a al contestation islamiste, Paris, Armand Colin.

1998 ،The Shi،a of Saudi Arabia: A Minority in Search of Cultural Authenticity', British Journal of Middle Eastern Studies,25/1 : 121 38

1999 ،Evading State Control: Political Protest and Technology on Saudi Arabia', in A.Cheater (ed.), The Anthropology of Power, London, Routledge.

1999, ،Political Legitimacy and the Production of History: The Case of Saudi Arabia', In L.Martin (ed.), New Frontiers in Middle East Security, New York: St, Martin's Press.

Al-Rasheed, M. and L.Al-Rasheed 1996 ،The Politics of Encapsulation: Saudi Policy towards Tribal and Religious Opposition', Middle Eastern Studies,32/1 : 96 119

al-Rashid, I. 1985 The Struggle between the Two Princes: The Kingdom of Saudi Arabia in the Final Days of Ibn Saud, Salisbury, NC, Documentary Publications.

Rentz, G. 1948 ،Muhammad ibn ،Abd Al-Wahhab (1703/04-1792 and the Beginning of the Unitarian Empire in Arabia', Ph.D. thesis, University of California, Berkeley.

Pihani,A .1928, Ibn Saud of Arabia ,London ,Constable& Co.Ltd .

Rosenfeld, H. 1965, ‘The Social Composition of the Military in the Process of State Formation in the Arabian Desert’, Journal of the Royal Anthropological Intitute, 95: 75–86, 174–94.

Safran, N. 1985, Saudi Arabia: The Ceaseless Quest for Security, Cambridge, MA, Harvard University Press.

Salame, G. 1993, ‘Political Power and the Saudi State’, in A.Hourani, P.Khoury and M.Wilson (eds.), The Middle East: A Reader, London, I.B. Tauris.

al-Salloum,H .1995, Education in Saudi Arabia ,Beltsville : Amana Publications.

Samore, G. 1983, ‘Royal Family in Politics in Saudi Arabia 1953–1982’, Ph.D. thesis, Harvard University.

Seccombe, I. and R.Lawless 1986, ‘Foreign Worker Dependence in the Gulf, and the International Oil Companies: 1910–50’,International Migration Review ,20/3 : 548–74.

Sindi, A. 1980, ‘King Faisal and Pan-Islamism’, in W.Beling (ed.), King Faisal and the Modernisation of Saudi Arabia, London, Croom Helm.

SLuglett, P. and M.Sluglett 1982, ‘The Precavious Monarchy: Britain, Abd al-Aziz ibn Saud and the Establishment of the Kingdom of Hijaz, Najd and its Dependencies, 1925–1932’, in Niblock (ed.).

Al-Sowayyegh, A. 1980, ‘Saudi Oil Policy during King Faisal’s Era’, In W. Beling (ed.), King Faisal and the Modernisation of Saudi Arabia, London, Croom Helm.

Steinberg, G. 2001, ‘The Shiites in the Eastern Province of Saudi Arabia (al-Alasa’), 1913–1953’, in R.Brunner and W.Ende (eds.), The Twelver Shia in Modern Times: Religious Culture and Political History, Leiden, Brill.

Teitelbaum, J. 1998, ‘Sharif Husayn ibn ‘Ali and the Hashemite Vision of the Post-Ottoman Order: From Chieftaincy to Suzerainty’, Middle Eastern Studies,34/ 1: 103–22.

2001, The Rise and Fall of the Hashemite Kingdom of Arabia, New York, New York University Press.

al-Torki, S. 1986, Women in Saudi Arabia: Ideology and Behavior among Elite Women, New York, Columbia University Press.

al-Torki, S. and D. Colo 1989, Arabian Oasis City: The Transformation of ‘Unayzah, Austin, University of Texas Press.

Tripp,C .2000, A History of Iraq ,Cambridge ,Cambrige University Press .

Troeller, G. 1976, The Birth of Saudi Arabia: Britain and the Rise of the House of Sa‘ud, London, Frank Cass.

Twitchell,K .1958 Saudi Arabia ,3rd edn, Princeton, Princeton University Press.

al-ʿUthaymin, A. 1981 Nash'at imarat al- rashid (The rise of the Rashidi emirate), Riyadh, Riyadh University.

Van der meulen,D .1957 The We lls of Ibn Saud, London, John Murray.

Vassiliev,A .1998 The History of Saudi Arabia ,London ,Saqi Books .

Vitalis, R. 1997 ʿThe Closing of the Arabian Oil Frontier and the Future of Saudi-American Relations',Middle East Report ,204 15 21

1998 ʿAramco World: Business and Culture on the Arabian Oil Frontier', in K. Merrill (ed.), The Modern Worlds of Business and Industry, Princeton, Princeton University Press.

1999 review of Chaudhry, The Price of Wealth, in the International Journal of Middle East Stdies,31/4 : 659 61

Wahba,H .1964 Arabian Days ,London ,Arthur Barker Ltd .

Wallin, G. 1854 ʿNarrative of a Journey from Cairo, to Medina and Mecca, by Suez, Araba, Tawila, al-Jauf, Jublae, Hail and Negd in 1845 , Journal of the Royal Geographical Society, 24 115 201

Wilkinson, J. 1987 The Imamate Tradition of Oman, Cambridge, Cambridge University Press.

Wilson,P .and D .Graham 1994 Saudi Arabia : The Coming Storm,New York : M.E .Sharpe .

Winder,R .1965 Saudi Arabia in the Nineteenth Century ,New Yo rk: St. Martin's Press.

Yamani, M. 1997 ʿEvading the Habits of a Life Time: The Adaptation of Hejazi Dress to the New Social Order', in N.Lindisfarne-Tapper and B.Ingham (eds.), Languages of Dress in the Middle East, London, Curzon.

1998 ʿCross-Cultural Marriages within Islam: Ideals and Realities', in R. Berger and R.Hill (eds.), Cross-Cultural Marriage, Oxford, Berg.

2000 Changed Identites: The Challenge of the New Generation in Saudi Arabia, London, Royal Institute of International Affairs.

al-Yassini,A .1985 Religion and State in the kingdom of Saudi Arabia ,Boulder ,Westview .

Yizraeli, S. 1997 The Remaking of Saudi Arabia, Tel Aviv: Moshe Dayan Centre for Middle East and African Studies.

الفهارس

فهرس الأعلام

ـ أ ـ

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ث ـ

ـ ج ـ

ـ ح ـ

ـ خ ـ

ـ د ـ

ـ ذ ـ

ـ ر ـ

— ز —

— س —

ـ ش ـ

ـ ص ـ

ـ ط ـ

ـ ع ـ

- غ -

- ف -

ـ ق ـ

ـ ك ـ

ـ ل ـ

— م —

— ي —

فهرس الأماكن والقبائل

ـ أ ـ

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ث ـ

ـ ج ـ

– ح –

ـ خ ـ

ـ د ـ

ـ ر ـ

ـ ز ـ

ـ س ـ

ـ ش ـ

ـ ص ـ

ـ ض ـ

ـ ط ـ

ـ ظ ـ

— ل —

— م —

— و —

— ي —

فهرس المعاهدات والمؤتمرات

فهرس المحتويات

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

المـلاحق

بيلوغرافيا

الفهارس